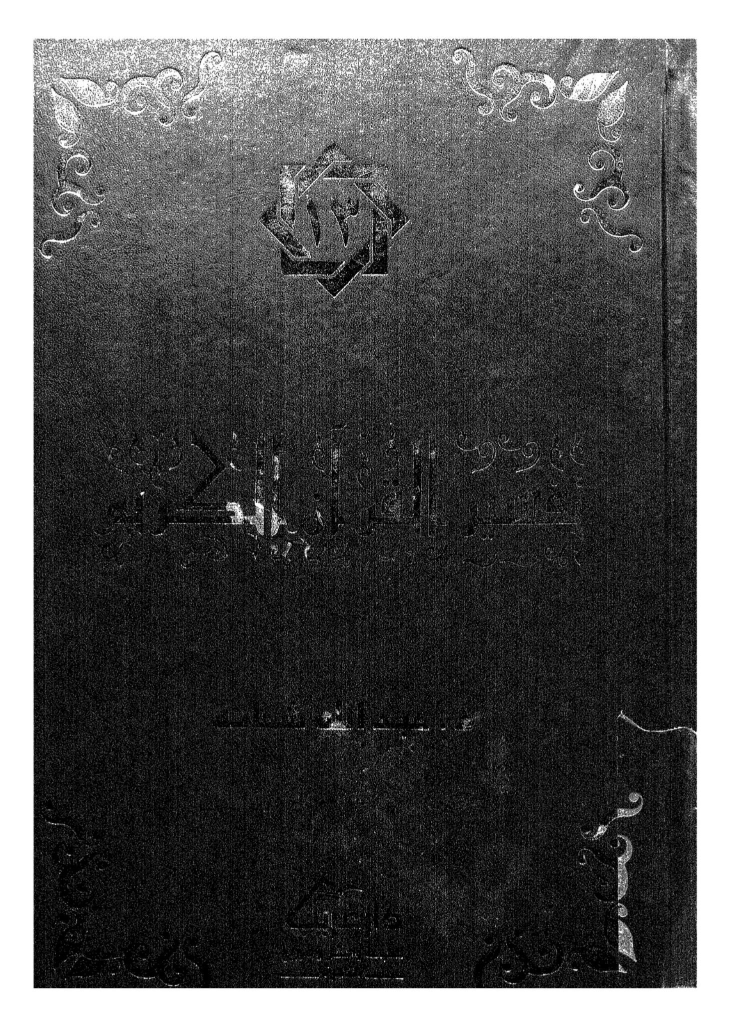

١٣
تفسير القرآن الكريم

إهـــــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور
عبد الله شحاته



سعة علم الله ، وختام سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

أكمامها : جمع كِم – بكسر الكاف – وهو الوعاء الذى تكون الثمرة بداخله .

آذناك : أعلمناك وأسمعناك .

ما منّا من شهيد : ليس منا من يشهد بأن لك شريكا .

ظنوا : أيقنوا .

محيص : مهرب .

لا يسأم : لا يملّ .

الخير : النعيم ، كالمال والصحة والولد .

الشر : كل ضيق ، كالفقر والمرض وعدم الإنجاب .

اليأس : فقد الرجاء فى الظفر بالشىء .

القنوط : يأس مفرط يظهر أثره على المرء ، فينكسر ويتضاءل .

الحسنى : الجنة .

عذاب غليظ : بالغ الغاية فى الشدة والإحاطة بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ونأى بجانبه : تباعد عن دعاء الله وذكره ، كناية عن الانحراف والتكبر والصلف .

ذو دعاء عريض : كثير مستمر ، مستعار مما له عَرْض متسع ، إشارة إلى كثرته .

شقاق بعيد : خلاف بعيد عن الحق كل البعد .

الآفاق : النواحى عمومًا من مشارق الأرض ومغاربها ، وشمالها وجنوبها .

على كل شىء شهيد : هو شاهد سبحانه ومطلع على أعمالهم ، وفى شهادته ما يغنيك عن كل شىء سواه .

مرية : شك وريبة من القيامة والبعث .

بكل شىء محيط : إحاطة تامة ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

التفسير :

٤٧ - إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ .

أخفى الله عِلم يوم القيامة عن خلقه ، وقال تعالى : إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه : ١٥) .

وقال سبحانه : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا . (النازعات : ٤٢ - ٤٦) .

والآية فى مجملها تشير إلى علم الله الواسع الممتد ، الذى يحيط علمًا بكلّ شىء ، فهو سبحانه العليم بوقت مجىء القيامة ، وعلمه ممتد شامل لجميع الثمرات داخل أوعيتها ، وعلمه ممتد شامل لكل أنثى يستقر فى بطنها حمل ، ولكل والدة تضع ولدها ، إن هذا العلم الشامل المحيط الكبير الممتد الذى يحيط بالدنيا

والآخرة ، والمبدأ والميعاد ، والحاضر والغائب ، والخفيّ والظاهر ، والغيب والشهادة ، كل ذلك خاص بالله وحده مشتمل على معرفة ما يأتي :

١ – وقت مجيء يوم القيامة .

٢ – معرفة الثمار المختبئة في أوعيتها قبل أن تنشق عنها .

٣ – حمل كل أنثى ، ومعرفة كل جنين ومستقبله .

٤ – ولادة كل والدة .

فهو المحيط بما خفي من شئون الدنيا والآخرة ، لأنه سبحانه أحاط بكل شيء علمًا ، وفي يوم القيامة يُنادِي المشركين ويسألهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الشركاء الذين عبدتموهم من دوني ؟ أين صولتهم ودولتهم وملكهم في يوم لا مالك فيه إلا الله ؟

فيقول الكفار : أعلمناك وأخبرناك ، وشهدنا شهادة جهيرة عالية الصوت ، ليس منا من أحد يشهد بأن لك شريكًا ، لقد أيقن الجميع بالحق ، وشهدوا لله بالوحدانية ، وأيقنوا بأن الملك لله وحده ، وليس بينهم من أحد يشهد بأن لله سبحانه شريكًا أو نظيرًا أو مثيلاً .

قال المفسرون :

لما عاينوا القيامة تبرأوا من الأصنام ، وتبرأت الأصنام منهم ، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم في وقت لا ينفع فيه إيمان .

٤٨ – وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ .

لم يجد المشركون أثرًا ولا نفعًا ولا وجودًا نافعًا للأصنام والأوثان التي عبدوها في دنياهم ، وظنوا أنها تقرِّبهم إلى الله ، لقد غاب عنهم نفع الأصنام ، وتيقنوا ألا نفع لها ، كما أيقنوا أنهم داخلون في عذاب جهنم ، وليس لهم ملجأ ولا مهرب من عذاب الله ونكاله .

٤٩ – لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ .

الكافر يرى أن الدنيا كل همه ، فهو حريص جدًا على الخير ، بمعنى المال والجاه والسلطة ، وكل ما يتصل بذلك من ألوان النعيم التي يحرص عليها ، ولا يمل من طلبها ، وإذا أظلمت الدنيا وقلّ المال أو الجاه ، أو أصابه المرض أو الشر أو العسر ؛ أصابه اليأس والقنوط والانكسار ، وظهر ذلك في وجهه لأنه لا يعرف معنى اليقين والأمل في الله ، والصبر على البلاء ، والرضا بأحكام القضاء .

قال المفسرون :

نزلت هذه الآية فى الوليد بن المغيرة ، وقيل : فى عتبة بن ربيعة ، وعموما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٥٠ - وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

إذا جاءت للإنسان النعمة والمال والجاه ، وغير ذلك من آثار رحمة الله ، بأن فرَّج الله عنه الضُّرّ أو الفقر أو المرض ، وكساه ثوب الغنى أو العافية ؛ لم يشكر صاحب الرحمة والفضل ، بل نسب النعمة إلى نفسه ، أى أنه خبير بأسباب النعمة ، جدير بأن تأتى إليه ، كما قال قارون : إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ... (القصص : ٧٨) .

فهذا الإنسان الكافر الجاحد يرى أن النعمة من كدّه ، ومن عمل يمينه ، ثم ينكر البعث والحشر والجزاء والعقاب فى الآخرة ، فيقول :

وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ...

لا أعتقد بمجىء القيامة ، وإنما هى أرحام تدفع وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وليس هناك حساب ولا جزاء، ولا حياة سوى الحياة الدنيا، ولو سلَّمنا جدلا أن القيامة ستقوم – كما يذكر أتباع محمد – فسأكون فى الآخرة أحسن حظًا ، وأفضل حالاً لاستحقاقى للخير فى الدنيا وفى الآخرة ، فإذا بُعثت فى الآخرة فسيكون مآلى الجنة ونعيمها .

فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ...

فوالله لنخبرنهم بحقيقة أعمالهم ، ولنخبرنهم بجحودهم وكنودهم وكفرهم ، واستحقاقهم للعذاب والعقاب .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

ولنحرقنهم بنار جهنم فى عذاب غليظ لا يمكنهم تركه ولا الفكاك منه ، لإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

٥١ - وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ .

من طبيعة الإنسان أنه إذا كثرت عليه النعمة والرخاء ، والمال والجاه والسلطان ؛ استمتع بالنعمة ، وأغراه الجاه والسلطان ، واستغنى عن دعاء الله والتضرع إليه ، وأعرض عن الله مسرفًا على نفسه بالمعاصى .

قال تعالى : كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ . (العلق : ٦ ، ٧) .

وإذا تغير الحال وافتقر بعد الغنى ، أو مرض بعد الصحة ، أو ذلّ بعد الرفعة ؛ اجتهد فى الدعاء ، وأكثر من الرجاء ، فلا يعرف الله فى حال النعمة بالشكر والحمد ، بل يقابل النعمة بالإعراض عن الله ، والانحراف عن الجادة ، فإذا أصابه الشرّ والفقر والمرض والذلّ ؛ عرف باب الله فى دعاء عريض كثير .

قال الرازى فى تفسيره الكبير :

استعير العرض لكثرة الدعاء ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

ملحوظة :

فى الآية ٤٩ من سورة فصلت :

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ .

وفى الآية ٥١ من نفس السورة :

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ .

ولا منافاة بين قوله تعالى : فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ .

وبين قوله تعالى : فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ .

مع أن كلا القولين عند مس الشرّ ، لأن الأول فى قوم ، والثانى فى قوم آخرين ، أو يئوس قنوط بالقلب ، وذو دعاء عريض باللسان ، إن حالة الكافر أو العاصى تتلخص فى حب المال ، واليأس والقنوط من ذهاب النعمة، ولذلك فهو يتشبث بالدعاء العريض الكثير لتردّ عليه النعمة، أما المؤمن فعنده يقين بالله، إذا جاءت النعمة شكر الله وأنفق النعمة فى وجوه الخير ، وإذا جاءت الشدة صبر واحتسب ثوابه عند الله .

قال رسول الله ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته نعماء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له» [1] .

٥٢ – قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ .

أى . أخبرونى يا معشر كفار مكة ، إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على صدقه ونقائه وبيانه ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله ، واشتماله على أخبار السابقين ، وتشريع المؤمنين ، وحِجاج الكافرين ، وتقديم الأدلة المتعددة على وحدانية الله وصدق المرسلين ، أى كيف يكون حالكم إذا كفرتم بكتاب الله شقاقًا وبعدًا ، وكبرًا وعتوًّا ؟

مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍۢ .

أى : لا أحد أكثر ضلالا منكم أيها الكافرون بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورًا شديدًا ، ووصف سبحانه وتعالى شقاقهم بالبعد للإشعار بأنهم قد بلغوا فى هذا الضلال مبلغًا كبيرًا، وشوطًا بعيدًا .

قال أبو السعود فى تفسيره :

وضع الموصول : مَنْ أَضَلُّ . موضع الضمير (منكم) شرحًا لحالهم ، وتعليلا لمزيد ضلالهم .

٥٣ - سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

وعد الله تعالى أن يطلع الناس على عجائب الكون فى آفاق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنبات والأشجار ، وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية التى اكتشفها الإنسان ، وسيستمرّ العلم فى هذا الكشف .

وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ...

ما فى بديع صنع الله تعالى ، من خلق الإنسان وتكوينه ، واشتمال هذا المخلوق العجيب على أجهزة مُتَعَددة ، مثل : الجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز اللمفاوى .

قال القرطبى :

المراد : ما فى أنفسهم من لطيف الصنعة ، وبديع الحكمة ، حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك من مكانين ، ومن بديع صنعة الله وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ، ينظر بهما من الأرض إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وفى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة ، من بديع حكمة الله تعالى فيه . ا هـ .

وقيل : المراد بالآية ما أظهره الله على يد رسوله ﷺ وصحابته الكرام ، من النصر والفتح من غزوة بدر الكبرى إلى فتح مكة ، حيث نصر الله دينه وأيَّد رسوله ، ومكّن للإسلام من أهل مكة أنفسهم ، وجاء نصر الله والفتح ، وسيستمر تأييد الله لهذا الدين حتى لا يبقى أهل مدر أو وبر ، أو أهل مدنية أو أهل بادية ، إلا ويسمعون عن هذا الدين وأن الله يعزّ به من يشاء ، ويذل به من يشاء ، فيعز المؤمنين ، ويذلّ الكافرين المكذبين .

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...

حتى يعرفوا جليًا أن هذا الكتاب منزل من عند الله حقًا وصدقًا ، أنزله على محمد ﷺ ، وتكفل الله بحفظ كتابه ، وحفظ رسوله ، وحفظ دينه ، والله تعالى مطلع وشاهد ، يرى من رسوله تبليغ الدعوة ، ومن الكفار الجحود والكنود .

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ .

أى : أيها الرسول حسبك الله ، وكافيك أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، فهو لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وفى الآية توبيخ لهؤلاء الكافرين على تأخر إيمانهم ، أى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك أيها الرسول الكريم شهيد على كل شىء ، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه ؟ بلى إن فى شهادة ربك ، وعلمه بكل شىء ما يغنى عن كل شىء سواه .

قال تعالى : لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . (النساء : ١٦٦) .

٥٤ - أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ .

وتختم السورة بهذا الختام القوى ، الجامع لشبهات الكافرين ، وإحاطة علم الله رب العالمين .

ومعنى الآية :

إن هؤلاء الكافرين فى شك شديد من لقاء ربهم ، حيث إنهم يستبعدون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويرون أن هذه الأجسام تتفتت وتبلى ، ويبعد أن تحيا مرة أخرى .

أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ .

فالله مطلع عليهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، والله يحيط علمه بكل ذرات الأجسام ، وهو قادر على إحيائها مرة أخرى كما أوجدها من العدم .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

وقال تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (الأعراف : ٢٩) .

رأيان لعلماء التوحيد

علماء التوحيد على رأيين :

أحدهما : أن الله يحيى الموتى ، ويبعثهم بعد جمع ما تفرّق من أجزائهم الأصلية .

الثانى : أن الله تعالى يعيد الخلائق بخلق جديد ، لأن أجزاءهم دخلت بعد تحللها فى تكوين خلائق أخرى ، جيلاً بعد جيل .

ويقولون : إن النعيم والعذاب للروح ، أما الجسد فهو وعاؤها ، والكسب إنما هو بها لا بوعائها ، فلولا الروح لما استطاع الجسد أن يعمل شيئًا ، وفى منظومة فنية فى علم التوحيد يقول صاحب الجوهرة :

وقل : يعاد الجسم بالتحقيق عن عدم ، وقيل : عن تفريق

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة فصلت

١ – وصف الكتاب الكريم .

٢ – إعراض المشركين عن تدبّره .

٣ – عقوبة المشركين ، ومثوبة المؤمنين .

٤ – خلق الأرض فى يومين ، وخلق البحار والأنهار والأشجار فى مجموع أربعة أيام ، وخلق السماء فى يومين ، فالمجموع ستة أيام .

٥ – إقامة الأدلة على الوحدانية .

٦ – قصة عاد وثمود ، وتهديد المشركين بمثل ما نزل بهم .

٧ – شهادة الجوارح يوم القيامة على الإنسان .

٨ – ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصدّ عن سبيل الله .

٩ – إعراض الكفار عن سماع القرآن .

١٠– ألوان العذاب الذى يصيب الكافرين يوم القيامة .

١١– ما يلقاه المؤمنون من الكرامة عند خروج أرواحهم .

١٢– فن الدعوة إلى الله .

١٣– مقابلة الإساءة بالإحسان .

١٤– دلائل الإيمان فى نزول المطر ، وحياة الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة .

١٥– عربية القرآن ، بسبب عربية المرسل إليهم .

١٦– علم الساعة عند الله .

١٧– من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء ، والتضرُّع عند البأساء .

١٨– آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته .

١٩– شك المشركين فى البعث والنشور ، ثم الردّ عليهم .

★ ★ ★



تفسير سورة الشورى

أهـــداف ســـورة الشـــورى

سورة الشورى مكية ، نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٣ آية ، نزلت بعد سورة فصلت .

ولها اسمان : (عسق) لافتتاحها بها ، وسورة (الشورى) لقوله سبحانه : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ (الشورى : ٣٨).

روح السورة

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السورة المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحى والرسالة ، حتى ليصح أن يقال إن هذه الحقيقة هى المحور الرئيسى الذى ترتبط به السورة كلها ، وتأتى سائر الموضوعات فيها تبعًا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع فى الحديث عن حقيقة الوحدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ، ويأتى ذكر الآخرة ومشاهدها فى مواضع متعددة منها ، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التى يمتازون بها ، كما تلم بقضية الرزق ، بسطه وقبضه ، وصفة الإنسان فى السراء والضراء ، ولكن حقيقة الوحى والرسالة وما يتصل بهما ، تظل – مع ذلك – هى الحقيقة البارزة فى محيط السورة ، والتى تطبعها وتظللها ، وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة فى عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة ، «فهى تعرض من جوانب متعددة ، يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق ، أو وحدانية الرازق ، أو وحدانية المتصرف فى القلوب ، أو وحدانية المتصرف فى المصير .. ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحى والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى – سبحانه – ووحدة الوحى ، ووحدة العقيدة ، ووحدة المنهج والطريق ، وأخيرًا وحدة القيادة البشرية فى ظل العقيدة .

ومن ثم يرتسم فى النفس خط الوحدانية بارزًا واضحًا ، بشتى معانيه ، وشتى إيحاءاته من وراء موضوعات السورة جميعًا»[٢] .

موضوع السورة

يمكن أن نقسم سورة الشورى إلى فصلين رئيسيين :

يتناول الفصل الأول وحدة الأهداف الرئيسية للرسالات السماوية ، ويتناول الفصل الثانى بعض صفات المؤمنين ودلائل الإيمان .

الفصل الأول : وحدة أهداف الرسالات

يتناول النصف الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٤) ، ويبدأ عن الوحى ، ثم يعالج قضية الوحى منذ النبوات الأولى ، ليقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، وليعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد ﷺ ، وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة .

وتشير السورة إلى هذه الوحدة فى مطلعها : كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ .
(الشورى : ٣)

لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل : وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ...
(الشورى : ٧)

لتقرر مركز القيادة الجديدة ، فقد اختار الله بلاد العرب لتكون مقر الرسالة الأخيرة التى جاءت للبشرية جميعًا ، والتى تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة عند مولد الرسالة الأخيرة تكاد تتقاسمها إمبراطوريات أربع، هى : الرومانية، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وفى هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها ، مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد ، وجاهلية عمياء فى كل مكان من المعمورة ، جاء ليهيمن على حياة البشرية ، ويقودها فى الطريق إلى الله على هدى ونور .

ولم يكن هنالك بد من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرة ، لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية وأم القرى وما حولها بالذات هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية .

لم تكن فى بلاد العرب حكومات منظمة ، ولا ديانة ثابتة واضحة المعالم ، وكانت خلخلة النظام السياسى للجزيرة ، إلى جانب خلخلة النظام الدينى ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، ليكون متحررًا من كل سلطان عليه فى نشأته .

وهكذا جاء القرآن عربيًّا لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، حملت الراية وشرَّقت بها وغرَّبت ، وقدمت الرسالة للبشرية جميعها ، وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ، وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة : ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وفى آية مشهورة من سورة الشورى تطالعنا وحدة الرسالات جميعًا ، ووحدة الرسل ، ووحدة الدين ، ووحدة الهدف للجميع ، وهو توحيد الله ، وتدعيم القيم والأخلاق ، ومحاربة الرذائل والانحراف .

قال تعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .

(الشورى : ١٣) .

وتقرر الآيات بعد ذلك أن التفرق قد وقع مخالفًا لهذه الوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم ، وقع بغيًا وحسدًا : وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ... (الشورى : ١٤) .

وتصف أتباع الأديان وحملة الكتب السماوية بأنهم فى حيرة وشك لاضطراب أحوال الديانات ، وخروجها عن الهدف الذى جاءت له : وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ . (الشورى : ١٤) .

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم ، ومن ثم يعلن القرآن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها ﷺ لهذه القيادة : فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ . (الشورى : ١٥) .

الفصل الثانى : صفات الجماعة المسلمة

يشتمل النصف الثانى من السورة على الآيات من (٢٥ – ٥٣) ، ويتحدث عن صفات الجماعة المسلمة، التى انتدبها الله لحمل هذه الرسالة ، ويبدأ هذا الفصل باستعراض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه ، وفى

تنزيل الغيث برحمته ، وفى خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام ، ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم ، ومع أن سورة الشورى مكية، نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، إلا أنها تذكر أن الشورى من صفات المؤمنين ، فتقول : وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... (الشورى : ٣٨) .

مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق فى حياة المسلمين من مجرد أن يكون نظامًا سياسيًّا للدولة ، فهو طابع أساسى للجماعة كلها ، يقوم على أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها ممثلة للجماعة .

والتأمل فى صفات المؤمنين يوحى بأن الإسلام دين القيم ، دين يهتم بالجوهر لا بالعرض ، وبتكوين النفس البشرية لا بالقيم الزائلة .

فما هى قيم الجماعة المؤمنة ؟

إنها الإيمان والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغى ، والعفو ، والإصلاح، والصبر .

وبهذه القيم تحول العرب من أشتات مختلفين إلى أمة متماسكة متراحمة ، مؤمنة بالله ، مستقيمة على هدى الله وتعاليمه ، فوطأ الله لهم أكناف الأرض ، وصاروا خير أمة أخرجت للناس .

وبعد تقرير صفة المؤمنين وما ينتظرهم من عون وإنعام ، تعرض الآيات فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران فى يوم القيامة : يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ... (الشورى : ٤٤ ، ٤٥) .

وفى ظل هذا المشهد نجد القرآن يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ... (الشورى : ٤٧) .

ويمضى سياق السورة حتى ختامها ، يدور حول محور الوحى والرسالة ، وأثرهما فى صفات المؤمنين ، مع بعض الاستطراد إلى وصف الكافرين ، وبيان صفات الله الخالق الوهاب ، القابض الباسط ، قال تعالى : لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . (الشورى : ٤٩ ، ٥٠) .

ويعود السياق فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحى وطريقته ، وهناك ارتباط ظاهر بين الحديث عن الوحى فى القسم الأول من السورة ، وبين الحديث عن صفات المؤمنين ، ودلائل الإيمان فى القسم الثانى منها ، فإن الهداية والإيمان من آثار الوحى وبركات الرسالة ، أى أن القسم الثانى وهو السلوك مترتب على القسم الأول وهو العقيدة والوحى .

★ ★ ★

الوحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

حم عسق : حروف للتنبيه ، أو للتحدى والإعجاز .

يتفطرن : يتشققن من عظمة الله وجلاله ، وقيل : من ادعاء الولد له .

يسبحون : ينزهون الله عما لا يليق .

ويستغفرون لمن فى الأرض : يسألون الله أن يغفر للمقصِّرين فى الأرض من المؤمنين .

بوكيل : بموكل بهم ، أو بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار .

تمهيد :

تتحدث سورة الشورى عن الوحى ، والوحى رسالة الله إلى خلقه ، وهذه الرسالة المحمدية ضاربة فى أصول التاريخ ، فقد أوحى الله إلى محمد وإلى الرسل السابقين ، فالقرآن وحى الله وكلامه حقًّا وصدقًا ، وهو سبحانه له ملك ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله التصرف فيهما إيجادًا وإعدامًا وتكوينًا وإبطالاً ، والسماوات على غلظها تكاد تتشقق فرقًا من هيبته وجلاله ، أو من كثرة الملائكة العابدين الذاكرين ، أو من ادعاء المشركين بأن لله ولدًا ، والملائكة يسبحون الله وينزهونه عن صفات النقص ، ويطلبون المغفرة للمؤمنين أو للناس أجمعين ، أما الذين عبدوا الأوثان والأصنام فحسابهم على الله ، فالله مطلع عليهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ولست مسئولا عن حسابهم ، بل ليس عليك إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب ، فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون .

التفسير :

١ ، ٢ – حمٓ * عٓسٓقٓ .

افتتح الله تعالى بعض السور بحروف مقطعة ، قد تكون مكونة من حرف واحد مثل : نٓ ، صٓ ، قٓ .

وقد تكون مكونة من حرفين مثل : حمٓ ، طه ، يسٓ .

وقد تكون مكونة من ثلاثة أحرف مثل : طسٓمٓ ، ألمٓ .

وقد تكون مكونة من أربعة أحرف مثل : المٓر ، المٓصٓ .

وقد تكون مكونة من خمسة أحرف مثل : حمٓ عٓسٓقٓ . وهو أكثر ما افتتحت به سورة من حروف ، ومثل: كهيعٓصٓ .

وقد قال العلماء :

هى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وقيل : هى أسماء للسور ، وقيل : هى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أنّ القرآن مكون من حروف عربية تنطقون بها مثل : حمٓ * عٓسٓقٓ . وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

٣ – كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ .

مثلما أوحينا إليك فى هذه السورة وغيرها ، أوحينا إلى الذين من قبلك من المرسلين ، مثل نوح وهود وصالح وموسى وعيسى ، فمحمد ليس بدعًا من الرسل ، والوحى إليه أصيل وثابت للرسل السابقين عليه ، فالوحى لغة : الإعلام ، وشرعا : إعلام الله تعالى من يختاره من البشر ، ليبلّغه بالتشريع والأحكام التى يريد الله أن يبلغها لعباده .

فالموحِى هو الله ، والملاك جبريل أمين الوحى ، والوحى هو الرسالة التى ينقلها جبريل عن الله إلى الرسول محمد ﷺ ، وإخوانه السابقين عليه ، ليبلغوها للمرسل إليهم ، والوحى فيه عناية السماء بالأرض ، وتشريف للرسل ، وتشريف لنا نحن المرسل إليهم ، حيث أنزل الله علينا الوحى ، واختار لنا رسولاً مبشرًا ونذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، وجعله الله تعالى خاتم النبيين الذين يوحى إليهم ، فالرسول أعم من النبىّ ، لأن الرسول يوحى إليه بشرع ويكلّف بالتبليغ ، والنبى يوحى إليه بشرع ولا يكلّف بالتبليغ، ومن ثمَّ فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ، فإذا ختم الله النبيين بمحمد ﷺ ، فقد ختم المرسلين أيضًا، فمحمد ﷺ خاتم النبيين ، وهو أيضًا خاتم المرسلين .

وقد قرأ حفص (خاتَم) بفتح التاء ، وقرأ الستة الباقون من القرَّاء (خاتِم) بكسر التاء .

قال تعالى : مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا . (الأحزاب : ٤٠)

فالوحى شرف للبشرية ، وهداية من السماء ، وعناية عُليا من الله بعباده ، حيث يختار بعض خلقه ليحملوا هدى السماء وتشريع الله ، وآداب الوحى ، وأخبار الأمم ، ومعالم القيامة ليوصِّلوا كل ذلك إلى البشر ، حتى تبلغهم الحجة ، ويصل إليهم الدليل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وفى سورة النساء الآيات (١٦٣-١٦٦) يقول تعالى : إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا .

وخلاصة ما تشير إليه الآية الثالثة من سورة الشورى أن الله تعالى ذكر معانى هذه السورة فى القرآن الكريم وفى جميع الكتب السماوية ؛ لما فيها من الإرشاد إلى الحق ، وهو ٱلْعَزِيزُ . الغالب فى انتقامه، ٱلْحَكِيمُ. فى أقواله وأفعاله .

٤ - لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ .

له وحده ما فى السماوات وما فى الأرض ، خلقًا وملكًا وتدبيرًا ، وهو المتفرد بعلو الشأن ، وعظم البرهان والسلطان .

قال تعالى : عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ . (الرعد : ٩) .

وقال سبحانه : وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ . (سبأ : ٢٣) .

فالملك الحقيقى لله وحده ، أما ما يملكه الناس فهو عارية منتقلة ، والله هو المعزُّ المذلّ ، المعطى المانع ، الرافع الخافض ، الباسط القابض ، ومن ثم يجب أن يتجه الناس إليه وحده بالدعاء وطلب العطاء.

٥ - تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

هذه السماوات السبع على عظمها ، وعظم خلقها ، وشموسها وأقمارها ونجومها ، وما فيها من أفلاك وأملاك ، تكاد تتشقق وجلاً وخوفًا من عظمة الله وجلاله ، أو تكاد تتشقق من كثرة الملائكة ، فليس فى السماء موضع قدم إلاّ وفيه ملك راكع أو ساجد يسبّح الله تعالى ، أو تكاد تتشقق من ادعاء الكفار لله ولدًا ، كما ورد فى الآيات (٨٨ - ٩٣) من سورة مريم وفيها يقول سبحانه : وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا .

وخلاصة معنى الآية :

تكاد السماوات - مع عظمهنّ وتماسكهنّ - يتشققن من فوقهنّ ، خشية من الله ، وتأثرًا بعظمته وجلاله ، والملائكة ينزِّهون الله عما لا يليق به ، مثنين عليه بما هو أهله ، ويسألون الله المغفرة لأهل الأرض ، وقد ورد هذا المعنى فى الآية ٧ من سورة غافر ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...

أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

الله سبحانه وحده هو صاحب المغفرة الشاملة ، والرحمة الواسعة .

٦ - وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

هؤلاء الذين عبدوا الأوثان والأحجار والأصنام ، أو الشموس والأقمار ، أو غيرها من سائر الأولياء والشركاء ، هؤلاء العابدون لغير الله هم جميعًا فى قبضة الله ، هو سبحانه يُحْصى أعمالهم ، وهو المتكفل بحسابهم وجزائهم ، أمّا أنت فما أنت إلا نذير ، ليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ .

قال ابن كثير :

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ... يعنى : المشركين .

ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ...

أى : شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدًّا ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء .

وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ .

أى : إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل .

★ ★ ★

القرآن عربى

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

قرآنا عربيا : أنزلناه قرآنًا عربيًّا بلسان قومك .

لتنذر : الإنذار : التخويف .

أم القرى : مكة .

يوم الجمع : يوم القيامة ، سمى بذلك لاجتماع الخلائق فيه ، كما قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ... (التغابن : ٩)

لاريب فيه : لا شك فى قدومه .

الفريق : الجماعة .

السعير : النار الموقدة المستعرة .

تمهيد :

أوحى الله قرآنًا عربيًّا إلى نبىٍّ عربى لأمة عربية ، أى أن القرآن نزل بلسانكم وأنتم تفهمونه ، وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (ابراهيم : ٤) . وفى القرآن ذكر لكم ، وعلوٌ لشأنكم ، فقد بدأ الوحى فى مكة ، وانتشرت الرسالة إلى المدينة ، ثم جاء نصر الله والفتح ، وشرّقت راية الإسلام وغرّبت ، وهذه الرسالة بلاغ للناس بتشريع للدنيا ، وتحذير من الحساب والجزاء ، حيث ينقسم الناس إلى جماعتين متميزتين : جماعة إلى الجنة ، وجماعة إلى النار ، ولقد أراد الله تعالى ألا يكره الناس على طريق واحد ، فأعطاهم العقل والإرادة والاختيار ، فمن اختار الإيمان أدخله فى رحمته وهدايته ، ومن ظلم نفسه واختار الضلال فسيلقى العقاب والجزاء فى الدنيا أو الآخرة ، وحينئذٍ لن يجد نصيرًا ينصره ، ولا معاونًا يأخذ بيده .

التفسير :

٧ - ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾.

ومثل ذلك الوحى البديع المفهم ، أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا قد بلغ الذروة فى الفصاحة والبيان ، لتبلغ رسالة الإسلام إلى مكة أم القرى ، فهى بلد البيت الحرام ، وبلد الحرم الآمن ، وبلد رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام .

وقد قال فيها النبى ﷺ : «والله إنك خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت»[٣] .

﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... ﴾

لتخبر الناس بأمر الآخرة ، واجتماع الأولين والآخرين فى صعيد واحد للحساب والجزاء ، وهذا أمر يقينى لا شك فيه ، حيث ينقسم الناس إلى قسمين : فريق أطاع وآمن وعمل صالحًا ، وكفّ عن المحرمات والمنهيّات ، فهو فى رحمة الله وجنته ، وفريق آثر الكفر والظلم والبعد عن الإيمان ، فاستحق النار التى تتسعر به .

٨ - ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

لو أراد الله أن يختار الناسُ جميعًا الإسلام لهداهم إليه ، ولو أراد أن يختاروا جميعًا الكفر لما أرسل الرسل ، ولما أنزل الكتب ، لكنه إله عادل ، ولا يعذب الناس إلا بعد إعذار وإنذار : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ . (الإسراء : ١٥) .

فلو شاء الله أن يقْسر الناس على الهدى لفعل ، ولو شاء أن يتركهم أمة واحدة لفعل ، لكنه سبحانه حكيم عادل ، خلق آدم وميّزه بالعقل والإرادة، وجعله أهلاً لتحمل المسئولية ، واستخلف بنى آدم فى الأرض، وأعطاهم العقول والإرادة والاختيار ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وقصَّ على البشرية أخبار المكذبين ، وأنعم الله على المؤمنين ، عندئذ من آمن استحق رحمة الله عن جدارة ، ومن كفر استحق العذاب والعقاب، ولن يجد أحدًا ينصره أو يمنعه من عقاب الله تعالى .

في أعقاب التفسير :

المتأمل في حالة الكون قبل الرسالة الإسلامية يجد أن العالم كانت تسيطر عليه إمبراطوريات أربع، هي : الرومانية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وكانت بلاد العرب أفضل مكان لقيام دين جديد ، فليس فيها ملك يوحّد البلاد ، وليس فيها دين له أسس ونظام وهيمنة ، والبلاد تخضع لحكم رؤساء القبائل ، وهناك أديان شتى ومذاهب متعددة ، ولكن بدون قناعة أو يقين .

وقد وقفت مكة موقف المعارضة للدين الإسلامي ، لا عن قناعة بالوثنية أو بعبادة الأصنام ، بل حرصًا على تميُّزها وغناها ، وخوفها من ترك هذا التميُّز .

قال تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ . (الأنعام : ٣٣) .

ولحكمة أرادها الله ، اختار سبحانه بلاد العرب ، فقد كانت بها بقايا من المروءة وحماية الجار والانتصار للقبيلة ، فمكث الإسلام بمكة حينا ، وانتقل للمدينة المنورة ، ثم تتابعت الغزوات من بدر حتى فتحت مكة ، وشمل الإسلام بلاد العرب في حياة الرسول ﷺ ، ثم امتد إلى فارس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وتقدم إلى سائر المعمورة ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وكانت الجزيرة العربية بها أعداد من الشباب والرجال ، يشتاقون إلى فجر جديد ونور جديد ودعوة جديدة ، فدخلوا في الإسلام ، وحملوا رايته ، ورفعوا شأنه ، وكانوا جنودًا مخلصين مؤهلين لتقبل رسالة الإسلام ، والتحرك بها إلى جهات متعددة ، يقدمون حياتهم وأموالهم فداء لهذا الدين ، ومن طبيعة الإسلام أنه دين عالمي ينهى عن العصبية ، ويحبّذ الأخوة الإسلامية ، وحين دخل الفرس وغيرهم في الإسلام اتسع صدر الإسلام لهم ، وتعلموا اللغة العربية ، وبرزوا في العلوم الإسلامية ، فكان منهم الفقهاء والأدباء والمحدِّثون والنحاة والبلغاء والشعراء والكتَّاب .

قال ﷺ : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أمّ ، ولكن العربية اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي»[٤].

★ ★ ★

زمام الملك بيده سبحانه

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

أولياء : أصنامًا وأوثانًا يلون أمورهم .

يحيى الموتى : عند البعث .

وهو على كل شيء قدير : أى : أن غيره من الأولياء لا يقدر على شيء .

وما اختلفتم فيه من شيء : وما خالفكم الكفار والمشركون فى الدين ، أو ما حدث بينكم فيه من خلاف .

وإليه أنيب : وإليه أرجع فى كل ما يعنّ لى من معضلات الأمور .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

يذرؤكم فيه : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث .

ليس كمثله شيء : ليس له مثيل فى ذاته أو صفاته أو أفعاله .

مقاليد السماوات والأرض : مفاتيح خزائنهما ، ومن يملك المفاتيح يملك الخزائن .

التفسير :

٩ - أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تأتى هذه الآية وما بعدها لبيان أن كل شيء بيد الله العلى العظيم .

ومعنى الآية :

مع أن الله هو الخالق الرازق ، فإن الكفار قد اتخذوا من دون الله أصنامًا وأوثانًا يعبدونهم ويوالونهم.

فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ ...

أى : إن أرادوا أولياء بحق فلله الولاية جميعًا ، هو الخالق الرازق ، وهو الذى يحيى الموتى ، وهو سبحانه على كل شىء قدير ، ولا يملك شيئًا من ذلك أى صنم أو وثن ، فيجب أن تكون الولاية والعبادة والتوجّه لله وحده فلا معبود بحق سواه ، ولا إله إلا هو .

١٠ - وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

ما تختلفون فيه من حكم بينكم وبين الكفار أو المشركين ، فالمرجع فيه هو كتاب الله وهدى رسوله ﷺ ، أو ما اختلفتم فيه من شىء بينكم وبين بعضكم ، فارجعوا إلى أمر الله سبحانه .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

هذا هو الله عليه اعتمادى وتوكُّلى ، ورجوعى إليه وحده ، هو الخالق البارئ الحاكم القادر ، إليه أتجه وأتحاكم ، وله وحده طاعتى واعتمادى ، فمن وجد الله وجد كلَّ شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... (النساء : ٥٩) .

١١ - فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

هو سبحانه خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما على غير مثال سابق ، وهو خالق الكون وخالق الإنسان والحيوان ، وقد خلق من كل شىء زوجين ، فخلق حواء من آدم ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، إن هذا التزاوج بين الرجل والمرأة مصدر الرحمة والمودة ، والأنس والسكن والنسل ، وهذا التزاوج بين الحيوانات مصدر التكاثر بينها ، وعمارة الكون ، وقد أراد الله لهذا الإنسان التكاثر ، وللحيوان التكاثر ، والقدرة كلها فى يده ، والملك فى يده ، وليس له مثيل أو نظير ، فهو المالك القادر ، والأوثان والأصنام لا تملك شيئًا ولا تخلق شيئًا ، وهو سبحانه مطلع وشاهد ، سميع بكل شىء ، بصير بكل شىء .

وقريب من ذلك المعنى قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

وقوله تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ... (النحل : ٧٢)

قال ابن كثير :

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ...

يخلقكم فيه ، أى فى ذلك الخلق على هذه الصفة ، لا يزال يذرؤكم فيه ذكورًا وإناثًا ، خلقًا من بعد خلق ، وجيلاً من بعد جيل ، ونسلاً من بعد نسل ، من الناس والأنعام .

وقال البغوى :

يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ...

أى : فى الرحم ، وقيل : فى البطن ، وقيل : فى هذا الوجه من الخلقة .

قال مجاهد :

- نسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ، وقيل : (فى) بمعنى الباء ، أى : يذرؤكم به . اهـ .

أى : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث .

إن الحكمة العليا جعلت التزاوج بين الذكر والأنثى وسيلة لإعمار الكون والحياة والسحاب والأمطار

قال تعالى : وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأنه عن قصة نوح عليه السلام : حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

١٢ - لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

المقاليد جمع مقلاد ، وهو المفتاح ، أى : بيد الله مفاتيح خزائن السماوات والأرض من الرزق والهداية والمعونة .

إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ . (الذاريات : ٥٨) .

وهو يوسع على من يشاء ، ويضيّق على من يشاء حسب علمه وحكمته ، فيجب أن نتجه إليه وحده لا إلى الأوثان أو غيرها .

قال تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ٣٠) .

وقال سبحانه : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ . (الشورى : ٢٧) .

★ ★ ★

وحدة الرسالات

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

شرع لكم من الدين : بيّن لكم من الدين ، وأظهر ، وقضى ، وأوحى لكم يا أمة محمد ﷺ .

وصى : أمر أمرًا لازمًا .

أقيموا الدين : حافظوا عليه ، والمراد بالدين : دين الإسلام ، وهو توحيد الله تعالى وطاعته ، والإيمان برسله واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمنًا ، وقيل : أقيموا الدين ، أي : اجعلوا الدّين قائمًا بالمحافظة عليه وتقويم أركانه .

ولا تتفرقوا فيه : لا تختلفوا فيه .

كَبُر : عظم وشقّ عليهم .

يجتبي : يصطفي .

ينيب : يرجع عن الكفر ، ويختار طريق التوحيد والهداية .

بغيا : ظلمًا وحقدًا وعداوة .

لقضى بينهم : باستئصال المبطلين حين تفرقوا .

مريب : مقلق ، موغل فى الشك .

استقم : اثبت على الدعاء كما أوحى إليك .

أهواءهم : ميولهم الفاسدة .

من كتاب : صدّقت بجميع الكتب المنزلة .

لا حجة بيننا وبينكم : لا محاجة ولا خصومة .

يحاجون : يخاصمون فى دينه .

استجيب له : استجاب الناس للإسلام ودخلوا فيه .

داحضة : زائلة باطلة .

التفسير :

١٣ – شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .

جاءت الأديان كلها من عند الله تدعو إلى الإيمان ، وتحثّ على مكارم الأخلاق ، وتحبِّذ الفضائل ، وتحذر من الرذائل ، وتفيد هذه الآية ما يأتى :

الله الذى أنزل عليك الوحى يا محمد ، ويبيّن لك حقيقة الدّين ، وكما أوحى إليك أوحى إلى نوح ومن جاء بعده من الرسل ، وهو سبحانه الذى أنزل الوحى على إبراهيم وموسى وعيسى ، أى رؤساء الأديان الإلهية الكبرى .

أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ...

أى : اجعلوا الدين قائمًا بالمحافظة على أركانه ، أو آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأقيموا أحكام الدين ولا تختلفوا فيه .

قال القرطبى :

أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ...

المراد : اجعلوا الدين قائمًا مستمرا محفوظًا ، من غير خلاف فيه ، ولا اضطراب فى الأصول التى لا تختلف فيها الشريعة ، وهى : التوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج وغيرها ، فهذا كله مشروع دينًا واحدًا ، وملة متحدة .

كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...

عظم على المشركين وشق عليهم ، دعوتكم لهم إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى ، وفى معنى ذلك قوله تعالى على لسانهم : أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . (ص : ٥) .

ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ .

من أطاع الله واختار شريعته ومنهاجه قرَّبه الحق سبحانه إليه ، وهداه إلى بابه ما دام قد أناب ورجع إلى الله .

وفى معنى ذلك قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

ملحق بتفسير الآية

تفيد هذه الآية تلاقى الديانات فى الأصول العامة ، وهى : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والزنا ، وإيذاء الخلق ، والاعتداء على الحيوانات ، واقتحام الدناءات ، وما ينافى المروءات ، ونحو ذلك من الكمالات ، فهذا كله مشروع دينًا واحدًا ، وملة متحدة ، لم يختلف على ألسنة الأنبياء فى الأصل ولا فى الصورة[٥] .

جاء فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

والذى ينبغى اعتباره – ولا مجال للشك فيه – أن رسالات الأنبياء جميعًا متفقة فى أصول العقائد ومطلق العبادات ، والأمر بإثبات الفضائل واجتناب الرذائل ، وقد تختلف فى الفروع أو فى بعضها تبعًا لتقادم الأزمان ، ولمقتضيات الأطوار وتطور أحوال الإنسان ، كما تختلف فى أسلوب الأداء فى رسالة عن رسالة أخرى[٦] .

١٤ – وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

لم يتفرق المتفرقون فى الدين ولم يختلفوا فيه ، إلا من بعد ما جاءهم العلم من أنبيائهم ومن كتبهم، بالدعوة إلى الوحدة والجماعة ، والتحذير من الفرقة والاختلاف ، ولكن الأتباع خالفوا هذه التوصيات رغبة فى المال والرئاسة ومتع الحياة الدنيا ، فآثروا البغى والحسد والتشرذم والاختلاف والتفرق ، وقد وعد الله

سبحانه بإمهال الناس فترة لعلَّهم أن يتوبوا ويراجعوا أنفسهم ، ولولا رحمته وإمهاله لعاقبهم في الدنيا بما يستحقون .

قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا . (فاطر : ٤٥) .

وقد امتد الخلاف من السابقين إلى اللاحقين .

وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

الذين ورثوا التوراة والإنجيل في عهد محمد ﷺ في شك شديد من كتبهم ؛ لأن فيها تغييرًا وتبديلاً ، أو هم في شك وريْب شديد من القرآن الكريم ، فعواطفهم مع هذا القرآن ، وعقولهم وحرصهم على المراكز ومنازل الدنيا تدعوهم إلى بقائهم في مراكزهم .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقوله سبحانه : وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

يقول الكاتب الأوروبي «ج . هـ . دنيسون» في كتابه (العواطف كأساس للحضارة) :

«ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هارٍ من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثَمَّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى – التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة – مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، أمَّا النظم التي خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلاً من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنَّح وقد تسرَّب إليها العطب حتى اللباب .. وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحَّد العالم جميعه[٧]». يعني محمدًا ﷺ .

١٥ – فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .

قال ابن كثير :

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضًا عشرة فصول كهذه . ا هـ .

لقد بينت الآيات السابقة اختلاف أهل الكتاب وتفرقهم وشكهم المريب فى بقايا الكتب المنزلة .

وتأتى هذه الآية لتوضّح للنبىّ الأمى أن الله قد اختاره على فترة من الرسل ليحمل للبشرية دعوته الجديدة مشتملة على أصول الإيمان والإصلاح واليسر والعدل والإحسان .

فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...

من أجل تفرّق أهل الكتاب أو المشركين أمرناك أن تدعو الناس إلى الديانة الجديدة –وهى الإسلام– مستقيمًا على الجادة كما أمرك الله تعالى .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ...

وهذه الديانة الجديدة تستعلى على أهواء الحاسدين ، إنها تؤمن بالكتب السابقة وبالرسل السابقين، وهذه الديانة الجديدة مهيمنة على الرسالات السابقة ، والقرآن مهيمن على التوراة والإنجيل ، يوضح ما فيهما من حق ، ويرشد إلى الدّخيل عليهما ، ويُلاَحَظ أن السورة مكية ، وهذه الآية تفيد عالمية الدعوة الإسلامية، وهيمنتها وعدالة أحكامها .

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ...

إذا احتكمتم إلىّ فسوف أحكم بالعدل والقسط .

قال تعالى : وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . (المائدة : ٤٢) .

ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ...

الأديان كلها من عند الله ، وهى ناموس من نواميس الحياة ، وكما يخضع الكون والليل والنهار والسماء والأرض والشمس والقمر لأمر الله ، كذلك الأديان السماوية كلها من عند الله : الإبراهيمية ، واليهودية ، والمسيحية ، والإسلام : كلها وكتبها ورسلها وأحكامها نازلة من عند الله تعالى ، ولكل ملة شرعة ومنهاج ، وسيجازى كل فريق بما عمل .

لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ...

فنحن لا نستفيد بحسناتكم ، ولا نتضرر بسيئاتكم ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله .

لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ...

لا محاجة ولا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم ، فقد وضح الصبح لذى عينين ، فليأخذ كل إنسان طريقه وليتحمل تبعة عمله ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح فيه سبيل الرشاد .

ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ .

هناك يوم آخر هو يوم الجمع ، يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويصدر الحكم لكل فريق بما يستحقه ، والمرجع والمصير إلى الله تعالى .

قال سبحانه : قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزمر : ٤٦) .

قال فى حاشية الجمل :

والغرض أن الحق قد ظهر ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، وبعد العناد لا حجة ولا جدل ، والله يفصل بين الخلائق يوم الميعاد ، ويجازى كلاً بعمله . اهـ .

١٦ - وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

سبب النزول :

قال ابن عباس ومجاهد :

نزلت فى طائفة من بنى إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام ، ومحاولة إضلالهم ، فقالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فديننا أفضل من دينكم ، ونحن أولى بالله تعالى منكم .

ومعنى الآية :

ما زال بعض أهل الكتاب أو المشركين يدافعون عن باطلهم ، ويتهمون الإسلام تهمًا باطلة ، ويخيفهم انتشار الإسلام ، واستجابة الناس لدعوته ، فيتمسكون بحجج واهية ، فهم حاقدون حاسدون لما يأتى :

(أ) جادلوا فى دين الله وهو الإسلام بعد أن ظهر نوره ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، واستجابوا لداعية الإسلام .

(ب) حجتهم داحضة وباطلة لوضوح الإسلام ، وعدالة أحكامه ، وسلامة قواعده ، وصدق رسوله .

(جـ) عليهم غضب الله وسخطه ، لعدولهم عن الحق بعد أن عرفوه ، ولهم عذاب شديد فى الآخرة .

★ ★ ★

موقف الناس من القيامة

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

الكتاب : جنس الكتاب ، ويراد به الكتب السماوية كلها ، أو القرآن .

الميزان : العدل ، ويطلق الميزان على العدل لأنه آلته ووسيلته ، قال تعالى : وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ... (الحديد : ٢٥) . أى : الشرائع التى هى وسيلة العدل .

وما يدريك : وأى شيء يجعلك عالما داريا ؟

مشفقون منها : خائفون منها .

يمارون : يجادلون ويشككون .

لطيف : بليغ البر .

حرث : الحرث : كسب المال ، والحرث : البذر يوضع فى الأرض لينبت، ويطلق على الزرع الحاصل منه، وعلى ثمرة الأعمال .

التفسير :

١٧ – ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ .

إن الله تعالى هو الذى أرسل الرسل وأنزل الكتب السابقة : التوراة ، والإنجيل ، وأنزل القرآن الكريم مشتملا على الحق والعدل والتشريع ، وأخبار الأمم السابقة ، وتفصيل أحوال القيامة .

والمراد بالميزان : العدل والإنصاف .

قال المفسرون :

وسمى العدل ميزانا ، لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف ، فهو من تسمية الشىء باسم السبب ، أو باسم آلته ؛ لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس فى معاملاتهم .

قال تعالى : **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ** ... (الحديد : ٢٥).

وقال سبحانه وتعالى : **وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ** . (الرحمن : ٧ - ٩) .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ .

وما يعلمك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب ، فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها ، ويستعد لها، فالموت يأتى بغتة ، ومن مات فقد قامت قيامته .

قال الشاعر :

كل امرئ مصبح فى بيته والموت أدنى من شراك نعله

وقال الشاعر :

لا تغترر بشباب ناعم خضل فكم تقدم قبل الشيب شبان

١٨ - يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ .

كان الكفار يسألون عن الساعة سؤال مستهزئ مكابر ، يتمنى وقوع القيامة ليعرف من هو المصيب، الكافرون أم المؤمنون ، وكان كفار مكة يقولون : ليست القيامة تقوم حتى يظهر حال ما نحن عليه ، وما عليه محمد وأصحابه ، وكان المؤمنون يشفقون من قيام الساعة خوفًا من الحساب واستصغارا لحسناتهم، وإعظامًا لمواقف القيامة من البعث والحشر والصراط والميزان والحساب ، مع يقينهم بأن القيامة حق لا ريب فيها ، ومع تمكن اليقين فى قلوبهم والثقة بفضل الله وعدله .

أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ .

إن الذين ينكرون وقوع القيامة ، ويستبعدون الحياة بعد الموت فى ضلال شديد ، لأن الله هو الذى أوجد الإنسان من العدم ، وهو الذى خلق السماوات والأرض .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم : ٢٧) .

وقال تعالى : أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ . (القيامة : ٣٦ - ٤٠) .

١٩ - ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ .

الله تعالى لطيف بعباده ، بار بهم تمام البر ، مترفق فى رعايتهم وإيصال المصالح إليهم ، حكيم فى عطائه ، كريم فى إيصال نعمائه إلى العباد ، يجرى رزقه على من يشاء بما شاء من أنواع الرزق ، فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وهو القوى الباهر القدرة ، العزيز المنيع الغالب الذى لا يقهر .

قال تعالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (هود : ٦).

٢٠ - مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ.

الهدف متعدد فى أعمال البشر ، فمنهم من يريد بعمله وجه الله ورجاء الثواب فى الدار الآخرة ، وهذا يضاعف الله له ثواب عمله ويكثر نماءه ، ويجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله.

وفى هذا المعنى يقول النبى ﷺ : «إن الصدقة توضع فى يد الله تعالى قبل أن توضع فى يد السائل، فينمِّيها كما ينمى أحدكم فصيله» [٨] .

أى : إن الله يبارك فى ثواب الصدقة ويزيد ثوابها وهذا أشبه بمستثمر يستثمر ماله فى رعاية الغنم والبقر والإبل ، وحين يفطم الرضيع يسمى فصيلاً لأنه فُصِل عن أمه، وصار معتمدا على رعاية صاحب المال.

فالله يبارك فى ثواب الصدقة ويزيدها أضعافا مضاعفة ، كما يزيد ابن الماشية الذى يطعمه صاحب المال ويسقيه ، فيتحول فى المستقبل من فصيل صغير إلى حيوان قوى مكتمل القوة يسر الناظرين .

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ.

ومن كان يعمل للدنيا وحدها وليس له هم فى الآخرة ؛ أعطاه الله من الدنيا الرزق الذى كتبه له فى الأجل ، وليس له حظ من ثواب الآخرة ، ولك أن تتصور فضل الله ولطفه في عطائه ورزقه ، فالهمة العليا

تكون في طلب ثواب الآخرة وجزائها الدائم الموصول ، أما الدنيا فعرض حائل يأكل منها البار والفاجر ولا يصل إلى صاحبها إلا ما قدّر له .

قال تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾

(الإسراء : ١٨ – ٢١)

★ ★ ★

مناقشة المشركين

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾

المفردات :

شركاء : آلهة أو أصنام شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله .

شرعوا : سوّلوا وزينوا .

ما لم يأذن به الله : ما لم يأمر به الله ، كالشرك ونحوه .

كلمة الفصل : حكمنا السابق بتأجيل عذابهم .

لقضى بينهم : بهلاك المشركين .

مشفقين : خائفين خوفا شديدًا من العذاب .

وهو واقع بهم : والعذاب واقع بهم لا محالة .

روضات الجنات : أطيب بقاعها وأعلى منازلها وأنزهها .

إلا المودة فى القربى : لكننى حريص على تبليغ الرسالة لكم لأنكم أهلى وقرابتى ، وآمل فى إيمانكم ، وفى أن تودونى لقرابتى فيكم ، فتكفوا عنى أذاكم ، وتمنعوا عنى أذى غيركم .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى مناقشة المشركين وتبكيتهم على الشرك بأبلغ دليل ، فتبدأ بسؤالهم : هل هناك شياطين أو أصنام شرعوا لكم الشرك بالله ؟ إن التشريع بيد الله وحده ، وهو لم ينزل ولم يشرع لكم الشرك ، فمن أين أتيتم به ؟ ولولا وعد الله بتأجيل العذاب إلى يوم القيامة لقضى بينكم بإنصاف المؤمنين وتعذيب المشركين ، وفى يوم القيامة ترى الظالمين مشفقين خائفين من جزاء أعمالهم وظلمهم ، وسينزل العذاب بهم خافوا أم صبروا .

بينما المؤمنون نازلون فى أعلى منازل الجنة ، ولهم كل ما يطلبونه من عند الله ، وهذا هو الفضل الكبير ، وهذه هى البشرى لهؤلاء المؤمنين ، وأنا لا أطلب منكم أجرًا على تبليغ الرسالة ، لكننى حريص على هدايتكم ، راغب فى تحقيق الإيمان لكم لقرابتى منكم ، فامنعوا عنى أذاكم بسبب هذه القرابة ، أو أكرمونى فى عترتى وأهل بيتى ، أو تقربوا إلى الله بطاعته وعبادته ، والتقرب إليه بالدخول فى دين الإسلام ، ومن فعل حسنة ضاعف الله له الثواب فهو غفور شكور .

التفسير :

٢١ - أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الآية تنهى عن الشرك بأبلغ أسلوب وأعلى بيان ، فالأصل أن الله تعالى لا يُعبد إلا بما شرعه ، وقد أنزل الوحى على رسله بإقامة الدين ، لكن هؤلاء استمروا على الشرك والكفر والظلم ، فهل لهم أصنام وشياطين وأوثان شرعوا لهم الشرك والظلم والسلوك المعوج الذى لم يأذن به الله ولم يأمر به ، ولكنهم اتبعوه سيرا وراء أهوائهم وشياطينهم ؟

وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لولا أن الله تعالى قضى بإمهال عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة ، لفصل بين المؤمنين والكافرين ، بإنصاف المؤمنين وإنزال العذاب بالمشركين ، لكنْ هناك فى الآخرة عذاب أليم ينتظر هؤلاء الظالمين .

٢٢- تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ .

فى يوم القيامة ترى أمرين مختلفين :

(أ) الظالمون خائفون مشفقون من أعمالهم التى عملوها ، إنها غول يطاردهم يوم القيامة ، فطالما استمتعوا بالمعاصى وتلذذوا بالموبقات ، وهى الآن شىء فظيع يطاردهم وهم خائفون من عقاب خطاياهم ، وسيقع العذاب بهم خافوا أم صبروا .

(ب) المؤمنون فى أعلى منازل الجنة وروضاتها يتمتعون بالثمار والأشجار ، وعزف الأوتار ، وضيافة الجبار ، ولهم ما يشاءون عند ربهم ، حيث يكرمهم ويلبى رغباتهم ، وهذا هو الفضل الكبير الذى يكافئ الله به المؤمنين ، حيث يحلّ عليهم رضوان الله فلا يسخط عليهم أبدًا ، وحيث يتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم كما ورد فى صحيح مسلم .

وروى الشيخان ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» [٩] (متفق عليه) .

٢٣- ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

فى الآية السابقة قارن الله بين عقوبة الظالمين وبين الفضل الكبير للصالحين فى روضات الجنات، وهنا يقول : ذلك الفضل الكبير هو الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حيث يعجل لهم البشرى والأخبار السارة بمنازلهم فى الجنة .

ثم يلقن الله تعالى رسوله بأن يتودد إلى قومه من قريش ، حيث لم تكن قبيلة من قبائل قريش إلا وبين النبى ﷺ وبينها نسب وقرابة ، فهو يقول لهم : لا أريد منكم أجرًا على تبليغ الرسالة ، لكننى حريص على إيمانكم بسبب ما بينى وبينكم من قرابة ، فإذا لم تؤمنوا بى كرسول فكفوا أذاكم عنى وحافظوا علىّ حتى أؤدى رسالة الله ، بسبب ما بينى وبينكم من قرابة .

وقد أورد ابن كثير طائفة كبيرة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية ، وذكر عدة آراء ، كذلك ذكر الطبرى وأبو السعود وغيرهما .

وخلاصة هذه الآراء ما يأتي :

(أ) معناها : إلا أن تودّوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم مثل : علي وفاطمة وولديهما .

(ب) لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا إلا التقرب والتودد إلى الله تعالى بالعمل الصالح .

(جـ) الرأي الثالث – وهو الذي رجّحه الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن – وهو أنه ﷺ لا يطلب منهم أجرًا، إنما تدفعه المودة للقربى ، وقد كانت لرسول الله ﷺ قرابة بكل بطن من بطون قريش ، ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التي يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى .

روى البخاري بسنده ، عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ... فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

وعند التأمل نجد أن القرآن لوّن في أساليب الدعوة إلى الهدى ، ومن بينها آصرة الأخوة الإنسانية تارة ، والرغبة في مشاركة الناس في الخير الذي يحمله الرسول في دعوته تارة ، فلا يُستبعد هنا أن يطلب الرسول منهم أن يكفوا أذاهم عنه مراعاة للقرابة ، وأن يسمعوا ويلينوا لما يحمله محمد ﷺ من أسباب الهداية ، فيكون هذا هو الأجر الذي يطلبه منهم لا سواه .

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ ...

ومن يعمل عملا صالحا ، ويتزود بطاعة من الطاعات نضاعف له الثواب ، ونزيد الحسنة إلى عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ومن الحسنات المودة في القربى ، وروى أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه لشدة محبته لأهل البيت .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ... واسع المغفرة عظيم الستر على عيوب عباده .

﴿شَكُورٌ﴾ . عظيم الشكر لمن أطاعه ، حيث يوفّيه حقه من الجزاء العظيم ويضاعف ثوابه ، ألا ما أجلَّ فضل الله ، إنه صاحب النعم وصاحب التوفيق والهداية ، وصاحب المغفرة والشكر ، فياللفضل الذي يعجز الإنسان في متابعته ، فضلا على شكره وتوفيته .

★ ★ ★

قبول التوبة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ﴾

المفردات :

افــــترى : اختلق .

يختم على قلبك : يربط عليه بالصبر ، وقيل : إن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك ، لتجترئ بالافتراء عليه ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم ، وهذه الجملة أبعد فى نفى الافتراء عنه ، لأن من افترى ختم الله على قلبه ، ومحمد ﷺ يتفضل الله عليه بالوحى صباح مساء ، وقيل : يطمس عليه وينسيه فلا يعى .

يمحــــو : يزيل .

ذات الصـدور : حقائقها ودخائلها ، فالله سبحانه مطلع على الخفايا ، لا يخفى عليه شىء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه .

التــوبــة : الرجوع عن المعاصى بالندم عليها ، والعزم على تركها أبدا .

التفسير :

٢٤- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

هنا يناقش الكفار فى أقوالهم فقد ادعوا أن محمدًا يفترى على الله الكذب ، حيث ينسب القرآن إلى الله مفتريا ، وهنا يجيبهم القرآن بأنّ محمدًا لو افترى على الله الكذب لختم على قلبه ، ومنعه من القدرة على التحدث بالوحى صباح مساء .

وبما أن الوحى مستمر وعناية الله به مستمرة ، فذلك أظهر دليل على أن محمدًا صادق غير مفتر

قال ابن كثير :

وهذا كقوله جل وعلا : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ .
(الحاقة : ٤٤ - ٤٦)

وقال أبو السعود :

والآية استشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله لمنعه من ذلك قطعا بالختم على قلبه ، بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه.

وقيل : معنى : فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ...

أى : يلهمك الصبر والاحتمال واليقين والهدوء .

وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ...

ومن سُنة الله أن يزيل الباطل فهو يمهل ولا يهمل ، ومن سُنة الله أن يثبت الحق ببراهينه وآياته .

قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

إنه سبحانه مطلع على خفايا القلوب ، فهو يعلم السر وأخفى .

وقال القرطبى : والمراد أنك لو حدّثت نفسك أن تفترى الكذب ، لعلمه الله وطبع على قلبك .

٢٥- وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

فتح الله تعالى أبوابه للتائبين ، وهو وحده الذى يملك قبول التوبة ومنح المغفرة .

قال تعالى : وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ... (آل عمران : ١٣٥) .

ومعنى الآية :

إن الله جلّت قدرته يمتن على عباده بواسع ألطافه ، فهو الذى يقبل التوبة من عباده ويغفر الذنوب لمن تاب وأناب ، وهو العليم بكل فعل نفعله ، فأحرى بنا أن نسارع إلى مرضاته والرجوع إليه ، والتوبة من المعاصى والندم عليها ، والالتجاء إلى الله .

٢٦- وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إذا دعوا الله استجاب دعاءهم ، وزادهم من فضله وكرمه وعطفه وألطافه ، فوق ما سألوا واستحقوا ؛ لأنه الجواد الكريم البر الرحيم .

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ : «أفضل الدعاء الحمد» [١٠] .

وسئل سفيان عن قوله ﷺ فى الحديث : «أكبر دعائى ودعاء الأنبياء قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» [١١] . فقال : هذا قوله تعالى فى الحديث القدسى : «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» [١٢] .

فهو سبحانه قابل التوب ، غافر الذنب ، صاحب الصفح والعفو ، مطلع على القليل والكثير ، محاسب على الفتيل والقطمير ، وهو سبحانه يستجيب دعاء الصالحين ، ويزيدهم فضلا ونعمة ، وهو عادل فى معاقبة الكافرين بالعذاب الأليم الموجع فى دار الجحيم .

قال تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ . (الحجر : ٤٩ ، ٥٠) .

★ ★ ★

من آثار حكمته تعالى ودلائل قدرته

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾

المفردات :

بسط : وسّع وكثّر .

لبغوا : لظلموا وتكبروا وتجاوزوا الحدّ .

بقدر : بتقدير حكيم .

الغيث : المطر النافع الذى يغيث الناس بعد الجدب .

قنطوا : يئسوا من نزوله .

رحمته : هى منافع الغيث وآثاره ، التى تعمّ الإنسان والحيوان والنبات والسهل والجبل .

الولى : الذى يتولى عباده بالإحسان .

الحميد : المستحق للحمد على نعمه .

بثّ : نشر وفرّق .

دابة : كل ما يدب على الأرض من إنسان وغيره .

جمعهم : حشرهم بعد البعث للمحاسبة .

مصيبة : بلية وشدّة .

بمعجزين : بجاعلين الله تعالى عاجزًا بالهرب منه .

الجوارى : السفن الجارية .

الأعلام : واحدها علم ، وهو الجبل ، قالت الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به		كأنه علم فى رأسه نار

رواكد : ثوابت لا تتحرك .

يوبقهن : يهلكهن ، يقال للمجرم : أوبقته ذنوبه ، أى : أهلكته .

ما لهم من محيص : ما لهم من مهرب ولا مخلص من العذاب .

تمهيد :

فى هذه الآيات وما بعدها من سورة الشورى نجد عرضا لمظاهر حكمة الله القدير ، فهو سبحانه حكيم فى إنزال الرزق ، ولو كان الناس جميعا أغنياء لفسدت الأرض ، ولحملهم الغنى على البغى والطغيان.

ومن حكمته أن يكون بعض الناس أغنياء ، معهم المال وهم فى حاجة إلى خدمات الفقراء ، وأن يكون بعض الناس فقراء ، عندهم القدرة على العمل ، وهم فى حاجة إلى مال الأغنياء .

وبيد الله العلى القدير إنزال المطر ، وإنبات النبات ، وهو خالق السماوات والأرض ، وقد بث فى الكون الأملاك والأفلاك ، والإنس والجن ، والطير والنمل والحيوانات ، وأبدع الخلق ، وهو مبدع الكون فى الدنيا ، وجامع الناس يوم القيامة ، وهو يعاقب المسيئين بعض العقوبات فى الدنيا لتكفير السيئات أو لرفع الدرجات ، والجميع فى قبضة الله تعالى وقدرته .

وهو سبحانه مسخِّر الكون ، سخَّر الريح والهواء ، والماء والسفن الجارية مع قدرته على إيقاف الهواء فتقف السفن راكدة ، وفى قدرته أن يرسل الرياح العاصفة فتغرق السفن ، إن جميع ما فى الكون خاضع لمشيئته ، مسخَّر بقدرته تعالى .

التفسير :

٢٧- وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ .

إن يد القدرة الحكيمة وراء ما نراه فى توزيع الأرزاق ، فلو كان الناس جميعا أغنياء لاختل التوازن ، وانشغل بعضهم بالبغى والطغيان ، ولو كان الناس جميعا فقراء لتعطلت مصالح الناس ، واشتدت حاجتهم، ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه وزّع الأرزاق حسب ما تقتضيه حكمته تعالى ، فأغنى بعضا وأفقر بعضا، وجعل طائفة وسطا .

قال ابن كثير : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغى والطغيان ، من بعضهم على بعض أشرًا وبطرًا .

وقال قتادة :

خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك ، كما جاء فى الحديث القدسى ، عن أنس مرفوعًا : «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» .

وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ .

هو سبحانه صاحب التقدير والعطاء المناسب ، فيعطى لكل إنسان ما يراه مناسبًا له ، فهو مطَّلع على أحوال عباده ، خبير بما يناسبهم ، وقد قصَّ القرآن الكريم قصص عدد من المتكبرين المتبطرين من أمثال فرعون وهامان ، ومن أمثال قارون الذى حمله الغنى على الزهو والعجب والبطر والاستعلاء فى الأرض بالباطل ؛ فخسف الله به وبداره الأرض ، عقوبة له على بطره وكبره ، وقد يبغى الفقير ولكن ذلك قليل ، والبغى مع الغنى اكثر وقوعا .

٢٨- وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ .

يمتحن الله الناس بالشر والخير فتنة واختبارًا ، وقد يطول المَحْلُ ويتأخر المطر حتى ييأس الناس منه ، وإذا بفضل الله تعالى يظهر فيسوق السحاب ، وينزل المطر ، ويأتى الغيث والماء بعد القنوط واليأس ، فتخضر الأرض ، وتنتشر آثار رحمة الله بعباده حيث ينبت النبات ، ويأكل الحيوان والإنسان ، ويعم الخير والفضل والرحمة ، وهو سبحانه يوالى المؤمنين بالنعم ، وهو أهل للحمد والفضل والثناء .

من أسباب النزول :

أخرج الحاكم وصححه ، عن على قال : نزلت هذه الآية فى أصحاب الصُّفَّة : وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... (الشورى : ٢٧) . وذلك أنهم قالوا : لو أنَّ لنا ، فتمنوا الدنيا والغنى .

وقال خباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية – أى فى أهل الصفة – وذلك أنا نظرنا إلى أموال بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع فتمنيناها .

عود إلى التفسير :

٢٩– وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ .

ومن آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته خلق السماوات وما فيها من أفلاك وأملاك ، وكواكب وشموس وأقمار ، ونجوم سيارات وغير ذلك ، وخلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار ، وأشجار وجبال ، وما بثّ الله فى الأرض من إنسان وحيوان وطيور وزواحف ودواب متعددة ، منها ما يمشى على رجلين كالإنسان ، ومنها ما يمشى على أربع كالبقر والغنم والإبل ، ومنها ما يزحف على بطنه كالثعبان والحيَّات، وهذه الأرض وهذا الفضاء وهذه السماء ، بل هذا الكون كله حافل بأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله، وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله ، وأسراب من الحشرات والهوامّ والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله ، وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطّلع عليها إلا الله ، وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة فى كل مكان ، وقطعان من البشر مبثوثة فى الأرض كلها ، ومعها خلائق أربى عددًا وأخفى مكانًا فى السماوات من خلق الله .. كلها .. كلها .. يجمعها الله حين يشاء .

فهو سبحانه خالق الكون وما فيه ، وهو العالم بكل صغيرة وكبيرة ، وبكل ذرة ومثقال حبة فيه ، وبأمره يجمع كل هذه المخلوقات بقدرته ، وهو على كل شيء قدير .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (النور : ٤٥) .

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى احتمال معنى آخر ، وهو احتمال أن تكون هناك حياة على سطح المريخ ، أو عالم يشبه عالم الأرض على نحو ما ، ولا يبعد أن يتخابرا ويجتمعا فكرا ، إذا لم يجتمعا جسمًا [١٣] .

قال تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ .

وقال تعالى : يَسْئَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . (الرحمن : ٢٩) .

٣٠- وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ .

ما أصاب الإنسان في هذه الدنيا من مرض أو حزن أو فقد حبيب ، أو أي نوع من أنواع الألم أو الفقر أو الهزيمة ، فذلك بسبب إهماله لقانون الحياة وسنة الله في الكون ، وقد تكون المصيبة للابتلاء والاختبار أو لرفع الدرجات ، وكثير من الذنوب يسترها الله تعالى على العبد ويعفو عنها ، فلا يعاجل صاحبه بالعقوبة .

قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ... (فاطر : ٤٥) .

وفي الحديث الصحيح : «والذي نفسي بيده ، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها» [١٤] .

وقد تصيب المصائب الأنبياء والصالحين لرفع درجاتهم ، أو لحكم أخرى يعلمها الله ، وفي الحديث «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل» [١٥] .

وقد أمرنا الدين الإسلامي باحتمال المصائب ، مع الرضا بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره وذكر الصبر في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعا ، كما حثَّ الحديث الشريف المؤمن على الصبر والرضا طمعا في ثواب الله ، ورضا بقضائه وقدره .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

وفي الأثر : «من علامة الإيمان : الشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضا بأسباب القضاء» كما جاء في الأثر أيضًا : «الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر» .

٣١- وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

لا يستطيع أي إنسان أن يهرب من عذاب الله ، أو يفلت من قضائه ، أو يُفلت من عقوبة أرادها الله به وإذا كفر الكافر أو أشرك المشرك فلن يجد وليًّا يتولاه بالمعونة ، أو نصيرًا ينصره ضد مولاه وخالقه .

قال فى فتح القدير للشوكانى :

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ...

أى : بفائتين عليه هربا فى الأرض ، بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم ، نازل بهم .

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ... يواليكم فيمنع ما قضاه الله .

وَلَا نَصِيرٍ . ينصركم من عذاب الله .

٣٢- وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ .

من دلائل قدرة الله تعالى تسخير هذا الكون لخدمة الإنسان ، فالسماء والأرض والفضاء والماء وغيرها، أُعدّت إعدادًا إلهيًّا لتيسير حياة الإنسان ، فالبحر تغرق فيه الأجسام الثقيلة ، ثم يلهم الله الإنسان صناعة السُّفن لتحمل الأثقال والمتاع والتجارة من بلد إلى بلد ، فيعم العمران وتنتعش الزراعة والصناعة والتجارة .

قال ابن كثير :

ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخير البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، كَٱلْأَعْلَـٰمِ . أى : كالجبال ، أى هذه فى البحر كالجبال فى البّر .

٣٣- إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

إذا أراد الله أن يُسكن الريح لأوقفها ، وبذلك تقف السفن عن الحركة ، وتتعطل المصالح ، وربما فسدت المؤن ، إن فى ذلك الاختبار والابتلاء لعظة وعبرة لكل صبَّار على البلايا ، شكور على النعم والعطايا ، فالإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شُكر .

٣٤- أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ .

وإن شاء الله أهلك هذه السفن بسبب ما ارتكب أهلها من معصية أو شرك أو كفر ، وهو سبحانه يعاقب على القليل ، ويصفح عن الكثير ، ويتجاوز عن كثير من الذنوب ، فينجى أهلها من الهلاك .

وقال بعض المفسرين :

إن يشأ يرسل الريح عاتية قوية مدمرة، فتضطر السفن أن تحيد عن طريقها ، آبقة عن الطريق المرسوم، منصرفة ذات اليمين وذات الشمال ، منحرفة لا تسير على طريق ولا إلى جهة ، فيهلك من فيها إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب .

قال ابن كثير :

وهذا القول مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقوّاها فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أن يرسل الريح بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرا جدًّا لهدم البنيان ، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار ، حتى إنه يرسل إلى مثل (بلاد مصر) سيحا من أرض أخرى غيرها ، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم [١٦] .

٣٥- وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ .

إذا كانوا في يد القدرة التي إن شاءت أمسكت الريح ، وإن شاءت أرسلت الريح عاتية قوية ، تجعل السفينة كالريشة في مهب الرياح ، حتى يعلم الذين يجادلون في آيات الله بالباطل ، فينكرون الألوهية ، أو يشككون في دين الله وربوبيته أنهم مقهورون مربوبون ، ما لهم من ملجأ ولا مهرب من قدرة الله القدير.

قال القرطبي :

أي : ليعلم الكفار إذا توسطوا في البحر ، وغشيتهم الرياح من كل مكان ، أنه لا ملجأ لهم سوى الله ، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم ، فيخلصوا له العبادة .

★ ★ ★

الشورى في الإسلام

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

فما أوتيتم من شيء : فما أعطيتم من أثاث الدنيا وزينتها .

فمتاع الحياة الدنيا : يُتمتّعُ به فيها ثم يزول .

وعلى ربهم يتوكلون: وعلى الله وحده يعتمدون .

كبائر الإثم : كبائر الذنوب ، وقرئ : (كبير الإثم) .

الفواحش: ما عظم قبحه من الذنوب كالزنا .

استجابوا لربهم : أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة .

وأمرهم شورى بينهم: شأنهم التشاور ومراجعة الآراء فى أمورهم .

البغى : الظلم والعدوان .

ينتصرون : ينتقمون بمثل ما عوقبوا به .

سيئة : الخطيئة والذنب .

سيئةٌ مثلها : سميت مقابلة السيئة سيئة ؛ لمشابهتها لها فى الصورة .

عفا : صفح عمن أساء إليه .

فأجره على الله : فثوابه على الله .

لا يحب الظالمين : يكره ويبغض المعتدين .

ولمن انتصر بعد ظلمه : انتصر لنفسه بعدما ظُلم .

سبيل : معاتبة ولوم ومؤاخذة .

صبر : سكت وحبس نفسه عن الانتصار لنفسه .

لمن عزم الأمور : لمن الأمور المعزومة ، أى : المؤكدة ، والمراد : أنّها من الأمور المطلوبة شرعًا .

تمهيد :

هذه آيات فى صفات المؤمنين ، وفى تفضيل الآخرة على الدنيا ، فالدنيا متاع زائل ، والآخرة نعيم مقيم للمؤمنين المتوكلين على الله ، ثم ذكر من صفاتهم ما يأتى :

١ - البعد عن الفواحش والكبائر ، مثل : القتل ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس ، والسحر ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين .

٢ - العفو والصفح عند الغضب .

٣ - الاستجابة لأمر الله ، بطاعته والبعد عن معصيته .

٤ - التمسك بالشورى فى مهام شئون الدولة ، ومهامّ الأسر والأفراد .

٥ – إخراج الزكاة والصدقة .

٦ – ردّ العدوان والانتصار من المعتدى .

٧ – قررت الآيات (٤٠–٤٣) من سورة الشورى مبدأ عقوبة المعتدى ، سواء أكان عامدًا أم مخطئًا ، وهناك العدل وهو مقابلة السيئة بالسيئة خصوصًا مع الفسّاق والظلمة ، وهناك الفضل وهو الصفح والعفو، وكررت الآيات الأمر بالصبر والعفو .

ولا تناقض بين هذه الأوامر ، لأن الأمر فى جملته يحتاج إلى الحكمة والبصيرة ، فالقصاص فى مواطنه حكمة ، والصبر فى مواطنه حكمة ، ولكل فئة ما يناسبها ، فيناسب المعتدى المخطئ التائب المستجير العفو والصفح ، ويناسب المتغطرس المستهتر القصاص أو العقوبة .

التفسير :

٣٦– فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

مهما أوتيتم من أموال أو نعيم أو أثاث أو رياش أو أىّ شأن من شئون الدّنيا ؛ فذلك متاع زائل ، وأما ما قدمه الإنسان للآخرة من صدقة أو زكاة أو صلاة أو جهاد ، أو صلة رحم أو عمل خير : فذلك أبقى وأفضل لمن آمن بالله ، واستمرّ فى التوكل عليه ، والتوكل هو الاعتماد على الله بعد الأخذ بالأسباب .

٣٧– وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ .

هذه الآية مكملة لصفات الذين آمنوا فى الآية السابقة ، أى : ومن صفات الذين آمنوا أنهم يبتعدون عن كبائر الذنوب ، مثل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، والربا ، والقتل، والسحر وتطلق الفواحش على كل ما عظم قبحه وفحش أمره .

قال ابن عباس :

ٱلْفَوَٰحِشَ . يعنى الزنا ، أى : هم مبتعدون عن كل ما يغضب الله ، خصوصا كبائر الذنوب .

سُئِل بعضهم عن التقوى فقال : (ألّا يراك الله حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك) .

وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ .

ومن شأنهم ألا يستبد بهم الغضب فيخرجهم عن حد الاعتدال ، بل إذا غضبوا غفروا لمن أغضبهم تمسكا بآداب الدين .

ذكر أبو حامد الغزالى فى كتاب (إحياء علوم الدين) أبواب المهلكات، ومنها : الحقد، والحسد، والضغينة، والكبر ، والغضب ، وبيّن أن الغضب سبع مفترس يجعل الإنسان لعبة فى يد الشيطان ، لأن الإنسان إذا سكر وإذا غضب ؛ ضعفت سيطرته على عقله ، وأصبح فريسة لهواه ، فيفعل ما يندم على فعله .

ومن علاج الغضب تذكّر هوان الدنيا ، وأنها لا تزن جناح بعوضة ، والغضب وسيلة إلى أمراض متعددة مثل تصلب الشرايين ، والضغط المرتفع ، والسكر ، وعلاج ذلك محاولة الهدوء والاتزان والرضا والإيمان .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله . (١٧)

وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ : «ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ، وما زاد الله عبدًا يعفو إلا عزًّا فاعفوا يعزّكم الله» (١٨) .

٣٨- وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ .

والذين استجابوا لأمر الله تعالى ودخلوا فى دين الإسلام .

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ... وحافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها ، وخص الصلاة بالذكر لأنها أعظم أركان الإسلام ، وهى صلة بين العبد وربه ، وهى عماد الدين ، من أقامها كان حريا أن يقيم أمور الدين ، ومن هدمها كان حريا أن يهدم الدين .

وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... أى : هم ملتزمون بالشورى فى الأمور العامة كالحرب وشئون الدولة ، والشئون الخاصة كنظام الأسرة وما يتصل بشئون الجماعات والأفراد ، وقد حثّ القرآن على الشورى ومدحها ، وسمى هذه السورة المكية باسم (الشورى) كما ذكر الشورى فى سورة (آل عمران) وهى سورة مدنية.

قال تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ . (آل عمران : ١٥٩) .

وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن المنذر ، عن الحسن قال : ما تشاور قوم قطّ إلا هُدُوا لأرشد أمرهم ، ثم تلا : وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...

ولقد كان ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه ، فقد استشارهم عند الخروج لغزوة بدر ولغزوة أحد ، وفى غزوة الأحزاب عمل بمشورة الأنصار ، وتراجع عن إعطاء هوازن ثلث ثمار المدينة عندما قالت الأنصار : لا نعطيهم إلا السيف ، وكان الخلفاء الراشدون يحرصون على الشورى خصوصا ما لا نص فيه ، مثل كتابة المصحف ، وحروب الردّة ، وعدم توزيع أرض السواد بالعراق على الفاتحين ، وتضمين العمال إذا أتلفوا ما

بأيديهم لشدة حاجة الناس إليهم ، وكتابة الحديث النبوى الشريف فى عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وغير ذلك .

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ .

أى : ينفقون مما أعطاهم الله من المال أو العلم أو الجاه ، بإخراج الزكاة أو الصدقة أو الإحسان إلى خلق الله.

٣٩- وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ .

كانوا ينفرون من الضَّيْم والذلّ والاستكانة .

قال النخعى : كانوا يكرهون أن يُذِلوا أنفسهم ، فيجترئ عليهم الفساق .

وقد ورد عن عمر رضى الله عنه : من اسْتُغضِب ولم يغضب فهو حمار .

والمؤمن كريم على نفسه وعلى ربه ، حيث قال تعالى : وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (المنافقون : ٨).

فالإنسان المتَّزن يعرف متى يصفح ، ومتى ينتصر وينتقم ، فهو أمام الذليل الضعيف يعفو عفو القادر ، وأمام الباغى المعتدى ينتصر وينتقم ، كما يشير إلى ذلك قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فَوضْعُ الندى فى موضع السيف بالعلا ... مُضِرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وعند تفسير ابن كثير وغيره من المفسرين لهذه الآية قالوا : أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، والأمثلة الموضحة كثيرة ، منها : عفو يوسف عليه السلام عن إخوته ، وعفو النبى محمد ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها ، وعفا ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم منَّ عليهم مع قدرته على الانتقام منهم ، وعفا عن غَوْرث بن الحارث الذى أراد الفتك به ، حين أخذ سيف النبى ﷺ وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ وهو فى يده مصلتا فانتهره ، فوقع السيف من يد غورث بن الحارث ، فأخذ النبى ﷺ السيف فى يده ودعا أصحابه ، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه ، وغير ذلك كثير . ا هـ .

قال شوقى :

وإذا عفوت فقادر ومقدر ... لا يستهين بعفوك الضعفاء

وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى وللقلوب بكاء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر وإذا غضبت فإنك النكباء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء

فائدة :

قال الزمخشرى عند تفسير قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ .

فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم ، لأن من أخذ حقه غير متعد حدّ الله وما أمر به، فلم يسرف فى القتل إن كان ولى دم ، أو ردَّ على سفيه محاماة عن عرضه وردعًا له ، فهو مطيع ، وكل مطيع محمود . ا هـ .

٤٠ – وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

هذا هو الحكم الشرعى ، عقوبة المسىء بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه ، وسمّى الجزاء سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، أو مماثلة لما قبلها ، وهذا القصاص عدل .

قال تعالى : وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... (المائدة : ٤٥) . وقال سبحانه : وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ... (البقرة : ١٧٩).

وقال سبحانه : فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... (البقرة : ١٩٤) .

وقال سبحانه : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ . (النحل : ١٢٦) .

ومن ذلك ترى وسطية القرآن ، وحسن تشريعه ، فقد شرع العقوبة ردعًا للفساق والمتجبرين والمستهترين ، ثم شرع العفو والصفح للنادمين والمخطئين الذين تابوا من خطئهم ، فقال سبحانه : فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ... أى : من عفا عمن أساء إليه وأصلح ما بينه وبين المسىء أو المعتدى فقد أحسن فى الدنيا ، وثوابه عظيم عند الله يوم القيامة ، وفى الحديث الشريف : «ما زاد الله عبدًا يعفو إلا عزًّا»[١٩] . رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الأثر : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من قبل الله تعالى : من كان أجره على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا ، فذلك قوله تعالى : وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...

وقد وصف الله المتقين بقوله تعالى : ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . (آل عمران : ١٣٤) .

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

أى : إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم ، ولا يحب من يتعدى فى الاقتصاص ، ويجاوز الحدّ فيه ، لأن المجاوزة ظلم ، والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حدّه ، وهذا تأكيد لمطلع الآية فى اشتراط المماثلة نوعًا ومقدارًا .

٤١ - وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ .

من أخذ حقه ممن ظلمه فلا لوم عليه ولا عتاب ، فقد شرع الله القصاص فى الجنايات العمدية ، والضّمان فى جنايات الخطأ والإتلافات ، ويجوز الشتم والسب بالمثل دون اعتداء ولا تجاوز .

٤٢ - إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إنما اللوم والعتاب والإثم على الذين يظلمون الناس بالبغى والعدوان فى الأرض بغير الحق ، ومثل ذلك اللصوص والزناة والغاصبون ، وأيضًا كفار مكة الذين ظلموا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم بالبغى والعدوان .

أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أعده الله للظالمين المعتدين ، أيًا كانوا سابقين أو لاحقين ، كما أعدّه لكفار مكة حين ظلموا المسلمين واعتدوا عليهم وفرضوا الشرك على الضعفاء منهم .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» [٢٠] .

وجاء فى الحديث الصحيح : «المستبّان ما قالا فعلى البادئ ، ما لم يعتد المظلوم» [٢١] .

٤٣ - وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ .

تأتى هذه الآية فى ختام صفات المؤمنين ، محرضة على الصبر والعفو والتسامح ، مبينة أن الصبر والمغفرة من عزم الأمور ، أى من الأمور الأساسية فى هذا الدين ، وهذه الآية تتكامل مع ما قبلها، فالأساس هو صبر المؤمن وعفوه عن إخوانه وتواضعه ، وتفويضه الأمر لله واحتساب ثوابه عند الله ، وقوله : حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

أو قوله تعالى : وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ . (غافر : ٤٤) .

ويجوز الدعاء على الظالم بمثل هذه الآيات انتصافا للحق ، وتفويضًا للأمر إلى الله ليأخذ للمظلوم من الظالم ، وعند اعتداء الكافرين على المسلمين أو قيام الظلمة الباغين بالظلم ؛ فقد شرع الله الانتصاف للمظلومين ، فلا لوم ولا عتاب على من انتصر بعد ظلمه .

وهكذا أحاطت الآيات بصفات المؤمنين ، متحدثة عن أخلاقهم الكريمة فى توكلهم على الله ، وبعدهم عن الكبائر والفواحش ، وعفوهم عند الغضب واستجابتهم لأمر ربهم ، وتمسكهم بالشورى فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، وإخراجهم للزكاة والصدقة .

ثم هم متوازنون معتدلون ، فبالنسبة للفسَّاق والظلمة يقابلون السيئة بالسيئة ، وبالنسبة للمتقين والضعفاء يقابلون السيئة بالعفو والصفح ، والأمر كله فى ذلك محتاج إلى الحكمة وحسن التصرف ، واختيار الأنسب فى المعاملة ، فمن الناس من تناسبه المعاتبة ، ومنهم من تناسبه المعاقبة ، ومنهم من يأسره ويغلبه الصفح والعفو ، وفى مثل هؤلاء قال تعالى : وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) .

★ ★ ★

أحوال الكفار أمام النار

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

المفردات :

ومن يضلل الله : ومن يخذله الله لأنه ضلّ الطريق لسوء اختياره .

من ولي من بعده : من ناصر يتولاه بعد خذلان الله إياه .

هل إلى مردٍّ : هل إلى رجعة إلى الدنيا .

من سبيل : من طريق .

يعرضون عليها : على النار .

خاشعين من الذل : خاضعين متضائلين بسبب الذل .

ينظرون من طرف خفي : ينظرون إلى النار مسارقة خوفا منها ، كما ينظر المحكوم عليه لآلة التنفيذ .

الذين خسروا أنفسهم : بالتعرض للعذاب الخالد .

وأهليهم : وخسروا أهليهم بالتفريق بينهم .

مقيم : سرمدي دائم .

أولياء : نصراء أو أولياء أمره .

من سبيل : من طريق إلى الهدى .

استجيبوا لربكم : سارعوا إلى إجابته بالتوحيد والعبادة .

لا مرد له من الله : لا يردّه الله بعد إذ أتى به .

نكير : إنكار لما اقترفتموه من الذنوب ، أو منكر لعذابكم .

حفيظا : رقيبا أو محاسبا .

إن عليك : ما عليك .

إلا البلاغ : إلا التبليغ .

تمهيد :

تصف الآيات مشهد الظالمين يوم القيامة حين رأوا العذاب وشدته وهَوْله ، وتمنَّوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ، وظلوا بلا جواب ولا تحقيق لأمنيتهم ، وتراهم – يا كلَّ من تتأتى منه الرؤية – أذلاء خاضعين بسبب الذل والمهانة وخوف العذاب ، ينظرون إلى النار مسارقة خوفا منها ومن عذابها ، وعندئذ يقول الذين آمنوا : إن الخاسرين خسرانا حقيقيا هم الذين خسروا أنفسهم حيث أوردوها جهنم ، وخسروا أهليهم حيث تسببوا في دخولهم النار فانشغل كل واحد من أهل النار بنفسه ، وبالعذاب الذي يتلقاه ، ولم يلق أهل النار أولياء ولا نُصراء ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، ومن أضله الله فليس له طريق إلى النجاة أو الفوز يسلكه .

التفسير :

٤٤ - وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ.

من يُضلله - حسب سنته فى الإضلال - فلن يجد وليا ولا نصيرا يهديه إلى الرَّشاد ، وترى الظالمين الذين ظلموا عباد الله فى الدنيا ، وظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والجبروت والتكبر ، هؤلاء حين يشاهدون عذاب جهنم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحًا ينجيهم من عذاب النار .

٤٥ - وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ .

وترى هؤلاء الظالمين يُعرضون على النار أذلاء مقهورين متضائلين ، خاشعين خاضعين بسبب الذل والمهانة ، لا بسبب التواضع والكرامة ، ينظرون إلى النار بعين غضيضة مُقفلة إلا قليلاً، بسبب الحذر والرهبة، كما ينظر من حُكِمَ عليه بالإعدام إلى آلة التنفيذ ، لقد انهار كلُّ أمل ، وظهر الظالمون المتكبرون فى الدنيا أذلاء متضعضعين ، لا تقوى عيونهم على استكمال فتحتها ، بل ينظرون بطرف غضيض ، والعرب تعبِّر بالطرف الغضيض كناية عن الذل والمهانة.

قال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

لقد انحط أمر الظالمين ، وارتفع شأن المؤمنين ، وأصبحت المنزلة العليا لهم ، عندئذ قال المؤمنون : إن الخاسرين حقًّا هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والظلم ، فألقى بهم فى النار وفقدوا متعتهم وحرموا نعيمهم ، فخسروا بذلك أنفسهم ، وحيل بينهم وبين أزواجهم وأولادهم وأحبابهم بسبب انشغال كل واحد من هؤلاء بنفسه ، ثم يعلن معلن من قبل الحق سبحانه : أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ . فهم خالدون فى النار خلودًا أبديًّا سرمديًّا ، فما أعظم شقاءهم بالخلود فى جهنم .

٤٦ - وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ .

ليس لهم من غير الله أعوان وأنصار ينقذونهم مما هم فيه من العذاب ، وليس للأصنام التى عبدوها بقصد الشفاعة لهم عند الله أى مجال فى الشفاعة .

مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ . (غافر : ١٨) .

ومن أضله الله وخذله فلا طريق له يصل به إلى الحق فى الدنيا ، وإلى الجنة فى الآخرة ، لانسداد طريق النجاة عليه فقد غلبته شهواته ، وأعمته ضلالاته عن رؤية النور والهدى .

قال تعالى : أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجاثية : ٢٣) .

٤٧– ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ .

استجيبوا لأمر الله تعالى وهدى رسله ، بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من قبل أن يأتى يوم – وهو يوم القيامة – لا يستطيع أحد أن يدفعه أو يمنع حصوله ، فإنه يأتى كلمح البصر ، ولا تستطيع قوة فى الأرض ولا فى السماء أن تمنع ما أراده الله ، وفى ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن يتحصن بحصن ، أو يختبئ فى مكان ، أو يتنكر ويستتر فيغيب عن بصره تعالى ، فهو سبحانه محيط بالجميع ، والكل تحت سمعه وبصره ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

قال أبو السعود :

وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ .

أى : ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدوّن فى صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم . ا هـ .

وقيل : وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ .

أى : وليس لكم منكر ينكر ما ينزل بكم من العذاب .

٤٨– فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ .

تأتى هذه الآية تسلية ومواساة للنبى ﷺ ، أى : إن أعرض أهل مكة عن دعوتك ولم يؤمنوا برسالتك فقد أدّيت واجبك ، ولست حفيظًا عليهم ، ولا مسئولا عن إيمانهم ، ما عليك إلا تبليغ الدعوة إليهم ، وتركهم أحرارًا يختارون ما يشاءون .

قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

وقال سبحانه : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ... (البقرة : ٢٧٢) .

ومن طبيعة الإنسان أنّه إذا جاءت إليه النعمة فرح بها ، فهو يسعد بالنعمة كالصحة والغنى والأمن ويستبشر بها ، وإذا نزل به المرض أو الفقر أو أى مصيبة بسبب سلوكه ومعاصيه ، فإن الجزع والهلع ينزل بساحته ، وكذلك الكفر والجحود ، إلا من ألهمه الله الصواب .

قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ . (المعارج : ١٩-٢٢)

إن ذلك بسبب عدم الإيمان ، وعدم صدق اليقين ، وعِظَم شأن الدنيا عند الإنسان ، فإذا جاءت النعمة فرح بها كثيرًا ، وما علم أن الدنيا كلها عارية وكل ما فيها مردود ، وأنَّ الحياة الحقيقية هى حياة الآخرة ففيها النعيم الدائم ، وإذا نزلت بساحة الإنسان المصائب بسبب سلوكه اشتد به الحزن والهلع والكفر والجحود، بخلاف المؤمن فإنه صابر على البلاء ، شاكر لله على النعماء .

قال ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» [٢٢] .

★ ★ ★

بدائع القدرة الإلهية

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

المفردات :

أو يزوجهم : أو يجعلهم زوجين ، ذكرًا وأنثى .

عقيما : لا تلد ، يقال : عقمت المرأة ، تعقم عقما ، أى : صارت عاقرًا .

وحيا : إلقاء فى القلب .

أو من وراء حجاب : أو يكلمه من وراء حجاب .

أو يرسل رسولا : أو يبعث الله المَلَك للأنبياء ليبلغهم ما أمر الله به .

روحـــــــــا : قرآنا ، لأن القلوب تحيا به .

مـــن أمــــرنـــا : من لدنّا .

جـــعـــلـــنـــاه : جعلنا الروح أو الكتاب أو الإيمان .

وإنك لـتـــهـــدى : وإنك لترشد وتدلُّ .

إلى صراط مستقيم : إلى طريق معتدل موصل إلى المطلوب ، لا يضل من يسلكه .

تصير الأمـــــور : ألا إلى الله وحده – لا إلى غيره – يرجع شأن الخلق وأمورهم كلها يوم القيامة .

تمهيد :

فى ختام سورة (الشورى) نجد عددًا من أنعم الله على عباده ، فهو المتفضل بحكمته فى العطاء ، فمن الناس من تكون ذريته إناثًا فقط ، مثل لوط وشعيب عليهما السلام ، ومنهم من تكون ذريته ذكورًا فقط ، مثل إبراهيم عليه السلام ، ومنهم من يرزقه ذكورًا وإناثًا ، مثل نبينا محمد ﷺ ، ومنهم من يكون عقيما لا ولد له مثل يحيى وعيسى عليهما السلام ، وهو سبحانه حكيم فى توزيعه ، عليم بما يناسب عباده ، قدير على كل شىء.

ومن أفضاله العظمى التفضل على عباده بالوحى ، بمعنى الإلهام ، كما فى الرؤيا المنامية ، والمعنى يقذفه فى قلب الأنبياء أو الأولياء ، أو يكلم الرسول من وراء حجاب كما حدث لموسى عليه السلام ، وكما حدث للنبى محمد ﷺ ليلة الإسراء ، أو يرسل جبريل بالوحى الجلىّ كما حدث فى نزول جبريل بوحى القرآن الكريم كلّه من أول القرآن إلى آخره ، ويسمى الوحى الجلىّ ، والقرآن كلّه نزل بهذا النوع ، والقرآن نور وروح وهداية إلى صراط الله المستقيم ، وبيد الله وحده مصائر العباد فى الدنيا والآخرة .

التفسير :

٤٩ – لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ .

المُلْكُ لله وحده ، هو سبحانه له ملك السماوات والأرض ، والخلق والعطاء ، والمال والذرية منه سبحانه ، فهو يهب لبعض الناس إناثًا فقط ، ويعطى بعض الناس ذكورًا فقط .

٥٠ – أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

ويتفضل سبحانه على بعض عباده فيعطيهم من الزوجين ، أى من الذكور والإناث ، فقد كان للنبى محمد ﷺ ذكور وإناث ، كان له : القاسم ، والطيب ويلقب بالطاهر ، وعبد الله ، وإبراهيم ، وكان له : فاطمة، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وكلهم من أمّ واحدة هى خديجة ، ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية التى

أهداها إليه المقوقس عظيم القبط بمصر ، ولحكمة عليا يجعل الله بعض الرجال عقيما لا ولد له ، وبعض النساء عقيما لا ولد لها .

قال ابن كثير :

جعل الله تعالى الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد ، فسبحان العليم القدير .

وقال البيضاوى :

والمعنى : يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة ، فيهب لبعض إما صنفًا واحدًا من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعًا ، ويعقم آخرين ، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى فى الكائنات كيف يشاء .

٥١ - وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ .

سبب النزول :

ذكر غير واحد من المفسرين أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا ، كما كلمه موسى ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال ﷺ : «لم ينظر موسى إلى الله تعالى» .

الوحى نعمة من نعم الله على عباده ، وطريق إلى الهداية ، وفضل إلهى ترسله السماء إلى الأرض بواسطة مَلَك يختاره الله ليوحى إلى رسول مصطفى ومختار من عباد الله ، فما أجلَّها من نعمة ، أن يتفضل الإله العلى الحكيم بإنزال هدايات السماء ؛ ليهدى العباد إلى الصراط المستقيم .

الـــــوحى

ذكر الوحى فى كتب علوم القرآن والتفسير على أنه الوسيلة التى يبلغ الله بها عباده التشريع والهداية، بواسطة اختيار ملك كجبريل ينزل على رسول كمحمد ﷺ .

ثلاث طرق

تفيد الآية الكريمة أن ما يبلغه الله إلى عباده يتم عن طريق واحدة من ثلاث طرق :

الأولى : إلقاء المعنى فى قلب النبى ﷺ عن طريق رؤيا منامية ، كما حدث لإبراهيم عليه السلام ، حين أمره الله بذبح ولده إسماعيل ، وأحيانًا يلقى المعنى فى قلب الرسول يقظة ، كما جاء فى صحيح ابن

حبان عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب» [٢٣] .

الثانية : سماع الرسول كلام الله من وراء حجاب ، بأن يسمعه الرسول من الله بدون واسطة ، متيقنًا أنّه كلام الله من حيث لا يُرى سبحانه وتعالى ، كما كلم موسى عليه السلام ، وسمى الله ذلك وحيا ، فقال : وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ . (طه : ١٣) ، وقال سبحانه : وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا . (النساء : ١٦٤) . وكان موسى قد طلب الرؤية بعد التكلُّم فحجب عنها .

قال تعالى : وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأعراف : ١٤٣) .

الثالثة : أن يرسل الله تعالى ملكا من الملائكة إما جبريل أو غيره ، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء الله أن يوحى إليه ، كما كان جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام ، والقرآن الكريم جميعه نزل عن طريق الوحى الجلىّ فى هذه الصوة الثالثة، بواسطة جبريل عليه السلام يتلقاه عنه النبى محمد ﷺ متيقنًا أن ذلك من عند الله ، وهو وحى الله إلى رسوله ليبلغه إلى عباده .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ . (الشعراء : ١٩٣–١٩٥).

وقال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... (المائدة : ٦٧) .

وقال تعالى : وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ . (النجم : ٣–٧) .

وقد أفاد النبى ﷺ أن الوحى كان يأتيه مثل صلصلة الجرس [٢٤] ، حيث يغيب النبى ﷺ عمن حوله، ويتفرغ بروحه وكل شئونه لاستقبال ذلك الوحى ، فإذا انتهى الوحى عاد إلى من حوله ، وأحيانا يتمثل الملك رجلاً فيكلم الرسول ﷺ ، ويعى الرسول ﷺ ما يقوله الملك .

قالت عائشة : ولقد رأيت النبى ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا ، أى : يسيل عرقا .

من تفسير ابن كثير :

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا ، فتارة يقذف فى روع النبى ﷺ وحيا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل .

وقوله تعالى : أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ... أى : كما كلم موسى عليه السلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحُجب عنها .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضى الله عنهما : «ما كَلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلَّم أباك كفاحًا» [٢٥] ، كذا جاء فى الحديث ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا.

وقوله عز وجل : أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ... كما ينزل جبريل عليه السلام ، وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . فهو علىٌّ عليم ، خبير حكيم .

من فتح القدير للشوكانى :

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...

يوحى إليه فيُلْهِمه ويقذف ذلك فى قلبه ، كما أوحى إلى أم موسى ، وإلى إبراهيم فى ذبح ولده ، والوحى هو الإخبار بسرعة على وجه الخفية .

أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ... كما كلم موسى عليه السلام ، يريد أن كلامه يُسْمع من حيث لا يرى .

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ...

أى : يرسل ملكًا فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه .

إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ .

أى : متعال عن صفات النقص ، حكيم فى كل أحكامه .

ثم إن هذه الأنواع من الوحى كلها قد حصلت للنبى ﷺ . ا هـ

(أ) أى أن الله قد قذف فى قلبه أن الإنسان لن يموت حتى يستوفى أجله ورزقه .

(ب) وقد كلمه الله من وراء حجاب ليلة الإسراء والمعراج .

(جـ) وقد نزل جبريل على النبى ﷺ بالقرآن الكريم خلال ثلاثة وعشرين عاما من عمره الشريف ، حيث بدأ نزول الوحى عليه فى مكة وعمره أربعون عامًا ، واستمر الوحى ينزل عليه ثلاثة عشر عامًا فى مكة قبل الهجرة ، ثم نزل عليه الوحى عشرة أعوام بالمدينة ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعمره ثلاثة وستون عاما .

وما نزل من القرآن بمكة يسمى مكيا ، وما نزل بالمدينة بعد الهجرة يسمى مدنيا ، ونجد فى كتب علوم القرآن بحوثًا مستفيضة عن الوحى المكى والمدنى ، المحكم والمتشابه ، فواتح السور ، كتابة القرآن فى الألواح ، وجمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق ، وكتابة القرآن الكريم على لغة قريش فى عهد عثمان ، والمصحف العثمانى نقطه وتشكيله ، وتجويد كتابته ، ووضع علامات الربع والحزب والجزء ، وعلامات الوقف والوصل والسجدة ، ووضع إطار حول كل صفحة ، واستمرار تحسين خط المصحف عبر العصور الإسلامية ، فالمصحف القرآنى أصدق وثيقة وأنقى نصٍّ عرفه التاريخ [٣٦] ، لأن الله تعالى تعهد بحفظه فقال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

٥٢- وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.

ومثل ذلك الوحى الذى أوحى الله به إلى الرسل السابقين عليك أوحى الله إليك ، فلست بدعا من الرسل لقد أوحى الله إليك قرآنا مشتملا على روح الدين ، وعلى تشريع وعظات وآداب وقصص وتاريخ ومشاهد للقيامة ، من شأن هذه الآداب أن تبعث الروح الصافية فى أجسام الأمة ، وأن تبثّ فيها اليقظة وعوامل القوة.

مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ...

ما كنت قبل الأربعين تعلم هذا الوحى القرآنى ، وما يشتمل عليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولقد كنت أميًّا فلم تقرأ كتب السابقين ، ولم تكن كاتبا حتى لا يظن مرتاب أنك نقلت هذا القرآن من الكتب السابقة ، وهذا شبيه بقوله تعالى : وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ . (العنكبوت : ٤٨) .

ومع هذا فقد حفظ الله محمدًا ﷺ من دنس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم قط ، ولم يشترك مع أهل الجاهلية فى لهوهم أو فجورهم ، وقد بَغَّض الله إليه الأصنام ، وربّاه فأحسن تربيته ، وصنعه على عينه، وكذلك يحفظ الله أنبياءه ورسله من التلبّس بأى أمر منهى عنه ، وفى القرآن الكريم شواهد متعددة على تزكية الله تعالى لرسوله وحفظه له ، ورعايته يتيما وشابا ورسولا ومهاجرًا ومجاهدا صلوات الله وسلامه عليه .

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ...

أنزلنا عليك الوحى من السماء ، وجعلناه نورًا يضىء للناس طريق الهداية ، وجعلنا القرآن وسيلة لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وشرائعه وآدابه .

قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ... (الإسراء : ٨٢) .

وقال عز وجل : يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. (يونس : ٥٧)

فالقرآن مصدر هداية ، والرسول ﷺ مبلغ هذه الهداية ، وهو ممسك بمصباح الإسلام يدعو الناس إلى دين الله تعالى .

وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ.

إنك يا محمد مصدر هداية ، وحامل لواء الوحى ، ومرشد لأمتك إلى هدى الإسلام ، وصراطه المستقيم، وآدابه وأركانه وتشريعاته ، وما اشتمل عليه من قيم وأخلاق كانت مشعل نور للبشرية ، وسبيلا لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

٥٣- صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ .

إنك أيها الرسول الكريم تهدى إلى صراط مستقيم ومنهج واضح ، وتحمل لواء النور والهدى ، هذا الصراط المستقيم الذى ترشد إليه هو طريق الله ومنهجه ، وهو سبحانه المالك الحقيقى لهذا الكون كله ، فهو مالك السماء وما فيها ، والأرض وما عليها ، وكان من دعاء النبى ﷺ عند النوم : «اللهم رب السماء وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، والشياطين وما أضلت ، كن لى جارًا من شرار خلقك عزَّ جارك» [٢٧] .

أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ .

إن أمور الخلائق جميعا ترجع إليه يوم القيامة ، وقد انتهت الوسائط والعلائق ، وقام الناس لرب العالمين ، وهو المطلع على النوايا والخفايا ، والمجازى والمكافئ ، وفى هذا وعد بحسن الجزاء للمؤمنين ، ووعيد بالعقاب للكافرين .

قال تعالى : يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٦-٨) .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الشورى

١ – إنزال الوحى على رسول الله ﷺ .

٢ – اختلاف الأديان ضرورى للبشر .

٣ – أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل .

٤ – اختلاف المختلفين فى الأديان بغى وعدوان ، لأنه اختلاف بعد علم الحقيقة الناصعة .

٥ – إنكار نبوة محمد ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صدقه .

٦ – استعجال المشركين لمجىء الساعة ، وإشفاق المؤمنين منها .

٧ – من يعمل للدنيا يؤت منها ، وما له حظ فى الآخرة ، ومن يعمل للآخرة يوفقه الله للخير ويضاعف له الثواب.

٨ – ينزل الله الرزق بحسب ما يرى من المصلحة .

٩ – من الأدلة على وجود الله تعالى خلق السماوات والأرض ، وجرى السفن فى البحار .

١٠– ذكر لوحة هادفة وصورة ممتازة للمؤمنين ، فهم يتمتعون بصفات كريمة ، منها ما يأتى :
التوكل على الله ، البعد عن الكبائر ، ضبط النفس عند الغضب ، الاستجابة لأمر الله ، إقام الصلاة ، الاعتماد على الشورى فى أمور الدولة وأمور الأسرة والمؤسسات .

١١– جزاء السيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله .

١٢– ليس على الرسول إلا البلاغ .

١٣– أقسام الوحى إلى البشر .

١٤– القرآن هداية ، والرسول ﷺ حامل مصباح الهداية .

★ ★ ★


تفسير سورة الزخرف

أهداف سورة الزخرف

سورة (الزخرف) مكية ، نزلت بعد سورة (الشورى) ، وقد نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وقد سميت بسورة الزخرف لقوله تعالى فيها : وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ . (الزخرف : ٣٥) .

أفكار السورة

تعرض هذه السورة جانبًا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلة الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائمًا فىَ النفوس فى كل زمان ومكان .

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة (الزخرف) هو : بيان إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل إبراهيم بإبقاء كلمة التوحيد فى عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة عبد الله بن الزبعرى للمؤمنين بحديث عيسى ، وادعاؤه أن الملائكة أحق بالعبادة من عيسى ، ثم بيان شرف الموحدين فى القيامة ، وعجز الكفار فى جهنم ، وإثبات ألوهية الحق سبحانه فى السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار[٢٨] ، فى قوله تعالى : فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الزخرف : ٨٩) .

فصول السورة

إذا تأملنا سورة (الزخرف) وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ - شبهات الكافرين

يشمل الفصل الأول الآيات من (١ – ٢٥) . ويبدأ بالتنويه بشأن القرآن والوحى ، وبيان أن من سنة الله إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم ، ولكن البشرية قابلت الرسل بالاستهزاء والسخرية ، فأهلك الله المكذبين.

والعجيب أن كفار مكة كانوا يعترفون بوجود الله ، ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجه الطبيعية ، من توحيد الله وإخلاص التوجه إليه ، فكانوا يجعلون له شركاء يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام .

وفى هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ، ورد النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى ، فالأنعام من خلق الله ، وهى طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعًا ، وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ، لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم فى الأنعام ما لم يأمر به الله ، بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ، ثم هم ينحرفون عن هذه الحقيقة ، ويتبعون خرافات وأساطير : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ . (الزخرف : ٩) .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ، ومع أنهم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ، ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدهم بمشيئة الله ، ولو شاء ما عبدناهم !! وكانت مجرد أسطورة ناشئة عن انحراف العقيدة .

وفى هذه السورة يناقشهم بمنطقهم هم ، ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التى لا تستند إلى شيء على الإطلاق : وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ١٥ – ١٩) .

ثم يكشف القرآن عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة ، وهو المحاكاة والتقليد ، وهى صورة زرية تشبه صورة القطيع يمضى حيث يُساق بدون تفكير .

ثم يبين القرآن أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم مكرورة بدون تدبر لما يلقى إليهم ولو كان أهدى وأجدى ، ومن ثم لا تكون عاقبتهم إلا التدمير والتنكيل ، انتقامًا منهم وعقابًا لهم : وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ . (الزخرف : ٢٣ – ٢٥) .

٢ - مناقشة ومحاجة

تشتمل الآيات من (٢٦ - ٥٦) على القسم الثانى من السورة ، وهو استمرار لمناقشة قريش فى دعاواها ، فقد كانت قريش تقول إنها من ذرية إبراهيم - وهذا حق - وإنها على ملة إبراهيم - وهذا ادعاء باطل - فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد أن تعرض للقتل والتحريق ، وعلى التوحيد قامت شريعة إبراهيم ، ثم أوصى بها ذريته وعقبه ، فلم يكن للشرك فيها أى خيط رفيع .

وفى هذا القسم من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التى يدعون ، ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ﷺ وقولهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ . (الزخرف : ٣١) ، ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التى تتراءى لهم ، وتصدهم عن الحق والهدى ، وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله ، بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى ، وهو من وسوسة الشيطان .

ويلتفت فى نهاية هذا الدرس إلى الرسول ﷺ يسليه ويواسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم وسيلقون جزاءهم ، سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم ، ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق الذى جاء به الرسل أجمعون ، فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد .

ثم يعرض من قصة موسى عليه السلام حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم ، وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضون بها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التى يعتز بها المشركون : المال ، الملك ، الجاه ، السلطان ، مظاهر البذخ ، وقد بين القرآن فيما سبق أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولو شاء الله لأعطى هذه الأموال للكافر فى الدنيا لهوانها على الله من جهة ، ولأن هذا الكافر لا حظَّ له فى نعيم الآخرة من جهة أخرى ، ولكن الله لم يفعل ذلك حتى لا يفتن الناس ، وهو العليم بضعفهم ، ولولا خوف الفتنة لجعل للكافر بيوتًا سقفها من فضة ، وسلالمها من ذهب ، بيوتًا ذات أبواب كثيرة ، وقصورًا فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة .. رمزًا لهوان هذه الفضة وهذا الذهب والزخرف والمتاع ، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن .

وهذا المتاع الزائل لا يتجاوز حدود الدنيا ، ولكن الله يدخر نعيم الآخرة للمتقين .

٣ - من أساطير المشركين

تشمل الآيات من (٥٧ – ٨٩) الدرس الأخير فى سورة (الزخرف) ، وفيها يستطرد السياق إلى حكاية أساطير المشركين حول عبادة الملائكة ، ويحكى حادثًا من حوادث الجدل الذى كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن مراء ومحالاً .

فلما قيل : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، وكان القصد هو أصنامهم التى جعلوها تماثيل للملائكة ، ثم عبدوها بذاتها ، وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله فى النار ، لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم – وقد عبده المنحرفون من قومه – أهو فى النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ، ومجرد مراء .

ثم قالوا : إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر ، فنحن أهدى منهم إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ، وكان هذا باطلاً يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف حقيقته وحقيقة دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعًا بمجىء الساعة بغتة ، وهنا يعرض مشهدًا مطولاً من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين ، ثم بين إحاطة الله بجميع ما يصدر منهم ، وتسجيل ذلك عليهم : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ . (الزخرف : ٨٠) .

ثم تلطف القرآن فى تنزيه الله عما يصفون ، فأمر النبى ﷺ أن يذكر لهم أنه لو كان للرحمان ولد لكان النبى أول العابدين له ، ولكن الله منزه عن اتخاذ الولد ، فهو سبحانه له الملكية المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة .

ثم يواجههم القرآن بمنطق فطرتهم ، فهم يؤمنون بالله فكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ، ويحيدون عن مقتضاه : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . (الزخرف : ٨٧) .

وفى ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول ﷺ لربه ، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم : وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ . (الزخرف : ٨٨) .

ويجيب عليه فى رعاية ، فيدعوه إلى الصفح والإعراض ، فسيلقون جزاءهم المحتوم : فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الزخرف : ٨٩) .

★ ★ ★

القرآن عربى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

المفردات :

حـــــم : حروف للتنبيه ، أو للتحدّى والإعجاز.

والكتاب المبين : والقرآن الواضح .

تعقلون : تفهمون آياته وتتدبرونها .

أم الكتاب : اللوح المحفوظ ، فإنه أصل الكتب السماوية ، وهو كناية عن علم الله القديم .

لدينا : عندنا .

لعلىٌّ : لرفيع المنزلة ، عظيم القدر .

حكيم : محكم لا ينسخه غيره ، أو ذو حكمة بالغة .

أفنضرب عنكم : أنهملكم ونبعد عنكم .

الذكر : القرآن الكريم ، والذكر بمعنى الشرف ، والقرآن شرف للعرب .

صفحا : إعراضًا عنكم ، وصفحًا مصدر : صفح عنه يصفح ، أى : ولّاه صفحة عنقه ، بمعنى أهمله وتركه.

أن كنتم : لأن كنتم .

مسرفين : مجاوزين الحدّ فى الكفر والضلال .

وكم أرسلنا : كم يراد بها هنا التكثير ، أى : أرسلنا رسلاً كثيرين .

فــى الأولـــيــن : فى الأمم السابقة ، كنوح وهود وصالح .

بــــطشــــا : شدة وعنفًا .

مضى مثل الأولين : سبق فى القرآن أحاديث إهلاكهم ، أو سُنَّة الله هلاك الظالمين .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن عظمة القرآن ، واشتماله على الذروة العليا فى الأخلاق والتشريع والآداب والحكمة ، وتهدد بسحب القرآن عنهم لكفرهم وعنادهم ، وتبين سنة الله فى رأفته بعباده ، ورحمته بهم ، حيث أرسل رسلاً كثيرين ، مبشرين ومنذرين ، لكن البشرية وقفت فى وجههم ، عنادًا وكبرًا وسخرية ، ومن سُنة الله أن يمهل المكذِّبين ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما فعل مع قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ، وقد كان هؤلاء أعظم وأقوى من أهل مكة ، وكان هلاكهم سُنة من سنن الله تعالى فى إهلاك المكذبين بعد تعنتهم وصلفهم ، فأحرى بأهل مكة أن يعتبروا بذلك .

التفسير :

١ - حمٓ .

حروف مقطعة تنطق : حا ميم ، وهى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، أو هى حروف للتحدى والإعجاز وبيان أن القرآن مكوَّن من حروف عربية تنطقون بها وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلَّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد ، وفى أول سورة البقرة تفصيل وافٍ لمعانى الحروف المقطعة فى فواتح السُّور .

٢ - وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ .

والواو هنا للقسم ، أى : وأقسم بالقرآن الواضح البيان .

٣ - إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أنزلنا القرآن وجعلناه بلغة العرب ، ليفهموا أحكامه ، ويسترشدوا بهديه ، ويستضيئوا بنوره ، حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، فيسعدوا بهذا الكتاب ، ويحملوا دين الإسلام إلى من حولهم من الأمم .

٤ - وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ .

وإن القرآن الكريم مثبت عندنا فى اللوح المحفوظ ، فهو كلام الله القديم المحفوظ من التغيير والتبديل، وهو كتاب عالى القدر ، مشتمل على التشريع والآداب ، وقصص الأولين ، وهدايات السماء ، وأخبار

القيامة، وهو مشتمل على الحكمة فى أسلوبه ومعناه ، فلا اختلاف فيه ولا تناقض ، أو هو مهيمن على الكتب السابقة ، يؤيد السليم منها ، ويوضّح الدَّخيل عليها ، وقد تكفّل الله بحفظه .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

وقال تعالى : إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .
(الواقعة : ٧٧ - ٨٠)

وقال سبحانه وتعالى : كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ . (عبس : ١١ - ١٦) .

٥ - أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ .

كان أمرًا عجبًا أن ينزل قرآن عربى مبين ، علىٌّ حكيم ، ثم يقابل بالإعراض والصدود من كفار مكة، لذلك يلوّح القرآن هنا بالتهديد بأن يمسك الله عن استمرار نزول القرآن عليهم ، بسبب إسرافهم فى الكفر والتكذيب .

لكنه تعالى - تفضلاً منه - واصل إنزال القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ ، ليكون مصدر هداية للمؤمنين ، وأداة إرشاد للمسترشدين ، ولتقوم الحجة على الأشقياء الكافرين .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين ردَّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته .

٦ - وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ .

أرسلنا رسلاً كثيرين فى الأمم السابقة عليكم ، رغبة فى هداية البشرية وإرشادها إلى الإيمان بالله ، والاهتداء بهدى السماء .

٧ - وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

لقد وقفت الأمم من رُسُلِها موقف التكذيب والاستهزاء بالرسالة ، مع أن فيها الخير والنور والشفاء ، أى : فكذبت كلُّ أمة رسولها واستهزأت به ، فحق عليها العذاب .

٨ - فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ .

فأهلكنا المكذبين للرسل ، وقد كانوا أشدَّ قوة من أهل مكة ، وتلك سُنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير ، وهى أن يمهل المكذبين وقتًا ما ، علّهم أن يعتبروا أو يتوبوا ، وقد أعذر من أنذر ، فإذا نزل العذاب كان قاصمًا للظهور.

قال تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . (البروج : ١٢) .

وقال تعالى : وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . (محمد : ١٣) .

وقال سبحانه وتعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر : ٦ - ١٤) .

من تفسير القاسمي

وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ .

أي : سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم في تكذيبهم وتعذيبهم ، وما مثلناه بهم، أي : فليتوقع هؤلاء المستهزئون من العقوبة مثل ما حلّ بسلفهم . ا هـ .

وجاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

قال مجاهد : وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ . سنتهم .

وقال قتادة : عقوبتهم .

وقال غيرهما : عبرتهم ، أي : جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم ، كقوله تعالى : فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ . (الزخرف : ٥٦) .

وكقوله جلت عظمته : سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ... (غافر : ٨٥) .

★ ★ ★

خلق الله

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

العزيز : الذى لا يقهر ، أو الذى لا نظير له .

مهدا : فراشا ، وأصله : موضع فراش الصبى .

سبلا : واحدها سبيل ، وهى الطريق .

بقدر : بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة .

فأنشرنا : أحيينا .

ميتا : خالية من النبات فهى كالميت .

تخرجون : تبعثون وتنشرون من قبوركم .

الأزواج : أصناف المخلوقات .

الفلك : السفن .

لتستووا : لتستقروا .

سخر : ذلل وطوّع .

مقرنين : أى : مطيقين ، قال عمرو بن معدى كرب :

لقد علم القبائل ما عقيل ... لنا فى النائبات بمُـقْرنينا

لمنقلبون : راجعون .

تمهيد :

تذكر الآيات مظاهر القدرة الإلهية ، وتعدد ألوان النعم من الله على عباده ، وقد كان العرب على ملة إبراهيم ، فإذا سُئلوا من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، لكنهم لطول المدة ، ولعدم وجود نذير أو رسول فى مدة طويلة جهلوا صفات الله ، وصارت قضية التوحيد غائمة غير ثابتة ولا أصيلة ، وهنا يذكر القرآن لهم عددًا من صفات الله ، وجانبا من نعمائه :

(أ) فالله هو العزيز الغالب ، وهو العليم بكل شىء .

(ب) وهو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقًا لتهتدوا بها فى سيركم .

(جـ) أنزل المطر من السماء ، فأحيا به الأرض الهامدة .

(د) خلق الأزواج من الإنسان والحيوان والنبات ، وسخر السفن والأنعام للركوب ونقل المتاع وغير ذلك .

(هـ) وعند ركوب الحيوان نذكر الله وننزهه عن الشبيه والنظير ، ونقول : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنّا لركوبه مطيقين ولا قادرين .

(و) وإنا راجعون إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

التفسير :

٩ - وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ .

كان العرب على ملة إبراهيم فى توحيد الله ، فإذا سألهم سائل : من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا بمنطق الفطرة : خلقهن الله .

ٱلْعَزِيزُ . الغالب الذى لا نظير له .

ٱلْعَلِيمُ . بكل شىء من أمور المخلوقات ، وهذه قضية لا يستطيع العقل السوىّ أن ينكرها ، فلم يدَّع أحد أنه خلق السماوات والأرض ، وليس من المعقول أن تكون خلقت نفسها ، فليس لها خالق إلا الله .

١٠ - ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

الذى جعل الأرض ممهدة للسير ، وأرساها بالجبال حتى لا تضطرب من تحتكم ، وجعل الأرض مكانًا مريحًا لحياتكم وراحتكم ، وطعامكم وشرابكم ، فهى لكم كالأم الرءوم ترعى طفلها فى مهده .

وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

وجعل لكم فى الأرض طرقًا تسلكونها بين الجبال والأودية لعلكم تهتدون بسبب هذه الطرق فى سيركم من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، أو لتتفكروا فى ذلك ، فيهديكم تفكركم إلى توحيد الخالق وتمجيده .

١١ - وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ .

والله الذى أنزل من السماء ماءً بتقديرٍ حكيم ، حتى لا يزيد كالطوفان فيغرق الناس ، أو يتلف البلاد، وكذلك حتى لا ينقص فلا يفى بالمطلوب من إنبات النبات ، وسقى الزرع والإنسان والحيوان ، بل أنزل سبحانه مطرًا بتقديرٍ حكيمٍ ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، فالأرض الهامدة الجافة القاحلة عند نزول المطر ووضع البذور ، تخرج البذور إلى سطح الأرض كأنها أطفال صغار ، ثم تنتشر الخضرة وينمو النبات ويترعرع ، وتدبّ الحياة على وجه الأرض ، فالذى أحيا هذه الأرض بالماء والنبات ، قادر على البعث والحشر ، وإخراج الموتى من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية .

١٢ - وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ .

خلق الله الأزواج - أى الذكر والأنثى - فى الحيوان والنبات والإنسان ، بل والسحاب ، حتى الذرَّة فيها موجب وسالب ، وبذلك يعمر الكون بسبب فضل الله العلى القدير ، فالهواء فيه أكسجين وأدروجين ، وفى الأرض جاذبية تجذب الهواء ليستنشق منه الإنسان ، وعلى الأرض أسباب متعددة فى الأرزاق وسائر النعم ، كالماء والأكل والهواء والتنفس ، فضلاً عن السمع والبصر والهداية ، وسائر ما خلق الله فى هذا الكون لمتعة الإنسان حتى تتم كرامته ، كما قال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . (الإسراء : ٧٠) .

ومن تلك النعم : تسخير السفن لتحمل التجارة والإنسان ، وتسخير الحيوانات وتذليلها لتحمل الإنسان وتحمل أمتعته ، ولتكون وسيلة للمتعة والجمال والراحة .

١٣ - لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ .

أى : إذا ركبتم السفينة تأملتم فى نعمة ربكم الذى سخر البحر والسفن لنا حتى نقول : بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٰىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (هود : ٤١) .

وإذا ركبتم الدابة أو السيارة أو الطائرة أو أشباه ذلك قلتم : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ .

وروح النص تفيد أن الإنسان عندما يستقر على ظهر السفينة ، أو على ظهر الدابة يذكر الله تعالى ، ويشكر أنعمه التى لا تحصى ويقول : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ .

ومثل هذا الدعاء يقوله المؤمن عند ركوب المصعد إلى الأدوار العليا ، والسيارة والطيارة ؛ لأن هذا التسخير يذكّرنا بأفضال الله علينا .

١٤ - وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ .

وإنا راجعون إلى الله ، ومصيرنا إليه .

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

جاء فى حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوى ما يأتى :

وليس المراد من ذكر النعمة تصوّرها وإخطارها فى البال ، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مستدعية لطاعته وشكره ، فإن من تفكّر فى أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه ، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه ، يتمكن من تصريفه إلى أىّ جانب شاء ، وتفكّر أيضًا فى خلق البحر والريح وفى كونهما مسخّرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق فى معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه ، وكمال قدرته وحكمته ، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ .

من تفسير ابن كثير

ذِكْرُ الأحاديث الواردة عند ركوب الدّابة :

حديث عبد الله بن عمر :

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : إن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبّر ثلاثًا ، ثم قال : سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ . ثم يقول : «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهمّ هوّن علينا السفر ، واطوِ لنا البعد ، اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل ، اللهم اصحبنا فى سفرنا ، واخلفنا فى أهلنا» .

وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : «آيبون تائبون إن شاء الله ، عابدون لربنا حامدون»[٢٩] .

من تفسير فخر الدين الرازى

هناك أذكار ثلاثة ما ينبغى لعبد أن يدع قولها ، وليس بواجب ذكرها فى اللسان ، وهى :

دعاء السفر فى البحر : بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (هود : ٤١) .

ودعاء السفر فى البرّ . سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ .

ودعاء دخول المنازل : رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ . (المؤمنون : ٢٩) .

★ ★ ★

عبادة المشركين للملائكة

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

جـــــــزءا : ولدًا ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وعبّر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن ولد له ، كما قال شاعرهم :

إنمـــا أولادنـــا أكبـــا ... دنا تمشى على الأرض

لكفور : لشديد الكفر .

مبين : ظاهر الكفر .

أصفاكم : أكرمكم ، واختار لكم .

بُشِّر : أخبر .

مثلا : شبها ، أى : مشابها ، بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد .

كظيم : ممتلئ غيظًا وغمًا .

يُنشَّأ : يربَّى .

فى الحلية : فى الزينة .

الخصام : الجدال .

غير مبين : غير قادر على إظهار حجَّته .

جعلوا : سمُّوا .

أشهدوا خلقهم : أحضروا خلق الملائكة فشاهدوهم إناثًا ؟

ستكتب شهادتهم : ستسجل فى ديوان أعمالهم .

يخرصون : يكذبون .

مستمسكون : متمسكون ومعوّلون .

على أمة : على طريقة خاصة .

مترفوها : أهل الترف والنعمة الذين أبطرتهم الشهوات .

مقتدون : سالكون طريقهم .

تمهيد :

اعترف الكفار بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ، ومع هذا الاعتراف كانوا يعتقدون فى أسطورة كاذبة ، هى أن الله تعالى تزوج من سراة الجنّ فأنجب الملائكة ، وأن الملائكة إناث ، وهنا يناقش القرآن هذه الأسطورة ، ويفنّدها بثلاثة أجوبة :

(أ) فهم ينفرون من الإناث ، ثم ينسبونهن لله .

(ب) ضعف الإناث .

(جـ) جهلهم بحقيقة الملائكة .

ثم هم يدَّعون أنهم يعبدون الملائكة بمشيئة الله ، وهذا كذب ؛ لأن الله أعطاهم العقل والإرادة والاختيار ، ورسم لهم الطريق المستقيم ودعاهم إلى سلوكه ، إنهم لا يملكون حجة ولا دليلاً على سلوكهم ، وكل ما يملكونه أو يعتمدون عليه هو تقليد الآباء والأجداد ، وهنا يصيح فيهم : أتقلِّدون الآباء حتى لو جاءتكم الرسل بالهداية والإيمان والطريق المستقيم ؟ وهنا يجيبون : نحن كافرون بهداية الرسل كما كفر مَنْ قبلنا ، وهنا يقول القرآن ما فحواه : لقد انتقمنا ممن كفر قبلكم ، فاحذروا وتنبهوا .

التفسير :

١٥ - وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ .

فى الآيات السابقة اعترفوا بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ، ومع هذا الاعتراف له بمقام الألوهية ، وهذا يقتضى تنزيه الله عن النظير وعن المثيل ، وأن الخلق جميعًا عباده ، إلا أنهم نسبوا الملائكة إليه ، وقالوا : الملائكة بنات الله ، وهذا كفر واضح ، فالخلق جميعًا عبيده ، فلا يجعل جزءًا منهم بناته .

قال تعالى : أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ . (النجم : ٢١ ، ٢٢) .

فهو سبحانه يناقشهم بمنطقهم ، ويفحمهم ، بأنه هو الخالق المبدع ، وعلى فرض أنه أراد أن يتخذ ولدًا لاصطفى لنفسه الأفضل من الذرية ، وهم الذكور .

قال تعالى : لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ . (الزمر : ٤) .

أخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال ناس من المنافقين : إن الله صاهر الجنّ ، فخرجت من بينهم الملائكة ، فنزل فيهم : وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ... (الزخرف : ١٩) .

والخلاصة : إن الإله سبحانه وتعالى منزه عن الصاحبة والولد ، وهو واحد متفرد بالملك .

قال تعالى : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا . (الإسراء : ١١١) .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ .

إن جنس الكافر يعتقد اعتقادات باطلة ، وهى كفر واضح ، حيث تنسب لله تعالى ما لا يليق .

قال تعالى : قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

١٦ – أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ .

أتجعلون لله ما تكرهون ، وتدَّعون أن الله جعل لنفسه الجنس الأقل ، وهو البنات ، وميزكم واختار لكم البنين مع أنكم تكرهون لأنفسكم البنات ، وتفضِّلون الذكور الذين يركبون الخيل ، ويدافعون عن القبيلة.

١٧ – وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ .

وإذا أخبر أحد هؤلاء بأنه قد ولدت له أنثى ، اكفهر وجهه ، واشتد به الحزن والغيظ ، لمعرفته أنه قد ولدت له أنثى ، ومع ذلك ينسب لله الإناث ، أى : كيف تجعلون لله تعالى الصنف الذى تكرهونه لضعفه، وقلة حيلته واحتياجه إلى الحيلة والزينة .

١٨ – أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ .

أتنسبون إلى الله تعالى البنات اللاتى يحتجن إلى الزينة والذهب والثياب الجميلة ، وهن وديعات رقيقات لا يستطعن أن يبرعن فى الجدال والخصام ، ولا أن يقدّمن حجة قوية بيِّنة .

روى عن عمر أنه قال : اخشوشنوا فى الطعام ، واخشوشنوا فى اللباس ، وتمعددوا .

أى : تزيّوا بزى معد فى تقشفهم .

ويقول الشاعر العربى :

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جرّ الذيول

١٩ – وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ .

أى : اعتقدوا أن الملائكة إناث مع أنهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، فهم نَسبوا الملائكة – الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله – للأنوثة .

أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ...

أحضروا وقت خلق الله لهم ، حتى عرفوا أنهم إناث ؟ وهذا تجهيل وتهكم بهم .

سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ .

سيسجل الكتبة من الملائكة أقوالهم واعترافاتهم التى يلقونها جزافًا ، دون أى سند من اليقين ، وسيسألون عنها يوم القيامة .

قال المفسرون : حكى القرآن عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة :

الأول : أنهم نسبوا إلى الله الولد .

الثاني : أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين .

الثالث : أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان ، فكذّبهم القرآن الكريم فى تلك الأقوال .

لطيفة

روى أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى فهجر البيت الذى ولدت فيه ، وجلس فى بيت زوجته الأخرى ، فاحتالت زوجته لاستمالة زوجها ، وأخذت تغنى وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا	يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا	وليس لنا من أمرنا ما شينا
وإنما نأخذ ما أعطينا	ونحن كالأرض لزارعينا

نـنبت ما قد غرسوه فينا

٢٠ - وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

ذكرنا أن هؤلاء الكفار أخطأوا خطأ مركبًا :

(أ) فقد جعلوا لله ولدًا .

(ب) واختاروا له الصنف الأضعف .

(جـ) وجعلوا الملائكة – وهم عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون – جعلوهم إناثًا .

(د) وادعوا كذبًا أن الله أراد منهم ذلك ، ولو شاء لمنعهم من عبادتهم .

وقد كان العرب يصورون الأصنام ، التى هى على صور الملائكة ، ويدَّعون أنها بنات الله ، ويدَّعون أن الله عالم بذلك ، وهو يقرّهم على هذا العمل ولو شاء لمنعهم .

فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ ، ذلك أن الله أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأرشد البشرية إلى عبادته وحده سبحانه لا شريك له .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٢٥) .

وقد أعطى الله كل إنسان العقل والإرادة والاختيار ، وجعل سلوكه سببًا فى تحمله المسئولية يوم القيامة ، فلا يجوز إلقاء المسئولية على مشيئة الله تعالى .

وقريب من ذلك قوله سبحانه وتعالى : وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . (الأعراف : ٢٨ – ٣٠) .

وقال تعالى فى هذه الآية :

مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ...

ليس لهم فى قولهم دليل ولا برهان ولا معرفة ، بما ينبغى لجلال الله وقدره ، من عبادته وحده لا شريك له .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

ما هم إلا كاذبون فيما قالوا ، متمحلون تمحلاً باطلاً ، متقولون على الله ما لم يقله .

ال القرطبى فى تفسير الآية :

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ...

وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل ، فكل شىء بإرادة الله ، والمشيئة غير الرضا ، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة ، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام ، لعلمنا أن الله أراد منهم ذلك . ا هـ .

وقال الشوكانى فى تفسير الآية :

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ...

معناه أن الكفار قالوا : لو شاء الرحمان فى زعمكم أيها المؤمنون ، ما عبدنا هذه الملائكة ، وهذا كلام حق يراد به باطل ، لأنهم يريدون بذلك أن الله راضٍ عن عبادتهم للأصنام .

مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ...

وزعموا أنه إذا شاء فقد رضى .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

أى : ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ، ويتمحلون تمحلاً باطلاً ، فإن الله خلق المؤمن والكافر ، وهو يحب المؤمن ، ويبغض الكافر ، والله يأمر بالحق والإيمان والخير ، ولا يرضى لعباده الكفر .

٢١ - أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

أى : أأعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ، ينطق بصحة ما يدّعون ، فهم بذلك الكتاب مستمسكون وعليه معوّلون .

والخلاصة : إنهم لا كتاب لهم بذلك ، ولا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل .

كما قال سبحانه وتعالى : أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ . (الروم : ٣٥) .

أى : لم يكن لهم ذلك .

٢٢ - بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ .

أى : إنهم لا يملكون كتابًا ولا حجة ، ولا دليلاً نقليًّا ولا عقليًا ، وقد تركز قولهم فى أنهم نشأوا فوجدو آباءهم الأقدمين على طريقة وملة فى الدين ، هى عبادة هذه الأصنام ، فساروا وراء هديهم ، إعظامًا له وإكبارًا لهم .

قال أبو السعود :

والأمة : الدين والطريقة ، سميت أمّة لأنها تؤَم وتُقصد .

وقال الشوكانى فى تفسير الآية :

٢٣ - وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ...

أى : على عادة تعوّدوها ، وطريقة ساروا عليها فى عبادتهم لهذه الأصنام .

وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ .

فاعترفوا بأنه لا مستند لهم ولا حجة بأيديهم ، ولا شبهة ولكنهم اتبعوا آباءهم فى الضلالة .

مُّقْتَدُونَ . متبعون .

وفى الآيات تسلية للرسول ﷺ ببيان ما حدث للرسل من قبله ، وبيان أن تكذيب الرسل حدث من الرؤساء والمترفين ، إيثارًا للعاجلة على الآجلة.

قال تعالى : كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣) .

قال المفسرون :

وتخصيص المترفين بالذكر للإشعار بأن الترف هو الذى أوجب البطر ، وصرفهم عن النظر إلى التقليد.

٢٤ – قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ .

أى : قال كل رسول لقومه : أتتبعون ملة آبائكم ، وتقتدون بالسابقين ، ولو قدمت لكم دينًا أهدى ، وشرعًا أقوم ، وملة أفضل مما وجدتم عليه آباءكم ؟ فصرحوا له بأنهم كافرون برسالته ، مهما كان فيها من هدى وأفضلية .

٢٥ – فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب ، فتأمل أيها الرسول كيف كانت عاقبة المكذبين ، وسوف يلاقى قومك مثل جزائهم إن أصرُّوا على الكفر ، فلا تحزن عليهم .

★ ★ ★

اختيار الأنبياء ، وبيان حال الدنيا

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

بـــــــراء : برىءٌ وبعيد ، أى : تبرأ إبراهيم من عبادة الأصنام .

فـطـرنـى : خلقنى وأبدعنى .

كلمة باقية : كلمة التوحيد أو البراءة .

فـى عـقـبـه : ذريته إلى يوم القيامة .

الـــحـــق : القرآن .

ورسول مبين : وزسول ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرة .

من القريتين : من إحدى القريتين : مكة ، والطائف ، والرجل الذى من مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفى .

سُـخْـــريا : مسخرًا فى العمل ، مستخدمًا فيه .

السُّـقُــف : بضمتين ، واحدها سقف .

معـــارج : مصاعد ، واحدها مِصْعَد ، وهو المسمّى الآن (أسانسير) ، وهذا من معجزات القرآن إذ لم يكن معروفًا فى عصر التنزيل .

يظهـرون : يصعدون ويرتقون .

زخـــرفـا : الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف .

لمـا متـاع : إلا متاع ، حكى سيبويه : نشدتك الله لما فعلت كذا ، أى : إلا فعلت كذا .

تمهيد :

تكلمت الآيات السابقة عن ذم تقليد الآباء ، وتقديمهم على الرسل ولو كان الرسل أهدى من آبائهم ، وضرب لهم نموذجًا عمليًا بإبراهيم عليه السلام ، الذى تبرأ من الأصنام التى يعبدها أبوه وقومه ، وتوجه إلى عبادة الله وحده .

إن الترف والنعمة والغنى فى أهل مكة أصابهم بالكبر والانصراف عن اتباع الرسول محمد ﷺ ، وقالوا : إنه ساحر وإنا كافرون بدينه ، ثم اقترحوا أن ينزل القرآن على شخص عظيم ، من عظماء مكة مثل الوليد بن المغيرة ريحانة قريش ، أو عظيم من عظماء الطائف مثل عروة بن مسعود الثقفى ، وقد جابههم القرآن وبين أن اختيار الرسل شأن إلهى بحت ، وأنهم لا يقسِّمون الأرزاق والنبوّات ، فإذا كانت قسمة الأموال لم يكلها الله إليهم ، فما بالك بالنبوة والرسالة وهما شأن أفضل ؟

إن حكمة الله فى توزيع الأرزاق الدنيوية أن يجعل بعض الناس أغنياء ، وبعضهم فقراء ، حتى يضطر الفقير أن يعمل عند الغنى ، ويحتاج الغنى إلى عمل الفقير ، فكل منهما مسخَّر ومضطر للاستعانة بالآخر ، ولولا كراهة أن يكون الناس أمة واحدة ، أو جماعة كلها كفار ، لأعطينا الكفار متع الدنيا وزخارفها ، فتكون سقف بيوتهم من الفضة ، وبها مصاعد يرتقون عليها ، ولبيوتهم أبواب وأسرَّة وكراسى يتكئون عليها فى الجلوس، وبالبيوت نقوش وزينة ، وكل ذلك متاع الدنيا الفانية ، والآخرة فيها نعيم خالد للمتقين المؤمنين العاملين.

التفسير :

٢٦ - وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ .

واذكر أيها الرسول لقومك جدَّهم إبراهيم الخليل ، الذى تبرأ من عبادة الأصنام ، وجهر بهذه البراءة أمام أبيه وقومه ، وكان الأولى بأهل مكة أن يتبعوه فى نبذ الأصنام وإخلاص التوحيد .

٢٧ - إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ .

لكن الله الذى خلقنى وأوجدنى من العدم ، فإنى سأتّجه إليه بالعبادة والتوحيد ، رجاء أن يرشدنى إلى الدين الحق ، ويهدينى إلى طريق السعادة .

٢٨ - وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى : جعل كلمة التوحيد - وهى (لا إله إلا الله) - باقية فى ذريته ، متأصلة فيهم ، حتى يرجع إلى التوحيد والإيمان من أشرك منهم .

قال مجاهد :

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً .

يعنى : (لا إله إلا الله) لا يزال فى ذريته من يقولها إلى يوم الدّين .

وقد وصى إبراهيم أبناءه وأحفاده بالتوحيد .

قال تعالى : وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣٢) .

وظل ميراث التوحيد فى ذرية إبراهيم خلفًا عن سلف ، وكانت فى الجاهلية قبيل الإسلام طائفة من الموحدين ، مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد دان بالتوحيد مخالفًا قومه ، وفى ذلك يقول :

أربًّا واحدًا أم ألف ربّ أدين إذا تقسّمت الأمور

تركت اللات والعزّى جميعًا كذلك يفعل الرجل الخبير

ومثل أمية بن أبى الصلت الذى تنسّك فى الجاهلية ، واجتنب الخمر والفواحش ، وسمع أن نبيًّا سيظهر، فأراد أن يكون هو نفسه ذلك النبى ، ومن شعره :

مجّدوا الله وهو للحمد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرًا

وقال أيضًا :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربّى ومسانا

وقال فيه النبى ﷺ : «إن كاد أميّة ليسلم»[٣٠] .

ولما ظهر الإسلام امتنع عن الإيمان حقدًا وحسدًا على النبى محمد ﷺ ، ولذلك قالوا فى أمية : آمن لسانه وكفر قلبه ، ومن شعر أمية بن أبى الصلت فى التوحيد :

إلهُ العالمين وكلّ أرض وربُّ الراسيات من الجبال

بناها وابتنى سبعًا شدادًا بلا عُمُد يرين ولا رجال

وسوّاها وزيّنها بنور من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ في دجاها مراميها أشد من النّصال
وشق الأرض فانبجست عيونًا وأنهارًا من العذب الزلال
وبارك في نواحيها وزكّى بها ما كان من حرث ومال
وكل معمر لابد يومًا وذي دنيا يصير إلى زوال
وسيق المجرمون وهم عراة إلى ذات المقامع والنكال
وحلّ المتقون بدار صدق وعيش ناعم تحت الظلال

٢٩ - بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ .

بل متعتُ أهل مكة وآباءهم بسعة العيش ، وتجارة رابحة يذهبون بها إلى الشام صيفًا ، وإلى اليمن شتاء ، وتجارتهم آمنة لا يعتدى عليها أحد ، ثم أرسلت لهم رسالة هى الإسلام ، ورسولاً واضح الحجة والمعجزة ، ومعه كتاب هو القرآن .

٣٠ - وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ .

لما جاءهم الحق والإسلام والقرآن عاندوا وكفروا ، وقالوا : هذا سحر يفرّق بين المؤمن به وبين أهله الكافرين ، ونحن كافرون بهذا السِّحر .

فأنت ترى أن الله أنعم عليهم فلم يشكروا بل كفروا .

قال تعالى : أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص : ٥٧)

وقال سبحانه وتعالى : لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ . (قريش : ١ - ٤) .

قال أبو السعود :

سموا القرآن سحرًا وكفروا به ، واستحقروا الرسول ﷺ ، فضمُّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به .

٣١ – وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ .

تعنّت أهل مكة وقدّموا طائفة من المطالب ، مثل أن يكون الرسول مَلَكًا ، أو أن يكون مالكًا لأموال كثيرة تغنيه عن العمل والحاجة ، ولما فنَّد القرآن آراءهم ، قالوا : لو كان هذا قرآنًا حقًّا من عند الله لما اختار لرسالته يتيمًا فقيرًا مغمورًا ، وإنما يختار عظيمًا ثريًّا وجيهًا بين الناس ، مثل الوليد بن المغيرة فى مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفى بالطائف ، ظنًّا منهم أن العظيم من يكون له مال كثير وحشم وخدم ، وما علموا أن الرسالة تحتاج إلى نفس عظيمة ذات همة عالية ، ومطالب سامية ، ورحمة بالضعفاء ، وحرص على الهداية ، وتطلع إلى مرضاة الله ، وسمو فى العبادة والتهجد والتبتل وترتيل القرآن ، وقد كان محمد ﷺ أهلاً لذلك ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد تعددت الآراء حول الأشخاص الذين عناهم كفار مكة ، بعظيم مكة أو عظيم الطائف ، فنقل ابن كثير ثلاثة آراء هى :

١ – الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفى بالطائف .

٢ – عتبة بن ربيعة بمكة ، وابن عبد ياليل بالطائف .

٣ – الوليد بن المغيرة بمكة ، وكنانة بن عمر الثقفى بالطائف .

ثم قال : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أىّ البلدتين كان .

٣٢ – أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

هذا استفهام إنكارى عليهم .

والمعنى :

هل تقسيم النبوة والرسالة والألطاف الإلهية موكول إليهم حتى يطلبوا أن تكون الرسالة إلى عظيم من عظماء مكة أو الطائف ؟

إذا كنا نحن قد قسمنا بينهم حظوظهم فى الأموال والأرزاق والعقول وشئون الحياة ، وجعلنا بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيرًا ، وبعضهم متوسطًا ، وجعلنا هذا أميرًا وهذا مأمورًا ، وهذا أجيرًا وهذا دافع الأجرة ؛ ففاوتنا بينهم فى المعايش ، ليتمّ تسخير كل إنسان لمصلحة الآخرين ، فيسعد الجميع ويعمر الكون ، ولو كانوا سواء فى جميع الأحوال ، لم يخدم أحدٌ أحدًا ، فيفضى ذلك إلى خراب العالم وفساد نظامه .

قال أبو حيان :

سُخْرِيًّا . بضم السين ، من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هى أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلُوا إلى منافعهم .

وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

رحمة الله بخلقه ، وهدايته لهم خير لهم مما بأيديهم من متاع الدنيا .

أو إنعام الله عليك يا محمد بالنبوة والرسالة والهداية ، خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفانى .

وفى تفسير البحر المحيط ما يأتى :

وفى قوله تعالى : **نَحْنُ قَسَمْنَا** ... تزهيد فى الإكباب على طلب الدنيا ، وعونٌ على التوكل على الله .

وقال قتادة : تلقى ضعيف القوّة ، قليل الحيلة ، عيى اللسان ، وهو موسع عليه فى الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه فى الرزق .

وقال الشافعى :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤسُ اللبيب وطيب عيش الأحمق

٣٣ - وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

لولا أن يرغب الناس عن الإيمان إلى الكفر لأعطينا للكافر فى هذه الدنيا كل ما يتمناه إنسان ، وعجلنا له الطيبات ، وادَّخرنا الآخرة للمؤمنين ، فهم وحدهم الذين يستمتعون بنعيم الآخرة ، وهى الحياة الحقيقية ، أما الدنيا فعرض زائل يأكل منه البر والفاجر .

قال رسول الله ﷺ : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماءٍ أبدا»[٣١] .

ومعنى الآيـة :

لولا أن الناس يرغبون فى الكفر إذا رأوا الكافر فى سعة من الرزق ، ويصيرون أمة واحدة فى الكفر ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار ، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقفها من الفضة الخالصة ، وبها مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون .

٣٤ - وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ .

وجعلنا لبيوتهم أبوابًا من الفضة ، وبها أسرة ينامون عليها ، أو مقاعد من الفضة يجلسون عليها ويتكئون ، زيادة فى الراحة والرفاهية .

٣٥ - وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : جعلنا فى بيوتهم نقوشًا وزينة ، ويطلق الزخرف على الذهب ، وعلى الزينة والنقش المموه بالذهب ، أى : جعلنا لبيوتهم أبوابًا وسررًا ومصاعد من الفضة والذهب ، أو جعلنا لهم زينة وزخرفًا من ستور ونمارق ونقوش .

والخلاصة :

جعلنا بيوت الكفار ودرجها ومصاعدها وسقفها من الفضة والذهب ، وبها كثير من أنواع الزينة ، وكل ذلك النعيم متاع الحياة الدنيا الفانية . أما الآخرة وجنانها ونعيمها ، وأنهارها وحورها وولدانها فهى للمتقين خاصة .

وإذا تساءل إنسان وقال : إذا لم يوسع الله على الكافرين جميعًا خوف الفتنة ، فهلا وسّع على المؤمنين جميعًا فى الدنيا ؟

والجواب : سيدخل الناس فى الإيمان رغبة فى الدنيا ، وهذا باب واسع للمنافقين ، فكانت الحكمة فيما شرع الله واختار ، حيث جعل فى الكفار فقراء وأغنياء ، وجعل فى المؤمنين فقراء وأغنياء ؛ لتكتمل حكمة الله فى الاختبار والابتلاء ، ويظل للعبد مساحة من الاختيار والرغبة ، وتحديد السلوك والطريق الذى يختاره ، ليكون ذلك أساس الجزاء العادل من الله .

قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٢ ، ٣) .

من تفسير ابن كثير

وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...

أى : إنما ذلك من الدنيا الفانية ، الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، فهو سبحانه يعجّل لهم حسناتهم التى يعملونها فى الدنيا ، مآكل ومشارب ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها .

ثم قال سبحانه وتعالى : وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ ، حين رآه على رمال حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء ، وقال : يا رسول الله ، هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ؟ وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس ، وقال : «أفى شك أنت يا ابن الخطاب»؟ ثم قال ﷺ : «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا» وفى رواية : «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»؟[٣٢] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة» .[٣٣] وإنما خوّلهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها .

★ ★ ★

غواية المشركين

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

من يعش : من يتعامى ويعرض ويتغافل ، يقال : عَشِى فلان كرَضِى ، إذا حصلت له آفة فى بصره .

نقيض له : نيسِّر له ، أو نسبب له ، أو نُتِح له .

له قرين : مصاحب لا يفارقه .

المشرقين : أى : المشرق والمغرب ، وبعد المشرقين ، أى : بعد أحدهما من الآخر .

فإما نذهبن بك : فإن قبضناك وأمتناك .

وإنــــه لــذكــر : وإن القرآن لشرف عظيم .

تســـــألـــــون : أى : عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم أن قريشًا قالت : قيّضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه ، فقيضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعُزّى ، قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال : ربنا ، قال : وما العزّى ؟ قال : بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمّهم؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال طلحة لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ .

تمهيد :

تصوّر الآيات مشهدًا عمليًّا لهؤلاء الكفار ، الذين عميت قلوبهم عن رؤية نور الإسلام ، وضعفت أبصارهم وبصائرهم عن الاهتداء بهدى القرآن ، إن من سنة الله أن من يعرض عن الهدى ييسر الله له قرين سوء من شياطين الإنس أو الجن ، يغريه بالباطل ، ويزهّده فى الحق ، ويوم القيامة يتبرأ الإنسان من شياطين الإنس والجن ، ويتمنى أن يبتعد عنهم بُعد المشرق عن المغرب، ثم تواسى الآيات الرسول الكريم ، حتى لا يشتد حزنه على إعراض كفار قريش عن دعوة الإسلام ، فتقول له : إن آذانهم صمًّاء ، وعيونهم عمياء، وأنت لا تسمع الصُمَّ ، ولا تهدى العمى ، ولا ترشد من غرق فى الضلال الواضح ، إن هذا القرآن شرف لك يا محمد ولأمّتك ، فهو حافل بالتوحيد والهداية ، والأخلاق والتشريع ، وسوف تسألون عن هذه النعمة العظمى ، التى ساقها الله لكم فأعرض كفار مكة عنها .

التفسير :

٣٦ - وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ .

من يعرض عن ذكر الله ويستهين بالقرآن ، ويأنف من ذكر دين الله ، ويبتعد عن شرع الله ، نيسر له قرين سوء من الجنّ ، يوسوس له بالشر ، ويحرّضه على الفسوق والعصيان .

قال تعالى : وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... (فصلت : ٢٥) .

وجاء فى صحيح مسلم وغيره ، أن مع كل مسلم قرينًا من الجن ، وأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدمّ[٣٤] .

قال ابن كثير :

وَمَن يَعْشُ ...

أى : يتعامى ويتغافل ويعرض ، عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ .

والعشا فى العين ضعف بصرها ، والمراد هنا عشا البصيرة .

نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ . كقوله تعالى : فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... (الصف : ٥) . ا هـ .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا . (مريم : ٨٣) .

ومعنى : فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ . أى : فهو له ملازم ومصاحب لا ينفكُّ عن الوسوسة له والإغواء .

٣٧ - وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ .

وإن الشياطين ليصدُّون هؤلاء الكفار عن طريق الهدى ، ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة من أمرهم.

وفى هذا المعنى قوله تعالى : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . (الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤) .

٣٨ - حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ .

حتى إذا حُشر هذا الكافر مقرونًا بالسلاسل مع قرينه من الشياطين ، تبرم به ، وتمنى أن يكون الشيطان بعيدًا عنه بُعد المشرق من المغرب ، لأنه كان سبب إغوائه وإضلاله .

قال أبو سعيد الخدرى : إذا بُعث الكافر زوِّج بقرينه من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار.

وقال الطبرى وابن كثير وغيرهما :

المراد بالمشرقين ههنا : ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ههنا تغليبًا ، كما يقال :

القمران : للشمس والقمر .

والعمران : لأبى بكر وعمر .

والأبوان : للأب والأمّ .

٣٩ - وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

لن يخفف عنكم من العذاب ، ولا من الهوان النفسى فى النار، اشتراككم فى العذاب مع بعضكم البعض، لأن لكل منكم نصيبه الكامل فى جهنم ، وله من البلاء نصيبه الأوفر ، ولا يجد الكافر السلوى فى جهنم بعذاب غيره ، كما كان يحدث فى الدنيا ، حيث إن المصيبة إذا عمت هانت .

جاء فى التسهيل لعلوم التنزيل :

المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم فى العذاب ، ولا يجدون راحة التأسى التى يجدها المكروب فى الدنيا ، إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه .

انظر قول الخنساء ترثى أخاها صخرا :

يذكرنى طلوع الشمس صخرًا وأذكره بكل مغيب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

ولا يبكون مثل أخى ولكن أعزّى النفس عنه بالتأسى

٤٠ - أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ .

كان ﷺ حريصًا على هداية قومه ، راغبًا فى دعوتهم للإسلام ، وإنقاذهم من عذاب جهنم ، لكنهم تصامموا عن دعوته ، وأعرضوا عن الإسلام ، وغلبتهم رغباتهم فى متعهم ولذائذهم ، وانشغالهم بالخمر والإثم عن تلبية دعوة الإسلام ، فأخبر الله رسوله بأنه لا أمل فى هدايتهم ، فطب نفسًا ، وقرّ عينًا ، فأنت يا محمد لن تستطيع أن تسمع هؤلاء الكفار ، الذين هم كالصم والعمى ، ومن كان فى ضلال واضح ، والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة ، والمراد بالصمم انغلاق القلب عن سماع الحق ، ورغبته فى اتباع الضلال الواضح ، مثل عبادة الأصنام ، وشرب الخمر ، وارتكاب الفواحش .

٤١ - فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ .

كان أهل مكة يقولون : انتظروا حتى يموت محمد كما مات غيره من الشعراء ، فقال القرآن الكريم : **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** . (الزمر: ٣٠ ، ٣١) .

وهنا يقول القرآن الكريم : حتى إذا مت يا محمد ، فسوف ننتقم من كفار مكة .

٤٢ - أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ .

وإذا نصرناك عليهم فى حياتك ، وتمكّنت من نواصيهم ، فإنا قادرون على ذلك .

قال تعالى : وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... (آل عمران : ١٢٦) .

لقد نصر الله رسوله ومن معه من المؤمنين فى غزوة بدر وغيرها ، حتى فتحت مكة ، ثم دانت شبه الجزيرة العربية للإسلام .

قال ابن كثير :

المعنى : لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، فى حياتك أو بعد وفاتك ، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرّ عينه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم .

٤٣ - فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

فَتَمَسَّك يا محمد بالقرآن الذى أوحى إليك ، ويجب أن تتمسك الأمة المسلمة به اقتداء بنبيها ، فالقرآن هدى السماء إلى أهل الأرض ، وفيه الهداية والتشريع والآداب والقصص ، وأخبار السابقين ، وعرض لمشاهد القيامة ، والحساب والجزاء والجنة والنار .

إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

إنك على الحق الواضح ، والطريق الموصل إلى النجاح فى الدنيا ، والسعادة يوم القيامة .

٤٤ - وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ .

نزل القرآن بلسان عربى مبين ، وكان شرفا للأمة العربية أن ينزل وحى السماء باللسان العربى ، على رجل عربى منهم ، وقد ربَّاهم القرآن وطهرهم ، وعلمهم ووحدهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وبالقرآن توحدت جزيرة العرب ، وفُتحت بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا وبلاد ما وراء النهر ، وشرَّقت الدعوة الإسلامية وغرَّبت ، واحتضن الإسلام جميع الأمم التى دخلت فى الإسلام ، وكان العلماء والأدباء ، والنحاة والفلاسفة وغيرهم من بلاد أعجمية دخلت فى الإسلام ، واعتنقت هذا الدين وقامت بخدمته .

قال ﷺ : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أمّ ، ولكن العربية اللسان ، من تكلم العربية فهو عربى»[٣٥].

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء : ١٠) .

لقد حفظ القرآن اللغة العربية ، والأمة العربية ، والعرب بالإسلام كلُّ شىء ، وبدون الإسلام لا شىء .

قال تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . (فصلت : ٣٣) .

٤٥ – وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ .

إن التوحيد والإقرار لله تعالى بالوحدانية هو رسالة جميع الرسل ، دعا إليه نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، والتوحيد فطرة تنطق بها الأرض والسماء .

كما يقول القائل :

سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، سل السماء من نجم نجومها ، وسخَّر شمسها وقمرها ، وأضاء نهارها وأظلم ليلها .

قال أبو حيان : والسؤال هنا مجاز عن النظر فى أديان الأنبياء ، هل جاءت عبادة الأوثان فى ملةٍ من مللهم ؟

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ ...** (النحل : ٣٦)

ويصح أن يكون السؤال فى الآية موجَّها إلى كلِّ واحد من قريش .

وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أمم من أرسلنا قبلك من رسلنا ، هل شُرع لأى أمة عبادة الأوثان أو الأصنام أو غيرها من دون الله تعالى .

أى : إنك يا محمد لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد بأمر ابتدعته من عند نفسك ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين قبلك ، وهذا يدل على وحدة الدين الحق فى أصوله ، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن المفسرين من قال : سبب هذه الآية أن اليهود والمشركين قالوا للنبى ﷺ : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ، فأمره الله بسؤال الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير والتأكيد ، لا لأنه كان فى شك منه .

ويؤخذ من الآية ما يأتى :

دين التوحيد قديم ، ونبذ الشرك قديم ، فلذا سئلت أمم الرسل عليهم الصلاة والسلام :

هل أذن الله بعبادة الأوثان ؟

وهل أمر بعبادة غير الله ؟

والسبب الأقوى فى بغض الكفار للنبى ﷺ وعداوتهم له هو إنكاره لأصنامهم ، فبيَّن الله أنه غير مخصوص بهذا الإنكار ، ولكنه دين كل الأنبياء .

وإذا استعرضنا سورة (هود) ، فسنجد أنها ذكرت قصة نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى التوحيد، ثم نجد مثل ذلك فى الآية (٥٠) من نفس السورة : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ...

وفى الآية (٦١) : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ...

ثم نجد فى الآية (٨٤) من نفس السورة : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ...

أى أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى ، والتوجّه إليه وحده بالعبادة والطاعة ، والبعد عن ارتكاب المعاصى ، كانت رسالة جميع الرسل والأنبياء .

قال ﷺ : «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٣٦] .

★ ★ ★

العبرة من قصة موسى مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

بـآيـاتـنـا : الآيات هى المعجزات .

ومـلـئـه : أشراف قومه .

أخـذنـاهـم : أخذ قهر بالعذاب ، فأرسلنا عليهم الجراد والقمل والضفادع .

الساحـر : العالم الماهر .

بما عهد عندك : بما أخبرتنا من عهده إليك ، أنَّا إذا آمنَّا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا .

ينـكـثـون : ينقضون العهد .

من تـحـتـى : من تحت قصرى ، وبين يدىّ فى جناتى .

مـهـيـن : ضعيف حقير .

يـبـيـن : يفصح عن كلامه ، وكانت بموسى لثغة فى لسانه ، كما قال ابن عباس .

أسـورة : واحدها سوار ، كأخمرة وخمار .

مـقـتـرنـيـن : مقرونين به ، يعينونه على من خالفه .

فاستخف قومه : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال ، فاستجابوا له .

آسـفـونـا : أغضبونا وأسخطونا .

سـلـفـا : قدوة لمن بعدهم من الكفار .

مـثـلا : حديثًا عجيب الشأن ، يسير سير المثل ، فيقول الناس : مثلكم مثل قوم فرعون .

تمهيد :

قصة موسى من أكثر القصص دورانا فى القرآن الكريم ، والعبرة هنا عُتُو فرعون واستكباره ، وإرسال الله عليه وعلى ملئه أصنافًا من العذاب ، كالجراد والقمل والضفادع ، ثم يطلبون من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب ، وعندئذ يؤمنون ويهتدون ، فلما كشف الله عنهم العذاب ، نقضوا عهودهم ، وعادوا إلى ضلالهم .

وتعرض الآيات هنا غرور فرعون بالغنى والجاه والسلطان ، وجرى الأنهار من تحت قصره ، ثم هو يملك الذهب والتاج والأساور ، وموسىٰ فقير لا يملك أساور الذهب ولا تاج الملك ، ولا يؤيده جمع من الملائكة يرافقونه ، واستخف فرعون بعقول قومه ، فساروا خلفه لفسوقهم عن أمر الله ، ثم أغرقهم الله جزاء كفرهم وعنادهم .

التفسير :

٤٦ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ .

تكررت قصة موسى فى القرآن الكريم تسلية للرسول ﷺ ، وتهديدًا لأهل مكة ، حتى يتعظوا ويعتبروا، فقد أغرق الله فرعون وجيشه فى الماء ، وقد كانوا أكثر مالاً وعظمة من أهل مكة ، وينبغى أن يتعظ الإنسان بما أصاب الآخرين ، فالسعيد من اتعظ بغيره ، والشقىُّ من حرم الاتعاظ بنفسه .

ومعنى الآية :

ولقد أرسلنا موسى عليه السلام مؤيدا بمعجزاتنا - كاليد والعصا - إلى فرعون وقومه من القبط بمصر ، وقال موسى لهم : إنى رسول رب العالمين إليكم ، أى خالق الكون والإنس والجن والطير ، وعالم السماء ، وعالم الأرض ، وعالم الملائكة ، وجميع العالمين .

٤٧ - فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ .

فلما أراهم موسى المعجزات المبهرة استخفوا بها واستهزأوا ، ولم يؤمنوا بموسى عليه السلام .

٤٨ - وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

ما نُرى فرعون وملأه من معجزة إلا هى أكبر من سابقتها فى الحجية عليهم ، والدلالة على صحة دعوته إلى التوحيد ، مع كون التى قبلها عظيمة فى نفسها ، فإن بعض الناس يتأثر ببعض الآيات أكثر من الأخرى ، وبعض الناس تأسره معجزات أخرى ، والإنسان نفسه يختلف رأيه فى بعض الأوقات ، فتارة يفضل هذا ، وتارة يفضل ذاك ، مثل قولهم : رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض ، ومنه بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم   مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أخذناهم بالعذاب المتدرج المتكرر الذى تشتمل عليه تلك الآيات، لعلهم يرجعون عن كفرهم، ويثوبون إلى رشدهم ، والمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه قوله سبحانه : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ.

(الأعراف : ١٣٣ - ١٣٦)

٤٩ – وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ .

وقال قوم فرعون لموسى : يا أيها العالم ادع لنا ربك بالعهد الذى عهده إليك ، وهو أننا إذا آمنا يكشف عنا العذاب ، ادعُه لينفِّذ لنا عهده حاليًا ، فإننا لمهتدون مستقبلاً بعد زوال العذاب .

وذهب ابن كثير إلى أن الساحر لقب تبجيل يطلق على العالم العظيم ، وقد كانوا يعظّمون السحر والسحرة فى ذلك الوقت ، وقد كانوا فى حاجة إلى توقير موسى واحترامه ، حتى يطلب من ربّه دفع العذاب عنهم .

٥٠ – فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ .

فلما رفع الله العذاب عنهم رجاء هدايتهم ، إذا بهم ينقضون عهدهم مع موسى ، ويعودون إلى سالف عهدهم فى الكفر والإعراض عن رسالة موسى .

٥١ – وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

وجمع فرعون رؤساء قومه وأشرافهم ورفع صوته قائلاً : أليس لى ملك مصر من أوّلها إلى آخرها ، وهذه الأنهار المتفرعة من النيل تجرى من تحت قصرى ، أفلا تبصرون ما أنا فيه من النعمة والملك ؟

قال القرطبى :

كان للنيل أربعة أفرع تتفرع من تحت قصره ، هى نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط ، ونهر تينس، ونهر طولون : هو نهر قديم كان قد اندرس فجدده أحمد بن طولون .

قال قتادة : قد كانت لفرعون جنات وأنهار ماء . ا هـ .

فافتخر بها على موسى ، واستدل بها على عظمته ومهانة موسى ، وكان موسى قد خلع الله عليه المهابة والمحبة ، فأراد فرعون أن يغالط أمّته ، وأن ينتزع محبة موسى من قلوبهم .

٥٢ – أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ .

أى : بل أنا خير وأفضل من موسى الذى هو فقير وضيع ، من طائفة بنى إسرائيل الذين نستعبدهم ونستذلهم .

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ .

وكان موسى قد أمسك جمرة فى صغره فوضعها فى فمه ، فتركت أثرها فى لسانه ، فلما بشره الله برسالته سأل الله أن يحلّ عقدة لسانه ، فاستجاب الله له .

قال تعالى على لسانه : قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى. (طه : ٢٥ – ٢٨)

ثم قال تعالى بعد ذلك : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ . (طه : ٣٦) .

فموسى كان معه البيان والتوراة ، والمعجزات والصبر والبلاغ ، لكن فرعون كان ينظر إلى موسى بعين كافرة شقية ، رغبت فى ترويج الكذب والافتراء على الرعية .

٥٣ – فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ .

هلا ألقى الله عليه أسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوّته !!.

قال مجاهد :

كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلا رئيسًا عليهم ، سوّروه بسوارين ، وطوّقوه بطوق من ذهب ، علامة لسيادته .

أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ .

هلا جاءت الملائكة مصاحبة له ، تعاونه وتصدّقه ، وتحث الناس على الإيمان به ، كعلامة على إكرام الله له ، أى : إن كان موسى صادقًا فى ادعاء أن الله أرسله رسولاً ، فهلا ملكه ربّه وسوّره بأسورة من ذهب ، وجعل الملائكة أنصاره وحاشيته ؟

٥٤ – فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ .

استخف بعقول قومه وأحلامهم واستجهلهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ، وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم على طاعة الله ، وعدم تمسُّكهم بالحق ، فلم يطيعوه عن قناعة ، بل عن رغبة فى مشايعة الهوى ، وإيثارًا للعاجلة على الآجلة .

قال تعالى : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

٥٥ – فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ .

أغضبوا الله فانتقم منهم ، وأغرقهم أجمعين ، أى : أسخطوا الله بسلوكهم وفسوقهم ، وبعدهم عن الحق، واتباعهم للهوى .

قال المفسرون :

اغترَّ فرعون بالعظمة والسلطان ، والأنهار التى تجرى من تحته ، فأهلكه الله بجنس ما تكبّر به هو وقومه ، وذلك بالغرق بماء البحر ، وفيه إشارة إلى أن من تعزز بشىء أهلكه الله به .

روى ابن أبى حاتم[٣٧] ، عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطى العبد ما يشاء ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له» ، ثم تلا ﷺ : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ .[٣٨]

وقال عمر بن عبد العزيز : وجدت النقمة مع الغفلة .

يعنى قوله تعالى : فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ .

٥٦ - فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ .

أى : جعلنا فرعون وقومه قدوة لمن بعدهم من الكفار فى استحقاق العذاب والدمار ، ومثلا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك .

ونقل القرطبى عن مجاهد :

سَلَفًا . لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار ، وعظة وعبرة لمن يأتى بعدهم .

★ ★ ★

جانب من قصة عيسى عليه السلام

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات :

مـثـلا : حجة وبرهانا .

يصـدون : يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح .

جـدلا : خصومة بالباطل .

خصـمـون : شداد الخصومة بالباطل ، مجبولون على اللجاج .

مـثـلا : آية وعبرة عجيبة كالمثل فى غرابته ، حيث كان من غير أب .

مـنـكـم : من بعضكم ، أو لولّدنا منكم .

يـخـلـفـون : يخلفونكم فى الأرض .

علم للساعة : علامة لها يعلم قربها بنزوله من السماء عليه السلام .

فـلا تمترن : فلا تشكّنّ فى قيامها .

الـبـيـنـات : المعجزات ، كالإنجيل وشفاء المرضى .

الحكـمـة : الشرائع المحكمة التى لا يستطاع نقضها ولا إبطالها ، أو بكل ما يؤدى إلى الإحسان .

تختلفون فيه : من الأمور الدينية .

صراط مستقيم : طريق موصل إلى جنات النعيم .

اختلف الأحزاب : تفرقوا فرقا متحزبة .

بغتة : فجأة على غرّة .

وهم لا يشعرون : وهم غافلون عنها .

سبب النزول :

أخرج أحمد بسند صحيح ، والطبرانى ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال لقريش : «إنه ليس أحد يُعبد من دون الله وفيه خير» ، فقالوا : ألست تزعم أن عيسى كان نبيًا وعبدًا صالحًا ، وقد عُبد من دون الله؟ فأنزل الله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

وروى محمد بن إسحاق فى السيرة ، أن رسول الله ﷺ جلس يوما فى المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم ، وفى المسجد غير واحد من رجالات قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨) ، ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبد الله بن الزِّبعرى التميمى ، وجلس فقال : أما والله لو وجدت محمدًا لخصمتُه ، سلوا محمدًا : أكلُّ ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنّه قد احتج وخاصم ، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : «كلّ من أحب أن يُعبَد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» ، وأنزل الله عز وجل : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . (الأنبياء : ١٠١) .

أى : عيسى وعزير ومن عُبد معهما ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أربابًا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام ، وأنه يُعبد من دون الله : وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ.

التفسير :

٥٧- وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

ضرب عبد الله بن الزبعرى المثل بعيسى ، حيث إنه يعبد من دون الله ، وعزير تعبده اليهود ، ومن العرب من عَبَد الملائكة ، وقال : إنهم بنات الله .

قال ابن الزبعرى : إن كانت الملائكة وعزير وعيسى ابن مريم فى النار ؛ فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت ﷺ انتظارًا للوحى ، فظنّوا أنه أُلْزم الحجة ، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم.

وأنزل الله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . (الأنبياء : ١٠١) .

أى : عزير والملائكة وعيسى فى الجنة مبعدون عن النار ،ونلاحظ أن القرآن عندما أشار إلى أن من عبد صنما أو وثنا من دون الله أُدخل العابد والمعبود إلى جهنم ، قال : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨) .

فالقرآن هنا يتحدث عن الأصنام ، لأن هناك قاعدة فى اللغة العربية تقول : إن (مَنْ) اسم إشارة للعاقل ، و(ما) اسم إشارة لما لا يعقل ، فالقرآن قال : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ... أى أن القرآن لم يُرد المسيح ولا عزيرا ولا الملائكة ، وإن كانوا معبودين .

ثم إن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وعيسى عبد الله ورسوله، أنعم الله عليه بالرسالة والمعجزات ، وعزير رجل صالح من بنى إسرائيل، ركب حماره وسار وسط قرية قديمة متهالكة ، قبورها دارسة ، قد أدركها البلى والقدّم والتآكل ، فاستبعد عليها البعث والحياة مرة أخرى ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، وأطلعه على بعث حماره ، وحفظ طعامه طوال مائة عام ؛[٣٩] فقال : أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٥٩) .

وخلاصة المعنى :

عندما حاول عبد الله بن الزبعرى أن يضرب مثلا بعيسى ابن مريم ، قائلا : إذا كان عيسى ابن مريم فى جهنم لأنه عُبد من دون الله ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، عندئذ فرح كفار مكة بذلك ، واشتد صدودهم وإعراضهم .

قال ابن عباس :

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . أى : يضحكون ، أُعجبوا بذلك .

وقال قتادة : يجزعون ويضحكون ، أى : صنعوا ضجة وفرحًا وضحكًا لزعمهم أنهم انتصروا على محمد فى الجدال .

وقال النخعى :

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . أى : يُعرضون .

ولعل من إعجاز القرآن اشتمال الآية على المعنيين : فهم سخروا وضجوا وضحكوا من جهة ، وأعرضوا عن الإسلام من جهة أخرى .

٥٨- وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

قالوا للنبي ﷺ : أآلهتنا خيرٌ أم عيسى ؟ والنبي ﷺ متيقن من أن عيسى خير من آلهتهم ، أي إذا كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، وابن الزبعرى يعلم أن عيسى ليس في النار ، لأنه لم يطلب من أحدٍ أن يعبده ، ولم يرض بعبادة الناس له ، ولأن كل عابد وما عبده من دون الله في النار ، إذا رضي من يُعبد بهذه العبادة ، فهم لم يضربوا المثل بعيسى والعزير والملائكة إلا على وجه الجدال والمخاصمة فهم ألداء في الخصومة ، راغبون في الغلبة بالحق أو بالباطل ، وعيسى عليه السلام قد تبرأ ممن عبده أو اتخذه إلهًا .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ... (المائدة : ١١٦ ، ١١٧) .

قال في التسهيل لعلوم التنزيل :

مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ...

أي : ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل ، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل ، لقد أراد ابن الزبعرى المغالطة ؛ فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون .

٥٩- إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

عيسى ابن مريم عبد كسائر العباد من عباد الرحمن ، فهو بشر أنعم الله عليه ، حيث خلقه من غير أب، وأكرمه بالرسالة والنبوة ، وأعطاه طائفة من المعجزات : فهو يشفي المرضى بإذن الله ، ويُبرئ الأكمه [٤٠] والأبرص بإذن الله ، وهو يحيي الموتى بإذن الله ، لقد أراد الله أن يجعل منه نموذجا وعبرة لبني إسرائيل يستدلون بها على قدرة الله تعالى .

قال الرازي :

أي : صيَّرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ، حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم .

قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

فعيسى إذن ليس بإله، وليس ابنا لإله كما زعم الزاعمون .

قال تعالى : وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . (مريم : ٨٨-٩٣) .

٦٠- وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ .

إن قدرة الله لا حدود لها فهو على كل شيء قدير ، وكما أوجد عيسى من أمّه بدون أب ، فهو قادر على أن يوجد فى الأرض ملائكة تتناسل ويخلُف الأبناء منهم الآباء ، أو تخلف الملائكة البشر فى هذه الأرض، كما يحتمل أن يكون المعنى : لو نشاء لخلقنا من ذرياتكم ملائكة عابدة تخلفكم ، أو لأوجدنا من ذرياتكم عبادًا مطيعين لله كأنهم ملائكة يخلفونكم أيها العصاة ، كما حدث أن كان من ذرية عتاة الكفر أبناء خدموا الإسلام وجاهدوا فى سبيله ، والآية تشير إلى عجائب القدرة الإلهية ، وقريب منها قوله تعالى : وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم . (محمد : ٣٨) .

قال ابن كثير :

وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ... أى : بدلكم .

مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ . قال السدّى : يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس وقتادة : يخلف بعضهم بعضا ، كما يخلف بعضكم بعضًا ، وهذا القول يستلزم الأوّل ، وقال مجاهد : يعمرون الأرض بدلكم .

٦١- وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

وإن عيسى عليه السلام من علامات الساعة ، فلا تشكّوا فى مجيء القيامة ، واتبعوا محمدًا ﷺ فى هديه وشرعه ودينه فإنه على الصراط المستقيم ، والطريق الموصّل إلى الله تعالى ومرضاته .

وقد أفادت كتب التفسير مثل القرطبى وابن كثير والقاسمى وغيرهم ، تواتر الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلاً وحكما مقسطا ، كما ورد فى علم التوحيد نزول المسيخ الدجال رمزا للشرّ والفتنة ، حيث يعطيه الله إمكانات واسعة وانتصارًا مؤقتًا ، ثم ينزل المسيح عليه السلام فيطارد المسيخ الدجال حتى يقتله ، ويؤيد المسيح عليه السلام شريعة محمد ﷺ .

أخرج الإمام مالك ، والشيخان ، وأبو داود ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها» [٤١] .

وأخرج الإمام مسلم ، عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمّتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صلِّ لنا ، فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة» [٤٢] .

والمسيح غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين ، وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول لبشر فيه إلا ما جاء من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وفى قراءة أخرى : **وإنه لَعَلَمٌ للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم** .

وعَلَمٌ – بفتحتين – أى : أمارة ودليل على مجىء القيامة ، لأن الله ينزله إلى الأرض قبل قيام القيامة، فلا تشكن فى وقوع القيامة .

وقال **السُّدى** : لا تكذبوا بها ولا تجادلوا فيها ، فإنها كائنة لا محالة .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

حيث كان كفار مكة يشكون فى البعث، والقرآن هنا يدعوهم إلى اليقين ، وكانوا يترددون عن الهدى والقرآن يدعوهم على لسان رسول الله ﷺ إلى اتباعه ، فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه . ا هـ .

٦٢– وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

لا يصرفنكم الشيطان عن اتباع الحقّ واعتناق الإسلام ، والاهتداء بهدى محمد ﷺ ، فإن الشيطان عدو ظاهر العداوة ، والمعركة بين الشيطان والإنسان معركة قديمة ومستمرة ، والإنسان مطالب بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والتحرز من إضلاله وإغوائه ، والاستعاذة بالله من كيده .

قال تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** . (الأعراف : ٢٠١) .

وفى آخر سورة من سور القرآن الكريم ، نجد دعوة إلى التحصُّن بقوة الله ورحمته وهدايته من شر الشيطان وكيده، سواء أكان الشيطان من الجن أم من الإنس .

قال تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ . (الناس : ١-٦) .

٦٣- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ .

ولما جاء عيسى رسولاً إلى قومه ومعه الإنجيل والمعجزات الواضحات ، مثل : شفاء المرضى ، وإحياء الموتى ، وإخبار قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم وغير ذلك ، قال لقومه : قد جئتكم بالحكمة ، أى بالتشريع المناسب لكم ، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من الأوامر والنواهى .

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ...﴾ أى : من أمور الدين لا من أمور الدنيا ، فإن الرسل أرسلهم الله تعالى ليبينوا للناس شئون دينهم لا شئون دنياهم .

قال الطبرى : يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية . ا هـ .

كما قال ﷺ : «أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وأنا أعلم بأمور دينكم» [٤٣] .

فقد رأى ﷺ قومًا يؤبرون النخل ، أى يلقحون طلع النخلة الأنثى بطلع النخلة الذكر ، فقال : «لو تركوه لصلح» ، فتركوه فشاص ، أى : جف ولم ينجب تمرًا ، فذكروا ذلك للنبى ﷺ ، فقال : «إذا أمرتكم بشىء من أمر الدين فاتبعوه ، وإذا أمرتكم بشىء من أمر الدنيا فأنتم أعلم بشئون دنياكم» [٤٤] .

فالأنبياء لم يبعثوا لبيان طرق الفلاحة والتجارة وغيرها من شئون الدنيا ، وإنما بُعثوا لبيان شرائع الله وأحكامه ، وبيان الحلال والحرام ، والآداب والعبادات والمعاملات .

لذلك قال عيسى : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ...﴾

وقيل : المراد أنه يبين لهم بعض الذى اختلفوا فيه كطوائف مختلفة ، ولا يبين الكل حفاظا على حياته، وعلى تحصيل قسط من القبول عندهم ، اتباعا للحكمة ، ورغبة فى بيان جزء مقبول عندهم لا بيان كلٍّ مرفوض ، ومن حكم الدُّعاة قولهم : (ليس كل ما يُعلم يُقال ، ولا كل ما يُقال جاء وقته ، ولا كل ما جاء وقته حضر أهله) .

وقريب من هذا المعنى ما ورد فى الصحيح عن أحد الصحابة قوله : كان ﷺ يتخوننا [٤٥] بالموعظة مخافة السآمة علينا والملل» [٤٦] .

وفى آخر الآية : فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .

أى : راقبوا ربكم وأخلصوا له ، وأطيعونى كرسول مبلغ عن الله الهدى والتعاليم والشرائع والتكاليف.

٦٤- إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

إن الله العلى الكبير هو ربِّى وهو ربكم ، فاتجهوا إليه وحده بالعبادة ولا تعبدوا سواه ، فهذا هو الطريق المستقيم الواضح المعتمد على التوحيد لله ، وفى هذا ردٌّ صريح على من قال : إنه ابن الله ، أو قال : إنه هو الله ، أو قال : هو ثالث ثلاثة ، وكلها أقوال باطلة ، والصواب ما قاله المسيح هنا : إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ .

قال ابن كثير : أى أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون فى عبادته وحده .

٦٥- فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

قال ابن كثير :

أى : اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقرّ بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدَّعى أنه ولد الله ، ومنهم من يدعى أنه الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . ا هـ .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

أى : إن عيسى عبد الله ورسوله ، فمن زعم أنه إله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة هم الأب والابن وروح القدس ، فإنه ظالم معتد ، وهلاك له فى عذاب يوم القيامة .

٦٦- هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا مجىء القيامة بغتة وفجأة ، حيث لم يُعدُّوا لها إيمانا ولا عملا صالحا ، ثم تأتيهم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بقدومها ، أى وهم غافلون عنها ، ثم يندمون أشد الندم على أنهم لم يعملوا لها عملا نافعا أو مفيدا .

★ ★ ★

ألوان نعيم المتقين فى الجنة

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

الأخـــلاء : واحدهم خليل ، وهو الصديق الحميم الذى تخللت المحبة قلبه ، أو الأحباء فى غير ذات الله.

مســلمين : مخلصين منقادين لربهم .

تحـــبرون : تسرون سرورًا ظاهر الأثر .

صـــحـاف : واحدها صحفة ، وهى إناء كالقصعة ، قال الكسائى : أكبر أوانى الأكل الجَفْنة ، ثم القَصْعة ، ثم الصحفة ، ثم المِئكلة .

أكـــواب : جمع كوب ، وهو كوب لا أذن له .

أورثتموها : جعلناها لكم ميراثًا .

تمهيد :

فى الآيات بعض مشاهد القيامة ، فالأخلاء والأصدقاء الذين تحابّوا وتآزروا على الكفر والعداء للإسلام ، سيصيرون أعداءً يوم القيامة ، وكل أخوّة لغير الله ستصير عداوة ، إلا المتقين الذين تحابوا على طاعة الله ، ثم تصف الآيات فضل المتقين ونعيمهم فى الجنة ، فهم فى رضوان الله لا يصيبهم خوف ولا حزن ، وهم فى الجنة مع أزواجهم فى فرح وسرور وبشر ، يعمّ باطنهم وظاهرهم ، وهم فى نعيم مقيم ، طعامهم يأتيهم فى قصاع من ذهب ، وأكواب من ذهب ، ولهم فى الجنة كل ما تشتهيه أنفسهم وتتلذذ به أعينهم ، والجنة ميراث ثابت لهم ، يأكلون من فاكهتها الكثيرة ، ويتمتعون بنعيمها العظيم .

التفسير :

٦٧- ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ .

حكى النقّاش أن هذه الآية نزلت فى أمية بن خلف الجمحى ، وعقبة بن أبى معيط ، حيث كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبى ﷺ ؛ فقالت قريش : قد صبأ عقبة بن أبى معيط ، فقال له أمية : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدًا ولم تتفل فى وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فنذر النبى ﷺ قتله ، فقتله يوم بدر ، وقُتل أمية فى المعركة ، وفيهما نزلت هذه الآية .

ومعنى الآية :

الأصدقاء الذين تحابوا على الكفر ، أو معصية الله ، أو الخمر ، أو الزنا ، أو القمار ، أو الربا ، أو الرشوة، أو سائر المعاصى ، هؤلاء بينهم مودة ومحبة فى الدنيا ، بسبب اللذائذ الحسية أو المكاسب المادية ، وفى يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويتبرأ التابعون من المتبوعين ، وتتحول كل مودة علي معصية أو كفر إلى عداوة ، لكن أخوة المتقين ومحبتهم فى الله رب العالمين، تكون سببا فى مرضاة ربهم، وفى تمتعهم بظل عرش الله تعالى يوم لا ظلّ إلا ظله .

روى الحافظ ابن عساكر، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابًا فى الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فىّ»[٤٧].

٦٨- يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ .

هذا نداء تكريم وتفضل وبشارة وحنان من الله العلى الكبير للمؤمنين المتقين المتحابين فى الله ، حيث يبشرهم الله بأنهم عباده ، لا يصيبهم خوف ولا جزع ولا حزن فى ذلك اليوم ، بل هم فى رعاية الله وبشارته وفضله ، فهم لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

٦٩- ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ .

لقد آمنوا بكتب الله ورسله واليوم الآخر ، والملائكة والنبيين ، وكانوا منقادين لأمر الله عن تبصر وبصيرة ، فإذا سمعوا ذلك من الله يئس أهل الأديان الباطلة ، ونكسوا رؤوسهم ، واستبشر المؤمنون .

٧٠- ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ .

ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات ، وتمتعوا بالنعيم والفرح والسرور الذى يظهر أثره على وجوهكم نضرة وحسنا .

٧١- يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

يتمتع أهل الجنة بنعيم مقيم ، ويطاف عليهم بالطعام فى أوانٍ من ذهب ، ويطاف عليهم بالشراب فى أكواب من ذهب ، وفى الجنة نعيم لا نهاية له ولا حدود ، وخيرات الجنة تشتهيها النفوس ، وتسعد بها العيون، وينال المؤمن فى الجنة كل ما يطلب ، وكل ما يشتهى ، وأهلها خالدون باقون فى هذا النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول .

ويتعلق بهذه الآية أن الأكل فى أوانى الذهب والفضة محرم فى الدنيا ، وهو من نعيم الجنة للمؤمنين، روى البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافهما ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة» [٤٨] .

قال أبو السعود :

وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ .

باقون دائمون لا تخرجون منها أبدا ، وهذا من إتمام النعمة ، وإكمال السرور ، فإن كل نعيم زائل موجبٌ لخوف الزَّوال . ا هـ .

والآية جمعت من النعيم ما يأتى :

(أ) المطاعم والمشارب .

(ب) ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

(جـ) الخلود فى دار النعيم .

فما أعظم هذا الفضل والنعيم فى مرضاة الله رب العالمين .

وذكر بعض المفسرين فى معنى : وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ... قال : النظر إلى وجه الله الكريم .

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . (القيامة : ٢٢،٢٣) .

وهى أعلى درجة فى الجنة، أن يتمتع المتقون بلذة النظر إلى وجه الله الكريم، وفى الحديث الصحيح : «إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تشكون فى رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» [٤٩]

٧٢- وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وهذه الجنة الموصوفة بالصفات المذكورة الجليلة ، أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التى عملتموها فى الدنيا ، والناس تدخل الجنة برحمة الله وفضله ، وتتقاسم منازل الجنة بحسب أعمالها .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لن يُدْخِل أحدكم الجنة عمله» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسددوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئًا فلعله أن يُستعتب [٥٠]» [٥١] .

قال ابن كثير :

أى : أعمالكم الصالحة كانت سببا فى شمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات يُنالُ تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات .

وفى الحديث : «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، الكافرُ يرث المؤمن منزله فى النار، والمؤمن يرث الكافر منزله فى الجنة ، وذلك قوله تعالى : وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».[٥٢]

وقيل : معنى : أُورِثْتُمُوهَا . ثبتت ملكيتكم لها ثبوتا قاطعا كثبوت الميراث لوارثه .

٧٣- لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ .

لكم فى الجنة أنواع الفواكه التى تأكلونها تلذذًا وتنعما ، لا عن حاجة أجسامكم إليها .

قال تعالى : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ . (الرحمان : ٥٢) .

وقال سبحانه : فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . (الرحمان : ٦٨) .

وقال تعالى : وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . (الواقعة : ٣٢،٣٣) .

والفاكهة فى الجنة متنوعة كثيرة لا تنتهى أبدا ، والأشجار حاملة للثمار مزينة بها ، ولا ينزع رجل من أهل الجنة ثمرة من ثمار الجنة إلا نبت مكانها مثلاها [٥٣] .

★ ★ ★

عذاب المجرمين فى جهنم

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

المجرمين : الكافرين ، لذكرهم فى مقابلة المؤمنين .

لا يفتر عنهم : لا يخفف عنهم ، من : فَتَرتْ عنه الحمّى ، أى : سكنت قليلا .

مبلسون : آيسون من تخفيف العذاب ، من الإبلاس وهو الحزن من شدة اليأس .

ليقض علينا : ليهلكنا ويفتْنا .

إنكم ماكثون : مقيمون لابثون .

أم أبرموا أمرًا : أحكموه وقرروه واعتزموه ، من الإبرام وهو الإحكام والإتقان ، يقال : أبرم الحبل ، أى : أتقن فتله.

سرهم : الحديث الذى حدّثوا به أنفسهم .

نجواهم : تناجيهم وتحادثهم ، وناجاه : حادثة .

بلى : نعم .

ورسلنا : المراد بالرسل هنا : الملائكة الحفظة .

تمهيد :

تصف الآيات المجرمين وهم يُعذَّبون فى جهنم بعذاب دائم مستمر لا يخفف عنهم ، وقد صاروا يائسين ساكتين ، وما ظلمهم الله ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، ونادى أصحاب النار قائلين : يا مالك ادع الله معنا أن يقضى علينا بالفناء حتى نستريح من هذا العذاب الدائم ، فأجابهم : إنكم باقون هنا فى جهنم لقد أتيناكم بالحق فأرسلنا لكم الرسل ، وأنزلنا عليكم الكتب ، ولكن أكثركم كره ذلك ورفضه ، أم أحكموا أمرًا فى تكذيب الحق وردّه ، فإنا مبرمون أمرًا فى مجازاتهم ، أم يحسبون أنا لا نسمع حديث أنفسهم ومناجاتهم وكلامهم بعضهم لبعض ، بلى نسمعها ، والحفظة من ملائكتنا يسجّلون أقوالهم ويكتبونها .

التفسير :

٧٤- إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ .

إن المجرمين الذين تمادوا فى الإجرام ، فكفروا بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعجزوا عن كبح جماح شهواتهم ، والانضواء تحت لواء الإسلام ، هم فى الغالب يعرفون الحق ودلائل الرسالة ، ولكنهم عاجزون عن التفريط فى نعيم الدنيا ، وعاجزون عن الاعتراف بصدق الإسلام ، لتفضيلهم طاعة الشيطان والهوى على طاعة العقل والهدى ، فهم خالدون فى عذاب جهنم خلودًا أبديًّا سرمديًّا .

٧٥- لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

لا يخفف عنهم العذاب لحظة ، وهم آيسون من كل أمل أو رجاء فى رفع العذاب عنهم أو تخفيفه ، وهذه أسوأ الحالات أن يفقد الإنسان الأمل والرجاء ، فيصبح مبلسا يائسا حزينا قد دهمه الإحباط والخوف .

٧٦- وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

لقد اختاروا طريق الشهوات والهوى والكفر ، وآثروا العاجلة على الآجلة ، وباعوا الحق والهدى ، فلم يظلمهم الله حين أنزل بهم أشدَّ العذاب ، ولكنهم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الضلالة على الهدى .

٧٧- وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ .

أعظم من الموت تمنى الموت ، فهم فى حالة من الجوع والعطش والذُّل والهوان ، توسلوا إلى مالك خازن النار ، داعين راجين أن ينتقلوا إلى درجة الموت والفناء والهباء ، فيتفتتوا ويهلكوا ويفقدوا الإحساس. وكان الجواب : إنكم ماكثون فى جهنم لتنالوا جزاءكم من العذاب .

قال تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ... (النساء : ٥٦) .

وقال سبحانه : وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

٧٨- لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ .

أرسلنا إليكم الرسل ، وأنزلنا إليكم الكتب ، وكنتم تعلمون صدق محمد ﷺ ، وهو المشهور بينكم بالصادق الأمين ، لقد كان إعراضكم عن الإيمان بسبب كراهة الحق لا بسبب جهل الحق ، عدلتم عن الإنصاف

والإيمان والعدل ، وآثرتم الكفر والضلال والاسترسال فى الشهوات والنزوات والخمر والزنا ، فكرهتم الحق والعدل والإنصاف .

قال ابن كثير :

لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

أى : بينا لكم الحق ووضحناه وفسرناه ، ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تُقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

٧٩- أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ .

أَمْ ، للإضراب الانتقالى ، حيث كان الحديث عن عذاب المجرمين فى جهنم، فانتقل إلى مجابهة أهل مكة، أى : بل دبروا وأحكموا المكر والكيد لرسول الله ﷺ فى دار الندوة ، حيث فكّروا فى حبسه أو نفيه أو قتله ، وأخيرًا استقر رأيهم على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدًا وسطا متينا ، ويعطى كل شاب سيفا صارمًا بتّارًا، ثم يضربوا النبى ﷺ ضربة واحدة ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف محاربة كل هذه القبائل ، فيقنعون بالدِّية فى قتله وبذلك يستريح كفار مكة ، لكن الله أبرم ودبّر وأحكم حفظ رسوله ، وأمره بالهجرة ، فخرج من بينهم بحفظ الله وعنايته .

قال مقاتل بن سليمان :

نزلت فى تدبير المشركين المكر بالنبى ﷺ فى دار الندوة ، حين استقرّ أمرهم على ما أشار به أبو جهل، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ليشتركوا فى قتله ﷺ فتضعف المطالبة بدمه.

وقال غيره من المفسرين :

الآية عامة ، والمعنى : كلما أحكموا أمرًا فى المكر بمحمد ﷺ فإنا نحكم أمرًا فى مجازاتهم ، وإنا محكمون لهم كيدًا ، أى نُبيّت لهم جزاء وعقابا شديدا .

قال تعالى : وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (النمل : ٥٠) .

وقال سبحانه : أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . (الطور : ٤٢) .

قال ابن كثير :

وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى ردّ الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكادهم الله تعالى وردّ وبال ذلك عليهم .

٨٠- أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ .

يخطئ الكفار حين يظنون أن الله لا يراهم ولا يشاهد عملهم ، بل الواقع أن الله تعالى مطلع على سِرِّهُمْ وهو حديث النفس الذى يحدثون به أنفسهم ، ومطلع على نَجْوَاهُم ، وهو التشاور والتحاور لإحكام الخطة والمكر والكيد للإسلام ولرسوله محمد ﷺ .

وإن الملائكة والحفظة تسجل عليهم صغيرها وكبيرها ، ثم يحاسبون عليها يوم القيامة .

قال تعالى : إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . (ق : ١٧ ، ١٨).

وقال يحيى بن معاذ :

من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، فقد جعل ربّه أهون الناظرين إليه .

★ ★ ★

تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

فأنا أول العابدين : المنقادين ، وهو جمع عابد .

سبحان رب السماوات : تنزيهًا له عن كل نقص .

عما يصفون : عما يقولون كذبًا بأن له ولدًا .

يخوضوا : يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء .

ويلعبوا : فى دنياهم .

يومهم : يوم القيامة .

إله : معبود بحق لا شريك له .

الحكيم : فى تدبيره .

العليم : بمصالح عباده .

تبارك : تعالى وتعاظم .

وما بينهما : كالهواء وجميع المخلوقات .

الساعة : القيامة .

إلا من شهد بالحق : بالتوحيد عن علم وبصيرة .

فأنى يؤفكون : فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى .

وقيله : معطوف على ٱلسَّاعَةِ . أى : وعنده علم الساعة ، وعلم قيله : أى قول محمد ﷺ ، والقيل والقول والمقالة والقال بمعنى واحد ، وفى الخبر : «نهى عن قيل وقال» .

فاصفح عنهم : أعرض عنهم ، أو اعف عنهم عفو المعْرِض ، ولا تقف عن التبليغ .

وقل سلام : سلام متاركة وهجران ، لا سلام تحية .

تمهيد :

تبدأ الآيات بأمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين : إن مخالفته لهم لم تكن بغضًا ، بل لاستحالة نسب ما نسبوه إليه سبحانه ، ولو سلَّمنا جدلاً وكان للرحمان ولد فأنا أول من يعبده ، لكن الرحمان منزه عن ذلك فلذا لا أتجه بعبادتى إلا إلى الله وحده ، سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد .

ثم يهددهم بالساعة وبالحساب والجزاء ، ويفهمهم أن الله له ملك السماوات والأرض ، فهو منزه عن المخلوقين فى حاجتهم إلى الولد .

والأصنام والملائكة وعزير وعيسى وسائر المعبودات ، لا تملك أى نفع كالشفاعة فى الآخرة ، وأن المشركين متناقضون حين يقرّون لله وحده بالخلق ، ثم يعبدون معه غيره ، وأن حسابهم آت يوم القيامة

التفسير :

٨١ - ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ .

لست أخالفكم عن عناد أو كراهية لكم ، ولكن ليقينى بوحدانية الله ، ولو فرضنا جدلاً أن له ولدًا لكنت أول العابدين له ، المعظّمين لهذا الولد ، كما يتقرب الإنسان إلى الملك العظيم بتعظيم ولده ، ولكنه جلّ وعلا منزه عن الزوجة والولد .

قال القرطبى :

وهذا كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده ، وهذا مبالغة فى الاستبعاد، وترقيق فى الكلام .

وقال الطبرى : هو ملاطفة فى الخطاب .

وقال البيضاوى : ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له ، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه ، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء ، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به ، فإن النبىّ يكون أعلم بالله ، وبما يصح له وما لا يصح .

٨٢ - ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ .

أى : تنزه وتقدس الخالق العظيم المبدع ، رب السماوات والأرض ، ورب العرش العظيم ، عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه .

قال ابن كثير :

أى : تعالى وتقدّس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد صمد ، لا نظير له ، ولا كفء له ، فلا ولد له .

٨٣ - ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ .

اترك هؤلاء المشركين يدخلون فى باطلهم وضلالهم ، ويلعبون فى دنياهم وغيّهم ، حتى يجبههم يوم القيامة ، وسوف يجدون فيه من الأهوال ما يعجز عنه الاحتمال .

وقال عكرمة وجماعة : إنه يوم بدر ، وقد وُعِدُوا الهلاك فيه .

٨٤ - وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

هو سبحانه منزه عن الولد ، وأيضًا منزه عن المكان ، والكيف والكمّ والطول والعرض .

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

جاء فى التفسير المنير ما يأتى :

فليس له مكان يستقر فيه ، بل له الألوهية والربوبية فى الكون كلّه ، وفى كل مكان ، ويستحيل عليه المكان ، لأنه يكون محدودًا محصورًا فى جهة معينة له حجم ونهاية ، وتلك صفات الحوادث ، والله منزه عنها ، فلا يحدّه زمان أو مكان ، والحكمة البالغة والعلم الواسع يتنافيان مَع إثبات الولد لله[٥٤] .

وقال ابن كثير :

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ...

أى : هو إله من فى السماء ، وإله من فى الأرض ، يعبده أهلهما ، وكلهم خاضعون له ، أذلاء بين يديه وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى : وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . (الأنعام : ٣) .

أى : هو المدعو الله فى السماوات والأرض . ا هـ .

٨٥ - وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

كثرت بركات الله صاحب السلطان المطلق ، والملك التام للسماوات والأرض وما بينهما ، من الهواء والفضاء ، وأنواع الحيوان والإنسان ، وهو خالق كلِّ شىء ، وهو المختص وحده بالساعة ، لا يجلِّيها لوقتها إلا هو ، وإليه سبحانه مرجع العباد كلّهم للحساب والجزاء ، فيجازى كل إنسان بعمله : إن خيرًا فخير ، وإن شرا فشر .

٨٦ - وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

لا تملك الآلهة المدَّعاة شفاعة ولا نفعًا ولا ضرًا فعبادتها ضائعة ، وشفاعتها مردودة ، وهى ليست آلهة إلا بدعواهم المرفوضة ، فالأصنام والأوثان ، والعزير وعيسى والملائكة ، وكلُّ ما عُبد من دون الله ، لا يملك شفاعة ولا يقدر عليها ، لكن من شهد بالحق وآمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر عن يقين وبصيرة وعلم ، فإنه حرى بأن تقبل شفاعته عند الله تعالى .

٨٧ – وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

هناك دلائل الفطرة التى توحى بأن هذا الكون البديع المنظّم لابدّ له من إله مبدع ، فإذا سألت هؤلاء الكفار : مَنْ خلقهم من عدم ، وأوجدهم فى هذا الكون ؟ ليقولن : الله هو الذى خلقنا ، فكيف يصرفون عن عبادته تعالى وحده ؟ وكيف ينصرفون إلى عبادة غيره سبحانه ؟

وقيل : المعنى : ولئن سألت الملائكة وعيسى : مَّنْ خَلَقَهُمْ ؟ لقالوا : الله سبحانه وتعالى خلقنا

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . فكيف يؤفك هؤلاء المشركون ويُصرفون ، وينقلبون عن الحق فى ادعائهم إياهم آلهة.

٨٨ – وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ .

وعند الله تعالى علم الساعة ، وعنده سبحانه علم دعاء نبيه ﷺ ، وشكواه إلى ربه ، وقوله : يارب إن هؤلاء – كفار مكة – قوم لا يؤمنون بك ولا برسولك .

قال ابن كثير :

وقوله جل وعلا : وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ .

أى : وقال محمد ﷺ قيله . أى : شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذّبوه ، فقال : يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ . قال : يؤثر الله عز وجل قول محمد ﷺ .

وقال قتادة : هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربّه عز وجل . ا هـ .

٨٩ – فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

تُختم السورة بهذه الآية الكريمة توجيهًا للنبى الأمين ﷺ ، أى : اتركهم وشأنهم ، ولا تقابل إساءتهم فى استقبال دعوتك بإساءة مثلها ، بل هوّن على نفسك ، واصفح عنهم فعلاً وقولاً ، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وقل لهم : سلام عليكم ، سلام متاركة وإمهال ، لا سلام محبة وإقبال .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

عاقبة كفرهم وعنادهم ، بالهزيمة فى القتال أمام النبى ﷺ ، من بدر إلى فتح مكة ، ثم عذابهم فى جهنم وبئس المصير .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الزخرف

١ - وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، متميز فى اللوح المحفوظ .

٢ - الأمر بإنذار قومه ﷺ ، مع غفلتهم وإسرافهم فى لذات الدنيا .

٣ - شأن هؤلاء الكفار فى تكذيب الرسول ﷺ شأن من سبقهم من المكذِّبين .

٤ - اعترافهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض .

٥ - ذكر جانب آخر من نعم الله تعالى فى بسط الأرض ، وتيسير الطرق بحثًا عن الرزق ، وإنزال المطر لإحياء الأرض ، وخلق الأزواج فى الإنسان والحيوان والنبات ليتم التناسل وإعمار الكون .

٦ - ذكر الله عند ركوب الدابة وركوب السفينة .

٧ - اعتقاد كفار مكة بأن الملائكة بنات الله .

٨ - تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد ، ولو جاءت إليهم ألوان الهداية والرسالة .

٩ - جانب من قصة إبراهيم الخليل .

١٠ - رغبة كفار مكة فى أن ينزل القرآن على رجل غنى عظيم من أهل مكة أو الطائف .

١١ - حكمة الله العليا فى توزيع الأرزاق ، واختياره واصطفاؤه للرسالة من يعلم أنه أصلح لها وأولى بها .

١٢ - جانب من قصة موسى مع فرعون .

١٣ - جانب من قصة عيسى عليه السلام .

١٤ - وصف نعيم الجنة .

١٥ - الأهوال التى يلقاها أهل النار ، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه ، ولا مجيب لهم .

١٦ - متاركة أهل الباطل والصفح عنهم حتى يأتى أمر الله .

★ ★ ★

تم تفسير سورة **الزخرف** ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، مساء الثلاثاء ٢٦ من صفر ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠/٥/٢٠٠٠ م ، والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما يرضى ربنا ويحبّ ، وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



تفسير سورة الدخان

أهداف سورة الدخان

سورة الدخان مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٩ آية ، نزلت بعد سورة الزخرف ، وقد سميت سورة الدخان لقوله تعالى فيها : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . (الدخان : ١٠) .

أفكار السورة

قال الفيروز بادى :

معظم مقصود سورة الدخان هو : نزول القرآن فى ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكرى البعث ، وذل الكفار فى العقوبة ، وعز المؤمنين فى الجنة ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (الدخان : ٥٨) .

فضل السورة

سورة الدخان سورة يكثر المسلمون قراءتها ، خصوصًا ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر فى رمضان ، وليلة الجمعة ، وهى تبدأ ببيان أن القرآن أنزل من السماء فى ليلة مباركة ، يحمل الرحمة والهدى من رب العالمين ، ثم تنذر المشركين بالعذاب ، وتذكر طرفًا من قصة موسى مع فرعون ، ثم تذكر مشاهد القيامة ، وفيها نعيم المتقين ، وعقاب المشركين .

ومن السنة قراءة سورة الدخان ليلة الجمعة لتثبيت الإيمان وتقوية اليقين بقدرة الله رب العالمين ، قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم التى يذكر فيها الدخان فى ليلة الجمعة أصبح مغفورًا له»[٥٥] .

سياق السورة

سورة الدخان سريعة الإيقاع ، قصيرة الفواصل ، لها سمات السور المكية ، إذ تشتمل على صور عنيفة متقارية ، ونذر متكررة ، تشبه المطارق التى تقع على أوتار القلب البشرى . «ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعًا ، سواء فى ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكونى ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة ، فكلها وسائل

ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى ، واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن فى القلوب»[٥٦] .

تبدأ السورة بهذه الآيات القصيرة المتلاحقة ، المتعلقة بالكتاب والإنذار والرسالة والهداية : حمٓ * وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . (الدخان : ١ – ٥) .

ثم تعريف للناس بربهم ، رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات الوحدانية لله المحيى المميت، رب الأولين والآخرين .

ثم يُضْرِب السياق عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ . (الدخان : ٩) .

ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الدخان : ١٠ ، ١١) .

ثم ذكر ما يكون من دعائهم لله أن يكشف عنهم العذاب ، وإعلانهم الاستعداد للإيمان فى وقت لا يُقبل منهم فيه إيمان .

وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة قبل أن يعودوا إلى ربهم فيكون ذلك العذاب المخيف : يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ . (الدخان : ١٦) .

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ، ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ، ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه ، يوم جاءهم رسول كريم يدعوهم إلى الإيمان بالله ، فأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وهموا بالانتقام من موسى فأغرقهم الله ، وتركوا وراءهم الجنات والزروع ، والفاكهة والمقام الكريم ، يستمتع بها سواهم ، ويذوقون هم عذاب السعير .

وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة وإنكارهم للبعث وقولهم : إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . (الدخان : ٣٥ ، ٣٦) .

ليذكرهم بأنهم ليسوا أقوى من قوم تُبَّع الذين هلكوا لإجرامهم ، ويربط السياق بين البعث وحكمة الله فى خلق السماوات والأرض ، فلم يخلقهما عبثًا وإنما لحكمة سامية ، هى أن تكون الدنيا للعمل والابتلاء ، والآخرة للبعث والجزاء .

ثم يحدثهم عن يوم الفصل: مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ. (الدخان : ٤٠) . وهنا يعرض مشهدًا عنيفًا لعذاب المكذبين، إنهم يأكلون من شجرة مؤلمة ، طعامها مثل الزيت المغلى – وهو المهل – يغلى فى البطون كغلى الحميم ، ويشد المجرم شدًّا فى جفوة وإهانة ، ويصب فوق رأسه من الحميم الذى يكوى ويشوى .

ومع الشد والجذب ، والدفع والعتل والكى ، التأنيب والإهانة ، جزاء الشك والتكذيب بالبعث والجزاء : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ . (الدخان : ٤٩) .

وفى الجانب الآخر من ساحة القيامة نجد المتقين فى مقام أمين ، يلبسون الحرير الرقيق وهو السندس ، والحرير السميك وهو الإستبرق ، ويجلسون متقابلين يسمرون ويتمتعون بالحور العين ، وبالخلود فى دار النعيم : فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . (الدخان : ٥٧) .

ثم يأتى الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى ، الذى يفهمون كلامه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ولكنه مخيف . فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ . (الدخان : ٥٩) .

★ ★ ★

إنزال القرآن فى ليلة مباركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

والكتاب المبين : والقرآن الواضح .

ليلة مباركة : كثيرة البركة ، وهى ليلة القدر على الأصح .

منذرين : مخوّفين .

يفرق : يفصل ويبين .

كل أمر حكيم : كل أمر ذى حكمة ، وهو ما قضاه الله من أحوال العباد وحاجاتهم ، ومن أعظم ذلك نزول القرآن .

موقنين : تطلبون اليقين وتريدونه ، كما يقال : فلان منْجد ، أى : يريد نجدًا .

فى شك يلعبون : فى تردد ولعب يعبثون ، استهزاء بالنبى ﷺ ، فدعا عليهم قائلا : «اللهم أعنّى عليهم بسبعٍ كسبع يوسف» .

التفسير :

١ - حمٓ .

حروف مفصّلة افتتح الله بها عددًا من السور ، لتكون بمثابة الجرس الذى يقرع ، فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

ولأن الكفار كانوا يتواصون بعدم الاستماع للقرآن ، فلما قرع أسماعهم ما لم يألفوه أنصتوا ، وقيل: هى حروف للتحدّى والإعجاز ، ذلك أن الله تعالى طلب من المشركين أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا ، فطلب الإتيان بعشر سور منه فعجزوا ، فطلب الإتيان بسورة منه فعجزوا ، ولزمهم العجز الأبدى ، وتحدَّاهم القرآن مفتتحًا بعض السور بهذه الأحرف المقطعة ، مرشدا إلى أن القرآن مكوّن من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه من عند الله ، وهو وحى إلهى وليس من صنع بشر .

٢ ، ٣ - وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ .

أقسم الله تعالى بالكتاب الواضح لمن تدبّره ، على أنه أنزل القرآن الكريم فى ليلة مباركة ، حتى ينذر عباده ويخوّفهم من الإعراض عن الوحى ، ويحذرهم من الكفر والإلحاد .

الليلة المباركة

والليلة المباركة على الأرجح هى ليلة القدر ، وهى إحدى ليالى شهر رمضان ، وفى الصحيح أنها إحدى ليالى العشر الأواخر من رمضان ، وقد ابتدأ نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر ، فسمى الشىء باسم أوّله تيمنا به ، حيث خاطبت السماء الأرض فى هذه الليلة .

ثلاثة تنزلات

ذكر السيوطى فى (الإتقان) ، والزركشى فى (البرهان) أن القرآن الكريم له ثلاثة تنزلات :

١ - **التنزل الأول** : من رب العزة جلّ جلاله إلى اللوح المحفوظ فى السماء السابعة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

٢ - **التنزل الثانى** : من اللوح المحفوظ بالسماء السابعة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ . (القدر : ١) .

وبقوله تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ... (البقرة : ١٨٥)

٣ - **التنزل الثالث** : من بيت العزّة فى السماء الدنيا إلى النبى ﷺ ، منجمًا حسب الوقائع والحوادث ، خلال ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة المنورة ، والحكمة فى تعدد نزول القرآن الكريم هو التشريف والتكريم لهذا الكتاب الكريم ، حيث أنزله الله ثلاثة تنزلات ، وأيضًا لإلهاب شوق النبى ﷺ ، حيث يشعر أن القرآن قريب منه بالسماء الدنيا ، على حدّ قول الشاعر :

وأعظم ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام

- فالقرآن الكريم نزل جملة واحدة من عند الله العلى القدير إلى اللوح المحفوظ بالسماء السابعة .

- ثم نزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، قال تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ . (القدر : ١) .

- ثم نزل مفرقًا ومنجمًا فى شهور السنة كلها ، خلال ثلاث وعشرين سنة من عمره الشريف ﷺ .

وبهذا نجمع بين الآثار الواردة التى تفيد أنه نزل فى ليلة القدر ، وبين الواقع المشاهد الذى يفيد أنه نزل خلال ثلاث وعشرين سنة .

قال تعالى : وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلاً . (الإسراء : ١٠٦) .

عمره الشريف ﷺ

نزل الوحى على النبى ﷺ وعمره أربعون سنة ، واستمر نزول الوحى عليه ثلاث عشرة سنة فى مكة، وهاجر إلى المدينة وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة ، ومكث تسع سنوات وبضعة أشهر فى المدينة ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره اثنان وستون سنة وبضعة أشهر ﷺ ، ويمكن أن نقابل ذلك بالتاريخ الميلادى فنقول :

- ميلاد الرسول ﷺ سنة ٥٧٠ ميلادية.

- بدء نزول الوحى عليه سنة ٦١٠ ميلادية.

- هجرته ﷺ إلى المدينة سنة ٦٢٣ ميلادية.

- لحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى سنة ٦٣٣ ميلادية ؛ وهو التاريخ الموافق لسنة ١٠ هجرية.

عود إلى التفسير :

قال ابن جزى فى التسهيل لعلوم التنزيل :

إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ .

وكيفية إنزاله فيها أنه أُنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبى ﷺ شيئًا بعد شىء .

وقيل : المعنى : ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر .

وقال القرطبى : ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .

وقال ابن كثير :

إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ .

أى : معلمين الناس ما ينفعهم وما يضرهم شرعًا ، لتقوم حجة الله على عباده .

٤ - فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ .

فيها يفرق كل أمر ذى حكمة ، من أرزاق العباد وآجالهم وما يتعلق بهم ، من ليلة القدر إلى مثلها من العام القادم ، حتى إن الرجل ليتزوج ويولد له وقد كتب اسمه فى ديوان الموتى .

وقيل : إن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، حيث فيها آجال العباد وأرزاقهم وما يصيبهم ، ورفض ذلك المحققون .

وقيل : تبدأ كتابة الآجال والأعمار والأرزاق وشئون الخلق من ليلة النصف من شعبان إلى ليلة القدر من رمضان ، وهذا قول يحتاج إلى دليل ، وجمهور المفسرين على أن الليلة المباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان.

قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القادمة ، ما كان من حياة أو موت أو رزق .

٥ - أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

جميع ما نقدّره فى تلك الليلة ، وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد ، هو أمر حاصل من جهتنا ، بعلمنا وتدبيرنا ، فسبحان من أحاط بكل شىء علمًا ، ومن بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شىء قدير .

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . نُرسل الرسل والأنبياء لهداية البشر وتبليغهم الشرائع ، ونظام العبادات والمعاملات.

٦ - رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

إن التشريع والتقدير ، وإنزال الوحى ، وإرسال الرسل ، وإرشاد العباد ، وكل ما يتم فى هذا الكون ، مشتمل على الرحمة والرأفة والفضل من الله تعالى لعباده ، فهو السميع لأقوالهم ، العليم بأفعالهم ، وما أعظم رحمته وفضله على عباده ، فهو الرحمان الرحيم .

٧ - رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ .

أى : الله تعالى أنزل القرآن الكريم فى ليلة القدر بأمره سبحانه ، رحمة بعباده ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهو سبحانه رب السماوات والأرض ، وخالقهما ومالكهما وما فيهما ، وما بينهما من الهواء والفضاء والمخلوقات .

إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ . أي : متحققين في اعترافكم بأن خالق الكون هو الله سبحانه وتعالى ، أو إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ، فاعلموا أن الذى أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما .

٨ - لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ .

هو الإله الواحد الأحد ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال ، يحيى الأموات ، ويميت الأحياء ، هو خالقكم وخالق الخلق أجمعين من الأمم الماضية ، نعم هو واهب الحياة ، وهو الذى يحيى ويميت ، وهو الرب سبحانه المتصف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقص ، ليس معه إله آخر ، هو الباقى بعد فناء الجميع ، والمُلك له وحده يوم القيامة ، سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، ومن يتصف بهذا الجلال والكمال ، إذا أنزل كتابًا كان مشتملاً على غاية السموّ والرفعة .

٩ - بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ .

إن كفار مكة قابلوا الرسالة والوحى والإسلام ورسالة محمد ﷺ بالشك فيها والارتياب ، وأخذوا هذا الأمر العظيم والرسالة العظمى والقرآن الكريم مأخذ اللعب لا مأخذ الجدّ ، فظلوا فى غيهم ولهوهم ولعبهم .

وفى هذا المعنى قوله سبحانه : أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ * فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ . (النجم : ٥٩ - ٦٢) .

★ ★ ★

تهديد المشركين بالعذاب

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

لمفردات :

ارتـــــقب : انتظر أيها النبى .

بدخان مبين : واضح بيّن ، ويراد به الغبار المتصاعد بسبب الجدب .

يغشى الناس : يشملهم ويحيط بهم .

اكشف عنا : ارفع عنا .

أنى : كيف يكون ، ومن أين .

معلَّم : يعلمه غلام رومى لبعض ثقيف .

مجنون : لا يعى ما يقول .

نبطش : نعاقب بشدة ، والبطش هو الأخذ الشديد فى كل شىء ، والبأس .

تمهيد :

أرسل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بمكة ، فاشتد تعنّت المشركين ، وكذّبوه وحاربوه ، وآذوه وعذبوا أصحابه ، فدعا رسول الله ﷺ عليهم .

روى البخارى أن النبى ﷺ قال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» [٥٧] .

فأصاب أهل مكة الجدب والجوع حتى أكلوا العِهْنَ[٥٨] والجلود والعظام ، وكانوا ينظرون إلى السماء فيجدون ما يشبه الدُّخان، من شدة الجدب وقلة المطر وشدة الجوع ، فاستغاثوا بالنبى ﷺ ، وناشدوه الرَّحم، فدعا الله لهم ، فأنزل عليهم المطر رجاء أن يؤمنوا ويدخلوا فى الإسلام ، ثم توعدهم بالعذاب يوم بدر ، أو يوم القيامة ، حيث ينتقم الله منهم انتقامًا شديدًا .

التفسير :

١٠ – فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ .

انتظر يا محمد وترقب نزول العذاب بأهل مكة ، جزاء كفرهم وعنادهم ، حتى يشاهدوا فى السماء كهيئة الدُّخان ، من شدة الجدب والجوع والجفاف وقلة المطر .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن مسعود قال : إن قريشًا لما استعصوا على النبى ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد ، فأنزل الله : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ .

فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى ، فسقوا ، فنزلت .

ومن المفسرين من رأى أن الآية تشير إلى دخان سيأتى قبيل القيامة ، وهو من علامات الساعة ، يصيب الكافرين والمنافقين بمشقة شديدة ، حتى يخرج الدخان من فتحات أفواههم وأنوفهم ، ولا يصيب المؤمن منه إلا كهيئة الزكام .

وعند التأمل نجد أنه يمكن الجمع بين الآثار والأحاديث الصحيحة الواردة فى الموضوع ، بأن نقول إن الآية العاشرة من سورة الدخان ، وهى : فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . تشير إلى وعيد من الله لمشركى مكة ، بعذاب قادم فيه قحط وجوع وجدب ، حتى يشاهدوا فى السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع.

أما الآية السادسة عشرة من سورة الدخان ، وهى قوله تعالى : يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ . فهى تشير إلى عذاب المشركين فى غزوة بدر الكبرى ، أو إلى عذابهم بالنار يوم القيامة .

١١ - يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يشمل العذاب جميع الكافرين ، فيجهدهم الجوع والقحط وهيئة الدخان ، فيقولون : هذا عذاب مؤلم أشد الألم .

قال المفسرون : وكلما اشتد الجدب اشتد الدّخان تكاثفًا ، فكان الرجل يحدّث الرجل فيسمعه ولا يراه ، وذلك قوله سبحانه : يَغْشَى ٱلنَّاسَ ... أى : يضمّهم ويحيط بهم .

هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يُحتمل أنه قول الله لهم تهويلاً وتقريعًا ، أى : ذوقوا هذا العذاب الأليم .

ونظير ذلك قوله سبحانه للكافر يوم القيامة : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ . (الدخان : ٤٩) .

ويحتمل أن الناس هم القائلون : هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . حينما يرون الدخان وشدته وأثره فى إيلامهم .

١٢ - رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ .

عندما اشتد القحط بأهل مكة مشى أبو سفيان ومعه نفر إلى رسول الله ﷺ ، يناشدونه الله تعالى والرَّحم ، وواعدوه إن دعا لهم ، وزال عنهم ما بهم أن يؤمنوا ، أى : إذا كشفت عنا يا ربنا هذا العذاب ، فإنا سنؤمن بك وبرسولك ، وقد عدلوا عن قولهم : (سنؤمن) . إلى قولهم : إِنَّا مُؤْمِنُونَ . إظهارًا لمزيد الرغبة فى الإيمان .

١٤،١٣- أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ .

كيف يتذكر هؤلاء ربهم ، ويصدقون فى إيمانهم وجبلّتهم وطبيعتهم الإمعان فى الكفر والعناد ، فقد جاءهم رسول كريم ، مؤيد بالوحى والقرآن الذى يزلزل الجبال ، ويؤثر فى الصمّ الشداد ، وتخشع له الحجارة الصماء ، ومع كل ذلك أعرضوا عن القرآن والإيمان والرسول المؤيد بالمعجزات .

وقالوا : مُعَلَّمٌ . يعلّمه فتى أعجمى عند أحد بنى ثقيف .

مَّجْنُونٌ . تأتيه نوبة من الجنون ، فيهرتق بما لا يعرف ، لأنهم رأوا القرآن فوق طاقتهم وفوق طاقة البشر ، فنسبوه إلى الشعر وإلى الجنون ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه وحى السماء ، وكلام الله العلى القدير .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

إن كفار مكة كان لهم فى ظهور القرآن على يد محمد ﷺ قولان :

منهم من كان يقول : إن محمدًا يتعلم هذا الكلام من بعض الناس ، ومنهم من كان يقول : إنه مجنون، والجنّ تلقى عليه هذا الكلام حال تخبّطه . ا هـ .

١٦،١٥- إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ .

عندما استغاث كفار مكة بالنبى ﷺ ، رجاء أن يدعو الله لهم بنزول المطر ، استجاب النبى ﷺ ودعا ربّه فأنزل عليهم المطر ، وجاء الخصب وذهب القحط ، لكنهم لا وفاء لهم ، وما إن رأوا الخصب والنماء حتى عادوا إلى كفرهم وتكذيبهم للنبى ﷺ ، فتوعدهم الله تعالى بانتقام شديد وذلك يوم بدر ، حيث قُتلت صناديدهم ، وذلّ كبرياؤهم ، وقُتل منهم سبعون ، وأسر منهم سبعون وفرّ الباقون .

ورجح الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره، وابن كثير فى تفسير ، أن البطشة الكبرى هى يوم القيامة.

جاء فى (صفوة التفاسير) للأستاذ محمد على الصابونى ما يأتى :

قال ابن مسعود : ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ . يوم بدر .

وقال ابن عباس : هى يوم القيامة .

وقال ابن كثير : والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضًا .

وقال الرازى فى التفسير الكبير :

القول بأن البطشة الكبرى هى يوم القيامة أصحّ ، لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذى يوصف به هذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، ولما وصفت البطشة بكونها : ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ، وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون يوم القيامة . ا هـ .

★ ★ ★

الانتقام من فرعون وقومه

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

فتنا : اختبرنا وامتحنّا .

أن أدوا إلىّ عباد الله : أن أسلموا لى بنى إسرائيل ، أو أجيبوا دعوتى وصدقوا رسالتى .

وأن لا تعلوا على الله : وأن لا تتكبروا على الله ، بالاستهانة بوحيه ورسوله .

بسلطان مبين : بحجة واضحة .

وانى عذت بربى : استجرت به ، والتجأت إليه ، وتوكلت عليه .

أن ترجمون : الرجم هو الضرب بالأحجار .

فاعتزلون : فخلّونى واتركونى .

فأسر : سِر بهم ليلاً ، والإسراء : السير بالليل ، وأما السُّرى فهو السير بالنهار .

رهـــــــــوا : مفتوحًا ذا فجوة واسعة ، أو ساكنًا على هيئته .

جـــــنـــــات : بساتين .

وعـــيـــون : جمع عين ، والمراد : عين الماء .

ونـــعـــمـــة : وتنعم ، والنَّعمة بالفتح : التنعيم ، والنِّعمة بالكسر : ما أنعم الله به عليك .

فـــاكـــهـــيـــن : متنعمين ، يقال : فكه يفكه فكها : كان طيب النفس مزّاحًا .

كـــــــذلك : أى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم .

مُـنْـظَـريـن : ممهلين .

تمهيد :

هذه سورة مكية ، جابهت كفار مكة بما يستحقون ، ثم ذكّرتهم بمن سبقهم من المكذِّبين ، حيث اختبر الله القِبْط فى مصر وملكهم فرعون ، بأن أرسل إليهم موسى رسولاً ، يحمل معجزاتٍ متعددة ومعها التوراة ، فدعاهم إلى توحيد الله والإيمان به ، وحذرهم من الكبر ومن عدم طاعة الله تعالى ، ومن عدم طاعة رسوله ، لكنهم لم يؤمنوا ، فاشتكى موسى إلى ربّه جرمهم ، فأمره الله أن يسير ليلاً بمن معه ، وعند الشِّدة عليه أن يضرب البحر بعصاه ، فيفرق البحر بطريق يابس آمن ، فيسير موسى ومن معه إلى الشاطىء الآخر ، وعليه أن يترك البحر على حالته مفتوحًا حتى يغرق فيه فرعون ، الذى أهلكه الله فى ماء البحر ، وقد ترك الجنات والعيون والزروع وألوان النعيم ، فما حزنت عليه السماء والأرض ، وما أمهله الله بل أهلكه مع جنوده الباغين.

التفسير :

١٧ - وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ .

فى الآيات السابقة اختبار لأهل مكة ، حيث رفع الله عنهم العذاب قليلاً ، فعادوا إلى تكذيبهم ، فتوعَّدهم الله بالبطشة الكبرى يوم بدر أو يوم القيامة أو هما معًا ، وهذه الآيات تحكى قصة فرعون وملئه، حيث اختبرهم الله بالنعمة ، وبإرسال رسول كريم ، ومعه عدد من المعجزات والآيات ، فقابلوا ذلك بالكنود والعصيان ، فعاقبهم الله بالغرق فى الماء ، والهلاك والعذاب فى الدنيا والآخرة .

والمراد : أنّ ما فعله أهل مكة من تكذيب الرسول أمر معروف مألوف فى تاريخ البشرية .

ومعنى الآية :

ولقد اختبرنا وامتحنّا قبل مشركى مكة قوم فرعون من قبط مصر ، حيث أرسلنا إليهم رسولاً كريمًا فى نفسه وفى حسبه ، فالرسل تبعث فى أحساب قومها .

وفى الحديث الشريف : «يرحم الله أخي موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[٥٩] .

وأصل الفتنة : وضع الذهب فى النار ، امتحانًا وبيانًا لأصله وقيمته ، ثم أطلقت على الاختبار والابتلاء ، مثل اختبار الإنسان بالنعمة والأولاد أو الجاه والسلطان .

قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ... (التغابن : ١٥) .

أى : إننا عاملنا قبط مصر وفرعون معاملة المختبر ، فأغدقنا عليهم النعم والبساتين والعيون وألوان الخيرات ، وأرسلنا إليهم رسولاً كريمًا من أولى العزم من الرُّسل ، هو موسى عليه السلام .

١٨ – أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ .

قال ابن عباس :

أن أدّوا إلىَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله . اهـ .

والمعنى : ادخلوا فى دينى وآمنوا بالله ربا ، وبموسى رسولاً ، إنى لكم رسول من عند الله ، أمين على هدى السماء .

وقال مجاهد :

أن ادفعوا إلىّ عباد الله من بنى إسرائيل ، حتى أخلِّصهم مَن العذاب والذّلة ، وأخرج بهم من مصر ، لأننى لكم رسول أمين .

وأرى أنه يمكن أن تكون الآية محتملة للوجهين معًا ، والله أعلم .

١٩ – وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ .

لا تتجبَّروا ولا تتكبروا على الدخول فى دين الله ، والإيمان برسله ، فإنى أقدم لكم طائفة من المعجزات والآيات ، والوحى والتشريع ، والجدال بالتى هى أحسن ، فتواضعوا لله وآمنوا به .

٢٠ – وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ .

التجأت إلى الله وتحصَّنت به واستجرت به من أن تقتلونى .

قال القرطبى :

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله ، ويطلق الرجم على السب والشتم ، والإيذاء المعنوى كما قال ابن عباس ، كما يطلق على الرمى بالحجارة والقتل كما قال قتادة .

وأرى أنه يمكن أن يطلق على الإيذاء المعنوى ، والإيذاء الحسى ، أى : أستعيذ بالله أن تشيعوا عنّى الإشاعات المُغرضة ، أو تقذفونى بالحجارة .

٢١ – وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ .

إذا لم تدخلوا فى دينى ولم تؤمنوا برسالتى ، وظللتم على الكفر ، فإنى أدعوكم إلى المسالمة والمهادنة ، وليمض كل منّا فى طريقه إلى أن يقضى الله بيننا ، وفى هذا المعنى قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ . (الكافرون : ٦) .

أى : نختلف فى العبادة والاتجاه والدّين ، ولكن توجد بيننا مسالمة وحياد مع عدم الإيذاء ، وهى أرقى خطة يدعو العالم المتحضر إليها ، ويزعم أنها من ابتكاره ، خطّة حماية الأقلّيات ، واحترام حقوق الإنسان ، وعدم العدوان على الضعفاء والمسالمين والمدنيين ، وهى خطة رسالات السماء التى دعا إليها الإسلام فقال القرآن : لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... (البقرة : ٢٥٦) .

وقد نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار كانت عنده جاريتان ، فقال : يا رسول الله ، عرضت عليهما الإسلام فأبتا ، أفلا أكرههما على الإسلام ؛ فأنزل الله تعالى : لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ... فامتنع الأنصارىّ عن إكراههما على الإسلام .

٢٢ – فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ .

طال مكث موسى بينهم ، وقدَّم إليهم حجج الله تعالى عليهم ، وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا ، فدعا الله أن ينتقم منهم ، فاستجاب الله دعاءه فيهم .

كما قال تبارك وتعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (يونس : ٨٨ ، ٨٩) .

وهكذا كان دعاؤه هنا ، ومعناه : إن هؤلاء قوم مجرمون ، يستحقون تعجيل العذاب .

٢٣ ، ٢٤– فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ .

تلك معجزة إلهية كبرى ، فقد اشتكى موسى إلى ربه من إجرام فرعون وقومه ، فأمره الله أن يسير بمن آمن من بنى إسرائيل ليلاً ، فالليل ستر وظلام للهارب ، وفيه يسرٌ للمسافر ، حيث يحفظه من شدة الحرّ ، وييسر على الدواب الحركة ، بعيدًا عن وهج الشمس ومشقة الهجير .

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ :

إن فرعون وقومه سيتبعونكم رغبة فى الانتقام منكم ، وقد سار موسى وقومه ليلاً ، وأحسَّ فرعون بهربه ، فجمع جيشه وخرج وراءه ليدركهم ويعاقبهم ، عندئذ قال أصحاب موسى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ . (الشعراء : ٦١ ، ٦٢) .

فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، فضرب موسى البحر فانفلق ، فصار كل فرق كالطود العظيم ، أى صارت كل ناحية من الماء كالجبل العظيم المرتفع ، وأمره الله أن يسير فى طريق يابس مريح آمن ، ولما انتقل موسى ومن معه إلى الشاطىء الآخر ، أمره الله أن يترك البحر على حالته ، لأن فرعون وجنوده سيسيرون خلفكم ، فنغرقهم عقابًا لهم .

رَهْوًا . ساكنًا منفرجًا على هيئته بعد أن تجاوزه موسى ومن معه .

إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ .

أى : إن فرعون وقومه سيغرقون فيه .

كما قال تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ . (طه : ٧٧) .

قال ابن كثير وابن جزى وغيرهما :

وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ .

وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا ، وبشَّره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى .

قال ابن عباس :

وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ... كهيئته وامض .

وقال مجاهد :

رَهْوًا . طريقًا يابسًا كهيئته ، يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يدخل فيه آخرهم .

٢٥، ٢٦، ٢٧– كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ .

ما أكثر النعم التى كانوا يتمتعون بها ، لقد تركوا كثيرًا من البساتين والحدائق الغنَّاء ، والأنهار والعيون الجارية ، والمزارع العديدة فيها أنواع المزروعات ، ومجالس ومنازل حسنة ، ومحافل خاصة ، ونوادٍ خاصة ، ومجالس شريفة ، وغير ذلك من صنوف النعم التى كانوا يتمتعون بها ، مع الحسن والنضارة والرفاهية ، وكمال السرور .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

بيّن الله تعالى أنهم بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة ، وهى : الجنات ، والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم – وهو المجالس والمنازل الحسنة – ونَعمة العيش – بفتح النون – وهى حسنه ونضارته . ا هـ .

٢٨ – كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ .

أى : كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم ، وأورثنا منازلهم وملكهم وديارهم قومًا آخرين ، فما مضى عليهم إلا وقت يسير ، بين أن كانوا فى نعمة وملك وزروع ، وجنات ومقام كريم ، إلى أن صاروا غرقى وقتلى وهلكى ، يتعرضون لخزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ثم صار الملك والنعيم لآخرين ، فسبحان المعزّ المذلّ .

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

آراء العلماء فيمن ورث فرعون

(أ) ذهب بعض المفسرين إلى أن القوم الآخرين الذين ورثوا ملك فرعون وقومه ، هم بنو إسرائيل .

قال ابن كثير :

والمراد بهم بنو إسرائيل ، فقد استولوا – بعد غرق فرعون وقومه – على الممالك القبطية ، والبلاد المصرية، كما قال تعالى : **وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ** . (الأعراف : ١٣٧) .

وكما قال سبحانه : **كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** . (الشعراء : ٥٩) .

(ب) وقال آخرون :

المقصود من الآية أنهم ورثوا ملك فرعون فى أرض الشام التى هاجروا إليها ، وكانت تابعة لمصر فى عهد فرعون[٦٠] ، ولم يثبت تاريخيًّا أنهم عادوا إلى مصر بعد أن هاجروا إلى الشام .

(جـ) وذكر الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن ما يأتى :

كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ .

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذى كانوا فيه يرفلون : جنات ، وعيون ، وزروع ، ومكان مرموق ينالون فيه الاحترام والتكريم ، ونَعمة يلتذونها ويطعمونها ، ويعيشون فيها مسرورين محبورين ، ثمّ يُنزع هذا كلّه منهم ، أو ينزعون منه ، ويرثه قوم آخرون .

وفى موضع آخر قال : كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . (الشعراء : ٥٩) .

وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذّات ، ولكنّهم ورثوا ملكًا مثله فى الأرض الأخرى ، فالمقصود هو نوع الملك والنعمة الذى زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل ، ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس فى هذه الأرض ، ذهبوا فلم يَأسَ على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض[٦١] .

٢٩ - فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ .

لم تحزن عليهم السماء ولا الأرض ، لظلمهم وعدوانهم وتجبرهم ، حيث كانوا نغمة نشازًا فى هذا الكون ، الذى يخضع لأمر الله ويطيع أمره ، أما الظالم المتحيّر فهو يسير عكس الاتجاه ، حيث قال سبحانه للسماء والأرض عندما أراد خلقهما : ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . (فصلت : ١١) .

فالمؤمن الصالح متوافق مع هذا الكون ، تدعو له الملائكة ، ويسلّم عليه الصالحون فى كلّ تشهد للصلاة ، ومن دعاء التشهد : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

وفى الحديث النبوى الشريف : «أن العبد الصالح إذا مات بكاه من الأرض موضع سجوده ، ومن السماء مَصعد عمله» ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ .

من تفسير القاسمي

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ...

قال الزمخشري : إذا مات رجلٌ خطير ، قالت العرب فى تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس .

قال جرير فى رثاء عمر بن عبد العزيز :

نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمروا
حُمّلت أمرًا عظيمًا فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرُ
فالشمس كاسفة ليست بطالعة ... تبكى عليك نجومُ الليل والقمرُ

وقالت ليلى بنت طريف الشيبانى الخارجية ، ترثى أخاها الوليد بن طريف وقد مات قتيلا :

أيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى وجوب الجزع والبكاء عليه .

وعن الحسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ، يعنى فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض .

وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ .

أى : مؤخرين بالعقوبة ، بل عوجلوا بها زيادة سخط عليهم [٦٢] .

وقال الإمام ابن كثير :

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ .

أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد إلى أبواب السماء فتبكى على فقدهم ، ولا لهم بقاع فى الأرض عبدوا الله فيها ففقدتهم ، فلهذا استحقوا ألا يُنظروا ولا يُؤخروا . ا هـ .

★ ★ ★

نِعَم وابتلاء

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

العذاب المهين : الشديد الإهانة والإذلال .

عاليا : جبارًا متكبرًا .

من المسرفين : فى الشر والفساد .

اخترناهم : اصطفيناهم .

على علم : عالمين باستحقاقهم ذلك أو على معرفة بحالهم .

الآيات : المعجزات ، كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوىٰ .

بلاء مبين : اختبار ظاهر .

تمهيد :

فى أعقاب غرق فرعون ، يتحدث القرآن عن أنعم الله على بنى إسرائيل ، فقد نجاهم الله من العذاب المخزى ، حيث كان فرعون يقتل أطفالهم الذكور خوفا منهم ، ويترك الإناث أحياءً للخدمة ، وفى ذلك بلاء أى بلاء ، حيث لا تجد الإناث رجالا يتقدمون للزواج منهن ، ويترتب على ذلك فساد وحرمان وإذلال ، بسبب تجبر فرعون وإسرافه فى الشر والعدوان ، وقد اخترنا بنى إسرائيل لدور فيه كرامة ، على معرفة بعنادهم وصلفهم ، وأظهرنا لهم معجزات باهرة ، مثل : فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى .

التفسير :

٣٠ ، ٣١ - وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ .

أخبر الله فيما سبق أنه أهلك فرعون وجنوده ، وكان فى هلاكهم نعمة كبيرة على بنى إسرائيل ، فقد كان فرعون يستذلهم ويذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ويتفنن فى إيذائهم ، كما قال تعالى : إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ . (القصص : ٤) .

وقال سبحانه : فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ . (المؤمنون : ٤٦) .

ومعنى الآيتين (٣٠-٣١) من سورة الدّخان : ولقد أنعمنا على بنى إسرائيل ، حيث نجيناهم من العذاب الأليم المزرى بهم ، من قتل الذكور واستحياء الإناث للخدمة والاستعباد ، لقد كانت هذه النجاة من فرعون الطاغية المتكبر المتجبر المسرف فى الكفر بالله وادعاء الألوهية ، حيث قال : أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤)

٣٢- وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ .

أى : اخترناهم واصطفيناهم لميراث الأرض ، حيث قادهم يوشع بن نون من بعد موسى ، ففتح بهم أريحا وأطاح بالشرك فى هذا الإقليم ، أى : اخترناهم عالمين باستحقاقهم لهذا الميراث على عالمى زمانهم.

وقيل : المعنى : اخترناهم مع علمنا بأنهم ستكون لهم عيوب ورذائل فى المستقبل مثل تحريف التوراة، وتحريف الكلم عن مواضعه ، لكن كانت لهم قيادة صالحة تُقَوِّمُ ما هم عليه من تلكؤ ومن انحراف والتواء «مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره لهم قد يكون لأنهم أفضل أهل زمانهم ، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدًى وعلى بصيرة واستقامة» [٦٣] .

٣٣- وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا مُّبِينٌ .

أعطيناهم من المعجزات والكرامات ما فيه اختبار ظاهر ، حيث أنزل الله عليهم المنّ والسلوى ، واستخلفهم فى جانب من أرض الشام ، حتى إذا تم امتحانهم وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم ، وسلط عليهم من ينتقم منهم ويشردهم فى الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا فى الأرض إلى يوم الدين .

فى أعقاب التفسير

فساد بنى إسرائيل فى الأرض

نلاحظ أن اليهود يتمسكون بمثل هذه الآيات التى تفيد أن الله اصطفاهم واختارهم على علم لهم ، وفضلهم على العالمين ، وروح القرآن تفيد أن الله اختارهم واصطفاهم عندما أطاعوا موسى ، واتبعوا تعاليم التوراة فأورثهم الأرض ، وما إن تمكّنوا وصلح حالهم حتى استبدُّوا وفسدوا ؛ فسلط الله عليهم من ينتقم منهم انتقاما بليغًا ، وتوعدهم بهذه العقوبة كلما عادوا إلى الفساد .

وفى صدر سورة الإسراء أفاد القرآن الكريم ما يأتى :

(أ) لبنى إسرائيل إفساد فى الأرض متكرر ، وهناك مرتان هما أعلى هذا الإفساد .

(ب) يسلط الله عليهم فى الإفساد الأول من ينتقم منهم ويخرب ديارهم .

(جـ) يستردون عافيتهم ، ويمدهم الله بالمال والرجال .

(د) كلما عادوا إلى الإساءة سلط الله عليهم من ينتقم منهم ، ومن يخرب هيكلهم ومن يهدم ممتلكاتهم .

ويفيد المؤرخون أن أفضل أيام بنى إسرائيل كانت أيام مُلك داود وسليمان عليهما السلام، ثم كان الإفساد الأول حيث سلط الله عليهم بختنصر البابلى سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، ثم ساعدهم قدرش الفارسى الذى تزوج من يهودية ، فحسَّنت له مساعدة اليهود حتى استردوا ملكهم وأعادوا بناء هيكلهم سنة ٥٢٦ قبل الميلاد، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الإفساد والظلم ، ثم سلط الله عليهم فى الإفساد الثانى الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م ، وقد كان إذلالهم فى المرة الثانية أشد وأنكى ، وقد تفرق اليهود فى البلاد بعد هزيمتهم الثانية وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث.

الآيات التى تحدثت عن فساد بنى إسرائيل

قال تعالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء : ٤-٨) .

★ ★ ★

مناقشة المشركين

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

المفردات :

هؤلاء : مشركي مكة .

موتتنا الأولى : الموتة التى نموتها فى الدنيا ، ثم لا نحيا ولا نبعث بعدها .

بمنشرين : بمبعوثين بعد الموت ، يقال : نشر الله الميت وأنشره ، أى : أحياه بعد الموت .

قوم تُبّع : تُبّع الحميرى الأكبر ملك اليمن ، الذى جيَّش الجيوش وفتح المدن ، وكان مؤمنا وقومه كافرين ، وتُبّع لقب لملك سبأ ، كلقب كسرى لملك الفرس ، ولقب قيصر لملك الروم .

لاعبين : لاهين عابثين .

يوم الفصل : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الله يفصل فيه بين الحق والباطل .

ميقاتهم : وقت حسابهم وجزائهم ، مشتق من الوقت .

لا يغنى مولى عن مولى شيئا : لا يغنى الذين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا شيئا عن أنفسهم فى الآخرة .

تمهيد :

بدأت السورة بحديث عن مشركى مكة ، ثم انتقلت للحديث عن فرعون وقومه من قوله تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . (الدخان : ١٧) .

وبعد انتهاء قصة فرعون وغرقه ونجاة بنى إسرائيل عاد الحديث عن هؤلاء المشركين ومناقشتهم فى أقوالهم ، فهم ينكرون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويطلبون إحياء من مات من آبائهم ليسألوهم : هل محمد صادق فى ادعائه أن الله أرسله ؟ ثم يبصرهم القرآن بأن الله تعالى أهلك قوم تبع والذين من قبلهم،

كعاد وثمود ، وقد كانوا أكثر من أهل مكة عددًا وعدة ومع ذلك أهلكهم الله ، فليعتبروا بذلك حتى لا يصيبهم ما أصاب من سبقهم ، ثم يقدم القرآن الأدلة العقلية على وجوب البعث والحشر والجزاء والحساب ، حتى يُكافأ المحسن ويُعاقب المسىء .

التفسير :

٣٤، ٣٥- إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ .

إن مشركى مكة لينكرون البعث والحشر والجزاء ، ومن ثم يقولون : سنموت مرة واحدة فى الدنيا ، وبعد الموت لا حشر ولا نشر ولا بعث ولا حساب ، وهذا كقوله تعالى : وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. (الأنعام : ٢٩)

٣٦- فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

قال كفار مكة للنبى ﷺ : إن كنت صادقا فيما تقول ، فادع الله أن يحيى لنا رجلين من آبائنا ، منهم قصىٌ بن كلاب فإنه كان حكيما صادقا ، لنشاوره فى صدق رسالتك ، وفى صحة البعث والنشر والحساب والجزاء .

وتلك حجة واهية ، فقد جعل الله الدنيا للاختبار والابتلاء ، وجعل الحشر والنشر والجزاء إنما هو يوم القيامة حيث يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يغير الناموس الإلهى من أجل رغبة المشركين ، لذلك أهمل القرآن الإجابة على طلبهم ، وقال سبحانه :

٣٧- أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ .

تأتى هذه الآية لتفتح عيونهم على واقع مشاهد ، هو أن الله أهلك قوم تُبَّع فى بلاد اليمن المجاورة لهم، وكانوا أكثر حضارة وقوة ومنعة ، كما أهلك كثيرا من المكذبين ، مثل عاد وثمود وفرعون ، أهلكهم الله لإجرامهم وعتوهم .

وفى هذا المعنى يقول سبحانه : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر : ٦-١٤) .

أى : فكما أهلك الله هؤلاء المكذبين ، فهو قادر على إهلاكهم ومعاقبتهم إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم .

٣٨، ٣٩- وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

هذا الكون البديع المنظم الذى أحكم الله خلقه بنسب معينة ، وتقدير حكيم ، فسبحان الذى أتقن كل شيء خلقه ، وهذا الإتقان ظاهر فى كل ما خلق وأبدع ونظم بنسب معينة ، ونظام دقيق ، يسير هذا الكون وفق نظامه ، ثم خلق الله الإنسان وميزه بالعقل ، ومنحه الإرادة والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية، ولما كانت الدنيا ليست دار جزاء ، بل هى عرضٌ زائل يأكل منها البّر والفاجر ، لذلك كان لابد من دار جزاء يتم فيها البعث والحشر والحساب والجزاء ، ومكافأة المحسنين ومعاقبة المجرمين .

ومعنى الآيتين :

لم نخلق هذا الكون عبثًا وباطلاً ، بل خلقنا السماوات والأرض بالحق والعدل ، ومن أجل حكمة عليا هى أن يستدل الناس بهما على قدرة الخالق ، وأن يتأملوا فيهما ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لقلة نظرهم ، فصاروا لا يرجون ثوابا ولا يخشون عقابا .

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة فى كتاب الله ، منها ما ورد فى أواخر سورة (آل عمران)، وفيها يقول الله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .

وأيضًا قوله تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وكقوله عزّ وجل : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ . (ص : ٢٧ ، ٢٨).

ويقول الناظم :

وفى كل شيء له آية ... تدلّ على أنه الواحد

٤٠، ٤١، ٤٢- إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ .

إن يوم القيامة هو يوم الفصل ، حيث يفصل الله ويحكم بين الظالمين والمظلومين ، ويفصل بين المؤمنين والكافرين ، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، وهو الوقت الذى حدده الله للقضاء والجزاء ، ومكافأة الصالحين ومعاقبة الكافرين .

قال تعالى : إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا . (النبأ : ١٧) .

يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

فى ذلك اليوم لا يغنى ولىّ ولا حبيب ولا قريب ولا صديق عن وليه أو حبيبه أو قريبه أو صديقه شيئًا، أى شىء .

إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يعود الناس إلى ربهم فرادى كما خلقهم أول مرة ، وقد انقطع التناصر بينهم ، ذلك الذى كان يربط بينهم فى الدنيا ، حيث موازين الآخرة مختلفة ، وكل امرئ بما كسب رهين ، فلا تناصر بين أب وابن ، ولا بين زوجة وزوجها ، ولا بين أمٍّ وولدها .

قال تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .
(عبس : ٣٤-٣٧)

كان أهل الباطل فى الدنيا يتآزرون ويتناصرون ، لكن فى الآخرة يكون الجزاء على قدر العمل ، ويتبرأ المتبوعون من التابعين ، ولا ينفع الولىّ وليّه ولا ينصره .

إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ...

أى : لكن الطائعين المؤمنين الملتزمين يشملهم الله برحمته ، ويظلهم فى ظل عرشه .

إنه هو ٱلْعَزِيزُ . الغالب القاهر ، مالك الملك ، ملِك يوم الدين . ٱلرَّحِيمُ . الذى يشمل برحمته من يشاء ممن هو أهل لتلك الرحمة ، مستحق لذلك الفضل .

* * *

عذاب الجحيم ، ونعيم الجنة

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

شجرة الزقوم : شجرة مرَّة ، شكلها بشع مخيف

الأثيم : كثير الآثام والذنوب وهو الكافر .

المهل : دردى الزيت .

الحميم : الماء الذى تناهى حرّه .

فاعتلوه : جرُّوه بعنف ومهانة ، أو ادفعوه دفعا عنيفًا .

سواء الجحيم : وسط النار .

تمترون : تشكون .

فى مقام أمين : فى مجلس أمنوا فيه من كل همٍّ وحزن .

سندس : حرير رقيق .

واستبرق : هو الديباج الغليظ شديد البريق .

حور : جمع حوراء ، من الحور وهو شدة سواد العين مع شدة بياضها .

عين : جمع عيناء ، وهى واسعة العينين .

ووقـــاهـــم : وحفظهم .

فضـــــلا : تفضلا .

ارتـــــقب : انتظر .

تمهيد :

من شأن القرآن الكريم أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، فالكافر يأكل من شجرة الزقوم ، طعمها مر بشع ، تنبت فى وسط الجحيم فيأكل من ثمرها الذى يغلى فى بطنه كغلى الماء الحار ، ويؤخذ بعنف ومهانة ويرمى به فى وسط النار ، ثم يُصب فوق رأسه ماء حار يغلي غلى المرجل ، تتأثر به أمعاؤه ، وينـاله الهوان والمذلة وألوان العذاب ، ويقال له : أيُّها المتكبر المتغطرس الذى كان يقول فى الدنيا: إنى عزيز كريم مِنْ أعز أهل هذا الوادى ، ولن يصل إلىّ العذاب ، يقال له تهكما به وعقابا له : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ . (الدخان : ٤٩) . أى : أصبحت ذليلا مهينا معذبًا بأقسى ألوان العذاب الجسدى والنفسى .

وفى المقابل نعيم أهل الجنة ، فهم يتمتعون بالجنات والعيون ، ويلبسون أنواع الحرير ، ويزوَّجون الحور العين ، كل ذلك الفضل منة من الله ، وهو فوز عظيم .

التفسير :

٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦ – إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ .

يذوق الكافر ألوان العذاب الجسدى والنفسى ، فطعامه من شجرة الزقوم ، تلك الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فطعامها مرّ وشكله مخيف كالشبرق ، وهو حار يغلى فى بطن الكافر كما يغلى الماء الحار ، أو كالزيت المغلى الذى بلغ أعلى درجات الحرارة ، فيقطع أمعاء الكافر .

٤٧، ٤٨ – خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ .

يقال لزبانية جهنم : جرُّوه فى عنف ومهانة فاقذفوا به فى وسط النار ، ثم صبوا فوق رأسه ما يحرق جلده ، فيجتمع عليه عذاب الظاهر وعذاب الباطن .

قال ابن كثير :

وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية : خُذُوهُ . ابتدره سبعون ألفا منهم .

وقوله : فَٱعْتِلُوهُ . أى : سوقوه سحبا ودفعًا فى ظهره .

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ . أى : وسطها .

ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ .

كقوله عز وجل : يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ.
(الحج : ١٩-٢١)

٤٩- ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ .

أى : تذوق هذا العذاب ، فقد كنت تزعم أنك أعزّ أهل مكة وأكرمها ، ولن يستطيع أى عذاب أن يصل إليك، فيقال للكافر على سبيل التقريع والتهكم : تذوق شدة العذاب أيها المهين الذليل .

ذكر الأمويّ فى مغازيه :

لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ، فقال ﷺ : «إن الله أمرنى أن أقول لك : أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ. (القيامة : ٣٤، ٣٥) . قال : فنزع أبو جهل ثوبه من يد النبى ﷺ ، وقال : ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شيء ، ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر ، وأذلّه وعيّره بكلمته [١٤] وأنزل : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ .

أى : يقول له الملك : ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ . بزعمك ، وقيل : على معنى الاستخفاف والاستهزاء والإهانة والتنقيص ، أى قال له : إنك أنت الذليل المهان .

٥٠- إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ .

إن هذا هو العذاب الذى كنتم تجادلون وترتكبون المراء والجدال فى الدنيا بشأنه ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك فى صحته ، فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رؤوسكم .

٥١، ٥٢، ٥٣- إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ .

نجد هنا مقابلة بين الحديث عن أهل النار وعذابهم ومهانتهم ، والحديث عن أهل الجنة وما يلقون من صنوف التكريم فى المكانة والمكان ، والملبس والمجلس ، والقرناء أو الزوجات ، وأنواع المآكل والفواكه ، والأمن النفسى والحسى ، فضلا من الله ونعمة عليهم بهذا الفوز العظيم .

ومعنى الآيات :

إن المتقين الذين راقبوا الله وأخلصوا له فى أعمالهم لهم مساكن آمنة من جميع المخاوف ، طيبة المكان والنزهة ، فهم فى بساتين غنّاء ، وينابيع متدفقة بالماء ، ويلبسون ملابس متنوعة متفاوتة ، بعضها

من ، سُندُسٍ ، وهو الحرير الرقيق ، وبعضها من ، إِسْتَبْرَقٍ ، وهو الحرير الغليظ الأخاذ البراق ، كما يتمتعون بالجلوس على الأرائك متقابلين ينظر بعضهم إلى وجوه بعض ، ولا يعرض عنه زيادة فى التكريم والنعيم .

٥٤، ٥٥- كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ .

أى : هذا العطاء مع تزويجهم أو قرنهم بالزوجات الحسان الحور البيض ، الواسعات الأعين مع شدة بياض العين وشدة السواد فيها ، يطلبون ما شاءوا من أنواع الفواكه والثمار ، ويجدون فى الجنة ما يشتهون، حال كونهم آمنين من الأوجاع والأسقام ، ومن الموت والتعب والشيطان ، وقد تكرر وصف الجنة فى القرآن الكريم ، وذِكْر ألوان النعيم المتعدد ، مثل قوله تعالى : إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ . (المطففين : ٢٢-٢٦) .

وقوله سبحانه : فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ . (الرحمان : ٥٦-٥٨) .

٥٦، ٥٧- لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

أهل الجنة فى شباب دائم ، وصحة دائمة ، لا يدركهم النوم ولا الموت ، بل هم خالدون فى الجنة بفضل الله ونعمائه ، لقد ماتوا فى الدنيا عن شهواتهم وملذاتهم ، وصاموا عن المحرمات ، والتزموا مرضات الله، وسَمَتْ أرواحهم لأن تكون من أهل الجنة ، وقد أدركهم الموت فى الدنيا مرة واحدة ، فإذا دخلوا الجنة فهم فى نعيم دائم ، وخلود بلا موت لا يخرجون من الجنة ولا يموتون ، وقد حفظهم الله من عذاب الجحيم ، فضلا من الله ونعمة ، إن هذا الذى يحصل عليه أهل الجنة هو الفوز العظيم ، وأى فوز أعظم من نعيم الجنة والوقاية من عذاب النار .

أخرج الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يقال لأهل الجنة : إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا» [٦٥] .

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت» [٦٦] .

إن هذا النعيم فضل من الله ونعمة ، وثواب ومنحة ، وهو فوز عظيم لأهل الجنة ، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «لن يُدخل أحدكم الجنة عملُهُ» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته» [٦٧].

٥٨، ٥٩ - فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ .

لقد يسرنا القرآن للذكر ، وأنزلناه بلسانك يا محمد باللغة العربية .

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

ومن أسباب التقارب أن يكون الرسول بشرا مثل البشر ، وأن يتكلم بلغة قومه ولسانهم ، ليكون خبيرًا بلغتهم وأفكارهم ؛ فيحاورهم ويناقشهم ، ويأخذوا عنه ويستفهموا منه ، والقلوب النظيفة هى التى تستجيب للهدى ، ودواعى الإيمان .

ومعنى الآية :

إنّما أنزلنا القرآن عربيا مبينا على نبى عربى ، صاحب لسان عربى ، ولأمة عربية علّها أن تتفهم المراد، وتعى دورها ومسئوليتها فى فهم الذكر والتخلق بأخلاق القرآن وهديه .

قال تعالى : وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... (النحل : ٤٤) .

فالرسول ﷺ مهبط الوحى ، واختيار السماء ، وخاتم الرسل ، وبه خاطبت السماء الأرض ، ومن خلاله نزل وحى الله وكتابه الكريم ليكون خاتم الكتب ، ينزل على خاتم الرسل ، لعلَّ قومه يتذكرون معانى الألوهية والتوحيد ، وشرف الإيمان بالوحى والاهتداء به وحمله إلى الناس .

قال تعالى : وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ .

أى : توقع ما ينزل بالمشركين من الهزيمة والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، إنهم يرتقبون موتك، ويقولون : انتظروا حتى ينزل بمحمد ما نزل بالشعراء من قبله من الموت .

قال تعالى : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر : ٣٠، ٣١) .

وقال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ . (الأنبياء : ٣٤) .

أى : كل منكم يتربص ماذا سينزل بخصمه ، بيد أن الله وعدك النصر فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة .

قال تعالى : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقال عزّ من قائل : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الدخان

١ – بيان بدء نزول القرآن .

٢ – وعيد الكافرين بحلول الجدب والقحط .

٣ – عدم إيمانهم مع توالى النكبات بهم .

٤ – عظة الكافرين بقصص فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ، وقد نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين.

٥ – إنكار المشركين للبعث .

٦ – سوق الأدلة على أن الله تعالى خالق الكون بالحق .

٧ – وصف أهوال القيامة .

٨ – وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والعذاب .

٩ – وصف نعيم المتقين .

١٠– النبى ﷺ مبلغ عن الله ، يحمل الوحى إلى الناس لعلهم يتذكرون .

١١– الغد فيصل ، حيث يخزى الله الكافرين وينصر المؤمنين .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة الدخان ، صباح الجمعة ٦ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٦/٩ م .



تفسير سورة الجاثية

أهـداف سـورة الجاثيـة

سورة الجاثية مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٣٧ آية ، نزلت بعد سورة الدخان ، والسورة لها اسمان : سورة الجاثية ، لقوله تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ... (الجاثية : ٢٨) .

وسورة الشريعة لقوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الجاثية : ١٨)

الغرض من السورة

تحمل سورة الجاثية الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والرد على الدهرية الذين لا يؤمنون به ، وينكرون البعث بعد الموت ، وقد دعت السورة إلى هذا تارة بالدليل ، وتارة بالترهيب والترغيب ، شأنها فى ذلك شأن السورة السابقة ، وشأن السورة التى ذكرت قبلها ووافقتها فى هذا الغرض ، كما وافقتها فى الحروف التى ابتدأت بها ، ولهذا ذكرت هذه السورة معها ، وسميت مجموعة هذه السور بالحواميم ، نسبة إلى بدايتها بقوله تعالى : حمٓ .

وقال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الجاثية هو : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمنكرين ، وبيان النفع والضر والإساءة والإحسان[٦٨] ، وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذم متابعى الهوى ، وذل الناس فى المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأبيد الكفار فى النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ وأفصح مقال[٦٩] فى قوله : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . (الجاثية : ٣٦) .

سمات السورة

لاحظنا أن سورة الدخان تتميز بقصر الآيات ، وعنف الإيقاع كأنه مطارق تقرع القلوب ، وسورة الجاثية بجوارها تسير فى يسر وهوادة ، وإيضاح هادئ ، وبيان دقيق عميق .

والله سبحانه خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق ، وتارة باللمس الناعم الرفيق ، وتارة بالبيان الهادئ الرقيق ، حسب تنوعها هى واختلافها .

فمن الناس من ينفع معه الزجر والوعيد ، ومنهم من يأسره التوجيه الهادئ الرشيد ، والقلب الواحد يتقلب على حالات متعددة ، والله يختار له ما يناسبه ، وهو سبحانه اللطيف الخبير ، السميع البصير ، وقد كان من دعاء النبي ﷺ : «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أراك تكثر من هذا الدعاء ، فقال النبي : «يا عائشة ، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء»[٧٠] .

منهج السورة

سورة الجاثية تصور جانبًا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعًا كاملاً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ظاهر ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، وهو يواجهها بآيات الله القاطعة ، العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم بعذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

درسان في السورة

سورة الجاثية وحدة في علاج موضوعها ، وهذه الوحدة تشتمل على درسين :

الدرس الأول : يتناول أدلة الشرك بالتفنيد ، وأدلة الإيمان بالتوضيح والتأييد .

والدرس الثاني : يعرض عناد الكافرين في الدنيا ، ثم يذكر أحوالهم في مشاهد القيامة .

...

١ - شبهات الكفر ، وأدلة الإيمان

تبدأ سورة الجاثية بهذين الحرفين : حمٓ، والملاحظ أن هذه الأحرف يتبعها عادة الحديث عن القرآن، مما يشير إلى أنها نزلت لتنوه بهذا القرآن ، وتستلفت الأنظار إلى خصائصه المتميزة ، وتبرهن بذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو من عند الله : تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (الجاثية : ٢) .

وتعرض أدلة الإيمان والتوحيد ، وتستلفت الأنظار إلى جلال الله ، ودلائل قدرته في السماء الأرض، والخلق والدواب ، والليل والنهار ، والمطر والزرع والرياح ، حتى تأخذ على النفس أقطارها ، وتواجهها بالحجج والبراهين ساطعة واضحة ، فتقول : إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ .

(الجاثية : ٣ – ٦)

ومن خلال الآيات التالية نرى فريقا من الناس مصرًا على الضلالة ، مكابرًا فى الحق ، شديد العناد ، سيئ الأدب فى حق الله وحق كلامه : وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الجاثية : ٧ ، ٨) .

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب ، سيئى التصوير والتقدير ، لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقا أصيلاً فى ميزان الله بين الفريقين : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجاثية : ٢١) .

ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هواه ، فهو إلهه الذى يعبده ، ويطيع كل ما يراه، نرى هذا الفريق مصورًا تصويرًا فذًا فى هذه الآية التى تعجب من أمره ، وتُشهِّر بغفلته وعماه : أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجاثية : ٢٣) .

أرأيت كيف تناولت هذه السورة الهادئة أصناف المشركين وفرقهم المناوئة للدعوة ، ويجوز أن يكون هؤلاء جميعًا فريقًا واحدًا من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك ، كما يجوز أن يكونوا فرقًا متعددة .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث ، كذلك واجههم الله بآياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، وفى البر والبحر ، حيث يقول سبحانه : ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الجاثية : ١٢ ، ١٣) .

ويستغرق الدرس الأول من السورة الآيات من (١ – ٢٣) .

٢ - عناد الكافرين وعقابهم يوم الدين

يشمل الدرس الثانى من السورة الآيات من (٢٤ – ٣٧) ، ويبدأ بعرض أقوال المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب ، ودعواهم بأن الأيام تمضى ، والدهر ينطوى ، فإذا هم أموات ، والدهر فى ظنهم هو الذى ينهى آجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون ، وقد فند القرآن هذه الدعوى ، وبيّن أنها لا تستند إلى حقيقة أو يقين ، وإذا قرعتهم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا : ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . (الجاثية : ٢٥) .

والله سبحانه له حكمة فى خلق الناس ، فقد خلقهم للاختبار والابتلاء فى الدنيا ، ثم يجازيهم فى الآخرة ، ولا يرجعهم إلى الدنيا قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا .

والله هو الذى يحيى وهو الذى يميت ، فلا عجب إذن من أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، وهو سبحانه مالك السماوات والأرض ، وهو القادر على الإنشاء والإعادة .

مشاهد القيامة

تعرض الآيات الأخيرة من سورة الجاثية مشاهد الآخرة ، ظاهرة ملموسة للعين ، ومن خلال الآيات نرى المشركين وقد جثوا على الركب ، متميزين أمة أمة فى ارتقاب الحساب المرهوب .

ثم يأخذون كتابهم وقد سجل كل شىء فيه ، ونسخت فيه كل أعمالهم : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٨ ، ٢٩)

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال إلى فريقين اثنين : الذين آمنوا ، وهؤلاء يدخلهم ربهم فى رحمته . والذين كفروا ، وهؤلاء يلقون التشهير والتوبيخ جزاء عنادهم ، وعندئذ تظهر أمامهم سيئات ما عملوا ، ويحيق بهم المهانة والعذاب ، ويسدل الستار عليهم ، وقد أوصدت عليهم أبواب النار : ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . (الجاثية : ٣٥)

وهنا ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الكون : سمائه وأرضه ، إنسه وجنه ، طيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد ، له الكبرياء المطلق فى هذا الوجود ، وله العزة القادرة والحكمة المدبرة : فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الجاثية : ٣٦ ، ٣٧) .

★ ★ ★

أدلة الألوهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

حم : حرفان من حروف المعجم ، أو أداة للتنبيه ، أو للتحدّى والإعجاز .

الكتاب : القرآن .

العزيز : القوىّ الغالب .

الحكيم : العالم المتقن للأمور ، الذى يضع الشىء فى موضعه .

يبث : ينشر ويفرّق ، يقال : بث الخبر ، يبثّه ، نشره وأذاعه .

دابة : كل ما دبّ على الأرض ومنها الإنسان ، جمعها دواب .

واختلاف الليل والنهار : تعاقبهما وتفاوت أحوالهما .

رزق : مطر يتسبب عنه الرزق .

أحيا به الأرض : أحياها بالزرع .

موتها : جفافها ويبسها .

تصريف الرياح : اختلاف أحوالها .

التفسير :

١ - حمٓ .

حرفان من حروف المعجم التى افتتح الله تعالى بها بعض السور للتنبيه ، فهى بمثابة الجرس الذى يقرع فيتنبّه التلاميذ لدخول المدرسة ، أو للتحدى والإعجاز ، أو للإشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، أو هى لجميع هذه المعانى ، وغيرها مما سبق ذكره فى أول سورة البقرة .

٢ – تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ .

هذا القرآن تنزيل من الله ، وحى أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ ، فهو هبة السماء للأرض ، وهو منزّل من عند الله ، ٱلْعَزِيزِ . القوىّ فى ملكه ، ٱلْحَكِيمِ . فى صُنْعه ، الذى لا يصدر عنه إلا كلّ ما فيه حكمة ومصلحة للعباد .

٣ – إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

إن فى خلق السماوات وما فيها من أبراج وأفلاك وملائكة ، وشموس وأقمار ونجوم وغير ذلك ، وفى خلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار ونبات ، وإنسان وحيوان وطيور وطرق ، ومعالم متعددة وغير ذلك – لعلامات ودلائل وآيات ترشد الناس إلى الإيمان بأن هذه الصنعة الدقيقة لابد لها من خالق قادر حكيم متصف بالكمال ، هو الله سبحانه وتعالى .

٤ – وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

وفى خلق الإنسان وتقلبه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، ثم إلى مخلوق كامل ، ثم إلى وليد ، ثم تدرّجه إلى الشباب والكهولة والشيخوخة والموت ، وما فرَّق الله فى الأرض من أجناس الحشرات والطيور والسباع والوحوش ، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة ، إن فى هذا كله لدلائل تزيد الإيمان يقينًا وتأكيدًا وصدقًا ، بأن خالق هذا الكون قدير حكيم ، فعال لما يريد .

٥– وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وفى اختلاف الليل والنهار ، من التعاقب والطول والقصر ، والحرّ والقرّ ، والنور والظلمة ، وما يتبع ذلك من تغاير الفصول ، واختلاف المنافع ، وفيما ينزل الله من السحاب من مطر تحيا به الأرض بعد جفافها ، ويكون رزقًا للإنسان والحيوان والطيور ، وفى تصريف الرياح ، فتهب مرة جنوبًا وأخرى شمالاً ، وحينًا صبا بالرحمة وماء السحاب ، وحينًا دبورًا تبعث العذاب ، وفيما تؤديه من تلقيح النَّبات ، وتيسير سير السفن فى الأنهار والمحيطات ، إن فى ذلك كله لعلامات واضحة لقوم يستخدمون عقولهم ، ليعلموا أن لهذه الأشياء صانعًا حكيمًا ، وخالقًا قادرًا عظيمًا .

وقد أفاد فخر الدين الرازى فى تفسيره أن هذه العلامات المتعددة بآيات الله ، إذا نظر إليها الإنسان متأمّلاً ؛ قاده ذلك إلى الإيمان ، لذلك قال سبحانه فى الآية الثالثة : إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

وإذا تأمل فى خلقه وتدرّجه فى بطن أمّه ، وفى حياته طفلاً ويافعًا وشابًّا وشيخًا ، ازداد يقينًا بهذا الإيمان ، لذلك نجد الآية الرابعة : وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

وإذا تأمل فى حركة الكرة الأرضية وحركة الشمس ، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار ، ونزول المطر ، وتصريف الرياح بأنواعها المتعددة ، كان ذلك وسيلة إلى يقين العقل والفكر بقدرة الخالق سبحانه ، لذلك جاء فى الآية الخامسة : وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وقريب من هذا الكلام ما ذكره الجمل فى حاشيته على الجلالين ، حيث أفاد أن التعقيب كان على دلائل القدرة كالآتى : لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . ثم : لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . ثم : لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . لأن الإنسان إذا نظر فى هذا الخلق آمن ، وإذا نظر فى خلق نفسه ونموها ازداد إيمانًا فأيقن ، وإذا نظر فى سائر الحوادث عقل واستحكم علمه، فاختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور .

★ ★ ★

عناد المشركين

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١) ﴾

المفردات :

ويــــل : عذاب وهلاك .

أفــاك : كذَّاب ، وأصله : أفك الشيء، يأفكه أفكا ، أى : صرفه عن وجهه ، والكذب قول مصروف عن وجهه.

أثــيم : مذنب كثير الإثم .

يُصـر : يستمسك ويدوم ويثبت ، من الإصرار .

اتخذها : الضمير لآياتنا .

هـــــزوا : سخرية واستهزاء .

فـــبشـــره : البشارة للخبر السار ، واستعمالها فى الشرّ تهكم .

من ورائهم : الوراء : اسم الجهة التى يواريها الشخص من خلفٍ وقدَّام .

أولـــيـــاء : نصراء .

الـــرجـــز : أشد العذاب ، ويطلق أيضًا على القذر كالرجس .

تمهيد :

هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، الذى كان يشترى أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآيات عامة فى كل نموذج يُصرّ على الباطل ، ويقاوم الحق ، ويستغل الكذب فى تشويه الحق ، وهو مستهزئ بآيات الله وكتابه .

التفسير :

٦ - تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ .

هذه آيات الله وقرآنه المشتمل على قصص الأولين ، وعلى الوحى والتشريع والآداب ، وهدى السماء للأرض ، متحليًا بمخاطبة العقل والفكر ، فإذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الحكيم المعجز ، فبأىّ كتاب أو قصة أو دعوة للإيمان يؤمنون ؟ لقد جاءهم أعظم هدًى فأنكروه وهو واضح هادٍ ، ومن جحده وأنكره لن يجد مثله فى الدعوة الحكيمة إلى الإيمان .

٧ ، ٨ - وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

الهلاك فى جهنم لكل كذاب مرتكب للإثم بمقاومة الإسلام ، والصدّ عن القرآن ، وإذا سمع آيات القرآن تتلى وتقرأ عليه لم يتفتح قلبه لاستقبالها والإيمان بها ، بل يعرض عنها كأنه لم يسمعها ، ولم تطرق مسامعه ، فاحمل له البشارة بالعذاب الشديد فى جهنم .

والبشارة تكون بالخبر السارّ ، لكن الله تعالى سمى ذلك بشارة تهكما بهذا الكافر ، أى : كما استهنت بأعظم كتاب فأبشر بأعظم عذاب .

٩ ، ١٠ - وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

كان أبو جهل أو النضر بن الحارث أو غيرهما يستهزئ بآيات القرآن ، والمعنى : وإذا سمع من القرآن شيئًا استهزأ به واستهان ، وقاوم الإيمان به ، فسيلقى عذابًا مذلاً مهينًا فى جهنم ، من خلفه ومن أمامه

جهنم يوم القيامة ، وكلمة : وراء ، اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف أو من قدّام ، فهى مشترك لفظى، تطلق على الشيء وضدّه ، أى ستلحقه النار من أمامه ومن خلفه ، ولن يجد نصيرًا ينصره ، ولن ينفعه الحرام الذى اكتسبه ، واللهو الذى آثره على القرآن ، كما أن الأصنام والأوثان التى عبدها لن تنقذه ، ولن تقدم له أى منفعة ، وقد أُعد له عذاب عظيم مخيف مؤلم .

١١ – هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ .

أى : القرآن الكريم مصدر هداية أو هو نفس الهداية ، والدعوة إلى الرشاد والإيمان ، أما الذين كفروا بالقرآن وكذبوا بآيات الله ، فلهم عذاب مؤلم مذل مهين .

قال الزمخشرى : الرِّجز أشدّ العذاب .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ .

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى ، هدى خالص مصفى ، هدى ممحض لا يشوبه ضلال ، فالذى يكفر بعد ذلك بالآيات – وهذه حقيقتها – يستحق ألم العذاب ، الذى يمثله توكيد معنى الشدّة والإيلام ، فالرجز هو العذاب الشديد ، والعذاب الذى يهددون به هو عذاب من رجز أليم ، تكرار بعد تكرار ، وتوكيد بعد توكيد يليق بمن يكفر بالهدى الممحض الصريح[٧١] .

★ ★ ★

صنوف النِّعم

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

سخر : ذلل .

الفلك : السفينة .

الابـتـغـاء : الطلب .

يـغـفـروا : يعفوا ويصفحوا .

لا يرجون أيام الله : لا يتوقعون وقائعه بأعدائه ونقمته عليهم .

ليجزى قوما : ليكافئ المؤمنين الغافرين .

ومن أساء فعليها : أى : ومن أساء فعلى نفسه أساء .

تمهيد :

فى هذه الآيات ذِكْر لألوان النعم التى أنعم الله بها على عباده ، وفيها دعوة إلى الصفح والعفو .

التفسير :

١٢ – ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ما أجلَّ نعم الله تعالى على الإنسان ، فهذا المخلوق البسيط يسر الله له طائفة من النِّعم ، ومنها هذا البحر الهائج المائج المتلاطم الأمواج ، الممتد الكبير ، يسخره الله للإنسان ، ويجعل سطح الماء سائلاً أملس ، قابلاً لأن تجرى عليه السفينة المكونة من ألواح الخشب ، تحركها الرِّياح أو الفحم أو الكهرباء ، وفى ذلك نجد عددًا من الموافقات تتم فى الكون مثل شدة الحرارة ، وحركة الشمس ، وتسخير الهواء والماء ، وصناعة السفن ، وإلهام الإنسان الاستفادة من هذه النِّعم ، ولينقل البضائع والتجارة من بلد لآخر حتى يستفيد الجميع ، ولعلهم يشكرون خالقهم وصاحب الأنعم المتعددة عليهم .

١٣ – وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : سخر لكم أيضًا ما فى السماء من أبراج وأفلاك ، وشموس وأقمار ونجوم ، وليل ونهار ، وما فى الأرض من بحار وأنهار وأشجار ، وجبال وزروع ونبات وحيوان ، هذا وغيره مما نشاهده صباح مساء ، قد سخره الله بفضله وأنعمه وتيسيره ، مما يستدعى النظر والتأمل والتفكر فى أدلة القدرة العالية .

وفى كل شىء له آية		تدلّ على أنه الواحد

١٤ – قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ .

هذه السورة مكية ، وكان عدد المسلمين فى مكة مائتى رجل وامرأة ، فأمرهم الله بالصبر والاحتمال فى فترة الضعف ، ثم لما استمرّ عناد المشركين ، وقوى عود المسلمين ، أمرهم الله بالجهاد والجلاد فى المدينة .

قال الزركشي في البرهان :

وليس هذا من النَّسخ ولكنه من باب التدرج فى التشريع ، فكلما كان المسلمون ضعافًا أُمروا بالصبر والاحتمال ، وكلما كانوا أقوياء أُمروا بالجهاد ، وقد تعددت أقوال العلماء فى سبب نزول هذه الآية ، فقيل : إنها نزلت فى عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك من غفار بمكة قبل الهجرة ، فهمّ أن يبطش به ، فنزلت هذه الآية .

وروى الواحدى والقشيرى عن ابن عباس :

أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أُبىّ ، فى غزوة بنى المصطلق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها : المُرَيْسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليسقى فأبطأ عليه ، فقال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قعد على فم البئر ، فما ترك أحدًا يسقى حتى ملأ قرب النبى ﷺ ، وقرب أبى بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء ، إلا كما قيل : (سمن كلبك يأكلك) فبلغ عمر قوله ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ، فأنزل الله هذه الآية ، وقيل غير ذلك فى سبب نزولها ، لكن العبرة فى الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى دعوة عامة للمؤمنين أن يصفحوا ويغفروا ، ويسامحوا هؤلاء المشركين الذين لا يتوقعون وقائع الله تعالى ، ولا يخافون نقمته عليهم لكفرهم ، كما انتقم الله منهم فى بدر وأمثالها ، وكما ينتقم منهم يوم القيامة ، فيجزيهم على قبيح أفعالهم عند الحساب والجزاء ، فالجزاء عادل يوم القيامة .

١٥ - مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

من عمل من عباد الله عملاً صالحاً فى الدنيا فسيعود ثواب ذلك على نفسه ، ومن ارتكب سوءًا أو شرًّا فضرره عائد عليها ، ولا يكاد يسرى جزاء عمل إلى غير عامله ، ثم تعودون إلى الله يوم القيامة ، فيجازى كل إنسان بما عمل ، المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، قال تعالى : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

★ ★ ★

نعم الدين وإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

الكتاب : المراد به التوراة ، أو الكتب التى نزلت على أنبيائهم ، مثل التوراة والزبور والإنجيل .

الحكم : القضاء بين الناس ، أو الفقه فى الدِّين .

وفضلناهم : فضلناهم على عالمى زمانهم الوثنيين .

بينات من الأمر : أدلة فى أمر الدين ، ويندرج فيها المعجزات التى جاء بها موسى عليه السلام .

بغيا : حسدًا وعنادًا .

شريعة : منهاج وطريقة فى أمر الدين ، وأصل الشريعة : مورد الماء فى الأنهار ونحوها ، وشريعة الدّين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه .

الأهواء : ما لا حجة عليه من آراء الجهال التابعة للشهوات .

هذا : القرآن .

بصائر للناس : معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب .

تمهيد :

ذكر تعالى بعض نعمه على بنى إسرائيل ، ثم نعمته على البشرية عامة برسالة محمد ﷺ ، المشتملة على الهداية والرحمة ، وإنارة البصائر ، وهداية القلوب .

التفسير :

١٦ - وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ .

أنعم الله على بنى إسرائيل بالعديد من النِّعم ، ومن هذه النعم ما يأتى :

(أ) التوراة وسائر الكتب السماوية السابقة واللاحقة ، كالزبور والإنجيل والصحف ، التى أنزلها الله على رسله ، كما أعطاهم الفهم للدين ولعلوم الشريعة ، وجعل فيهم عددًا كبيرًا من الأنبياء ، ومنهم من أوتى الملك والنبوة مثل داود وسليمان .

(ب) رزقهم الله رزقًا طيبًا كالمنّ والسلوى والسمك ، وغير ذلك من أرزاق البر والبحر .

(جـ) فضلهم الله على عالمى زمانهم من المشركين ، فلما أنزل الله الرسالة الخاتمة ، وأرسل النبى الخاتم ، انتقلت الأفضلية إلى أمة محمد ﷺ .

قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣)

واليهود يهتمون بذكر تفضيلهم على العالمين ، وعند استعراض آيات القرآن الكريم نجد أن هذا التفضيل كان بسبب اتباعهم لموسى ، وعملهم بتعاليم التوراة وطاعتهم لله ، فلما حرَّفوا التوراة وخالفوا أمر الله ، غضب الله عليهم ولعنهم ، كما سنجد فى الآيات اللاحقة أن الله أعطاهم البينات والمعجزات الواضحة ، مثل فلق البحر ، والآيات التسع التى أُعطيت لموسى ، لكنهم اختلفوا طمعًا فى مناصب الدنيا .

١٧ - وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أعطينا بنى إسرائيل شريعة واضحة بينة ، فيها الأوامر والنواهى ، والحلال والحرام ، هذا الوضوح والبيان ، والعلم بما أحل الله وبما حرمه ، كان يقتضى منهم السير صفًّا واحدًا على الطريق الواضح ، والصراط المستقيم ، بيد أنهم اختلفوا وتفرقوا شيعًا ، بعد أن جاءهم العلم بالحق ، وسبب الاختلاف هو الحسد والبغى طمعًا فى مناصب الدنيا وشهواتها ، فانظر كيف كان العلم بأحكام الله ، وتبيُّن شريعته سببًا فى تفرقهم ، وكان الأصل أن يكون سبب وحدتهم ، لأن العلم إذا وجد قلبًا نقيًّا ، كان العلم كالماء يفيد الأرض الطيبة فينمِّى بذرتها ، أما العلم إذا وجد قلبًا غافلاً غارقًا فى الشهوات ، فإن هذا العلم يكون وبالاً على صاحبه ، كالماء إذا وجد أرضًا سبخة مريضة ، فإنها لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ .

لقد اختلفوا بعد أن جاءهم العلم واليقين بصدق نبوة محمد ﷺ ، وعلموا من التوراة وغيرها صفة محمد ﷺ ، وأنه يولد فى مكة ، ويهاجر إلى يثرب ، وأنه خاتم الرسل وآخرهم ، وأنه لا يقابل السيئة بالسيئة لكن يعفو ويصفح ، وقد استوضحوا صفاته بعد هجرته إلى المدينة ، لكنهم كفروا به ظلمًا وبغيًا وعدوانًا .

قال تعالى : فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ... (البقرة : ٨٩) .

وقال عز شأنه : وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ . (البينة : ٤) .

وفى الآخرة نجد القضاء العادل من الإله العليم الحكيم ، المطلع على الخفايا والأسرار ، فيتم الحكم بالعدل ، وإنصاف المظلوم وعقوبة الظالم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن عدالة الله ستقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

وفى سورة الزمر يقول الله تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزمر : ٤٦) .

وفى هذا تحذير للأمة الإسلامية من أن تسلك مسلكهم ، وأن تسير على نهجهم .

قال تعالى : وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . (الأنفال : ٤٦) .

١٨ - ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

ثم أرسل الله محمدًا ﷺ برسالة عامة للنَّاس أجمعين ، وهى شريعة واضحة سهلة سمحة من أمر الدين ، فاتبع هذه الشريعة واثبت على أمر الله ، واصبر على تبليغ الدعوة ، ولا تتبع أهواء كفار مكة الذين قالوا له : ارجع إلى دين آبائك ، كذلك لا تتبع أهواء اليهود الذين يكتمون الحق ، أو لا تتبع أهواء أى صاحب هوًى من المشركين أو اليهود أو غيرهم .

قال المفسرون : والشريعة فى كلام العرب : الموضع الذى يرد منه الناس فى الأنهار ونحوها ، فشريعة الله حيث يرد الناس منها أمر الدين ، ورحمته تعالى والتقرب إليه .

١٩ - إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ .

الآية تعليل لقوله سبحانه : وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : فهؤلاء أصحاب الهوى والشهوات ، إن اتبعتهم لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئًا ، ولو كان لهم نفع لنفعوا أنفسهم .

وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...

أى : إن المتجاوزين حدود الله ، والخارجين على أوامره ، بعضهم أعوان لبعض على الباطل ، فلا توالهم باتباع أهوائهم فهم فى خسران ، ودم على طاعتك لله وتبليغ شريعته ، فإنه سبحانه ولى المتقين ، يرعاهم ويؤيدهم بنصره ، وأنت إمام للمتقين .

٢٠ – هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

هذه رسالة الإسلام ، وآيات القرآن ، علامة هداية ، ونور يضىء طريق الإيمان ، ويبصِّر القلوب بطاعة الرحمان ، فقد اختلف أهل الكتاب من بعد ما جاءهم العلم ، ثم أنزل الله عليك القرآن هداية ورحمة ، وتبصرة بمعالم الدين ، وأحكام الحلال والحرام ، وتشريعًا لأحكام الله ، وتبصيرًا للناس بدين الله ، وفى القرآن هداية ورحمة ، لاشتماله على ألوان الهداية ، من التشريع والقصص ، وصفات الله وكمالاته ، وبيان ألوان الهداية التى يتفضل الله بها على عباده ، برحمته وفضله ، وحنانه ومغفرته ، وتوفيقه وألطافه ، وسائر معونته لعباده الذين يوقنون بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً .

★ ★ ★

الفارق بين المحسنين والمسيئين فى المحيا والممات

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

اجترحوا السيئات : اكتسبوا الكفر والمعاصى .

ساء ما يحكمون : قبح ما يقضون به .

من اتخذ إلهه هواه : من اتخذ هواه معبودًا له ، فخضع له وأطاعه .

وأضله الله على علم : أضلّه الله وسلب عنه الهدى بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه .

قال ابن كثير : ويحتمل معنى آخر هو : أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك .

وختم على سمعه وقلبه : أغلق منافذ الهداية عنده ، فهو لا يقبل ما ينفعه مما يسمعه ، ولا يقبل حقًا لإصراره على كفره .

وجعل على بصره غشاوة : غطاء أو ظلمة فلا يبصر دواعي الهدى .

فمن يهديه من بعد الله : فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه ؟ أي : لا أحد يهديه .

أفلا تذكرون : أتتركون النظر فلا تتعظون .

سبب النزول :

روى الكلبي في تفسيره أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا لعلى وحمزة وجمع من المؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولونه حقًا ، لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة ، كما هو أفضل في الدنيا ، فنزل قوله تعالى : **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...**

التفسير :

٢١ - **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .**

زعم الكافرون أن القيامة إذا قامت فإن لهم منزلة سامية عند الله ، كما كانوا في الدنيا ، فسيكونون كذلك في الآخرة ، وقد رد الله عليهم بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، فاستحقوا رضوان الله في الدنيا ، وجنته في الآخرة ، أمَّا الكافرون فقد خالفوا أمر الله وكذبوا رسوله ، فاستحقوا غضب الله في الدنيا ، وعذاب النار في الآخرة .

قال الزمخشري :

المعنى : إنكار أن يستوى المحسنون والمسيئون محيا ، وأن يستووا مماتا ، لافتراق أحوالهم في ذلك، والآية متضمنة للرد على الكفار، كما يعرف بأدنى تدبر، لأن الله إذا أنكر عليهم المساواة ، فكيف بالأفضلية؟

المؤمنون عملوا أعمالاً صالحة ، فحافظوا على الإيمان والطاعة ، وابتعدوا عن معصية الله ، والكافرون اقترفوا المعاصي والفسوق في الدنيا ، وإذا لم يستويا في الدنيا عملاً ، فلن يستويا في الآخرة في الجزاء .

وقد جاء هذا المعنى فى سورة السجدة ، قال تعالى : أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ... (السجدة : ١٨ - ٢٠)

وقال تعالى : لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

ومعنى الآية :

سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أى : ساء ما ظنوا ، وبَعُدَ أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الآخرة ، وفى هذه الدار .

قال مجاهد :

المؤمن يموت مؤمنًا ويبعث مؤمنًا ، والكافر يموت كافرًا ويبعث كافرًا ، نقله القرطبى فى تفسيره .

وقد كان الصحابة والتابعون يرددون هذه الآية هضمًا لأنفسهم ، وترغيبًا لأنفسهم فى الحسنات ، وتزهيدًا فى السيئات ، فقد أخرج الطبرانى ، عن أبى الضحى ، عن مسروق أن تميما الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ...

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى ، من أىّ الفريقين أنت ؟

٢٢ - وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

بالعدل قامت السماوات والأرض ، والكون كله خاضع لأمر الله خضوع القهر والغلبة ، وهذا الكون يسبّح بحمد الله ، وهو نغمة متناسقة خاشعة خاضعة ، مسبحة بحمد الله ، مستجيبة لأمره ، فالإنسان العابد الطائع متناسق مع الكون ، خاضع لأمر الله ، والكافر العاصى ، والفاجر الفاسق الخارج على أوامر الله ، هؤلاء نغمة نشاز فى هذا الكون ، من أجل ذلك كان لابدّ من دار جزاء ، يثاب فيها الطائع ، ويعاقب العاصى ؛ لأن خلق الكون بالعدل والحق يؤدى إلى أن تجزى كل نفس بما كسبت ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، تلك قوانين العدالة والإنصاف ، ولا يظلم ربك أحدًا .

قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

٢٣ - أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

مع أن الكون كله قد خلق بالحق والعدل ، وهو يسبِّح بحمد الله تسبيح طائع لله ، ملتزم بأوامره وقوانينه ، فإنك تعجب حين تجد الكافر الذى يشذُّ عن عبادة الله ، فيعبد الهوى والصنم والشهوة ، فهو أسير هواه وشهواته ، وقد سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، فاختار الضلالة مع علمه بأنها ضلالة ، كما قال سبحانه : وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

أو أضله الله عالمًا بحاله ، وأنه يؤثر الهوى على الحق ، لذلك سلب عنه الهدى والتوفيق ، وتركه ضالاً متحيرًا ، فلا يسمع ما يفيده ، ولا يتأمل بقلبه فى أسباب الهدى ، ولا يتأمل ببصره فى ملكوت السماوات والأرض .

فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

إن الهدى هدى الله ، وإذا كان الله تعالى قد سلب عنه الهدى والتوفيق ، فمن يملك له أسباب الهداية بعد أن سلبها الله عنه ؟ إن هذا لأمر يستحق التفكر والتذكر .

قال الآلوسى : والكلام على التمثيل . ا هـ .

أى أن الله شبّه إعراض الكافر عن الحق ، وتعاميه عن الهدى ، وتصامه عن سماع القرآن ، بمن فقد هذه الحواس .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

وصف الله تعالى الكفار بأربعة أوصاف :

الأول : عبادة الهوى .

الثانى : ضلالهم على علم .

الثالث : الطبع على أسماعهم وقلوبهم .

الرابع : جعل الغشاوة على أبصارهم .

وكل وصف من هذه الأوصاف مقتضٍ للضلالة ، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجه من الوجوه .

من تفسير القرطبى

ذكر القرطبى فى تفسير قوله تعالى : وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ...

قال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، ذلك أنّه طاف بالبيت ذات ليلة ، ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبى ﷺ فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم أنه صادق ، فقال له : مَهْ ، وما دلّك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسمّيه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تمّ عقله وكمل رشده نسمّيه الكذاب الخائن ، والله إنّى لأعلم أنّه صادق ، قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أنّى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة ، واللات والعزّى لا أتبعه أبدا ، فنزلت : وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ... [٧٢] .

وقد أورد القرطبى فى تفسيره لهذه الآية عشرة أبيات فى ذمّ الهوى ، والدعوة إلى مخالفة هوى النفس ، واتباع العلم والدِّين ، ومن ذلك قول عبد الله بن المبارك :

ومن البلايا للبلاء علامة ألاّ يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبد عبد النفس فى شهواتها والحرّ يشبع تارة ويجوعُ

وأخرج أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، والحاكم ، عن شداد بن أوس ، عن النبى ﷺ : قال : «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والفاجر من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على الله الأمانى» [٧٣] .

★ ★ ★

الردّ على الدّهرية ، وذكر أهوال القيامة

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

ما هى إلا حياتنا الدنيا : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التى نحياها .

نموت ونحيا : يموت بعض ويولد آخرون ، ولا ميعاد ولا قيامة .

وما يهلكنا إلا الدهر : وما يهلكنا إلا مرور الزمان .

إن هم إلا يظنون : ما هم إلا قوم يتوهمون .

ما كان حجتهم : ما كان قولهم الذى ساقوه مساق الحجة ، وليس بحجة .

ائتوا بآبائنا : أحضروا آباءنا أحياء فى هذه الدنيا بعد أن ماتوا .

قل الله يحييكم : يخرجكم إلى الوجود بعد أن كنتم نطفا .

ثم يجمعكم إلى يوم القيامة : ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة .

لا ريب فيه : لا شك فيه ، فإنّ من قدر على الابتداء فى الخلق قادر على الإعادة .

المبطلون : أهل الباطل وهم الكفار .

جاثية : باركة على الرُّكب مستوفزة .

كتابها : صحيفة أعمالها .

ينطق : يشهد .

نستنسخ : نستكتب الملائكة أعمالكم ، ونثبت ونحفظ .

تمهيد :

ذكر تعالى شبه الكافرين وما يرون أنه حجة فى ظنّهم، واعتقادهم أن هذه الحياة الدنيا هى كلُّ شىء، وما يميتهم إلا تتابع الليل والنهار ، فيموت أقوام ويولد آخرون ، ولا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، وحجتهم تتلخص فى طلب إحياء آبائهم بعد أن ماتوا ، والله تعالى جعل الدنيا للعمل دون الحساب ، والآخرة للحساب دون العمل .

وقدم القرآن أدلة على وجوب البعث ، منها أن الله قد بدأ الخلق ، والإعادة أهون من البدء ، ثم إن الله له ملك السماوات والأرض ، وهذا المالك سيبعث الأموات أحياء يوم القيامة ، وعندئذ نجد كلَّ جماعة من الناس جاثية على ركبها ، مستوفزة من الهول ، ويتم الحساب والجزاء ، وقد سجل الملائكة والحفظة أعمال كل إنسان فى كتاب ينطق عليه بما عمل .

التفسير :

٢٤- وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .

قال المشركون : لا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، وليست هناك حياة آخرة ، وإنما الموجود هو الحياة الدنيا فقط ، نَعيش فيها مدة ثم نموت ثم نحيا فى أبنائنا والأجيال التى تأتى من بعدنا ، وما يهلكنا إلا

كرّ الأيام وتتابع الليالى ، وهي فكرة خاطئة لا تعتمد على شرع نزل بذلك ، ولا على يقين مؤكد مثل : ١ + ١ = ٢، إنما هو ظن ظنّه أهل الجاهلية ، والدهر أو الأيام والليالى ليست هى التى تميت ، ولو كان ذلك كذلك لمات الناس جميعا فى سن معينة ، لكن الموت يأتى على الصغير كما يأتى على الكبير ، ويأتى على القوى كما يأتى على الضعيف ، ويأتى على الشيخ كما يأتى على الشاب ، ويأتى على السليم كما يأتى على المريض ، فالأجل عند الله فى كتاب فى اللوح المحفوظ .

٢٥- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

إذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات بينات ، وفيها دلائل التوحيد وأخبار السابقين ، وتشريع المؤمنين وبيان العقائد والعبادات والمعاملات ؛ لجأوا إلى الجدال بالباطل ، فقد اقترحوا على النبى ﷺ عددا من الاقتراحات من بينها ما يأتى :

(أ) إبعاد الجبال عن مكة ، وتسخير أرضها بالينابيع والخضرة مثل أرض الشام .

(ب) إحياء رجلين ممن مات من آبائهم ، منهما قصىّ بن كلاب ، حتى يسألوه عن البعث بعد الموت وهل هو حق، ويسألوه : هل محمد صادق فى دعواه الرسالة ؟

وهنا حكى القرآن قولهم وهو شبهة ، وسماها القرآن حجة بناء على زعمهم أو تهكمًا بهم .

والمقصود من الآية :

إذا دعوتَهُم إلى الإيمان وقرأت عليهم آيات القرآن ؛ لم تكن لديهم وسيلة إلى الرفض إلا الجدال بالباطل، وطلبهم أن تبعث لهم من مات من آبائهم إن كنت صادقًا فى أن البعث حقّ .

والله تعالى قد حدد للبعث وقتا ، وجعل ذلك ناموسًا من نواميس الحياة ، حتى لا يكون الخلق عبثا وباطلا ، فلابد من دار يكون فيها الحساب والجزاء ، أما أن يكون البعث وسيلة للتسلية ، أو اقتراحا يقترحه أهل مكة ، فالله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يغيِّر النواميس من أجل اقتراح الأشخاص .

٢٦- قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إن الله تعالى هو الذى أحياكم حين كنتم نطفة فى ظهور آباءكم ، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم ، فالحياة والموت بيد الله وحده ، لا بيد الأيام والليالى أو الدهر كما زعمتم ، ثم يبعثكم ويجمعكم يوم القيامة لا شك فى حصوله ، حتى يجازى كل إنسان بما عمل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكر فى الدلائل .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ. (الملك : ٢) .

وقوله سبحانه : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقوله عز وجل : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

٢٧- وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ .

الكون كله فى قبضته وطوع إرادته ، وهو سبحانه له ملك السماوات وما فيها ، وملك الأرض وما عليها، وله الملك وحده يوم القيامة ، وفى هذا اليوم يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، ويظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار .

تعليق

يذكر المفسرون فى هذه الآية والآية السابقة عليها الردّ على الدهرية ، وهم قوم من العرب كانوا يقولون : إنما يهلكنا الليل والنهار ودورة الزمان ، وينسبون الحياة والموت إلى الدهر ، وإذا أصابهم مكروه سبُّوا الدهر ، ووجد من غيرهم من الطوائف من يوافقهم على ذلك ، منهم جمهور الفلاسفة الدّهريين والملاحدة فى كل زمان ، حيث ينسبون الحياة وتنوع أشكالها إلى التطور الذى استمرّ ملايين السنين ، وفى اعتقادهم أن ليس وراءَ ذلك قوةٌ مدبِّرة مبدعة خلاقة ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون صدفة ، ومنهم من ينتسب إلى الإسلام لكنه فى كتاباته العلمية يجارى هؤلاء ويخجل أن يذكر نسبة الخلق إلى خالق مبدع ، وربما قال: الطبيعة هى التى أبدعت وصنعت، ولو سُئل عن الطبيعة : ألها فكر؟ لما كان لديه جواب ، وهم كما قال تعالى: وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ. (الجاثية : ٢٤) .

وإلا فأين الأسلوب العلمى فى نسبة حدوث هذه المخلوقات العجيبة ، بما فيها من الأجهزة العلمية الدقيقة التى تتكامل لتؤدى وظائف معينة على أكمل ما يكون ، كيف تُنسب إلى الصدفة أو الطبيعة غير العاقلة؟ سبحان الله ! كيف يعمى الهوى الأبصار والبصائر[٧٤] .

من دلائل الإيمان

الإيمان فطرة فى الإنسان ، ودليل اليقين والهدوء النفسى ، وبه جاءت الرسل والكتب ، وأثبتت الإحصاءات الرسمية وغير الرسمية أن المؤمنين أقدر على الصبر والتماسك فى الشدائد ، وأقدر على الشكر والتعاون والتصدّق

ومساعدة الآخرين في السراء والضراء ، والإيمان سند وعون في الملمات ، ووسيلة لاتباع مكارم الأخلاق ، والبعد عن المعاصي والقبائح ، ولو لم يكن ما أرسل به الرسل دينًا لكان في دنيا الناس شيئًا عظيمًا ، إن دلائل الإيمان شواهد في خلق السماء والأرض والنجوم والجبال والنّبات والأشجار والإنسان والحيوان والشمس والقمر والهواء والماء ، وكل ما تراه العين يدل على إبداع الخالق سبحانه بديع السماوات والأرض .

قال تعالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

عودٌ إلى التفسير :

٢٨- وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

تصف الآية مشهدًا من مشاهد القيامة ، يشتد فيه الهول ، وتزفر جهنم زفرة لا يبقى أحدٌ إلا جثا على ركبتيه مستوفزا ، لا يلمس الأرض منه إلا ركبتاه وأطراف أنامله .

قال الحسن : ترى كل أمة باركة على الركب ، كل مجموعة أو ملة واحدة تدعى إلى كتابها ، أي : صحيفة عملها.

وقيل : كلُّ ملة تدعى إلى الكتاب المنزل عليها .

ولسان الحال أو لسان المقال يقول : ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا يوم الجزاء على أعمالكم : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨).

٢٩- هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالعدل والصدق ، فقد كان الحفظة يكتبون أعمالكم ويسجّلون حسناتكم وسيئاتكم ، وكلمة نستنسخ بمعنى نكتب ، وحقيقة النَّسخ : هو النقل من أصل إلى آخر.

قال ابن عباس : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابل الملائكة الموكّلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس يقول: ألستم عربًا ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل [٧٥] .

وفي فتح القدير :

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أي : نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أي بكتابتها وتثبيتها ، وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عزّ وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب . ا هـ.

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . (الزمر : ٦٩) .

وقوله عز شأنه : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقال على رضى الله عنه : إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بنى آدم .

وهذا يدل على أن الكتابة هنا رمز لطرق الإثبات والاستيثاق والحفظ وتسجيل الأعمال ، حتى ليفاجأ العبد بأن كل ما عمله مسجل محفوظ ، كما قال سبحانه : أَحْصَـٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات :

فى رحمته : فى جنته .

أفلم تكن آياتى تتلى : يقال لهم ذلك .

لا ريب فيها : لا شك فيها .

ما الساعة : أى شيء الساعة ؟ ما حقيقتها ؟

وحاق بهم : وأحاط بهم ونزل .

ننساكم : نتركَكم فى العذاب ترك المنسى .

كما نسيتم : كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم .

ومأواكم : ومحل إقامتكم .

آيات الله : القرآن .

هزوا : سخريا .

وغرتكم : وخدعتكم فاطمأننتم إليها .

ولا هم يستعتبون : أى : ولا يطلب منهم أن يُعتبوا ربهم ، أى أن يرضوه ، يقال : عتب عليه فأعتبه ، أى : لامه فأرضاه بإزالة ما لامه من أجله ، والعتبى هى الرضا .

الكبرياء : العظمة ، وهى من الله ممدوحة لأنه العظيم الذى لا يدرك الخيال لعظمته حدًّا ، وليس المراد بها أنه متصف بصفة المتكبرين من احتقار الناس وامتهانهم .

تمهيد :

تصف الآيات جزاء المتقين فى الجنة ، وعقوبة الكافرين فى النار ، وتعرض أهوال القيامة وما يحيق بالمجرمين ، حيث يتركون فى النار يذوقون الهوان ، ويعاملون معاملة المنسيِّين المهملين جزاء سخريتهم بالقرآن وغرورهم بالدنيا ، فلهم فى الآخرة خلود أبدى فى جهنم ، ولا يقبل منهم اعتذار ، ولا يسمح لهم بالعودة إلى الدنيا مرة أخرى للتوبة من المعاصى ، وطلب العتبى والرضا من الله .

وتختم السورة بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، أى عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الطير ، وعالم الملائكة ، ورب الجميع ، وهو سبحانه المتفرد بالكبرياء ، المتوحد بالعظمة والبقاء ، وليس كبرياء التعالى على الضعفاء ، بل هو تعظيم الخالق الرازق المتصف إجمالا بكل كمال ، والمنزه إجمالا عن كل نقص .

التفسير :

٣٠- فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ .

ينقسم الناس فى الآخرة إلى قسمين : المؤمنون ، والمجرمون .

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله وأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، وقدموا الأعمال الصالحة ، فيدخلهم الله فى جنته ورضوانه ، وذلك الفوز أعظم فوز لأنه النجاح الذى لا يعدله نجاح ، النجاح فى الآخرة حيث الحياة الحقيقية ، وفى الحديث الصحيح : أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء [٧٦] .

٣١- وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

وأما الذين كفروا فينالون التوبيخ والتقريع واللوم ، حيث يقال لهم : ألم أرسل لكم الرسل تقرأ عليكم آياتى فأعرضتم عن سماعها ، واستكبرتم عن الإيمان وكنتم قوما فاسقين ، خارجين عن حدّ الاعتدال ، لم تستخدموا عقولكم ولا تفكيركم فى هذه الهداية التى ساقها الله لكم .

٣٢- وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ .

إذا قال لكم الرسول ﷺ والمؤمنون معه : آمنوا بالله ، فإن ما وعد به من البعث والحشر ، والحساب والجزاء والجنة والنار ، حق لا شك فيه ، والساعة وهى القيامة قادمة لا شك فى قدومها ، كان جوابكم : لا نعلم ما هى الساعة ، ولا نتيقن بمجيئها ، إنما نسمع عنها سماعًا ، ونعلم عنها من كلام المؤمنين ، فنظن قيام القيامة ظنًّا غير متحققين من قدومها ولا متثبتين ، فهو شك أو احتمال أو ظن أن تقوم القيامة ، ولكنّا غير متيقنين ولا متأكدين ولا جازمين بذلك .

٣٣- وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .

وظهر أمامهم واضحا جليا عقوبة السيئات التى ارتكبوها فى الدنيا ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، وأحاط بهم العذاب والنكال والخزى من كل جانب ، جزاء سخريتهم بالمؤمنين ، وتكذيبهم بالبعث والحشر والثواب والعقاب .

٣٤- وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ .

لقد شاهدوا العذاب واضحًا أمامهم ، ثم يقال لهم على سبيل التبكيت والعتاب : لقد أنعمنا عليكم بالنعم، وأرسلنا لكم الرسل فاستهزأتم بالمرسلين ، وأعرضتم عن الإيمان ، وتناسيتم القيامة والبعث والحشر والجزاء ، فاليوم نهملكم ونعاملكم معاملة من نُسى وأُهمل أمره ، وترك فى النار خالدا ، فمآلكم النار هى دار إقامتكم ، ولا تجدون وليا ولا نصيرا .

قال ابن كثير فى تفسيره :

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : «ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ وأذرك ترأس وتربع ؟ ، فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى» [٧٧] .

٣٥- ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

ذلكم العذاب بأنكم سخرتم من القرآن وآيات الله ومعجزاته البينات ، واستهزأتم بالرسول والمؤمنين والدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، وشغلتكم الدنيا بما فيها ، وظننتم ألا بعث ولا جزاء ، فاليوم يوم الجزاء ، لا تخرجون من النار أبدًا ، ولا تقبل منكم توبة ، ولا ترجعون إلى الدنيا أملا فى العتبى ، أى مرضاة الله والعمل بما يرضيه ، فقد مضى أوان التوبة والرضا ، لأن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

قال صاحب الظلال :

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير ، وهم متروكون فى جهنم لا يخرجون ، ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب .

فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصد إيصادها الأخير ، وقد انتهى المشهد فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير .

٣٦، ٣٧- فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

بينت السورة آلاء الله وأفضاله ، واشتملت على البراهين الساطعة ، والنصوص القاطعة فى المبدأ والميعاد ، وانتهاء الأخيار إلى الجنة ، والفجار إلى النار ، وعند هذه النهاية تعلن السورة أن الحمد كلّه والثناء كله والمجد كله والعظمة كلها لله خالق الكون ، رب السماوات وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب العالمين ، وهو الإله الحق لكل ما عدا الله .

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

العظمة والجلال والسلطان والكمال لله وحده الذى خضع له الكون وذلّت لعظمته الجباه ، وسبح بحمده كل كائن ، وله كمال الذات وكمال الوجود ، فلا تخضع الجباه إلا له ، ولا ينبغى التسبيح إلا له ، فله الحمد وله الملك وله الكبرياء فى السماوات والأرض ، لا عن تجبر وترفع عن الفقراء ، بل هو أهل لأن يحمد ، وهو أهل لأن يطاع ويوقّر ، ويعظم فلا يُعصى ولا يجحد ، وهو العزيز الذى لا يقهر ، والحكيم فى كل ما قضى وقدّر ، وهو بحكمته يضع الشىء فى موضعه ، وجميع أعماله صادرة عن حكمة إلهية عليا .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : «العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدًا منهما أسكنته نارى» [٧٨]

قال مجاهد :

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ...

يعنى : السلطان ، أى هو العظيم المجد ، الذى كل شىء خاضع له ، فقير إليه .

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ... الذى لا يُغالب ولا يُمانع .

ٱلْحَكِيمُ . فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدّس لا إله إلا هو.

ونلاحظ أن قراءة حفص : رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ . بخفض ربِّ ، على أنه صفة للفظ الجلالة أو بدل منه .

وجاء فى تفسير القرطبى ما يأتى :

قرأ مجاهد وحميد وابن محيصن : رَبُّ السمـٰوات وَرَبُّ الأرض رَبُّ العـٰلمين . بالرفع فيها كلها على معنى : هو ربُّ .

وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ . أى : العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الجاثية

١ - إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه .

٢ - وعيد من كذّب بآياته واستكبر عن سماعها .

٣ - طلب العفو من المؤمنين عن زلّات الكافرين .

٤ - الامتنان على بنى إسرائيل بما آتاهم الله من النعم الروحية والمادية .

٥ - أمر الله رسوله ألا يطيع المشركين ولا يتبع أهواءهم .

٦ - لا يستوى مرتكب السيئات العاصى للرحمان ، وفاعل الحسنات المطيع لله ، فقد اختلفا سلوكًا فى الدنيا، وكذلك الجزاء يوم القيامة من جنس العمل .

٧ - التعجُّب من حال المشركين الذين أضلهم الله على علم .

٨ - إنكار المشركين للبعث .

٩ - إذا زفرت جهنم جثت كلُّ أمة على ركبها ، مستوفزة خاشعة خائفة من هول الموقف .

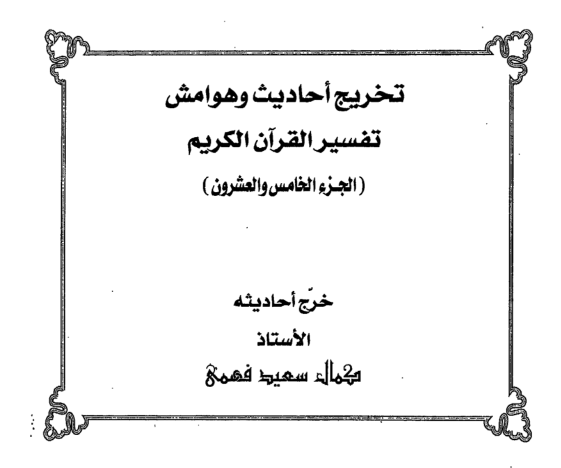
١٠- الأتقياء فى الجنة ، والأشقياء فى النار .

١١- أهوال القيامة ، ومشاهد الكافرين يقرَّعون باللوم على استهزائهم بالقرآن ، وتكذيبهم بآيات الله .

١٢- ثناء المولى على نفسه ، وإثبات الكبرياء والعظمة له سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة الجاثية ، ظهر السبت ٢١ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٤ من يونيو ٢٠٠٠ ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجزء الخامس والعشرون)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) عجبًا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(٢) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٤ / ٧ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٤) ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم :

ذكره الهندى فى كنز العمال (٣٧١٣٢) عن مالك عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه حتى أتى به النبى ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام رسول الله ﷺ مغضبًا يجر زداءه حتى دخل المسجد ، ثم نودى : الصلاة جامعة ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا أيها الناس ، إن الرب رب واحد ، وإن الأب أب واحد ، وإن الدين دين واحد ، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم إنما هى لسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى» ، فقال معاذ وهو آخذ بتلابيبه : يا رسول الله ، ما تقول فى هذا المنافق ؟ فقال : «دعه إلى النار» ، قال : فكان فيمن ارتد فقتل فى الردة .

(٥) انظر تفسير الآلوسى .

(٦) التفسير الوسيط : المجلد الثالث ،الحزب التاسع والأربعون ، ص ٧٣٨ .

(٧) نقلاً عن : فى ظلال القرآن ، المجلد ٥ ص ٣١٤٩ .

(٨) إن الصدقة توضع فى يد الله :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) والترمذى فى الزكاة (٦٦١) والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٥) وابن ماجة فى الزكاة (١٨٤٢) والدارمى فى الزكاة (١٦٧٥) وأحمد فى مسنده (٨١٨١، ٨٧٣٨، ٩١٤٢، ٩٢٨١، ٩٧٣٨، ١٠٥٦٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما تصدق أحد بصدقة من طيب – ولا يقبل الله عز وجل إلا الطيب – إلا أخذها الرحمان عز وجل بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمان حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله» . واللفظ للنسائى . ورواه أحمد فى مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد» .

(٩) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم :

رواه البخارى فى الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفى التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) والترمذى فى صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبى سعيد الخدرى . وتمام لفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ،

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(١٠) أفضل الدعاء الحمد لله :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٣٨٣) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم ،.وقد روى على بن المدينى وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث.

(١١) خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله .

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٨٥) من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبى ﷺ قال : «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وحماد بن أبى حميد هو محمد بن أبى حميد وهو أبو إبراهيم الأنصارى المدينى وليس هو بالقوى عند أهل الحديث .

(١٢) من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الرب عز وجل : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(١٣) انظر تفسير القاسمى ، مجلد ٦ ص ١٧٧ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان .

(١٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها» . ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حَزَن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكها ، إلا كفَّر الله بها من خطاياه» ورواه الترمذى فى تفسير القرآن باب : ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ ، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ، فقال : «قاربوا وسددوا ، وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة ، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» . هذا حديث حسن غريب .

(١٥) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨) ، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد (١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣) ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح.

(١٦) مختصر تفسير ابن كثير للأستاذ محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٢٧٩ .

(١٧) ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٦٠) وفى الأدب (٦١٢٦) وفى الحدود (٦٧٨٦ ، ٦٨٥٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

(١٨) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨) ، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩) ، وأحمد (٧١٦٥ ، ٨٧٨٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٩) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو :

انظر ما قبله .

(٢٠) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى .

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجة (٤٢٧٥) وأحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(٢١) المستبان ما قالا :

رواه مسلم فى البر (٢٥٨٧) وأبو داود فى الأدب (٤٨٩٤) والترمذى فى البر (١٩٨١) وأحمد فى مسنده (٧١٦٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «المستبان ما قالا فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» .

(٢٢) عجبًا لأمر المؤمن :

سبق تخريجه ، انظر هامش (١) .

(٢٣) إن روح القدس نفث فى روعى :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢٢٧٣) بلفظ : «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته». التخريج (مفصلا) : أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة . تصحيح السيوطى: ضعيف .

(٢٤) أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس :

رواه البخارى فى بدء الوحى (٢) وفى بدء الخلق (٣٢١٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٣٣) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٤) والنسائى فى الافتتاح (٩٣٣ ، ٩٤٣) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) ومالك فى الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة وانظر كتاب (علوم الدين الإسلامى) للدكتور عبد الله شحاتة ، وفى أوله موضوع (الوحى والقرآن) .

(٢٥) ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب :

رواه الترمذي في التفسير (٣٠١٠) من حديث جابر بن عبد الله قال : لقيني رسول الله ﷺ فقال لي : «يا جابر ما لي أراك منكسرًا» ؟ قلت : يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد وترك عيالاً ودينا ، قال : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك»؟ قلت: بلى يا رسول الله ، قال : «ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا ، فقال : يا عبدي تمن على أعطك ، قال : يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية ، قال الرب عز وجل : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون». قال: وأنزلت هذه الآية : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾ الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٢٦) من المراجع الميسرة في علوم القرآن :

كتاب : البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي .

كتاب : الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي .

كتاب : مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني .

كتاب : علوم القرآن للدكتور عبد الله شحاتة .

كتاب : مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح .

كتاب : مباحث في علم القرآن لمنّاع القطان .

ونلاحظ أن معظم كتب التفسير الأساسية كانت تكتب مقدمة طويلة عن علوم القرآن ، مثل تفسير ابن جرير الطبري فقد بدأ تفسيره بمقدمة عن نزول القرآن على سبعة أحرف ، وعن المكي والمدني ، وغير ذلك من مباحث علوم القرآن ، وتجد مثل ذلك في تفاسير : القرطبي ، وابن كثير ، والمنار ، وفي ظلال القرآن ، وتفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاتة، رزقنا الله الإخلاص والقبول والتوفيق والسداد ، اللهم آمين .

(٢٧) اللهم رب السماوات السبع :

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٣) من حديث بريدة قال : شكا خالد بن الوليد المخزومي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق فقال النبي ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت كن لي جارًا من شر خلقك كلهم جميعًا أن يفرط عليّ أحد منهم أو أن يبغي، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت» . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بالقوي ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث ويروى هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلاً من غير هذا الوجه .

(٢٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢١ ، مع تعديل يسير .

(٢٩) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، والإمام أحمد ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ، ٢٨٦/٣ .

(٣٠) إن كاد ليسلم :

رواه مسلم في الشعر (٢٢٥٥) وأحمد في مسنده (١٨٩٦٣) من حديث عمرو بن الشريد يحدث عن أبيه قال : استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فكلما أنشدته بيتا قال : «هي» ، حتى أنشدته مائة قافية ، فقال: «إن كاد ليسلم» .

(٣١) لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة :

رواه الترمذى (٢٣٢٠) وابن ماجة (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . ولفظ الترمذى : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا ..» الحديث . ولفظه عند ابن ماجة : «والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل ..» الحديث . قال السيوطى فى زيادة الجامع فى تخريج الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث سهل بن سعد وضعفه الذهبى . قال المناوى فى الفيض : قال الترمذى صحيح غريب ، وليس كما قال ففيه عبد الحميد بن سليمان أورده فى الضعفاء ، وقال أبو داود غير ثقة ، ورواه ابن ماجة أيضًا وفيه عنده زكريا بن منظور قال الذهبى فى الضعفاء : منكر الحديث ، ورواه عنه الحاكم أيضًا وصححه فرده الذهبى بأن زكريا بن منظور ضعفوه . وقال فى موضع آخر : ولتعدد هذه الطرق رمز المؤلف لحسنه.

(٣٢) أفى شك أنت يا ابن الخطاب :

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلاء ، رواه مسلم فى الطلاق (١٤٧٩) ، والترمذى فى التفسير (٣٣١٨) من حديث ابن عباس.

(٣٣) هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٣١) وأبو داود فى الأشربة (٣٧٢٣) والترمذى فى الأشربة:(١٨٧٨) وابن ماجة فى الأشربة (٣٤١٤) (٢٢٨٤٨) من حديث حذيفة .

(٣٤) إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم :

رواه البخارى فى الاعتكاف (٢٠٣٨ ، ٢٠٣٩) وفى بدء الخلق (٣٢٨١) وفى الأحكام (٧١٧١) ومسلم فى السلام (٢١٧٥) وأبو داود فى الصوم (٢٤٧٠) وفى الأدب (٤٩٩٤) وابن ماجة فى الصيام (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٢٢) من حديث على بن الحسين ومن حديث صفية كان النبى ﷺ فى المسجد وعنده أزواجه فرحن ، فقال لصفية بنت حيى: «لا تعجلى حتى أنصرف معك» ، وكان بيتها فى دار أسامة فخرج النبى ﷺ معها فلقيه رجلان من الأنصار فنظرا إلى النبى ﷺ ثم أجازا فقال لهما النبى ﷺ : «تعاليا إنها صفية بنت حيى» ، قالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يلقى فى أنفسكما شيئًا» . ورواه مسلم فى السلام (٢١٧٤) وأبو داود فى السنة (٤٧١٩) وأحمد فى مسنده (١٢١٨٢) من حديث أنس أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فجاء، فقال : «يا فلان ، هذه زوجتى فلانة» ، فقال : يا رسول الله من كنت أظن به ، فلم أكن أظن بك ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم» .

(٣٥) ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٤)

(٣٦) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبى هريرة .

(٣٧) وأخرجه أحمد ، والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب .

(٣٨) إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب :

رواه أحمد في مسنده (١٦٨٦٠) من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج» ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ . قال المناوي في فيض القدير : قال الهيثمي : رواه الطبراني عن شيخه الوليد بن العباس المصري ، وهو ضعيف . وقال العراقي : إسناده حسن ، وتبعه المؤلف فرمز لحسنه .

(٣٩) قال تعالى : ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

(٤٠) الأكمه : الأعمى خِلْقةً .

(٤١) ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم :

رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» .

(٤٢) لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين :

رواه البخاري تعليقًا في الاعتصام ، باب : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، ووصله في المناقب (٣٦٤٠) ، وفي الاعتصام (٧٣١١ ، ٧٤٥٩) ، والدارمي (٢٤٣٢) ، وأحمد (١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١) من حديث المغيرة . ورواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠) ، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩) ، وابن ماجة في المقدمة (١٠) ، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث ثوبان بن بجدد . ورواه البخاري في المناقب (٣٦٤١ ، ٧٤٦٠) ، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧) ، وأحمد (١٦٤٣٩، ١٦٤٨٥) من حديث معاوية . ورواه الدارمي (٢٤٣٣) من حديث عمر بن الخطاب . ورواه أحمد (٨٠٧٥) من حديث عبد الرحمن ، ورواه أحمد (٢٠٣٤٦ ، ٢٠٣٧٥) من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذي (٢١٩٢) ، وابن ماجة (٦) ، وأحمد (١٥١٧٠ ، ١٩٨٤٩) من حديث قرة بن إياس . ورواه مسلم في الإيمان (١٥٦) ، وفي الإمارة (١٩٢٣)، وأحمد (١٤٣١٠، ١٤٧٠٧) من حديث جابر . ورواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤) ، وأحمد (١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩) من حديث عمران بن حصين. ورواه أحمد (١٦٥١٧) من حديث سلمة بن نفيل . ورواه أحمد (٢١٨١٦) من حديث صدى بن عجلان. ورواه أحمد (١٨٨٠٤) من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٧) من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٩) من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : قام معاوية ... ورواه أحمد (٢٠٤٢٦) اسم مبهم .

(٤٣) أنتم أعلم بأمر دنياكم :

رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) وأحمد في مسنده (١٢١٣٥) من حديث أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون ، فقال : «لو لم تفعلوا لصلح» ، قال : فخرج شيصا فمر بهم فقال : «ما لنخلكم»؟ قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

(٤٤) ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم :

رواه البخارى فى كتاب الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم فى كتاب الفضائل (١٣٣٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٩) والنسائى فى المناسك (٢٦١٩) وابن ماجة فى المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبى هريرة .

(٤٥) فى رواية : يتخوَّلنا بالموعظة ، أى : يعطيها لنا بكميات قليلة ، فترة بعد فترة .

(٤٦) كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة :

رواه البخارى فى العلم (٦٨ ، ٧٠) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٢١) من حديث ابن مسعود قال : كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا .

(٤٧) لو أن عبدين تحابا فى الله واحد بالمشرق :

ذكره الهندى فى كنز العمال (٢٤٦٤٦) ونسبه للبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة .

(٤٨) لا تلبسوا الحرير ولا الديباج :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٣٣)

(٤٩) إنكم سترون ربكم :

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٨١) ، وفى التوحيد (٧٤٤٠) ، ومسلم فى الإيمان (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٥٠) يطلب من الله العتبى والمغفرة والتوبة .

(٥١) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحدا عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا ، وإما مسيئًا فلعله أن يستعتب».

(٥٢) الحديث أخرجه ابن أبى حاتم .

(٥٣) تفسير أبى السعود .

(٥٤) التفسير المنير أ . د وهبة الزحيلى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الجزء ٢٥ ص ١٩٦ .

(٥٥) من قرأ حم الدخان :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة غفر له» ، قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، هشام أبو المقدام يضعف ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد . ورواه الترمذى أيضًا فى فضائل القرآن (٢٨٨٨) من حديث

أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وعمر بن أبى خثعم يضعف قال محمد: وهو منكر الحديث، وفى حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى (١٤٨): هذا الحديث أخرجه الترمذى وليس موضوعًا.

(٥٦) فى ظلال القرآن، بقلم سيد قطب ٢٤ / ١٠٥.

(٥٧) اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف:

رواه البخارى فى الأدب (٦٢٠٠) وفى الدعوات (٦٣٩٣) ومسلم فى المساجد (٦٧٥) وأبو داود فى الصلاة (١٤٤٢) من حديث أبى هريرة قال: لما رفع النبى ﷺ رأسه من الركعة قال: «اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش ابن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

(٥٨) العِهْن: الصوف يصبغ بالدم، ويشوى ويؤكل لشدة الجوع الذى أصابهم.

(٥٩) رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر:

رواه البخارى فى المغازى (٤٣٣٥)، وفى الأدب (٦٠٥٩)، وفى الدعوات (٦٣٣٦) من حديث عبد الله قال: لما قسم النبى ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله. فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فتغير وجهه ثم قال: «رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

(٦٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

(٦١) فى ظلال القرآن، بقلم سيد قطب، الجزء ٢٥ ص ١١٦، طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه.

(٦٢) تفسير القاسمى، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت لبنان، المجلد ٦ ص ٢١٢.

(٦٣) فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، طبعة الحلبى، جزء ٢٥ ص ١١٦.

(٦٤) انظر تفسير القرطبى، المجلد ٧ ص ٦١٥٦، وتفسير ابن كثير وغيرهما.

(٦٥) إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا:

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٣٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٨٠٥٩) من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ينادى مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا، فذلك قوله عز وجل: ﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾.

(٦٦) يؤتى بالموت على صورة كبش:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٣٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٥٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادى مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون

فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ثم ينادى : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ : ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة﴾ وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ﴿وهم لا يؤمنون﴾. ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٧) والدارمى فى الرقاق (٢٨١١) وأحمد فى مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٨٩ ، ٩١٨٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «يؤتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ويقال : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ويقال : خلود لا موت» .

(٦٧) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٥١)

(٦٨) عله يقصد الإشارة إلى آيات الله الكونية فى نفع العباد فى الدنيا ، ثم فى عقوبة الكفار فى الآخرة .

(٦٩) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢٦ .

(٧٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبى :

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٠٨٣) من حديث عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال : «إن قلب الآدمى بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٩٨٠) من حديث شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك قالت: كان أكثر دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قالت : فقلت : يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ؟ قال : «يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»، فتلا معاذ ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن . ورواه الترمذى فى القدر (٢١٤٠) وقال: حسن ، وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٣٤) وأحمد فى مسنده (١١٦٩٧) من حديث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» ، فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : «نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء». قال الترمذى : وحديث أبى سفيان عن أنس أصح . ورواه أحمد (١٧١٧٨) والحاكم فى المستدرك (٢/٢٨٨) من حديث النواس بن سمعان الكلابى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه» . وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، والميزان بيد الرحمان عز وجل يخفضه ويرفعه» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٨٧) من حديث عاصم بن كليب الجرمى عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يصلى ، وقد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه وبسط السبابة ، وهو يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه مسلم فى القدر (٢٦٥٤) وأحمد فى مسنده (٦٥٣٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمان كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك» .

(٧١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، جزء ٢٥ ص ١٣٢ ، طبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٧٢) تفسير القرطبى ، مجلد ٧ ص ٦١٧٦ ، طبعة دار الغد العربى – العباسية – القاهرة . وقارن بتفسير مقاتل بن سليمان. تحقيق د . عبد الله شحاتة ٣ / ٨٤٠ .

(٧٣) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٦٠) وأحمد فى مسنده (١٦٦٧٤) من حديث شداد بن أوس عن النبى ﷺ قال : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» . قال : هذا حديث حسن : ومعنى قوله : «من دان نفسه» يقول : حاسب نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ، ويروى عن عمر بن الخطاب قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه فى الدنيا ، ويروى عن ميمون بن مهران قال : لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه .

(٧٤) زبدة التفسير من فتح القدير ، محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص ٦٤٤ طبعة أولى ، على نفقة وزارة الأوقاف – الكويت .

(٧٥) صفوة التفاسير ، محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ١٨٨ .

(٧٦) أنت رحمتى أرحم بك من أشاء :

رواه البخارى فى التفسير (٤٨٥٠) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لىّ لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول : قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقًا» .

(٧٧) أى فل ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٦٨) من حديث أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : «هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة» ؟ قالوا : لا ، قال : «فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس فى سحابة» ، قالوا . لا ، قال : «فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما»، قال: «فيلقى العبد فيقول : أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى، قال: فيقول : أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثانى فيقول : أى فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى أى رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول: لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع فيقول هاهنا إذا قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه» .

(٧٨) وفى رواية : «فمن نازعنى فيهما قصمته ولا أبالى» ، والحديث فى صحيح مسلم .

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الخامس والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ...﴾	٥٠١٥
٤٦	﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ...﴾	٥٠٢١
٤٧	﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون .﴾	٥٠٢١
٤٨	﴿وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ...﴾	٥٠٢١
٤٩	﴿وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك ...﴾	٥٠٢١
٥٠	﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون .﴾	٥٠٢١
٥١	﴿ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر ...﴾	٥٠٢١
٥٢	﴿أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ...﴾	٥٠٢١
٥٣	﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ...﴾	٥٠٢١
٥٤	﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوم سوء فاسقين .﴾	٥٠٢١
٥٥	﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين .﴾	٥٠٢١
٥٦	﴿فجعلناهم سلفًا ومثلاً للآخرين.﴾	٥٠٢١
٥٧	﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون .﴾	٥٠٢٧
٥٨	﴿وقالوا أآلهتنا خير أم هو ...﴾	٥٠٢٧
٥٩	﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً ...﴾	٥٠٢٧
٦٠	﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون .﴾	٥٠٢٧
٦١	﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون ...﴾	٥٠٢٧
٦٢	﴿ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين .﴾	٥٠٢٧
٦٣	﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ...﴾	٥٠٢٧
٦٤	﴿إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه ...﴾	٥٠٢٧
٦٥	﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا ...﴾	٥٠٢٧
٦٦	﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ...﴾	٥٠٢٧
٦٧	﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين .﴾	٥٠٣٥
٦٨	﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون .﴾	٥٠٣٥
٦٩	﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين .﴾	٥٠٣٥
٧٠	﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون .﴾	٥٠٣٥
٧١	﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ...﴾	٥٠٣٥
٧٢	﴿وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون .﴾	٥٠٣٥

تم بحمد الله الجزء (الخامس والعشرون)

ويليه الجزء (السادس والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته




تفسير سورة الأحقاف

أهداف سورة الأحقاف

سورة الأحقاف مكية ، وآياتها ٣٥ آية ، نزلت بعد سورة الجاثية .

سورة الإيمان والتوحيد

تعرض سورة الأحقاف قضية الإيمان بوحدانية الله ، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه ، والإيمان بالوحى والرسالة ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ، ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن فى كل سوره المكية علاجًا أساسيًّا . وظل يتكئ عليها كذلك فى سوره المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية ، ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحدانية الله سبحانه، وبعثة محمد ﷺ ، والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء هى المحور الذى تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ، فتبقى حية حارة تبعث من التأثر الدائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ، وتوقع فيها على كل وتر ، وتعرضها فى مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية ، كما أنها تجعلها قضية الوجود كله – لا قضية البشر وحدهم – فتذكر طرفًا من قصة الجن مع هذا القرآن ، كما تذكر موقف بعض بنى إسرائيل منه ، وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدًا ، كما تقيم من بعض بنى إسرائيل شاهدًا سواء بسواء .

ثم هى تطوف بتلك القلوب فى آفاق السماوات والأرض ، وفى مشاهد القيامة فى الآخرة ، كا تطوف بهم فى مصرع قوم هود وفى مصارع القرى حول مكة ، وتجعل من السماوات والأرض كتبًا تنطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

أربعة مقاطع

تشتمل سورة الأحقاف على أربعة عناصر متماسكة كأنها عنصر واحد ذو أربعة مقاطع :

١ – نقاش المشركين :

يبدأ المقطع الأول بالحرفين (حا . ميم) . وهى بداية تكررت فى ست سور سابقة تسمى بالحواميم . وهى : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والسورة السابعة هى الأحقاف .

ونلحظ أن هذه السور السبع تبدأ بالحرفين (حا . ميم) ، ثم تعقب بذكر الكتاب ، مما يؤيد أن هذه الأحرف نزلت على سبيل التحدى لأهل مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

وتشير سورة الأحقاف فى بدايتها إلى القرآن فتقول : تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ . (الأحقاف : ٢) . وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون وقيامه على الحق وعلى التقدير والتدبير : مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... (الأحقاف : ٣) . فيتوافق كتاب القرآن المتلو ، وكتاب الكون المنظور ، على الحق والتقدير .

ويعد هذا الافتتاح القوى الجامع يأخذ فى عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذى لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ولا مأثور من العلم . ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذى جاءهم به محمد رسول الله ﷺ : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . (الأحقاف : ٧) .

ثم يسوق إنكارهم للحق وتطاولهم على الوحى ، واتهامهم النبى بالكذب والافتراء . ويرد عليهم بأن الأمر أجلّ من مقولاتهم الهازلة ، وادعاءاتهم العابثة ، إذ هو أمر الله العليم الخبير ، يشهد ويقضى ، وفى شهادته وقضائه الكفاية : أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ . (الأحقاف : ٨) .

ثم يبين أن محمدا ليس بدعا من الرسل فقد سبقه رسل كثيرون ، فهو مبلغ عن الله وملتزم بوحى السماء، ويسوق حجة أخرى على صدق رسالته ، تتمثل فى موقف بعض من اهتدى للحق من بنى إسرائيل ، حينما رأى فى القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى عليه السلام . ويستطرد فى عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية على هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ... (الأحقاف : ١١).

ويشير إلى كتاب موسى من قبله، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهنته : وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ . (الأحقاف : ١٢).

وفى نهاية المقطع الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته : إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (الأحقاف : ١٣) . فقد آمنوا بالله وأعلنوا ذلك، واستقاموا على منهج الإيمان فاستحقوا حياة كريمة فى الدنيا ، ونعيمًا خالدًا فى الأخرى .

٢ – الفطرة السليمة والفطرة السقيمة :

يحتوى المقطع الثانى على ست آيات هى الآيات (١٥ – ٢٠) ، وفيها حديث عن الفطرة فى استقامتها وفى انحرافها ، وفيما تنتهى إليه حين تستقيم وما تنتهى إليه حين تنحرف .

يبدأ بالوصية بالوالدين ، وكثيرًا ما ترد الوصية بالوالدين لاحقة للكلام عن العقيدة ، لبيان أهمية الأسرة والعمل على ترابطها ، وتذكير الإنسان بأصل نعمته ورعايته .

وتذكرنا الآيات بجهود الأم وفضلها فى الحمل والولادة والرضاع .

«إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية ، تسعى للالتصاق بجدار الرحم وهى مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة دائمًا فى بركة من دم الأم الغنى بكل ما فى جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو ، وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم ، دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دمًا نقيًا غنيًا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول .

وفى فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير ، ذلك أنها تعطى محلول عظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثير .

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ، ولا تُنسى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة تلبية الفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تفيض وتمتد بينما هى تذوى وتموت .

ثم الرضاع والرعاية ، حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية ، وهى مع هذا وذاك فرحة سعيدة رحيمة ودود ، لا تمل أبدا ، ولا تراها كارهة لتعب هذا الوليد ، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد»[1] .

وقد تكررت وصية القرآن للأبناء ببر الآباء ، لأن الوالدين قدَّما كل شىء ، كالنبتة التى ينمو بها النبات فإذا هى قشة ، وكالبيضة التى ينمو منها الكتكوت فإذا هى قشرة .

ومن الواجب رد الجميل والعرفان بالفضل لأهله ، وأن يحسن الإنسان إلى أصله وأن يدعو لهما ، وهو نوع من تكافل الأجيال ، قال تعالى : وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . (الأحقاف : ١٥) .

وهذا النموذج الذى نشاهده فى الآية ، نموذج للفطرة المستقيمة التى ترعى أصلها وتتعهد ذريتها ، وهذا النموذج يقبل الله عمله ويحشره فى أصحاب الجنة .

أما النموذج الثانى فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال ، نموذج ولد عاق يجحد معروف والديه، وينكر البعث والجزاء ويقول : مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ . (الأحقاف : ١٧) .

وهذا النموذج جدير بالخسران ، لقد خسر اليقين والإيمان فى الدنيا ، ثم خسر النعيم والرضوان فى الآخرة .

وينتهى هذا المقطع من السورة بعرض هذين النموذجين ومصيرهما فى النهاية ، ثم يعرض مشهدًا من مشاهد القيامة حيث يُعرض المتكبرون على النار ، وفى ذلك المشهد نرى الغائب شاهدًا ماثلاً يستحث النفوس على الهدى ، ويستجيش الفطر السليمة القوية لارتياد الطريق الواصل المأمون .

٣ - قصة عاد :

يتناول المقطع الثالث من السورة قصة عاد ، وهم قوم نبى الله هود ، ويشمل الآيات (٢٠ - ٢٨) .

والقصة هنا تخدم الفكرة وتؤيدها ، فقد أنكر أهل مكة رسالة النبى محمد ، وأعرضوا عن دعوته ، فجاء هذا المقطع يذكرهم بأشباههم وينذرهم أن يصيبهم ما أصاب السابقين .

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ... (الأحقاف : ٢١) . وأخو عاد هو هود عليه السلام ، دعا قومه إلى التوحيد وحذرهم من عذاب الله .

والأحقاف جمع حِقف ، وهو الكثيب المرتفع من الرمال ، وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة فى جنوب الجزيرة ، ويقال إنها كانت فى حضرموت .

وقد أنذر أخو عاد قومه ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وحذرهم بطشه وانتقامه ، ولم تؤمن عاد برسالة هود وقابلت دعوته بسوء الظن وعدم الفهم والتحدى والاستهزاء ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، فلما رأوا العذاب فى صورة سحابة ظنوه مطرًا مفيدًا لهم : فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ . (الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥) .

وتقول الروايات إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق الله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحًا شديدًا ، وخرجوا يستقبلونها فى الأودية وهم

يحسبون فيها الماء : قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ... وجاءهم الرد بلسان الواقع : بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ... وهى الريح الصرصر العاتية التى ذكرت فى سورة أخرى كما جاء فى صفتها : مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ . (الذاريات : ٤٢) .

لقد اندفعت الريح تحقق أمر الله وتدمر كل شيء بأمر الله ، فهلك القوم بجميع ما يملكون من أنعام ومتاع وأشياء ، وبقيت مساكنهم خالية موحشة لا ديار فيها ولا نافخ نار .

ويلتفت السياق إلى أهل مكة يلمس قلوبهم ، ويحرك وجدانهم ، ويذكرهم بأن الهالكين كانوا أكثر منهم تمكنًا فى الأرض ، وأكثر مالاً ومتاعًا وقوة وعلمًا ، فلم تغن عنهم قدرتهم ولا قوتهم ، ولم يغن عنهم ثراؤهم ، ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، بل أغلقوا قلوبهم عن سماع الحق ، ولم تغن عنهم آلهتهم التى اتخذوها تقربًا إلى الله .

وكذلك يقف المشركون فى مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ، فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم ، ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل ، خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذى لا يتغير ، وخط السُّنة الإلهية التى لا تتحول ولا تتبدل ، وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ممتدة الفروع ضاربة فى أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

لقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة ، كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وثمود بالحجر فى شمالها ، وسبأ وكانت باليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

وقد نوَّع الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون إلى رشدهم .

قال تعالى : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (الأحقاف : ٢٧) .

٤ – إيمان الجن :

يتناول المقطع الرابع الحديث عن إيمان الجن ، ويشمل الآيات الأخيرة من سورة الأحقاف .

وقد تحدث القرآن عن الجن فذكر أن أصلهم من نار ، وأن منهم الصالحين ومنهم الظالمين ، وأن لهم تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس ، وأن لهم قدرة على الحياة على هذا الكوكب الأرضى ، ولهم قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب ، وللجن قدرة على التأثير فى إدراك البشر ، والإيعاز بالشر ، قال تعالى : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ

فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۞ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ . (الناس : ١ – ٦) . ومن خصائص الجن أن يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس وهو من الجن : إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقد تحدثت الآيات الأخيرة من السورة عن إيمان الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ، ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال .

وهذا الأمر فى ظاهره الخبر عن إيمان الجن ، ومع ذلك فهو يصور أثر هذا القرآن فى القلوب ، فعندما سمعت الجن تلاوة القرآن قالوا : أنصتوا ، وعندما تأثرت قلوبهم انطلقوا إلى قومهم يتحدثون عن القرآن والإيمان ، ويعرضون دعوة الإسلام على قومهم ، وبفضل القرآن صاروا دعاة هداة ملك القرآن عليهم نفوسهم ، فانطلقوا يحملون الهداية والرحمة لقومهم ، ثم يتحدثون عن الصلة الوثيقة بين القرآن والتوراة ، وبين محمد وموسى ، فالجميع من عند الله لهداية خلق الله : قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ . (الأحقاف : ٣٠) .

وهذا القول من الجن يفيد ما بين الرسل جميعًا من آصرة الأخوة ، فربهم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وفكرتهم أساسها هداية الناس ومحاربة الرذائل ، والتعاون على الخير والمعروف ، والعداء بين الأديان إنما جاء من سوء الفهم أو من تحريف الإنسان للوحى .

كذلك ورد على لسان الجن إشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة فى خلق السماوات والأرض ، الشاهدة لقدرته على الإحياء والبعث ، وهى القضية التى يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض السياق مشهدًا من مشاهد القيامة يبدو فيه الكفار وهم يعترفون بالإيمان ، بعد أن كانوا ينكرونه فى الدنيا ثم يقال لهم :

فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . (الأحقاف : ٣٤) .

وفى ختام السورة توجيه لرسول الله ﷺ بالصبر والمصابرة ، فإنها طريق الرسل ، وما ينبغى للدعاة إلا الصبر والاحتمال .

مقصود السورة إجمالا

قال الفيروزبادى :

إن معظم مقصود سورة الأحقاف هو : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والإخبار عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشادة بإهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة[٢] ، واستقلال لبث اللابثين فى قوله : ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ . (الأحقاف : ٣٥) .

★ ★ ★

وحدانية الخالق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

حـــم : تقرأ (حا ميم)، وهما حرفان من حروف المعجم للتنبيه، أو للتحدى والإعجاز، كما سبق فى أول سورة البقرة .

وأجل مسمى : هو يوم القيامة .

أُنــذروا : خُوِّفوا .

معرضون : مدبرون ، لاهون .

أرأيتم : أخبرونى .

لهم شرك : شركة ونصيب .

أثارة من علم : بقية من علم .

حشر : جمع .

كافرين : مكذبين .

تمهيد :

بدأ الله هذه السورة بمثل ما بدأ به سورة الجاثية ، وأتبع ذلك ببيان أنه سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق والعدل ، ولوقت معين ينتهى فيه عمر هذا الكون : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ . (إبراهيم : ٤٨) .

ومن الحق أن يُكافأ المحسن ، وأن يُعاقب المسيء فى الآخرة ، بيد أن الكفار أعرضوا عن الاستماع للوحى ، أو الاهتداء به ، وهنا يسألهم الله : هل اشتركت هذه الأصنام فى خلق الأرض أو فى خلق السماوات ؟

هل عندكم كتاب – مثل التوراة أو الإنجيل – يثبت للأصنام أو الأوثان أو غيرها خلقًا للأرض ، أو مشاركة فى خلق السماء ؟

وهل لديكم بقية من علم تثبت هذا ، وإذا لم تكن لديكم وثيقة مكتوبة ، ولا أثر معقول ، فعلى أى شيء تعتمدون فى عبادة هذه الأصنام ؟

وفى يوم القيامة تتبرأ الأصنام ممن عبدها ، وتعلن العداء لمن عبدها من دون الله ، وتندد بهذه العبادة .

التفسير :

١ – حمٓ .

حرفان من حروف المعجم ، للتنبيه أو للتحدى والإعجاز ، وبيان أن هذه الأحرف المقطعة مبنى كتاب الله العزيز ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

٢ – تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ .

هذا الكتاب منزل من عند الله تعالى على محمد ﷺ ، ومن صفة الله سبحانه أنه ، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ . الغالب وهو القاهر فوق عباده ، وهو سبحانه ، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ . فى خلقه وتدبيره .

٣ – مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ .

إن هذا الكون بما فيه من سماء وأرض وفضاء ، لم يخلق عبثًا ، بل أبدعته يد القدرة الإلهية ، لحكمة عليا هى الاختبار والابتلاء ، وإعطاء الإنسان فرصة فى هذه الدنيا ، ومعه قدرة وإرادة واختيار للسلوك الذى يفضله ، فمن أطاع الله فله الجنة ، ومن عصى الله فله النار ، وحياة هذا الكون لمدة محددة هى عمر الدنيا، فإذا انتهت الحياة على هذه الأرض ، بُدّلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرز الجميع لله الواحد القهار،

لكن الكفار لم يستمعوا لهذا الكتاب، ولا للرسول محمد ﷺ، وأعرضوا عن دين الإسلام، وهو سبب سعادتهم في الدنيا والآخرة.

٤ – قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ.

أخبروني أيها الكفار، هل الأصنام أو الأوثان أو الجن أو الملائكة، أو جميع ما تعبدون من دون الله، هل هذه المعبودات الزائفة خلقت شيئًا من هذا الكون البديع؟ أروني هذا الذي خلقته من الأرض، هل خلقت الماء أو اليابس؟ الشرق أو الغرب؟ السهل أو الجبل؟ الحيوان أو الإنسان؟ والجواب معلوم: إن أحدًا لم يدَّع مطلقًا أنه خلق الأرض، ولا جانبًا منها، لأن هذه المعبودات الزائفة لا تقدر على خلق شيء من ذلك، وهذه الأرض لم تخلق نفسها، فلم يبق إلا أن تكون خلق الله.

ثم قل لهم أيها الرسول الكريم: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ...

أي: تدرج معهم واسألهم: هل لهم مشاركة وإسهام في خلق السماوات؟

هل ساعدوا الله وأعانوه في خلق شيء من ذلك؟ والجواب معلوم، ولكن القرآن يستمرّ في مناقشتهم وتحدّيهم بأن يثبتوا بأي حجة أو دليل، يفيد أن هذه المعبودات قد خلقت أي شيء في الأرض أو السماء حتى تُعبد.

ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ ...

أي: هل عندكم كتاب من الكتب المنزلة قبل القرآن، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى، تشهد بأن هذه المعبودات الزائفة قد خلقت شيئًا، أو جانبًا من الأرض أو السماء؟ وإذا لم تكن عندكم وثيقة مكتوبة تثبت ذلك، فهل عندكم بقية من علوم الأولين تنطق باستحقاق هذه المعبودات للعبادة، أو أنهم خلقوا شيئًا من الأرض، أو اشتركوا في خلق السماوات؟ هل لديكم أي دليل نقلي أو عقلي يثبت لهذه الأصنام خلقًا للأرض، أو مشاركة في خلق السماء؟

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ.

فقدموا ما يثبت صدقكم، فإن الدعوى لا تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو دليل نقلي، وحيث إنه لا دليل لكم فقد ثبت بطلان كفركم، وأقيمت الحجة عليكم.

٥ - وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ .

لا أحد أشدّ ضلالاً ممن يعبد من دون الله أصنامًا أو أوثانًا أو جنًّا أو ملائكة ، وهذه المعبودات لا تسمع ولا تبصر ، ولا تستجيب لمن يدعوها ، أو تدفع عنه ضرًّا ، أو تملك له نفعًا ، لأنها مخلوقات فانية، ولأن الملائكة مرتبطة بطاعة الله ، والتزام أوامره ، وهي لا ترضى أن يعبد أحد من دون الله ، وهذه الأصنام وغيرها غافلة عن هذه العبادة لا تحس بها .

٦ - وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ .

وإذا قامت القيامة واجتمع الناس فى صعيد واحد ، ووقف الكل أمام الجبار للقضاء ، تبرَّأت الأصنام ممن عبدها ، كما يتبرأ عيسى عليه السلام ممن اتخذه إلهًا هو وأمّه ، ورفض الجميع كل عبادة لهم .

قال تعالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٤) .

وقال عز شأنه : وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . (مريم : ٨١ ، ٨٢) .

* * *

مناقشة المشركين

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

تـتـلـى : تقرأ .

بـيـنـات : واضحات .

افـتـراه : نسبه كذبا إلى الله .

تـفـيضـون : تندفعون وتخوضون فيه .

بـدعــا : البِدع بالكسر : الشيء المبتدع .

قال الرازى : والبِدع والبديع من كل شيء المبدع ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودًا قبله بحكم السُّنَّة .

إن أتــبـع : ما أتبع .

التفسير :

٧ - وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

وإذا قرأت عليهم القرآن واضحًا جليًّا ميسرًا ، أنكر الكفار أن يكون هذا القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وقالوا : هذا سحر مبين ، أى هذا سحر واضح ، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا .

٨ - أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

فى هذه الآية ردّ على الكفار ، وبيان لعظمة الألوهية ، واطّلاع الله على كل شيء ، وأنه منتقم ممن كذب عليه ، وهو الحكم بين النبى وقومه ، وهو سبحانه غفور لمن تاب ، وقد جمعت الآية بين تعظيم الله جلّ جلاله والردّ على اتهام الكفار للرسول ، وفتح الباب أمام توبة التائبين منهم .

ومعنى الآية :

بل أيقولون إن محمدًا افترى هذا القرآن واختلقه من عند نفسه ، ثم نسبه زورًا إلى الله ؟

ثم يلقّن الله رسوله الحجة ليقول لهم :

إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ...

أى : لمن أفْتَرِى ؟ ألأجل أن أكسب أتباعًا يؤمنون برسالتى من البشر ؟ إن الله أقوى من كل قوى ، وهو على كل شيء قدير ، وإذا كذبتُ عليه فمن يعصمنى من بطشه وأخذه وقوته .

والخلاصة : أنا لا أكسب مخلوقًا وأُسخط خالقًا ، لأن هذا الخالق إذا غضب علىَّ فلن يملك أحد منكم أن يعصمنى من عقوبته لى .

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ...

لقد أحاط علم الله بكل شىء ، وبما تندفعون فيه من القول ، واتهامكم للقرآن بأنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين ، واتهامكم لمحمد ﷺ بصنوف الفِرى .

كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ...

إن الله تعالى يشهد لى بالصدق ، وبأنه أنزل القرآن من عنده على محمد ﷺ ، وكفى بشهادة الله تعالى شهادة تكفينى وتشرِّفنى ، وقد رضيت بحكمه بينى وبينكم ، وفى ذلك من تعظيم الله والرضا بشهادته واطِّلاعه ، وتهديد الكافرين بما يستحقونه من عقوبة الله الشهيد على كل نفس بما كسبت .

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

من قصد بابه تائبًا غفر له وشمله برحمته وفضله ، ونعمته وقبوله ، فما أوسع فضله ، وما أوسع رحمته لمن تاب إليه ورجع إلى مرضاته .

قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ... (الأعراف : ١٥٦) .

٩ - قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

لقد أرسل الله الرسل قبلى ، وأنزل عليهم الكتب ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلّم موسى تكليمًا ، وبشر عيسى قومه برسالة أحمد ﷺ ، فرسالتى إليكم ليست بالأمر البديع أو الغريب .

أمّا الغيب فعلمه عند الله ، وكان المشركون قد اقترحوا على النبى ﷺ الإتيان بمعجزات ، والإخبار عن مغيبات ، فأنزل الله عليه هذه الآية لتفيد الآتى :

– لست أول من أرسله الله رسولا .

– أنا بشر يوحى إلىَّ ، أؤدى واجبى فى تبليغ الرسالة والجهاد فى سبيلها ، أما الغيب فعلمه عند الله، والمعجزات يأتى بها الله حين يشاء هو ، لا تلبية لطلب المشركين .

– أنا أتبع الوحى وأبلّغه ، وأنفّذ ما يدعونى إليه ربِّى .

– رسالتى لا تقوم على المعجزات المادّية ، فالقرآن أسلوب يخاطب العقل والفطرة ، ويحذِّر من معصية الله ، وأنا أحذركم عقاب الله تعالى ، على نحو واضح لكل عاقل .

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث الصحيحة عند تفسيره لهذه الآية ، منها ما رواه أحمد ، والبخارى ، عن أمّ العلاء – وهى امرأة من نساء الأنصار – قالت : لمّا مات عثمان بن مظعون ، قلت: رحمك الله أبا السائب ، شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : «وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربّه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله، ما يفعل بى ولا بكم»، قالت أم العلاء : فوالله لا أزكّى بعده أحدًا [٣].

قال المفسرون :

وفيه دليل على أنه لا يُقطع لشخص معين بالجنة ، إلا الذين نصّ الشارع على تعيينهم ، كالعشرة المبشرين بالجنة [٤] ، وعبد الله بن سَلَام ، والعميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقُرّاء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة، ومن أشبه هؤلاء رضى الله عنهم .

من تفسير القرطبى

ذكر القرطبى تعليقًا طويلاً على قوله تعالى فى هذه الآية :

وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ...

ثم قال القرطبى : والصحيح فى الآية قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد ، عن الحسن : **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا .**

قال أبو جعفر الطبرى : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدرى ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ، ورخص وغلاء ، وغنى وفقر .

ومثله قوله تعالى : وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ... **(الأعراف : ١٨٨)**

وقال المهايمى :

وَمَآ أَدۡرِى مَا يُفۡعَلُ بِى وَلَا بِكُمۡ ...

أى : فيما لم يوح إلىَّ ، والوحى ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقى ، ولم يكن لى أن أضم إلى الوحى كذبًا من عندى [٥] .

من تفسير ابن كثير

قال عكرمة والحسن وقتادة [٦] :

إن قوله تعالى : وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ... منسوخ بقوله تعالى : لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... (الفتح : ٢) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا : هنيئا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . (الفتح : ٥)

قال المفسرون :

وفى هذا دليل على أن النبى ﷺ لا يدرى ما يئول إليه أمره وأمر المشركين فى دار الدنيا ، أما فى الآخرة فهو ﷺ جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وذلك فى الجملة [٧] . اهـ .

خاطـرة

ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة أن الله تعالى زوى الأرض لرسول الله ﷺ ، ثم قال ﷺ : «وسيبلغ ملك أمّتى ما زوى لى من الأرض ، وسيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل» [٨] .

وفى البخارى ما يفيد أن رجالاً من أمة النبى ﷺ يركبون ثبج البحر غزاة فى سبيل الله ، كأنهم الملوك على الأسرة [٩] .

وفى صحيح مسلم أن النبى ﷺ بشّر أمته بفتح القطر المصرى ، وقال : «سيفتح عليكم بعدى بلد يذكر فيه القيراط ، فاستوصوا بأهله خيرًا فإن لهم ذمة ورحما» [١٠] .

وروح الأحاديث النبوية تبشّر بنصر هذه الأمة ، وفى غزوة الخندق اعترضت المسلمين صخرة لم يستطيعوا كسرها ، فاستعانوا برسول الله ﷺ فتناول المعول وضرب الصخرة فصارت كثيبًا أهيل ، وقال للمسلمين : «إنّ الله أضاء لى منها كنوز كسرى وقيصر» [١١] .

كما بشر النبى ﷺ سراقة بن مالك بن جشعم ، وقال له : «أسلم يا سراقة ولك سوار كسرى» [١٢] ، وكل هذا يفيد أن النبى ﷺ بُشّر بالنصر ، وبشّر أمته بذلك .

وخلاصة الأمر : أن القضاء والقدر فى علم الله ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، والرسول ﷺ بشر يوحى إليه ، وهو لا يعلم الغيب ، كما قال القرآن الكريم : وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ... (الأعراف : ١٨٨)

لكن الله تعالى بشَّره فى الجملة بنصره على المشركين ، وبشر الرسول ﷺ أمته بنصر الإسلام على بلاد الفرس والروم والحيرة ومصر وغيرها .

وفى القرآن الكريم طائفة من هذه البشارات ، مثل قوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ. (الصف : ٨ ، ٩)

ومثل قوله سبحانه : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ . (الروم : ٤ ، ٥) .

وقوله عز شأنه : كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقوله عز شأنه : وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ . (الروم : ٤٧) .

★ ★ ★

شهادة عبد الله بن سلام بصدق محمد ﷺ

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

قل أرأيتم : أخبرونى ماذا تكون حالكم .

إن كان من عند الله : إن كان القرآن من عند الله .

وشهد شاهد : وشهد عبد الله بن سلام .

على مثله : على مثل ما فى القرآن من التوراة من المعانى المصدقة للقرآن المطابقة له ، أو شهد على مثل ذلك وهو كون القرآن من عند الله .

فآمن : الشاهد .

واستكبرتم : تكبرتم عن الإيمان ، ألستم ظالمين ؟

لو كان خيرا ما سبقونا إليه : لو كان ما جاء به محمد من القرآن والإيمان خيرًا ، ما سبقنا إليه المؤمنون .

وإذ لم يهتدوا به : أى بالقرآن العظيم .

إفك قديم : كذب من كذب الأولين .

وهذا كتاب مصدق : القرآن مصدق للكتب التى سبقته .

سبب النزول :

أفادت الأحاديث الصحيحة أن الآية العاشرة من سورة الأحقاف نزلت فى عبد الله بن سلام ، حيث إنه قد شهد بصحة رسالة النبى محمد ﷺ ، وأن التوراة قد بشرت برسالته ﷺ .

أخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما ، عن سعد بن أبى وقاص قال : فى عبد الله بن سلام نزلت : وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ... [١٣] .

وأخرج الطبرانى بسند صحيح ، عن ابن عوف بن مالك الأشجعى قال : انطلق النبى ﷺ وأنا معه ، حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول ﷺ : «يا معشر اليهود ، أرونى اثنى عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه» ، فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، ثم انصرف ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل ، فقال : أىّ رجل تعلموننى يا معشر اليهود ؟ قالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ، ولا من أبيك قبلك ، ولا من جدّك قبل أبيك ، قال : فإنى أشهد أنه النبى الذى تجدون فى التوراة ، قالوا : كذبت ، ثم ردّوا عليه ، وقالوا فيه شرّا فأنزل الله : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . [١٤] .

وفى تفسير ابن كثير ما يأتى :

روى البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، ومالك ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام رضى الله عنه ، قال : وفيه نزلت : وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ... [١٥] .

وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة : إنه عبد الله بن سلام[١٦] .

التفسير :

١٠ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

كان عبد الله بن سلام من أحبار اليهود ، ولما جاء النبى ﷺ مهاجرًا إلى المدينة جاء إليه عبد الله ابن سلام ، وقال : لما نظرت إلى وجه النبى ﷺ قلت : ما هذا بوجه كذاب ، ثم سأل النبى ﷺ ثلاثة أسئلة لا يعلمها إلا نبى :

الأول : ما أول أشراط الساعة ؟

الثانى : ما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

الثالث : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

فقال النبى ﷺ : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإذا سبق ماء المرأة نزعته» ، فقال : أشهد أنك رسول الله حقًا[١٧] .

ومعنى الآية الكريمة :

أخبرونى يا معشر المشركين ، إن كان هذا القرآن من عند الله فى الحقيقة ، وأعلنتم كفركم به ، ثم شهد شاهد من أهل الكتاب على صدق القرآن ، وصدق محمد ﷺ ، وشهد أن القرآن منزل من عند الله ، وأن القرآن مماثل لما بشرت به التوراة ، ثم آمن هذا الشاهد بالقرآن والإسلام ، وصدَّق محمدًا ﷺ ، واستكبرتم عن الإيمان بالله ، ألستم ظالمين خاسرين ؟

وبعبارة أخرى :

ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان القرآن الذى أُنزل علىّ من عند الله ، وقد كفرتم به وكذبتموه ، مع أن شاهدًا من بنى إسرائيل قد شهد أن القرآن مماثل لما فى التوراة ، وأن فى التوراة بشارة بالنبى محمد ، فآمن هذا الشاهد ودخل فى الإسلام ، واستكبرتم عن الدخول فيه ، ألستم ظالمين ؟

إذن فاعلموا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ . أى : لا يوفقهم إلى الهدى والإيمان .

وجمهور المفسرين على أن الآية نزلت فى عبد الله بن سلام ، لكن عبد الله بن سلام لم يدخل فى الإسلام إلا فى المدينة بعد هجرة النبى ﷺ إليها ، وسورة الأحقاف مكية ، لذلك قال علماء القرآن : هذه آية

مدنية نزلت بالمدينة ، أمر الله أن توضع فى سورة مكية ، وكان ﷺ إذا نزلت عليه الآية قال : «ضعوا هذه الآية فى سورة كذا» ، وعنوان السورة مكتوب فى المصحف هكذا : (سورة الأحقاف مكية ، إلا الآيات : ١٠ ، ١٥، ٣٥ ، فمدنية) .

وأفاد الإمام القرطبى فى تفسير الآية أن جمهور المفسرين على أنه عبد الله بن سلام ، وقد نزل فيه قوله تعالى : **قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ** . (الرعد : ٤٣) .

وبعض المفسرين ذكر أن الشاهد من بنى إسرائيل هو موسى عليه السلام ، فقد بشّر برسالة محمد ﷺ وذكرت التوراة صفة محمد ﷺ . اهـ .

ويمكن لنا أن نقول : إن موسى عليه السلام بشر برسالة محمد ، كما وردت صفته فى التوراة ، كما صدَّق برسالة محمد بعض علماء بنى إسرائيل فى المدينة ، فأراد الله أن يزلزل إصرار أهل مكة على الكفر ، فأخبرهم بأن هذا كتاب صادق ، وأن محمدًا نبى صادق ، قد أيده موسى رسول الله ، وسيؤيده بعض علماء بنى إسرائيل ، وتكون الآية من المبشِّرات .

وقد أفاد القاسمى فى تفسيره (محاسن التأويل) أن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله تعالى: **وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ** ... (الأعراف : ٤٨) .

ويرشحه أن الفعل : **وَشَهِدَ** ، معطوف على الشرط الذى يصير به الماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد بعد نزولها ، ويكون تفسيره بها بيانًا للواقع ، أى أن الآية يمكن أن تنطبق على إسلام عبد الله بن سلام فى المستقبل[١٨] .

١١ - **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ** .

سبب نزول هذه الآية دخول جماعة من الفقراء والضعفاء فى الإسلام بمكة ، واعتزاز الأغنياء والأقوياء بمكانتهم ، وأنفتهم من الدخول فى الإسلام ، خوفًا على وجاهتهم ، ورغبة فى الاستمرار فى الزنا وشرب الخمر ، واستغلال الفقراء والضعفاء ، من أجل ذلك نزلت هذه الآية ترد عليهم ، وتحكى قولهم ، وتناقش تعسفهم .

والمعنى :

وقال الذين كفروا من أهل مكة ، أو من يهود المدينة : لو كان دين محمد حقًا ، ما سبقنا إليه الفقراء والضعفاء والأراذل من الناس ، فنحن أغنياء وأقوياء وأمراء ، ولنا وجاهة عند الناس ، وما أعطانا الله هذه

الوجاهة إلا ولنا وجاهة عنده ، وفى هذا المعنى قالوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ .
(الزخرف : ٣١)

وما علموا أن شرف النفوس واستعدادها لقبول الحق فطرة فطر الله الناس عليها ، فالهداية ليست قاصرة على الأغنياء كما زعموا ، بل هى منحة إلهية ، يهبها الله للنفوس الراغبة فى الحق ، المشتاقة إلى الصدق ، التى تتبع الهدى عند ظهوره ، ولا تتكبر ولا تستنكف عن السير وراء الحق إذا ظهر نوره لها .

قال تعالى : أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ...
(الزمر : ٢٢)

لقد قاس هؤلاء أمر الدين على أمر الدنيا ، وما علموا أن الله يعطى الدنيا لمن يحبّ ولمن لا يحبّ ، ولا يعطى الدّين إلا لمن يحب .

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ .

وحين لم تدخل الهداية إلى الإسلام قلوبهم ، ولم يستمعوا للقرآن استماع منصت متفهم ، ولم ينظروا للإسلام نظرة باحث راغب فى معرفة الحق ، ولم يسيروا فى طريق الهدى ، ولم يأخذوا فى أسباب النظر والتفكر فى هذا الدين ، فقد اخترعوا زيفًا وبهتانًا ، فقالوا : إن الإسلام والقرآن كذب قديم مفترى .

قيل لبعضهم : هل فى القرآن : (من جهل شيئًا عاداه) ؟ قال : نعم ، قوله تعالى : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ . وقوله سبحانه : بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ... (يونس : ٣٩) .

من تفسير ابن كثير باختصار

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ...

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون (بلالاً) و(عمارًا) و(صهيبًا) و(خبَّابًا) رضى الله عنهم ، وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ، ولقد غلطوا فى ذلك غلطًا فاحشًا ، وأخطأوا خطأ بينًا ، كما قال تبارك وتعالى : وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ... (الأنعام : ٥٣) .

أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ...

وقوله تعالى : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ . أى : بالقرآن .

فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ .

أى : كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى قال رسول الله ﷺ عنه : «الكبر بطر الحق وغمط الناس» .

و«بطر الحق» ، أى : دفعه وعدم قبوله ، و«غمط الناس» ، أى : احتقارهم وازدراؤهم .

١٢ – وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ .

من قبل هذا القرآن أنزلنا التوراة على موسى ، مشتملة على حكم الله ودينه فى التشريع والقصاص والعقائد ، والعبادات والمعاملات ، فالتوراة إمام حاكم ، وتشريع عادل ، ورحمة للعباد ببيان حكم رب العباد ، وهذا القرآن مصدق للتوراة مؤيد لها ، مهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية ، يوافقها فى الأصول التى قامت عليها ، وهى الدعوة إلى التوحيد ، وبيان مكارم الأخلاق ، والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر .

وقد أنزل الله القرآن باللسان العربى ، تشريفًا للعرب المرسل إليهم ، وليحذّر الظالمين من ظلمهم ، ويبشر المحسنين برضوان الله فى الدنيا ، وبالجنة فى الآخرة .

١٣ – إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

هؤلاء الذين أعلنوا إيمانهم بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا .

قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...

هو الله الجليل العلى الكبير ، المتّصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، هو ربنا وخالقنا وإلهنا ، به آمنا ، وبشرعه التزمنا .

ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ...

لازموا الاستقامة ، وهى اتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات ، هى السير على طريق الإسلام ، وهدى القرآن ، وسنة محمد ﷺ ، هى الاستقامة على الصراط المستقيم الموصل إلى رضوان الله فى الدنيا ، وإلى الجنة فى الآخرة .

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والخوف هو التوجّس والرهبة وتوقع الشر من أمر ما فى المستقبل ، والحُزْن هو الخوف على أولادهم أو أحفادهم أو أى أمر من أمور حياتهم .

أى أن هؤلاء المؤمنين الذين آمنوا بالله واستقاموا على شريعته وهداه ، لا خوف عليهم فى مستقبل أمرهم ، فهم أهل لمرضاة الله وجنته .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

على خطر أو كرب ينزل بأحبابهم ، إنهم موصولون بالله ، راضون بحكمه ، شاكرون على نعمائه ، صابرون على قضائه . فكيف يخافون أو يحزنون وهم فى معية الرحمان ؟

١٤ - أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

هؤلاء المذكورون سابقًا هم أصحاب الجنة ، ملازمون لها ملازمة المالك لداره ، فهم أصحابها وأهلها ، والمنعمون فيها ، والخالدون فيها خلودًا أبديًا سرمديًا ، بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، والآية دعوة لنا جميعًا إلى العمل الصالح النافع المفيد ، الذى يرقى بنا فى الدنيا فيجعلنا سادتها ، ويجعلنا الأمة الوسط المحترمة فى دينها وشرعها ، والعمل هو الذى يجعل الجنة جزاء عادلاً لنا ، لقوله تعالى : بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

★ ★ ★

الوصية ببر الوالدين

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

ووصينا : أرشدنا وأمرنا وألزمنا وبينا له الطريق القويم ليسلكه ، وهو بر والديه .

إحسانا : أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن .

كـــــــرهـــــــا : فعلاً ذا كره ومشقة وتعب فى الحمل والوضع .

وفصـــــالـــــه : الفصال : الفطام ، وهو مصدر (فاصَل) ، فكأن الولد فاصل أمه ، والأم فاصلته .

أشـــــــــده : كمال عقله وقوته ورشده .

أوزعـــــــنـــــى : ألهمنى ووفقنى ورغّبنى .

نـتـقـبـل عـنـهـم : القبول هو الرضا بالعمل ، والإثابة عليه .

فى أصحاب الجنة : منتظمين فى سلك أصحاب الجنة ، كما تقول : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى : منتظما فى سلكهم .

تمهيد :

تحدثت آيات سابقة عن توحيد الله سبحانه وتعالى ، وهنا وصية ببر الوالدين ، وعادة يوصى القرآن الكريم ببر الوالدين بعد الأمر بعبادة الله وحده .

كقوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ...(الإسراء : ٢٣) .

التفسير :

١٥ – وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

تكررت وصايا القرآن الكريم بالوالدين ، وجعل هذه الوصية بعد عبادة الله تعالى ، وخصّ القرآن الأمّ بمزيد من العناية بسبب العناء الذى تحملته فى الحمل والولادة والرضاعة والفصال والرعاية .

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ...

ألزمنا وأمرنا وأرشدنا الإنسان أيا كان ، بإكرام والديه وبرّهما ، ورعايتهما والإحسان إليهما ، ودفع الأذى عنهما ، وعدم إيذائهما أىّ إيذاء .

وقد ورد أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ، حيث أسلم والداه جميعًا ، وأسلم أولاده ، ورأى أولاده النبى ﷺ فآمنوا جميعًا ، ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص .

ونلاحظ مع ذلك أن الآية عامة فى كل إنسان ملتزم ، وأن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم خص القرآن الأمَّ بمزيد عناية ، فقال :

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ...

ما أشق آلام الحمل والوضع والكفالة والرضاع والفصال ، بمجرد أن يتم تلقيح الحيوان المنوىّ لبويضة الأنثى ، فإنها تسعى للالتصاق بجدار الرَّحم ، وهى مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرَّحم الذى تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما فى بركة من دم الأم الغنى بكلّ ما فى جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو ، والأم تأكل وتشرب ثم تعطى محلول أكلها وعظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثير ، فالحمل ومدته الطويلة وآلامه ومشقاته ، والولادة ومشقاتها ، والرضاع وفيه يمتص الوليد خلاصة دم الأم ، ويرضع اللبن من أمّه ، ويستمد منها كل عافيته وهذا معنى : حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا . قاست فى حمله مشقة وتعبا ، من وحم وغثيان وثقل وكرب ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا . حيث قاست آلام الطلق وشدَّته ، ووجع الولادة وآلامها .

وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ...

أى : مدة حمله ورضاعه ورعايته ثلاثون شهرًا ، عامان ونصف عام ، كلها عطاء حسِّى ومعنوى ، وعناء السهر والغذاء ، والتنظيف والتربية ، بمحبة وحنان ، دون ضجر ولا سأم ، ولذلك تأكد حق الأمّ ، وتقدم على حق الأب ، لأن الأم أكثر عطاء .

أخرج البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من ؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من ؟ قال : «أمك» ، قال : ثم من ؟ قال : «أبوك»[١٩] .

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ...

حتى إذا تناهى عقله ورشده وقوته فى الفترة من الثلاثين إلى الأربعين ، ويكملُ الأشدّ ببلوغ الأربعين، لذلك قيل : إنه لم ينبأ نبى قبل الأربعين ، إلا ابنى الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام .

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ...

هو إنسان مؤمن مخلص ملتزم قد امتد عمره إلى كماله وقوته ، فمدّ يده لله طالبًا توفيقه وعنايته وفضله ، فى أن يلهمه الله شكره على النعم التى أنعم بها عليه وعلى والديه ، من الهداية إلى الحق والتوحيد،

وغير ذلك من نعم الدنيا ، كسلامة العقل والصحة والعافية ، وسعة العيش وحنان الأبوين حين عطائهما وتربيتهما ، ومن نعم الآخرة مثل الهداية والتوفيق .

وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ...

وفقنى يا رب للعمل الصالح الذى يرضيك وتقبله ، فنعم العمل إذا كان فى مرضاة الله ، وإذا حظى بالتوفيق والقبول ، ويمتد الدعاء إلى الذرية وتوفيق الله لها فيقول : وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ...

أى : اجعل الصلاح والتوفيق والهداية فى ذريتى ، اجعلها صالحة نافعة ملتزمة تسير فى الطريق المستقيم .

إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ .

إنى رجعت إليك تائبًا منيبًا ، نادمًا على ما فرطت فى جنب الله ، وإنى من المسلمين المنقادين لطاعتك ، الملتزمين بأوامرك ، الخاضعين لربوبيتك .

قال ابن كثير : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ، ويعزم عليها .

قال شيخ زادة فى حاشيته على تفسير البيضاوى :

طلب هذا الداعى من الله ثلاثة أشياء :

الأول : أن يوفقه الله للشكر على النعمة .

الثانى : أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عنده تعالى .

الثالث : أن يصلح له فى ذريته ، وهذه كمال السعادة البشرية . ا هـ .

من تفسير ابن كثير

روى الحافظ الموصلى ، عن عثمان رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبّه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة ثبّت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفّعه فى أهل بيته ، وكُتب فى السماء أسير الله فى أرضه»[٢٠] .

أقل مدة الحمل

استدل العلماء بهذه الآية الكريمة مع قوله تعالى فى سورة البقرة : وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ... (البقرة : ٢٣٣) .

على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح كما ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين ، واستشهد ابن كثير بما رواه محمد بن إسحاق ، عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فذكر ذلك لعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فأمر عثمان برجمها ، فبلغ ذلك عليا ، فقال لعثمان : أما تقرأ القرآن ؟ فقال : بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجلّ يقول : وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا . وقال : حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . فما نجده بقى إلاّ ستة أشهر ، قال عثمان : والله ما فطنت لهذا .

وروى ابن كثير أن قومًا نالوا من عثمان رضى الله عنه ، ثم سألوا عليا عن عثمان ، فقال على رضى الله عنه : كان عثمان رضى الله عنه من الذين قال الله تعالى عنهم : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ . (الأحقاف : ١٦) .

١٦ – أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ .

هذه العينة الممتازة من هذا الإنسان البار بوالديه ، المتبتل إلى ربه، الراغب فى شكر الله على نعمائه، الراغب فى توفيقه للصلاح ، والراغب فى هداية ذريته وصلاحهم ، والمتبع ذلك بالتوبة إلى الله ، والعمل بالإسلام ، والانضمام لجماعة المسلمين ، هؤلاء المذكورون نتقبل منهم أحسن أعمالهم ، ونتفضل عليهم بالتوبة والمغفرة لسيئاتهم ، حال كونهم ضمن أصحاب الجنة ، فهم من أهل الجنة وفى عداد أهلها ، وأكرم بذلك من صحبة ونعمة ، لقد أكرمناهم بالجزاء الحسن ، والقبول الحسن ، والمغفرة ، تحقيقًا لوعدنا الصادق على ألسنة الرسل بمكافأة المتقين ، فى مثل قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف : ٣٠) .

وقوله عز شأنه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقوله سبحانه : رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ .
(آل عمران : ١٩٤)

★ ★ ★

نموذج ردىء

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

أف لكما : صوت يصدر عن المرء عند تضجره .

أُخرج : أُبعث من القبر للحساب .

خلت القرون من قبلى : مضت الأزمان ولم يخرج منها أحد .

يستغيثان الله : يلجآن إلى الله أن يدفع الكفر عن ولدهما .

ويلك : هلاكًا لك ، والمراد هنا الحث والتحريض على الإيمان ، لا حقيقة الدعاء بالهلاك .

أساطير الأولين : أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

حق عليهم القول : ثبت ووجب عليهم قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٥) .

خاسرين : ضيعوا عمرهم الشبيه برؤوس الأموال ، باتباعهم همزات الشياطين .

درجات : منازل ، واحدها درجة ، وهى المنزلة .

تمهيد :

هذا نموذج آخر لوالدين مؤمنين ، يدعوان ولدهما للإسلام والإيمان ، فيأبى ويكذّب بالبعث ، وهما يستغيثان بالله أن يهديه ، لكنه يزداد كفرًا وعنادًا ، ويستحق ما أعد الله له من العقوبة فى جهنم .

التفسير :

١٧ – وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

زعم مروان بن الحكم أن هذه الآية نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، وقد ردّت عليه أم المؤمنين عائشة ، والحق ما قالته رضى الله عنها ، فإن عبد الرحمن بن أبى بكر هداه الله للإسلام والإيمان ، وهذا النموذج توعَّده الله بالعذاب فى جهنم ، والآية عامة فى كل كافر يكذب بالبعث ويسخر من الحساب .

والمعنى :

هذا الابن العاق لوالديه ولدينه ولربه ، فهو يتضجر ويتأفف ، ويتألم من دعوة والديه له إلى الإيمان ، ويقدم حججًا واهية ، حيث يقول لهما :

أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ...

أى : أتذكِّراننى بالبعث والحشر والجزاء ، مع أن طبقات متعددة من البشر قد ماتت ولم تعد إلينا ، ولم يخبرنا أحد ممن ماتوا إن كان فى جنة أو فى نار .

والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يحيى الموتى بعد قرون معينة ، بل يترك الدنيا وأهلها إلى انتهاء أجلها ، ثم يبعث الناس جميعًا مرة واحدة ، فإذا نفخ إسرافيل فى الصور صعق الناس جميعًا وماتوا، ثم إذا نفخ مرة أخرى قاموا للبعث والحساب والجزاء .

وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ...

أى : وهما يستعظمان قوله وكُفْره ، ويتضرعان إلى الله تعالى لهدايته ، ويحذِّرانه من الكفر والجحود ، ويستحثانه على الإيمان والهداية فيكون جوابه لهما .

مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ .

ما هذه الأفكار التى تقولانها عن البعث والحشر والحساب والجزاء ، وضرورة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إلا أكاذيب السابقين ، وليس لهذه الأفكار ظل من الحقيقة .

١٨ – أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ .

إن هؤلاء المكذبين بالبعث الكافرين بالله ، أهلٌ لعذاب جهنم ، ولقوله تعالى لإبليس : قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤، ٨٥) .

وسيكون هذا وأمثاله فى عداد أمم وجماعات من الجنّ والإنس ، تركوا الهدى وأهملوا عقولهم وفكرهم، وساروا وراء الهوى ، فكانوا خاسرين خسرانا حقيقيًّا ، فقد باعوا الجنة ونعيمها وطاعة الرحمان، وآثروا جهنم وطاعة الشيطان .

١٩ – وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

تحدثت آيات سابقة عن نموذج جيد لرجل مؤمن بلغ أربعين سنة ، طلب من الله التوفيق للشكر وللعمل الصالح ، وطلب منه توفيق ذريته للصلاح ، ووعد بالتوبة والدخول فى زمرة المسلمين ، ثم تحدثت الآيتان (١٧ ، ١٨) من سورة الأحقاف ، عن نموذج ردىء منكر للبعث والحشر والجزاء ، مستحق لدخول جهنم.

وهما نموذجان ظاهران :

الأول : مثل أعلى للإيمان والدعاء .

الثانى : مثل ردىء للكفر والضلال ، وسَوْق الحجج الزائفة .

وفى هذه الآية رقم ١٩ بيان أن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، ولكل عامل درجة مناسبة لعمله ، وأن النار دركات فى شدة العذاب والسعير ، ولكل كافر جزاء مناسب لكفره وجحوده ، وسيملأ الله الجنة بالعدل والقسطاس ، وسيملأ الله النار بالعدل والقسطاس ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله بلا ظلم .

قال تعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** . (النساء : ٤٠) .

وقال عز شأنه : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٢٠ – وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ .

من شأن القرآن أن يستعرض مشاهد القيامة ، فإذا الغائب حاضر ، وإذا بك ترى رأى العين هؤلاء الكفارَ الذين أسرفوا على أنفسهم فى المعاصى ، ولم يستجيبوا لداعى الإيمان ، فيقال لهم :

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ...

لقد أفنيتم حياتكم مستمتعين باللذائذ والمحرَّمات ، معرضين عن هدى السماء ، كافرين بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر .

فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ .

فى هذا اليوم ، يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ، تجازون على كفركم وإسرافكم فى المعاصى ، بعذاب الهوان والمذلة فى جهنم ، بسبب استكباركم وعتوّكم وظلمكم وعدم إيمانكم ، وبسبب فسوقكم وخروجكم على طاعة الله وهديه .

وقد تورّع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها ، وقال: لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا وأحسنكم لباسًا ، ولكنّى أستبقى طيباتى لحياتى الآخرة ، وإنى أخاف أن أكون من الذين قال الله فيهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ...

وعند التأمل نجد أن الإسلام دين وسط ، لا يحرم الطيبات ، فالله تعالى يقول : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ... (الأعراف : ٣٢) .

والنبى ﷺ – وهو القدوة العملية – كان يأكل ما يجده ، يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله ديدنا، ومعيشة النبى ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة رضوان الله عليهم منقولة .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر ، والاستعانة بالطيبات على الشهوات والمحرمات .

وجاء فى التسهيل لعلوم التنزيل :

هذه الآية فى الكفار ، بدليل قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...

وهى مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله – وقد رآه اشترى لحمًا – : أَوَ كلّما اشتهى أحدكم شيئًا جعله فى بطنه ! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ، ممن قال الله فيهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ...

من تفسير الفخر الرازى

وهذه الآية لا تدلّ على المنع من التنعم ، لأن هذه الآية وردت فى حق الكافر ، وإنما وبّخ الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ، ولا يؤدى شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدى بإيمانه شكر المنعم فلا يوبّخ بتمتعه ، ودليله : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ... (الأعراف : ٣٢) .

نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى ، وعليه يحمل قول عمر : لو شئت لكنت أطيبكم طعامًا ، وأحسنكم لباسًا ، ولكنى أستبقى طيباتى لحياتى الآخرة .

وأرى أن دين الله يتسع للتمتع بالطيبات ، ويتسع للزهد فيها وتغليب جانب الآخرة ، ولكلٍّ وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ، فمن استمتع بالطيبات وأدى حق الله وأطعم الجائع وساعد المحتاج ، فهو ناجٍ إن شاء الله ، وَمَن زهد فى الطيبات – بدون أن يحرِّمها على غيره – فله نيته واجتهاده وصبره ، واقتداؤه بالزاهدين من السلف الصالح .

وأخيرًا .. أرى أن خير الأمور الوسط ، وشر الأمور الشطط ، والرسول ﷺ قدوتنا ، وكان ينال من طيبات الدنيا وزينتها وطيبها ، ويتزوج من نسائها ، ويستمتع بالنعمة عند وجودها .

ويقول ﷺ فى حديث صحيح رواه البخارى : «إن أتقاكم لله أنا ، وإن أعلمكم بالله أنا ، وإن أخوفكم من الله أنا ، ومع ذلك فأنا أصوم وأفطر ، وأصلّى وأرقد ، وأتزوج النِّساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٢١] .

وكان ﷺ قدوة أيضًا فى الصبر والتجلد والزهد ، ليظل المؤمن شديد المراس ، لا يلين ولا يخنع ، ولا يرغب فى الطيبات إلا إذا كانت من حلال ، وفى قدرته وفى متوسط دخله ، ولا يتطلع إلى الشبهات ولا إلى الكماليات ، إذا كان دخله الحلال لا يتسع لذلك .

قال ﷺ : «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك وأفتوك»[٢٢] .

وقال ﷺ : «البرّ ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[٢٣].

وقال ﷺ : «الحلال بيّن ، والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ..»[٢٤] .

★ ★ ★

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨) ﴾

المفردات :

أخا عاد : هود عليه السلام ، وكانت أُخوَّته لعاد فى النسب لا فى الدّين .

الأحقاف : جمع حِقف ، وهو ما استطال من الرمل واعوج ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً ، من أحقوقف الشىء ، إذا اعوجّ .

النذر : واحدهم نذير ، أى : منذر .

من بين يديه : من قبله .

ومن خلفه : ومن بعده ، أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده .

لتأفكنا : لتصرفنا وتمنعنا عن عبادة آلهتنا .

بما تعدنا : أى من العذاب .

إنما العلم عند الله : العلم بوقت نزول العذاب عند الله .

تجهلون : تتصفون بالجهل وعدم الإدراك ، فى سؤالكم العذاب ممن بُعث إليكم منذرًا .

العارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء .

مستقبل أوديتهم : متجهًا إليها .

تدمر : تهلك .

فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم : فاجأتهم الريح فدمرتهم ، ولم يبق شىء يرى إلا مساكنهم .

ولقد مكناهم : جعلنا لهم سلطانًا وقدرة على التصرف فى الذى ما مكناكم فيه ، ولا سخرناه لكم.

كذلك نجزى القوم المجرمين : بمثل تلك العقوبة يجزى الله كل من كذب رسله .

تمهيد :

ساق القرآن القصص للعظة والاعتبار ، وتكرر ذكر قصص عاد مع نبيهم هود ، وغيرهم من الأمم التى كذبت رسلها فاستحقت العذاب ، وبهذا سجل القرآن الكريم تاريخ الأنبياء والمرسلين وأحيا ذكراهم ، وسجل كفاحهم ، كما سجل تكذيب الأمم المكذبة لرسلها ، وعقاب السماء لها ، فقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وأهلكت الريح العاصفة قوم هود ، حيث قال تعالى : وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ...

وقال فيما سبق : أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . (هود : ٦٠) .

وأطبق الهلاك على كثير من المكذبين ، مثل ثمود قوم صالح ، ومثل فرعون وقومه ، ومدين قوم شعيب ، وقوم لوط وغيرهم .

وقد تكرر التنبيه بما أصاب المكذبين لتحذير أهل مكة ، ولتحذير كلّ مكذب بآيات الله ورسله .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠) .

التفسير :

٢١ – وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

هذه القصة تسلية للرسول ﷺ بذكر قصة أخ له من المرسلين ، كُذّب من قومه ، فصبر حتى نصره الله وأهلك الكافرين ، وفيها تهديد ووعيد لأهل مكة ، وأشباههم من المكذبين .

والمعنى :

اذكر في نفسك قصة هود مع قومه عاد ، واذكرها لقومك ليعتبروا بمضمونها ، فهو رسول كريم ، دعا قومه الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي رمال ملتوية لم تبلغ أن تكون جبلاً ، وكانت بالشُّحر يقال (شِحْر عُمان) أي في مكان بين عمان واليمن على ساحل البحر ، ويقال في حضرموت .

وحين كنت أعمل أستاذًا ورئيسًا لقسم العلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس في المدة من (١٩٨٦م – ١٩٩٦م) بسلطنة عمان ، اكتُشفت آثار قرب مدينة صلالة ، وهي مدينة تقع بين سلطنة عمان واليمن ، وذكر المكتشفون أن المرجَّح أنها القرى التي طمرتها الرياح وأهلكت أهلها ، ولم يبق من أهلها إلا المساكن ، أي بقايا عاد الأولى .

وقد أرسل الله الرسل إلى قومهم من قبل هود ومن بعده ، يدعون قومهم إلى الإيمان بالله تعالى ، ويحذرونهم من عبادة الأوثان والأصنام والتكذيب بالمرسلين حتى لا ينزل بهم العذاب الذي نزل بمن كذب قبلهم ، كقوم نوح .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

٢٢ – قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

قال قوم هود مكذبين له : أجئتنا بدعوتك الجديدة لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التي تعودنا على عبادتها ، ولقد ورثنا ذلك عن آبائنا فلن نترك عبادة آلهتنا ، وإن كنت صادقًا في رسالتك فهات العذاب الذي تهددنا به .

قال الضحاك : تأفكنا : تصرفنا ، من الإفك بمعنى الصرف .

٢٣ – قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

أنا رسول من عند الله ، وظيفتي تبليغ الرسالة ، والبشارة بالجنة للطائعين ، وبالعذاب للمكذبين ، وقد ينزل عذاب المكذبين في الدنيا ، لكن ذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، فهو الحكيم الذي يعلم متى ينزل العذاب ، وما هو الوقت المناسب لذلك .

وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

حيث تقابلون رسالة رسول يدعوكم إلى الخير والإيمان ، ويحذركم عقوبة الكفر والجحود ، تقابلون ذلك باستعجال العذاب ، والاستخفاف بالرسول ، والتحدّي لقدرة الله ، وهو سبحانه على كل شيء قدير .

٢٤ - فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

كان قوم عاد على جانب من الثروة والغنى ، والبأس والقوة ، قال تعالى : فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت : ١٥)

ومن ذلك نلمح أن القوم كذبوا واستهتروا واستخفوا بقدرة السماء ، وتحدّوا نبيَّهم ، ومكثوا فترة فى الجفاف وعدم المطر ، ثم رأوا سحابة تعترض الأفق ففرحوا بها فرحًا شديدًا ، وخرجوا إلى الأودية ينتظرون نزول المطر ، ففاجأهم لسان الحال بتحوّل السحابة إلى ريح عاتية ، مكلَّفة بتدمير عاد ، وإفنائهم عن آخرهم.

٢٥ - تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

إنها جزء من هذا الكون الخاضع لأمر الله ، المسبح بحمده ، فهذه الريح تحوّلت إلى عذاب أليم ، وإلى ريح صرصر عاتية ، تأخذ بأنفاس المكذبين وتقطع رقابهم .

وقد ورد أنهم حفروا لأنفسهم حفرًا ، وربطوا أنفسهم بالسلاسل ، وتركوا رقابهم فوق الأرض ، فكانت الريح تقطع أعناقهم ، وتترك أجسامهم ، كالنخلة الهالكة التى قطع أعلاها المثمر المُفيد وترك أسفلها قليل الفائدة .

وفى سورة الحاقة يقول الله تعالى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

لقد أهلكهم الله هلاكًا مدمِّرا ، جزاء عتوّهم وكفرهم وعنادهم ، وجعل مثل هذا الهلاك لكل من أجرم وكفر .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ .

أى : مثل تلك العقوبة التى نزلت بعاد قوم هود ، يعاقب الله بها كلّ من أجرم وكذَّب وعتا وتكبرّ ، وكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قال الإمام فخر الدين الرازى : والمقصود منه تخويف أهل مكة .

وفى السُّنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان إذا عصفت الريح يقول : «اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها ، وشرّ ما أرسلت به» . فإذا تخيلت السماء تَغيّر

لون الرسول ﷺ، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرِّي عنه، فسألته أم المؤمنين عائشة فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا...﴾[٢٥] (الأحقاف: ٢٤).

أخرج الحديث مسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، عن عائشة، وأورده ابن كثير فى تفسير الآية مع غيره من الأحاديث النبوية.

٢٦ - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

إن هؤلاء الذين أُهلكوا كانوا أكثر قوة من أهل مكة، أعطاهم الله النعم والمنعة والقوة، ليشكروا الله عليها، ويحركوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم للتأمل والتفكر والتدبر، والانتقال من النعمة إلى المنعم، ومن الكون إلى المكوِّن، ومن خلق السماوات والأرض إلى الصانع المبدع، ومن جملة النعم والقوة التى منحها الله لهم إلى العرفان والشكر، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لقد أهملوا منافذ المعرفة، وعطلوا عقولهم عن التأمل، وأبصارهم عن النظر، وأسماعهم عن سماع حجج الحق وأقوال الرُّسل، وآيات الله فى الأنفس والآفاق، وجحدوا بآيات الله وكذبوا بما جاءت به الرسل، فأحاط بهم العذاب، وأطبق عليهم عقاب الله الذى كانوا يستهزئون به، ويستعجلون وقوعه.

قال الإمام الفخر الرازى فى التفسير الكبير:

المعنى: إنا فتحنا عليهم أبواب النعم، وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه فى سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها فى تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها فى طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم لم تغن عنهم من عذاب الله شيئًا. اهـ.

٢٧ - ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أهلكنا عددًا من القرى المحيطة بمكة، فى الجنوب والشمال، جهة اليمن جنوبًا، والشام شمالاً، وكانت أخبار هذه القرى معروفة مألوفة لأهل مكة، فهم يمرون على هذه القرى فى رحلتهم إلى الشام فى الصيف، وإلى اليمن فى الشتاء، ويشاهدون قرى قوم لوط التى أهلكت، ومدائن شعيب، والمؤتفكة التى أهلكت مع أهلها.

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حول مكة ، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزّة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرّون عليها أيضًا . ا هـ .

وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

بينّا ووضحنا وكررنا ولونّا فى أنواع العظات وألوان البينات لأهل تلك القرى ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى إلى الطاعة والإيمان .

٢٨ - فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

فى أعقاب قصة عاد وهلاكها ، تأتى هذه الآية للتأمل فى نهاية قوم كانوا يعبدون أوثانًا يتقربون بها إلى الله ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ... (الزمر : ٣) .

فهل نفعتهم هذه الأصنام ؟ وهل أنقذتهم من الهلاك ؟ والجواب معلوم ، وهو أنه لم يكن لهذه الأصنام أى أثر فى نصرتهم ، بل غابوا عنهم فأصبحوا كالمعدومين .

وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ .

وهذا الهلاك عاقبة كذبهم وافترائهم على الله ، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله ، وشفعاء لهم عند الله ، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها ، واعتمادهم عليها .

★ ★ ★

إيمان الجن بالقرآن

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات :

صرفنا : وجهنا .

النفر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال .

فلما قضى : فرغ من تلاوته .

منذرين : مخوِّفين من عذاب الله ومن عواقب الضلال .

كتابا أنزل من بعد موسى : وهو القرآن الكريم .

مصدقا لما بين يديه : مؤيدًا ومؤكدًا لما قبله من التوراة ، لأنهم كانوا مؤمنين بموسى .

يُجركم : ينقذكم .

داعى الله : هو الرسول ﷺ .

فليس بمعجز فى الأرض : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

أولئك فى ضلال مبين : أولئك الذين لا يستجيبون لله فى خسران واضح بيِّن .

تمهيد :

هذه آيات تفيد أن الجن استمعت إلى القرآن من النبى ﷺ ، فانصرف نفر منهم إلى قومهم يحثُّونهم على الإيمان ، ويحذِّرونهم من الكفر ، وتفيد الأحاديث النبوية الشريفة أن حضور الجن إلى رسول الله ﷺ قد تكرر .

كما يفيد القرآن والسنة بمعلومات عن الجن ، منها ما يأتى :

١ – هناك فى هذا الكون عوالم متعددة ، ومعلومات كثيرة ، ومنها عالم الملائكة ، وعالم الجن .

٢ – الجن عالم له تجمعات وقبائل : إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... (الأعراف : ٢٧) .

أى أن الجن لهم قدرة على التشكل والتكيّف والحياة فى هذه الدنيا ، وهم يرون الإنسان ولا يراهم الإنسان.

٣ – سخَّر الله الجن لسليمان عليه السلام : يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ... (سبأ : ١٣) .

٤ – الجن فريقان : طائع مهتدٍ مستمع للقرآن ، مستخدم عقله فى استجلاب أسباب الهداية ، وعاصٍ ضالّ.

٥ – مكّن الله سليمان من تسخير العصاة من الجنّ ، وحبسهم وتقييدهم فى السلاسل .

قال تعالى : وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ . (ص : ٣٨) .

كما سخر الله له الجن الطائعين . قال تعالى : وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ... (سبأ : ١٢) .

٦ – الجن خُلقت من النار ، والملائكة من النور ، والإنسان مخلوق من تراب ، خلط بالماء فصار طينا ، ثم ترك الطين فترة حتى صار حمأ مسنونًا كالفخّار .

٧ – الجن مدعوون إلى الإيمان ، ومحذّرون من الكفر والجَوْر والظلم والعدوان .

قال تعالى : وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا . (الجن : ١١) .

وقال سبحانه : وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا . (الجن : ١٣ – ١٦) .

وقال سبحانه : يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ . (الأنعام : ١٣٠).

٨ – من أطاع من الجن فله الثواب ، ومن عصى فعليه العقاب .

٩ – الجن عالم تحت قبضة الرحمان ، يسكن هذا الكون ، وطعامه عظام الحيوانات التى ذكر اسم الله عليها، وطعام دوابّه روث الحيوانات .

١٠ – ينبغى أن نحارب الخرافة والأسطورة والدَّجل الذى يرتبط بالجن فى أذهان الناس ، ويكفينا ما ورد عنهم من طريق صحيح ، ولا ينبغى التزيد فى ذلك ، فالقرآن تحدث كثيرًا عن الإنس ، وتحدث عن الجن

بقدر يسير يكفينا ، ويفيدنا أن معنا فى هذا الكون عوالم أخرى ، وأن معلوماتنا محدودة ، وربما تطور العلم فى المستقبل بأمور لم تكن فى الحسبان ، كما قال سبحانه : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

١١ – الجن لهم قدرة على التشكّل والانطلاق إلى السماء ، وقد ورد فى صحيح البخارى أن الجن كانت ترصُّ بعضها فوق أكتاف بعض ، وكان آخر جنِّى يستمع إلى أخبار السماء فيبلغها للكهان ، فيكذب الكاهن مع هذا الخبر مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شُدّت الحراسة على السماء ، ولم يستطيعوا التقاط أخبارها ، فأخبرت الجن رئيسها ، فقال لهم : ما ذلك إلا لأمر قد حدث فى الأرض ، انطلقوا فى مشارقها ومغاربها حتى تعرفوا الخبر ، فانطلقوا فسمعوا رسول الله ﷺ قائمًا فى صلاة الفجر يقرأ القرآن ، فآمن به من استمع له ، وقد نزلت سورة الجن فى هذا المعنى ، وفيها قوله تعالى : قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا . (الجن : ١ ، ٢) .

وقوله تعالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا . (الجن : ٨ ، ٩) .

١٢ – يؤخذ من إيمان الجن بالقرآن أن الرسول محمدًا ﷺ أرسله الله إلى الإنس والجن .

١٣ – من العلماء من يرى أن النبى ﷺ لم يذهب إلى الجن ولم يكلمهم ، وإنما استمعوا إليه فى صلاة الفجر قائمًا يقرأ القرآن فآمنوا ، ودعوا قومهم إلى الإيمان .

١٤ – ومن العلماء من يستأنس بأحاديث نبوية ، تفيد أن لقاء الجن بالرسول ﷺ تمَّ ست مرات ، دعته الجن فى إحداها إلى الذهاب إليهم، فظل قائمًا يدعوهم وقد تكاثروا على الاقتراب منه ، واستأنسوا لذلك بقوله تعالى وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا * قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . (الجن : ١٩ – ٢١).

١٥ – سورة الجن مكملة لموضوع الجن فى القرآن ، وكذلك ما ورد فى القرآن من معلومات عن الجن وأصلهم وعملهم ، وحياتهم ومناهجهم ، وعقلياتهم وطوائفهم .

١٦ – فى موضوع الآيات التى سنفسرها إن شاء الله توبيخ لأهل مكة ، فهذا الكتاب العزيز آمن به الإنس والجن ، وعجزتم عن الإصغاء إليه ، وفيها تسلية للرسول ﷺ ، فقد ثبت أن إيمان الجن تمّ بعد رحلته ﷺ إلى الطائف ، وكان دعاؤه فى الطائف ينبع من شغاف قلبه ، حيث قال : «اللهم أشكو إليك

ضعف قوّتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربّى ، إلى من تكلنى ، إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملّكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

وبعد هذا الدعاء نزل ملك الجبال ، وقال : يا محمد ، إن ربك أمرنى أن أطيعك فى قومك ، بسبب ما فعلوه بك ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فقال ﷺ : «لا تفعل إنى لأرجو أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . ونلحظ أن تكذيب أهل مكة قد اشتد قبل الهجرة ، وكذلك تكذيب أهل الطائف ، وقد كان إيمان الجن بالرسول ﷺ بعد عودته من رحلة الطائف مواساة لرسول الله ﷺ ، كما كان الإسراء والمعراج لإطلاعه على إيمان الملأ الأعلى به ، كما قال سبحانه : ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ . (فصلت : ٣٨) .

التفسير :

٢٩ - ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ .

واذكر لقومك ولنفسك حين وجّهنا إليك مجموعة دون العشرة يستمعون القرآن الكريم ، وكان ذلك بوادى نخلة عند منصرفه ﷺ من الطائف ، يقرأ القرآن فى تهجده أو فى صلاة الفجر .

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ ...

عندما حضروا تلاوة القرآن تواصَوْا بالإنصات والتفرغ التام ، وحشد الذهن لاستماع القرآن وتأمله .

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ .

فلما انتهى النبى ﷺ من تلاوة القرآن ، رجعوا إلى قومهم منذرين لهم من الكفر ، مرغبين لهم فى الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم .

وتفيد الروايات أن الجن استمعت للقرآن ، وانصرفت فى هذه الليلة دون مقابلة النبى ﷺ ، ثم إنهم وفدوا عليه جماعات جماعات ، وتمّ لقاء الجنّ بالنبى ﷺ ست مرات ، فى بعضها انصرفوا ، وفى بعضها دعوا النبى ﷺ إلى زيارتهم فى مكان حددوه له ، وذهب بعض المفسرين إلى أن الجن كان لهم منذرون فقط ، وقال قوم : كانت للجن رسل منهم ، وانظر تفسير هذه الآية فى الكشاف للزمخشرى .

٣٠ - قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ .

قال النفر من الجن لقومهم : يا قومنا ، إنا سمعنا كتابًا كريمًا ، أنزله الله تعالى على نبى أرسله بعد نبيه موسى ، هذا الكتاب يصدِّق الكتب السابقة فى أصولها ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والحث على مكارم الأخلاق ، هذا الكتاب يرشد إلى الحق المبين ، وإلى دين الله القويم .

وتعتبر التوراة كتابًا كاملاً فى الأحكام ، أما الإنجيل فهو مشتمل على كثير من المواعظ ، وقليل من الأحكام ، والعهد القديم أساس للعهد الجديد ، فالتوراة كتاب أساسى عند الجميع ، ولذلك قالوا : **إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ...**

فالعمدة فى التشريع لليهود والنصارى على السواء هى التوراة .

وقال عطاء : كانوا يهودًا فأسلموا .

وقال بعضهم : لم تسمع الجن بعيسى عليه السلام ، ونلحظ أن ذلك أمر بعيد كما قال المفسرون .

وفى صحيح البخارى أن ورقة بن نوفل حين سمع من رسول الله ﷺ خبر نزول الوحى عليه ، قال ورقة : قدُّوس هذا هو الناموس (الوحى) الذى أنزله الله على موسى[٣٦] .

٣١ - يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

تلطَّفت الجن فى دعوة قومها إلى الإيمان، والتصديق بمحمد رسول الله ﷺ ، وبالقرآن الذى أنزله الله عليه.

ومعنى الآية :

استجيبوا يا قومنا لداعى الإيمان بالله تعالى ، وهو القرآن الكريم أو الرسول محمد ﷺ ، وآمنوا بالله، وأطيعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، يكُنْ جزاؤكم مغفرة بعض ذنوبكم ، تلك التى بينكم وبين الله ، أمَّا مظالم العباد فيجب أن تردّ إلى أصحابها ، ومغفرة الذنوب وسترها يضاف إليها أن يخلصكم الله وينجيكم من عذاب شديد مؤلم .

وقد ذهب عدد من الأئمة إلى أن الجن الصالح يكافأ بالمغفرة والنجاة من العذاب ، ودخول الجنة مثل الإنس تمامًا ، وذهب بعض الأئمة إلى أن الجن الصالح يكافأ بمغفرة الذنوب والنجاة من العذاب فى جهنم، ولا يدخلون الجنة .

قال الحسن :

ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، فيقال لهم : كونوا ترابًا ؛ فيكونون ترابًا ، وبه قال أبو حنيفة .

وقال القشيرى معلقًا على هذا الخلاف :

والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشىء ، والعلم عند الله .

ونعم ما قال ، فلماذا الاسترسال فى بحث أمور من الأفضل السكوت عنها ، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

٣٢ - وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ .

من رفض الإيمان بالله ، ورفض تلبية دعوة رسوله وكتابه المنزَّل ، فإنه لا يفوت الله طلبًا ، ولا يعجزه هربًا ، فالله سبحانه على كل شىء قدير ، والكون كله فى قبضته ، وهو سبحانه لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه هارب ، وهذا الكافر لا يجد وليًّا ينصره ، ولا سندًا يمنعه من عذاب الله ، وليس له من دونه ولىّ ولا نصير ، إن هذا الهارب الآبق الكافر ، قد خسر الدنيا والآخرة ، وسار فى ضلال واضح لاختياره الكفر ، وابتعاده عن الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

لقد كان هذا النفر من الجن حكيمًا فى دعوته ، حيث استعمل أسلوب الترغيب والترهيب ، لذلك نجحت دعوتهم فى هداية كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفودًا وفودًا .

* * *

ختام سورة الأحقاف

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)﴾

المفردات :

لم يعى : لم يعجز ولم يتعب .

يُعرض الذين كفروا على النار : يوقفون عليها ، ويمررون بها .

أولو العزم : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ﷺ ، نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوح والخليل الممجد ... وموسى وعيسى والحبيب محمد

لم يلبثوا إلا ساعة : كأنهم حين يرون العذاب لم يمكثوا فى الدنيا إلا وقتًا يسيرًا من نهار ، لشدة العذاب وطول مدته .

بلاغ : أى أن ما وعظوا به كفاية فى الموعظة .

تمهيد :

فى ختام سورة الأحقاف نجد ثلاث آيات :

الأولى : تستعرض مشاهد الكون ، وتستلفت النظر إلى أن خالق الأكوان قادر على إحياء الموتى ، فهو سبحانه على كل شىء قدير .

الثانية : تستعرض مشهدًا من مشاهد القيامة ، حين يكلّف الكفار بمشاهدة نار جهنم عيانًا جهارًا ، ويقال لهم : كنتم تكذّبون بالبعث والحشر والجزاء والجنة والنار ، فهل هذه النار حقيقةً ماثلة ؟ فيشهدون بذلك مقسمين : بَلَىٰ وَرَبِّنَا .

لقد كذّبوا بالله وبالجزاء فى الدنيا ، فكان الجزاء على كفرهم هُوَ: ذوقوا عذاب النار بسبب كفركم .

أما الآية الثالثة : فهى ختام السورة ، وهى دعوة للصبر والمصابرة ، والتجلُّد أمام تكذيب الكفار وتعنّتهم ، كما صبر الأنبياء المرسلون الكبار ، أصحاب العزائم ، أما الكفار فلهم يوم يصلون فيه العذاب ، فإذا شاهدوا عذاب النار وطول مدته استهانوا بكل أيام الدنيا ، وبكل شهواتها ولذائذها ، من شدة هول عذاب الآخرة ، وكأن الدنيا بالنسبة لهم ساعة من نهار بالنسبة لطول عذاب الآخرة ، ثم تختم السورة بأن هذه موعظة بليغة ، لا يحرم من الاستجابة لها إلا محروم فاسق .

التفسير :

٣٣ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

أو لم يشاهدوا مظاهر القدرة الإلهية فى خلق السماوات الطباق ، وما فيها من أبراج وأفلاك ، وشموس وأقمار ، وملائكة ومخلوقات عديدة ، وخلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار ، وإنس وجنّ ، وحيوانات وطيور ، وحشرات وهوام ، ودوابّ متعددة لا يعلمها إلا الله ، وقد خلق الله السماوات والأرض ، بدون أن يصيبه تعب ، أو إعياء أو لغوب أو كلال ، أليس هذا الخالق المبدع بقادر على أن يحيى الموتى ، بأن يعيد الروح إلى الجسد ، ويأمر الموتى بالقيام والبعث ، ثم بالحشر والنشر والجزاء ؟ بلى إنه سبحانه قادر على الخلق فى البدء ، وقادر على الإعادة ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

٣٤ - وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

واذكر لهم أحداث يوم القيامة ، ومنها أخذ الكفار لمشاهدة النار وأهوالها ، وعذابها وحميمها وغسلينها ، وسائر أحوالها . وعندئذ يقال للكفار الذين كانوا يسخرون من المؤمنين ، ويستبعدون وقوع العذاب ، ويقولون : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

(المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧) .

لكنهم يوم القيامة يؤكدون أن النار والعذاب ، والحساب والقيامة ، والجزاء والعقاب ، حق وصدق ، ويقسمون بالله مؤكدين ذلك ، لعلهم بهذه الشهادة والحلف عليها لتأكيدها أن يفرُّوا من العذاب ، لكن الجواب عليهم يكون مقابلاً لأعمالهم فى الدنيا .

قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أى : اصطلوا بنار جهنم ، وذوقوا ألوان العذاب فيها ، بسبب كفركم بالله ، وعدم استجابتكم لرسل الله فى الدنيا ، وتكذيبكم بقدرة الله على البعث والحشر ، والجزاء والعقاب ، فالجزاء لكم من جنس العمل ، بسبب كفركم ، ولا ظلم فى ذلك لكم ، لأن الله لا يظلم أحدًا وهو عادل كل العدل .

٣٥ - فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَـٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ .

تأتى هذه الآية فى ختام السورة ، سورة الأحقاف المكية ، وفيها أدلة التوحيد والقصص ، وحديث عن إيمان الجن ، ومناقشة الكافرين ، ثم توجُّه الحديث إلى رسول الله ﷺ تدعوه إلى الصبر والمصابرة ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، وهم أصحاب العزائم والثبات ، الذين اجتهدوا فى تبليغ الشريعة ، وتأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاق الدعوة ، ومعاداة الطاعنين فيها .

قال مقاتل : هم ستة :

١ – نوح صبر على أذى قومه مدة طويلة .

٢ – وإبراهيم صبر على النار .

٣ – وإسماعيل صبر على الذبح .

٤ – ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر .

٥ – ويوسف صبر على البئر والسجن .

٦ – وأيوب صبر على الضرّ .

وقال ابن عباس : كل الرسل كانوا أولى عزم ، أى : اصبر كما صبر الرسل .

وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى الآيات (٨٣ – ٨٧) من سورة الأنعام ، وهم ثمانية عشر :

إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط [٢٧] .

وأشهر الآراء أن أولى العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

وكم صبر محمد ﷺ وصابر ، وتحمل فى مكة والطائف ، وطريق الهجرة وأعمال المدينة ، وسائر الغزوات ، حتى لقى ربّه راضيًا مرضيًا ، فالآية تثبيت لصبره ، وتأكيد ومؤازرة ، وأيضًا تهديد للكفار ، وهذا معنى :

وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ...

لا تتعجل وقوع العذاب بهم فى الدنيا ، فإن لهم موعدًا لن يفلتوا منه : فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ .
(الدخان : ٥٩)

وقال مقاتل : لا تدع عليهم فى إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة .

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ...

من العذاب فى الآخرة ، لم يمكثوا فى الدنيا أو فى قبورهم إلا وقتًا يسيرًا ، لطول مدة عذاب الآخرة ، وامتداد عذابها أبد الآبدين ، ويزيد فى طولها أنه لا أمل فى النجاة ، ولا فى الرجوع إلى الدنيا ، ولا فى تخفيف العذاب .

بَلَـٰغٌ . أى : بلّغنا ، وقد أعذر من أنذر ، أو إن فى هذا القرآن وما يحمل من صنوف الآيات ، وألوان الهداية ، ما يكفى فى تبليغ الدعوة ، وفى فتح الأبواب لمن أراد أن يلج فى طريق الهداية ، فكم فتح الله فيه من أبواب رحمته وهدايته ، وكم لوّن وصرّف من طرق الهداية ، فلا يهلك على الله إلا هالك ، فما أوسع أبواب رحمته .

فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ .

أى : لا يستحق الهلاك إلا خارجٌ على طاعة الله ، مُعْرِضٌ عن أسباب الهداية وما أكثرها ، فهذا الفاسق الخارج على طاعة الله ، الكافر بالله وألوان هدايته ، أهل للهلاك العادل : وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأحقاف

١ – إقامة الأدلة على التوحيد ، والردّ على عبدة الأصنام .

٢ – المعارضات التى ابتدعها المشركون للنّبوّة ، والإجابة عنها ، وبيان فسادها .

٣ – ذكر حال أهل الإيمان والاستقامة ، وبيان أن جزاءهم الجنة .

٤ – ذكر وصايا للمؤمنين بإكرام الوالدين ، وبيان مشقة الأمّ فى الحمل والوضع والرضاع .

٥ – بيان حال من انهمكوا فى الدنيا وملذاتها .

٦ – قصص عاد ، وفيه أن الله أنعم عليهم بنعم متعددة ، فبطروا وأشروا وكفروا ، وعاندوا واستحقوا الهلاك .

٧ – استماع الجن إلى رسول الله ﷺ ، وتبليغهم إلى قومهم ما سمعوه .

٨ – عظة للنبى ﷺ وللمؤمنين من أمته .

٩ – الأمر بالصبر ، وبيان قصر الدنيا وقلة نعيمها بالنسبة إلى نعيم الآخرة .

١٠ – ما أوسع رحمة الله وفضله وفتحه الأبواب لكل عاص ، فلا يهلك إلا من رفض كل ألوان الهدى ، وخرج على طاعة الله ، وارتمى فى أحضان الشهوات .

★ ★ ★



تفسير سورة محمد

أهداف سورة محمد ﷺ

هى سورة مدنية ، وآياتها ٣٨ آية ، نزلت بعد سورة الحديد ، ولها اسمان : سورة محمد ، وسورة القتال .

والقتال عنصر بارز فى السورة ، بل هو موضوعها الرئيسى ، فقد نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة الأحزاب ، أى فى الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة ، حيث كان المؤمنون يتعرضون لعنت المشركين ، وكيد المنافقين ، ودسائس اليهود .

عناصر السورة

يمكن أن نقسم سورة (محمد) إلى ثلاثة أقسام :

– **القسم الأول** : يحرض على قتال المشركين ويحث عليه ، ويشمل الآيات (١ – ١٥).

– **القسم الثانى** : يفضح المنافقين ويكشف نفاقهم ، ويشمل الآيات (١٦ – ٣٠) .

– **القسم الثالث** : دعوة المسلمين إلى مواصلة الجهاد بالنفس والمال ، ويشمل الآيات (٣١ – ٣٨) .

١ – التحريض على قتال المشركين :

تبدأ السورة بالهجوم على المشركين وتبين هلاكهم وضياعهم وضلالهم ، لقد سلب الله عنهم الهدى والتوفيق ، فاتبعوا الباطل وانحرفوا إلى الضلال ، أما المؤمنون فقد آمنوا بالله وبرسوله ؛ فكفّر الله ذنوبهم ورزقهم صلاح البال وهدوء النفس ونعمة الرضا واليقين .

وشتان بين مؤمن راسخ الإيمان ، صادق اليقين ، معتمد على رب كريم حليم ، وبين كافر ضال يبيع الحق ويشترى الباطل ، ويفرّط فى الإيمان والهدى ، ويتبع الشرك والضلال .

ثم تحث السورة المسلمين على قتال المشركين ، وقطع شوكتهم وهدم جبروتهم ، وإزالة قوتهم من طريق المسلمين : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ... وهذا الضرب بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ... والإثخان شدة التقتيل حتى تتحطم قوة العدو وتتهاوى فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع ، وعندئذ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه : فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ... أى إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا

مقابل ، وإما أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل ، أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين . حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ... (محمد : ٤) . أى : حتى تنتهى الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له .

ولو شاء الله لانتقم من المشركين وأهلكهم كما أهلك من سبقهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم ، ولكن الله أراد أن يختبر قوة المؤمنين ، وأن يجعلهم سبيلاً لإعزاز الدين وإهلاك الكافرين ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضيع أعمالهم ، فهم شهداء عند الله يتمتعون بجنات خالدة ونعيم مقيم ، وأرواحهم فى حواصل طير خضر تسبح حول الجنة ، وتأكل من ثمارها وتقيم فى ألوان النعيم ، وقد وعد الله الشهداء بحسن المثوبة والكرامة والهداية وصلاح البال ودخول الجنة ؛ لأنهم نصروا دين الله فسينصرهم الله ويثبت أقدامهم ، كما توعد الكافرين بالتعاسة والضلال والهلاك جزاء كفرهم وعنادهم .

وتسوق السورة ألوانًا من التهديد للمشركين ، فتأمرهم أن يسيروا فى الأرض فينظروا ماذا أصاب المكذبين من الهلاك والدمار ، ثم تمضى السورة فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، فتصف المؤمنين بأنهم فى ولاية الله ورعايته ، والكفار محرومون من هذه الولاية .

وتفرق السورة بين متاع المؤمنين بالطيبات ، وتمتع الكافرين بلذائذ الأرض كالحيوانات : إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ . (محمد : ١٢) .

إن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفًا وتصورًا خاصًا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة ، فإذا فَقَدَ هذا فَقَدَ أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

ثم تمضى السورة فى سلسلة من الموازنات بين المؤمن المتيقن والكافر الذى اتبع هواه وشيطانه ، وزُين له سوء العمل : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم . (محمد : ١٤) .

كما تصف الآيات متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية ، من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمرة لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفيض ، فى صورة أنهار جارية ، وذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان ، ثم سؤال : أهؤلاء المتمتعون بالجنة والرضوان ، كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ .؟

٢ – خصال المنافقين :

تشمل الآيات (١٦ – ٣٠) المقطع الثانى من سورة محمد ، وفيها حديث عن المنافقين وصفاتهم ، وحركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود فى مكة نظرًا لضعف المسلمين فى مكة وتفوق أعدائهم ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ شأن الإسلام فى الظهور والاستعلاء ، بدأت حركة النفاق فى الظهور والنمو، وساعدها على الظهور وجود اليهود فى المدينة ولهم قوة مادية وفكرية ، وكراهيتهم للدين الجديد، وسرعان ما اجتمع اليهود مع المنافقين على هدف واحد ، ودبروا أمرهم بليل ، فأخذ المنافقون فى حبك المؤامرات ودس الدسائس فى كل مناسبة تعرض ، فإن كان المسلمون فى شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ، وإذا كانوا فى رخاء ظلت الدسائس سريّة والمكائد فى الظلام ، وكانوا إلى منتصف العهد المدنى يشكلون خطرًا حقيقيًّا على الإسلام والمسلمين ، وقد تواتر ذكر المنافقين ووصف دسائسهم .والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم فى السور المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم فى بعض المؤامرات المحبوكة .

والحديث عن المنافقين فى سورة (محمد) يحمل فكرتها ، ويصور شدتها فى مواجهة المشركين والمنافقين ، بل إن المنافقين هم فرع من الكافرين ، أظهروا الملاينة وأبطنوا الكفر والخداع ، أو هم فرع من اليهود يعمل بأمرهم ، وينفذ كيدهم ومكرهم ، فمن هؤلاء المنافقين من يستمع إلى النبى بأذنه ويغيب عنه بوعيه وقلبه ، فإذا خرج من مجلس النبى تظاهر بالحرص على الدين ، فسأل الصحابة عما قاله النبى سؤال سخرية واستهزاء ، أو سؤال تظاهر ورياء .

أولئك المنافقون قد طمس الله على أفئدتهم فلا تفقه ، وقد اتبعوا أهواءهم ، فقادهم الهوى إلى الهلاك .

بينما المتقون المهتدون يزيدهم الله هدى ويمنحهم التقوى والرشاد ، ثم يتهدد القرآن المنافقين بالساعة ، فإذا جاءت فلا يملكون الهداية ولا تنفعهم الندامة .

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ . (محمد : ١٨) .

ثم تصور الآيات جبن المنافقين وهلعهم وتهافتهم إذا وُوجِهُوا بالقرآن يكلفهم بالقتال ، فهم يتظاهرون بالإيمان ، فإذا أنزلت سورة لا تشابه فيها وذكر فيها الجهاد ؛ رأيت المنافقين ينظرون إليك يا محمد نظرًا كنظر من هو فى النزع الأخير ، تشخص أبصارهم ، لذلك كانوا جديرين بأن يهددهم الله بالويل والهلاك .

وتحثهم الآيات على الطاعة والصدق والثبات : فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . (محمد : ٢٠ ، ٢١) .

وبذلك يفتح القرآن الباب لمن يريد الطهارة الحسية والنفسية من المنافقين ومن جميع المخاطبين .

ثم يحثهم على تدبر القرآن وتأمله حثًا يحرك المشاعر ويستجيش القلوب ويخلص الضمير .

وتمضى الآيات فى تصوير حال المنافقين ، وبيان سبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فتبين أنه تآمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون .

لقد كره اليهود الإسلام وتألبوا عليه ، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة شنّوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، وانضم المنافقون لليهود يقولون لهم سرًّا : سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . (محمد : ٢٦).

ثم يتهدد القرآن المنافقين بملائكة العذاب ، لأنهم تركوا طريق الإسلام ، وانضموا إلى دسائس الحاقدين عليه .

وفى نهاية المقطع يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين الذين يعيشون بينهم متخفين ، لأن ما فيك يظهر على فيك :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال تعالى : أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ . (محمد : ٢٩ ، ٣٠) .

٣ – حديث عن المشركين والمؤمنين :

المقطع الأخير من السورة يشمل الآيات (٣٢ – ٣٨) ، وقد تحدث فى بدايته عن المشركين ، وبيّن أنهم منعوا الناس عن الإيمان بالله ، وأعلنوا الشقاق والعداوة لرسول الله ، وهؤلاء لن يضروا الله بكفرهم ، وسيحبط الله أعمالهم .

وتتجه الآيات إلى المؤمنين فتأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول ، وتأمرهم بالثبات على الحق حتى يأتى نصر الله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ . (محمد : ٣٣) .

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان فى الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ، أو من تثقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات التى يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التى تقف للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ، والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب فصمها والتخلى عنها نهائيًا كما تقتضى العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفًا عميقًا فى نفوس المسلمين الصادقين ، فارتعشت له قلوبهم وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ويذهب بحسناتهم .

وتستمر الآيات فى خطاب المؤمنين ، تدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس والمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم ، تحت أى مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة ، ودون بخل بالمال الذى لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا فى حدود مستطاعة ، مراعيًا الشح الفطرى فى النفوس ، وإذا لم ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قومًا غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها ، وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشى بأنه كان علاجًا لحالات نفسية قائمة فى صفوف المسلمين إذ ذاك – من غير المنافقين – وذلك إلى جانب حالات التفانى والتجرد والشجاعة والفداء التى اشتهرت بها الروايات، فقد كان فى الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء.. وكان القرآن يعالج ويربى لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالى الكريم .

مقصود السورة إجمالا

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة محمد : الشكاية من الكفار فى إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان ، وابتلاء الكفار فى العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمات خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخلاء فى الإنفاق ، وبيان استغناء الحق تعالى وفقر الخلق فى قوله تعالى : وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ... (محمد : ٣٨) [٢٨] .

★ ★ ★

بين يدى السورة

أخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن ابن عمر أن النبى ﷺ كان يقرأ سورة محمد ﷺ فى صلاة المغرب .

وتسمى سورة محمد لبيان تنزيل الكتاب على محمد ﷺ فيها ، فى قوله تعالى : وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ٢) .

ولم يذكر محمد ﷺ باسمه فى القرآن إلا أربع مرات :

فى سورة آل عمران : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... (آل عمران : ١٤٤) .

وفى سورة الأحزاب : مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ... (الأحزاب : ٤٠) .

وهنا فى سورة محمد ، وفى سورة الفتح : مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ... (الفتح : ٢٩) .

وفى غير هذه المواضع يذكر بصفته أو النبى مثل : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . (الأحزاب : ٤٥)

وسميت سورة القتال لبيان أحكام القتال والدعوة إلى الجهاد فيها ، مثل قول تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ... (محمد : ٤) .

★ ★ ★

بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) ﴾

المفردات :

وصدوا عن سبيل الله : منعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم من الدخول فيه ، وأعرضوا عنه .

أضل أعمالهم : أبطلها .

وهو الحق من ربهم : الحق الثابت الذى لا مرية فيه .

كفر عنهم سيئاتهم : أزالها ومحاها بالإيمان والعمل الصالح .

وأصلح بالهم : حالهم فى الدّين والدنيا ، وأصل البال : الحال التى يكترث بها ، ولذلك يقال : ما باليت به ، أى : ما اكترثت به ، ومنه قوله ﷺ : «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمان الرحيم فهو أجزم أو أقطع» .

اتبعوا الباطل : الشرك أو الشيطان .

اتبعوا الحق : التوحيد والقرآن .

يضرب الله للناس أمثالهم : يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى ميعادهم .

تمهيد :

هذه الآيات بداية قوية لسورة القتال ، والسورة كلها دعوة للقتال ، وبيان عاقبة الكافرين ، وهى الخزى والخذلان وعذاب الآخرة ، وعاقبة المؤمنين الذين آمنوا بالقرآن المنزّل على محمد ﷺ ، حيث يقبل الله منهم صالح أعمالهم ، ويكفّر عنهم سيئاتهم ، ويُصلح بالهم .

هذا الجزاء العادل لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل والأهواء ، والذين آمنوا اتبعوا الحق والهدى .

التفسير :

١ - ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ .

هذه بداية السورة ، تُلْقِى فى وجه الكافرين عقوبة كفرهم وضلالهم ، فهؤلاء أهل مكة كفروا وَمَنَعُوا الناس من الإيمان ، وخرجوا فى غزوة بدر الكبرى بطرًا وتظاهرًا بالباطل ، وليتسامع بهم الناس ، فكان الجزاء أن هزمهم الله هزيمة منكرة ، فقُتل منهم سبعون ، وأُسر منهم سبعون ، وفرّ الباقون ، فجعل كيدهم ضائعًا ، وعملهم ضالاً ، ومكرهم فى تباب .

وتفيد روايات أسباب النزول أن هذه الآية نزلت فى كفار مكة ، الذين أرادوا هزيمة المسلمين فى بدر ، فهزمهم الله .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ.**

قال : هم أهل مكة ، نزلت فيهم .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... قال : هم الأنصار .

وقال ابن عباس فى رواية أخرى : نزلت فى المطعمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلاً : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأُبىّ وأمية ابنا خلف ، ومنبّه ونُبَيه ابنا الحجاج ، وأبو البحترىّ بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

ومعنى : **أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ .**

جعلها ضالة على غير هدًى وتوفيق ، وذكر بعض المفسرين أن المعنى : أبطل الله ثواب الأعمال الحسنة ، التى يسمّونها مكارم الأخلاق ، كصلة الرحم ، وإكرام الضيف ، وإجارة المستجير ، فقد أبطل أعمالَهم فسادُ عقيدتهم .

قال تعالى : **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا** . (الفرقان : ٢٣) .

أى أن الله يجازيهم على أعمالهم الحسنة فى الدنيا ، لأنهم لا نصيب لهم فى الجنة بسبب كفرهم .

وهناك من المفسرين من يرى أن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وأنه لن يضيع مكافأة أى عامل على عمل عمله ، حتى ولو كان كافرًا أو كتابيًا ، واستشهدوا بقوله تعالى : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

ويقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . (البقرة : ٦٢) .

والأَوْلَى بنا أن نقول : إن ذلك فى مشيئة الله تعالى ، وعلمه وحكمته وفضله ، فنُفوِّض علم ذلك إليه سبحانه وتعالى .

٢ - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ .

والذين آمنوا بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبالقرآن كتابًا منزلاً ، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، وآمنوا بأن القرآن كتاب الله ، نزل به جبريل الأمين على محمد ﷺ ، وأن القرآن حق وعدل وصدق أنزله الله على نبيه ﷺ ، هؤلاء المؤمنون يقبل الله إيمانهم ويكفِّر عنهم السيئات التى ارتكبوها قبل الإسلام ، ويرزقهم الهدى والتقوى ، والسعادة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ويصلح بالهم وشأنهم وأمورهم .

٣ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ .

ذلك الجزاء العادل بإكرام المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، سببه أن الذين كفروا ساروا وراء الباطل والكفر والإعراض عن القرآن وهدايته ، والرسول محمد ﷺ وبيانه ، والعقل الإنسانى وحكمته ، بينما نجد أن الذين آمنوا اتبعوا الحق والعدل ، وهدى القرآن ، وبيان محمد ﷺ ، فاستحق الكفار النار ، واستحق المؤمنون التوفيق فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾ .

مثل ذلك البيان الرائع ، يبين الله للناس أحوال الفريقين ، الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة ، ويظهر مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى ميعادهم .

«وضرب المثل فى الآية هو أن الله جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين» [٢٩] .

★ ★ ★

أحكام القتال والأسرى والقتلى
فى سبيل الله ونصرة الإسلام

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

فضرب الرقاب : أصله : اضربوا الرقاب ضربًا ، فحذف الفعل ، وقدّم المصدر .

أثخنتموهم : أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، أى : جعلتموه ثخينًا غليظًا .

فشدوا الوثاق : فَأسروهم ، وأحكموا قيد من أسرتموهم ، بعد إثخانهم بكثرة القتل وإضعافهم بالجراح ، والوَثاق والوِثاق : ما يوثق به ، أى : ما يربط به .

المن : إطلاق الأسير بغير عوض .

والفداء : إطلاق الأسير بعوض .

حتى تضع الحرب أوزارها : آلاتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح ، وهو كناية عن انتهاء الحرب .

لانتصر منهم : لانتقم منهم بغير الحرب كالزلزلة .

ليبلو : ليبتلى ويصيب .

فلن يضل أعمالهم : فلن يضيّعها .

عرّفها لهم : يهدى أهل الجنة إلى مساكنهم بإلهام منه تعالى ؛ فلا يخطئونها .

أحبط : أضاع .

تمهيد :

عمد القرآن الكريم إلى تربية المسلمين على الجهاد ، فمدح الشهادة ، وذكر فضل الشهداء ، وثوابهم ومنازلهم فى الجنة ، وحياتهم البرزخية والمعنوية ، وهنا يحثُّ المؤمنين على الشجاعة فى الحرب، وإحْكَام

القتال ، وضرب رقاب الكافرين ، وإثخان جراحاتهم وإضعافهم ، ثم أَخْذِ الأحياء أسرى ، وللإمام حينئذ أن يمنّ عليهم ، أو يقبل الفداء ، أو يفعل ما يراه مناسبًا لإعزاز الدين ومنفعة المسلمين ، مثل تبادل الأسرى ، أو غير ذلك ، ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بآفات سماوية أو أرضية ، لكنه أراد سبحانه اختبار المؤمنين ، وتدريبهم وتشجيعهم على قتال الكافرين ، أما الشهداء فثوابهم عظيم ، وطريقهم إلى الجنة معروف لهم ومألوف ، ثم نادى المؤمنين وبيّن لهم أن المؤمنين الذين ينصرون دين الله ، سينصرهم الله وسيمكّن لهم فى الأرض ، أما الذين كفروا فلهم التعاسة ، وضياع الأمل ، لأنهم كرهوا ما أنزل الله على رسوله ، فأحبط الله أعمالهم ، وأذهبها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، بسبب عدم إيمانهم .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم ، عن قتادة فى قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ .

قال : ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحد ، ورسول الله ﷺ فى الشِّعب ، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعْلُ هُبل (أكبر أصنامهم) ، ونادى المسلمون : الله أعلى وأجلّ . فقال المشركون : إنا لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال رسول الله ﷺ : «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم».

التفسير :

٤ - فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ .

تشجع الآية المسلمين على الجهاد ، والقوة عند الحرب مع المشركين ، وأهل الكتاب المعتدين .

والمعنى :

إذا لقيتم الكافرين فى الحرب فاحصدوهم حصدًا ، واضربوا رقابهم ضربًا قاتلاً بالسيف ، حتى إذا تمكنتم منهم ، وأكثرتم فيهم القتل والجراح واستسلموا لكم .

فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...

أى : إحكام وثاق الأسرى حتى لا يفلتوا من أيديكم ولا يهربوا ، والإمام مفوّض فى اتخاذ الحلّ الأمثل والأنسب ، فله أن يمن عليهم ويطلق سراحهم بدون فداء ، وله أن يأخذ الفداء من الأسرى ، أو يبادلهم بأسرى المسلمين ، ونلاحظ أن قتل الكافرين مقيد بفترة الحرب ، فإذا انتهت الحرب ووقع جانب منهم فى الأسر فلا يجوز أن يقتل الأسير .

أخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن الحسن، قال: أُتى الحجاج بأُسارى، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله، فقال ابن عمر: ليس بهذا أُمرنا، إنما قال الله تعالى: حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً...

ومن ذلك نلمح روح الإسلام فى الحرص على السلام، فالحرب فى الإسلام ضرورة لوقف العدوان، وإزالة طواغيت الكفر، ثم ترك الناس أحرارًا فى عقيدتهم.

قال تعالى: لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... (البقرة: ٢٥٦).

وقال عز شأنه: وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... (الأنفال: ٦١).

حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...

حتى تنتهى الحرب، وبعد الحرب أحكام يجب احترامها، ومعاهدات يجب المحافظة عليها.

ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ...

أى: ذلك هو الحكم فى قتال الكافرين، والغلظة والشدة فى حربهم، ولو أراد الله لانتصر منهم، بإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب، كالخسف والرجفة والغرق، دون قتال منكم أيها المؤمنون، لكن الله تعالى أراد امتحان المؤمنين وابتلاءهم بإيجاب القتال عليهم، حتى يرى منهم امتثال أوامره، والرغبة فى الشهادة، واحتمال الجهاد والقتال والجراح والآلام.

قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. (البقرة: ٢١٦).

فالله تعالى يريد إعداد المؤمنين، وخلق روح الكفاح والقتال فيهم، وفى غزوة بدر رغب بعض المؤمنين فى الاستيلاء على تجارة قريش عوضًا عن أموالهم التى اغتصبها الكفار بمكة، وأراد الله أن يجعل من بدر ملحمة، حتى يحق الحق وينصر الإسلام، بسبب بطولة المسلمين وجهادهم وبلائهم.

قال تعالى: وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ. (الأنفال: ٧، ٨).

وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ .

إن هؤلاء الشهداء الذين ضَحُّوا بأرواحهم وأنفسهم ، وجادوا بها لنصر دين الله ، هؤلاء لن يذهب عملهم سدى ، ولن يضيع عملهم ولن يحبط ، ولن يفقد ثوابه وجزاءه ، وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يُغفر للشهيد كلّ شئ إلا الدّين»[٣٠] .

٥ - سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

سيوفقهم الله لألوان الهداية والإيمان ، وحب الله وحب دينه وحب رسوله ، ويمنحهم الألطاف والسداد والتوفيق ، ويصلح حالهم وأمرهم ، ويجعلهم سعداء فى الدنيا ، وسعداء فى الآخرة .

٦ - وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ .

وييسر لهم دخول الجنة التى وصفها لهم بأنها نعيم خالد : فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

ومن معانى هذه الآية أن المؤمن إذا دخل الجنة ، اهتدى إلى منزله بتوفيق الله وفضله .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده ، إنَّ أحدهم بمنزله فى الجنة ، أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا»[٣١] .

وقال مجاهد : يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحدًا .

٧ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

يا أيها الذين اختاروا الإيمان ، إن تنصروا دين الله وشرعه والجهاد فى سبيله ، فإن الله تعالى ينصركم على أعدائكم ، ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام ، ويمدكم دائمًا بالتمسك بالطاعة والتوفيق .

٨ - وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ .

والذين كفروا بدين الله ، ولم يصدّقوا بالإسلام ، فهلاكًا لهم وشقاء وتعاسة فى الدنيا ، ولهم عذاب النار فى الآخرة .

وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ .

جعلها ضالة لا ثواب لها ؛ لأنها كانت بدون إيمان .

٩ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ .

ذلك الإضلال بسبب كراهيتهم للقرآن الذى أنزله الله على رسوله ﷺ ، وفيه التوحيد والعفة والاستقامة ، وتحريم الخمر والزنا والميسر ، ورغبة الكافرين فى إشباع ملذاتهم ، واتباع أهوائهم .

فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ .

أضاع ثوابها لعدم الإيمان ، أو أحبط عبادتهم للأوثان والأصنام وجعلها هالكة لا وزن لها ولا ثواب

قال الزمخشرى :

أى : كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف والأحكام ، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان فى الشهوات والملاذّ ، فشقّ عليهم ذلك وتعاظمهم .

من تفسير الجصاص

قال ابن عباس فى قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ... (الأنفال : ٦٧) . ذلك يوم بدر ، والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم ، أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأسارى : فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ... (محمد : ٤) .

فجعل الله النبىَّ والمؤمنين فى الأسارى بالخيار ، إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادوهم ، أى يفعل الإمام ما يراه مصلحة حربية .

★ ★ ★

النظر فى آثار الأمم السابقة

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

عاقبة : آخرة ، وعاقبة كل شيء : آخره .

دمر الله عليهم : استأصل عليهم ما اختصهم به من أنفسهم وأهليهم وأموالهم .

أمثالها : أمثال تلك العاقبة .

مولى : ناصر .

يتمتعون : ينتفعون بمتاع الدنيا .

ويأكلون كما تأكل الأنعام : ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم ، ولا يلتفتون إلى العاقبة أو الآخرة .

مثوى : منزل ومقام ومصير .

وكأين من قرية : وكم من أهل قرية .

من قريتك : من أهل قريتك .

أهلكناهم : بأنواع العذاب .

بينة : حجة وبرهان ، وتشمل القرآن والحجج العقلية .

سوء عمله : كالشرك والمعاصى .

واتبعوا أهواءهم : فى عبادة الأوثان ، فلا شبهة دليل لهم فى ذلك ، والجواب عن قوله : أَفَمَن كَانَ . و كَمَن زُيِّنَ . هو : لا مماثلة بين المؤمنين وكفار مكة .

تمهيد :

لوَّن القرآن الكريم فى أساليبه استلفاتًا للنظر ، وتحريكًا للعقل والفكر ، وهنا يحثّ الكافرين على السير فى الأرض ، والتأمل فيما حولهم من القرى التى أهلكت ، مثل عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، لقد دمر الله هذه القرى على من فيها من الناس والأبناء والآباء ، والأموال وسائر الممتلكات ، وكفار مكة معرَّضون لمثل هذا الهلاك والتدمير ، إن الله ولى المؤمنين وناصرهم ، وإن الكافرين لا يجدون وليًا ولا نصيرًا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إنّ مآل المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهذه المياه تنبت الأشجار والثمار والظل وألوان الفاكهة ، لذلك اكتفى هنا بذكر الأنهار ، لأنها ترشد إلى الخيرات التى ترتبط بها ، أما الكفار فإنهم يتمتعون بالملاذّ فى الدنيا ، ويأكلون فى بطونهم كما تأكل الأنعام ، بلا تدبّر ولا تأمل ، والنار مصيرهم لعدم إيمانهم ، ولكفرهم وعنادهم وجحودهم ، وكم أهلكنا من القرى الظالمة التى هى أشد قوة من مكة ، وهل يستوى من هو على يقين بالله ، وإيمان ثابت بربه ، والكافر الذى يرتكب المنكرات ، ويتلذذ بالمحرمات ، ويتبع هواه وشيطانه ؟ والجواب : لا يستويان .

قال تعالى : **قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ** ... (المائدة : ١٠٠) .

التفسير :

١٠ - أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا .

أفلم يتأمل كفار مكة بالسير فى الأرض ، أو التفكر بالعقل فيما أصاب المكذبين للرسل فى القرى المحيطة بهم ، مثل قرى قوم عاد وثمود ، وقوم لوط وأصحاب مدين ، فقد كذبت هذه القرى الرسل ، وعاندت واستكبرت ، وكفرت برسل الله ، فدمّر الله هذه القرى على من فيها ، من الناس والأبناء والآباء ، والأموال وسائر الممتلكات ، وسيحيق بكل كافر وبأهل مكة أمثال هذا العقاب ، حيث أصابتهم فعلاً الهزيمة المنكرة فى غزوة بدر الكبرى وفى فتح مكة ، ولهم عذاب أشد فى نار جهنم فى الآخرة .

١١ - ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ .

ذلك التدمير والاستئصال للكافرين ، والنجاة والنصر للمؤمنين ، بسبب أن الله ولى المؤمنين وناصرهم ، وأن الكافرين الجاحدين لا ناصر لهم ، ولا ولى يدفع عنهم العذاب ؛ فوقعت العقوبة بهم .

سبب النزول :

قال قتادة : نزلت الآية : **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ** . يوم أحد .

حيث سأل أبو سفيان يوم أحد عن النبى ﷺ ، وعن أبى بكر وعمر ، فلم يجبه أحد ، فقال أبو سفيان: أمّا هؤلاء فهلكوا ، فأجابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : كذبت يا عدوّ الله ، بل أبقى الله تعالى

ما يسوؤك ، وإن الذين عددت أحياء . فقال أبو سفيان : يوم بيوم ، والحرب سجال ، ثم قال أبو سفيان : اعْلُ هُبل – اعْلُ هُبل . فقال النبى ﷺ : «ألا تجيبونه» ، قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : «قولوا : الله أعلى وأجلّ» ، ثم قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبى ﷺ : «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» .

١٢ – إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ .

إن الله الذى هو ولى الذين آمنوا ، يختصهم بعنايته ورعايته ، وهو سبحانه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفى هذه الجنات الأنهار والأشجار والثمار والحور العين ، ورضوان الله رب العالمين ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ .

الكافرون تشغلهم الدنيا ولذائذها ، فهم حريصون على متعها ، والاستكثار من الطعام والشراب ، والخمر والمحرمات ، غير مفكّرين فى العاقبة ، كما تأكل الأنعام فى مسارحها ومعالفها ، غافلة عمّا هى بصدده من النحر والذبح ، أما منازل الكفار فى الآخرة فهى النار ، وما فيها من زقوم وحميم وغسلين، وعذاب وإهانة ، وغضب الحى القيوم .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، وابن ماجة أن رسول ﷺ قال : «المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»[٣٢] .

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

كثيرًا ما يقتصر الله على ذكر الأنهار فى وصف الجنة ، لأن الأنهار تتبعها الأشجار ، والأشجار تتبعها الثمار ، والماء سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام . اهـ .

١٣ – وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

كثيرٌ من القرى الظالمة ، مثل قرى عاد وثمود ولوط ، كانوا أعتى وأقوى وأشد قدرة وقوة من أهل مكة الذين أخرجوك وعادوك ، وحاولوا قتلك أو نفيك أو حبسك ، ولقد أهلكنا كثيرًا من هذه القرى الظالمة مع قوّتها ، ونحن أقدر على إهلاك أهل مكة ، لأنهم أقل شأنًا وقوة ممن أهلكنا من الظالمين ، وإذا كان الله قد أمهل أهل مكة إكرامًا لرسول الله ﷺ ، فإن ذلك لن ينجيهم من عذاب النار يوم القيامة .

أخرج ابن أبى حاتم، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه، التفت إلى مكة وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلىّ، ولولا أن المشركين أخرجونى لم أخرج منك».

قال ابن كثير فى التفسير معقبًا على الأثر السابق: فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى فى حرمه، أو قتل غير قاتله، فأنزل الله على نبيه ﷺ: وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ.

١٤ – أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم.

هذه آية تقارن بين الحق الثابت الأبلج، والباطل وهو لجلج، بين رسول الله ﷺ والوحى ينزل عليه، واليقين مستقر فى قلبه، وأبى جهل وأمثاله ممن أغواهم الشيطان، وزيّن لهم الكبر والظلم والعدوان، والكفر والبطر واتباع الهوى.

قال المفسرون:

يريد بمن: كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ. رسول الله ﷺ، وبمن: زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ. أبا جهل وكفار قريش، لكن الآية عامة، والعبرة بعموم اللفظ، وفيه أن على المؤمن أن يكون على يقين وحجة وبينة فى دينه وإسلامه.

وفى معنى هذه الآية نجد قوله تعالى: أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ... (الرعد: ١٩)

وقوله تعالى: لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ. (الحشر: ٢٠).

★ ★ ★

صفة نعيم الجنة وعذاب النار

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات:

مثل الجنة: الوصف العجيب للجنة وصفتها.

آســـــــــن : متغير الطعم والرائحة لطول مكثه .

لم يتغير طعمه : لم تصر فيه حموضة كألبان الدنيا .

لـــــــــــذة : تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ .

مصـــفـــى : خالٍ من الشمع ومن جميع العلائق والمخلّفات .

حـــمـــيـــمـــا : حارًا بالغ الحرارة .

الأمـــعـــاء : جمع مِعىً ، وهو ما ينتهى إليه الطعام فى البطن .

التفسير :

١٥ – مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ .

تمهيد :

يصف القرآن نعيم المتقين ، فيذكر أحيانًا نعيم الجنة الحسىّ ، وأحيانًا ما هو أعلى وأسمى ، وهو رضوان الله ومودته ومعيته سبحانه ، مثل : **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا** . (مريم : ٩٦)

والله تعالى عليم بعباده ومشاربهم وأذواقهم وطوائفهم .

وهنا يفصل القرآن نعيم الجنة ، ويشوّق المتقين إلى ما فيها ، وكل ما فيها طيّب طاهر نظيف ، طازج مشرق : **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ** . (الزخرف : ٧١) .

ومعنى الآية :

صفة الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين ، الذين راقبوا الله وأطاعوه ، فاستحقوا أن ينالوا جزاءه فى الآخرة ، فى هذه الجنة ما يأتى :

١ – أنهار من ماء طازج لم يداخله كدر ، ولم يتغير لونه أو طعمه .

٢ – أنهار من لبن سليم طازج لم يتغير طعمه بحموضة أو رائحة كريهة كألبان الدنيا .

٣ – أنهار من خمر لذيذة الطعم ، ليس فيها كراهية ريح ، ولا غائلة سكر ، ولا يجد شاربها إلا اللذة والمتعة .

٤ – أنهار من عسل مصفًّى ، قد صُفِّى من القذى ، وما يكون فى عسل الدنيا قبل التصفية ، من الشمع وفضلات النحل وغيرها .

٥ – وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ... وأنواع الفاكهة اليانعة ذات الألوان البديعة ، والروائح الذكية ، والطعوم الشهية .

كقوله تعالى : يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ . (الدخان : ٥٥) .

وقال سبحانه : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ . (الرحمن : ٥٢) .

٦ – وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... أى : وقد غفر الله ذنوبهم ، وسترها عليهم ، وأمَّنهم يوم الفزع الأكبر ، وتجاوز عن السيئات ، وكافأهم على الحسنات بفضله ورحمته .

وبذلك جمع لأهل الجنة بين النعيم الحسى والنعيم المعنوى فيما يأتى :

١ – الماء : وبدأ به لأنه لا يستغنى عنه فى الدنيا .

٢ – اللبن : وهو يجرى مجرى الطعوم لكثير من العرب فى غالب أوقاتهم ، فهو حاجة من حاجات الجسم .

٣ – الخمر : وهى لذة ونعيم لمن استوفى الضروريات والحاجيات ، واحتاج إلى اللذائذ والكماليات .

٤ – العسل : وفيه الشفاء والحلاوة .

٥ – المغفرة والستر والرحمة ، والتجاوز والحنان والفضل من الله .

ثم قارن بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، فقال :

كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ .

أى : أيستوى النعيم الحسى والمعنوى لأصحاب الجنة بعذاب أهل النار ، وخلودهم فى الجحيم خلودًا أبديًّا سرمديًّا ، ثم يُكلَّفون بشرب ماء الحميم الذى يغلى غليانًا شديدًا ، ويشوى وجوههم وفروة رؤوسهم ، وفيه مع حرارته ما يُقطع الأمعاء ويذيبها لتنزل من أدبارهم .

اللهم إنا نعوذ بك من عذاب أهل النار ، اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار ، اللهم آمين .

★ ★ ★

أوصاف المؤمنين والمنافقين

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

الذين أوتوا العلم : الصحابة الذين وعوا حديث رسول الله ﷺ

آنفا : سابقا .

طبع الله على قلوبهم : طمس الله على قلوبهم وختم عليها .

آتاهم : ألهمهم .

بغتة : فجأة .

أشراطها : علاماتها .

فأنى لهم : كيف لهم .

ذكراهم : تذكرهم.

متقلبكم : تصرفكم وتقلبكم لأشغالكم فى الدنيا.

ومثواكم : إما سكونكم ومأواكم إلى مضاجعكم فى الليل ، وإما مأواكم فى الجنة أو النار .

أى : هو عالم بجميع أحوالكم فى الدنيا والآخرة ، لا يخفى عليه شىء منها .

تمهيد :

هذه آيات تتحدث عن المنافقين ، فالعظة لا تصل إلى قلوبهم لانطماسها بما يشغلها من الدنيا ويبعدها عن الإسلام ، وقد كان النبى ﷺ يخطب الجمعة وأحيانا يتناول المنافقين بما يسوءهم ويكشفهم، ويعرّى رذائلهم ، فإذا خرجوا من خطبة الجمعة قال المنافقون لعبد الله بن مسعود ولعبد الله بن عباس : ماذا قال آنفاً ؟ يقولون ذلك استهزاء واستكبارًا .

إن قلوب المنافقين قاسية ، لم تتفتح للهدى والإيمان ، وقلوب المؤمنين فيها هداية زادها الله هداية ، ومنحهم التقوى والقبول ، إنّ القيامة قادمة ومحمد ﷺ من أشراطها ، ثم تخاطب الآية رسول الله ﷺ مع أمّته ، أنْ داوموا على الإيمان بالله وتصديق رسوله ، والاستغفار والتوبة ، والله تعالى عليم بحركتكم بالنهار ، وبهجوعكم بالليل ، أو هو عليم بأعمالكم فى الدنيا ، وبنهايتكم فى الآخرة ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقون .

التفسير :

١٦ - وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ .

من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يستمع إليك وأنت تخطب الجمعةَ ، أو تقرأ القرآن ، وتشرح أمور الإسلام ، لكنه يسمع غافلا لاهيا ، بدون قلب حاضر أو همة فى الاستفادة ، أو رغبة فى معرفة الإسلام والقرآن .

فإذا خرجوا من عند النبى ﷺ اتجهوا إلى أصحابه ﷺ ، الذين حرصوا على كلامه ، واهتموا بما يقول، وعندئذ يسأل المنافقون عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأشباههما : ماذا قال محمد آنفا ؟ وربما كان المقصود السخرية ، أى : هل يستحق كلامه أن تحرصوا عليه ؟ وهل يُفهم كلامه ؟

والقصد من المنافقين إشاعة البلبلة والحيرة ، إنهم قوم قست قلوبهم ، وانحرفت عن اتباع الدين ، ورغبت فى اتباع الهوى والملذات والمنكرات .

١٧ - وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ .

إذا كان الكفار والمنافقون قد أعرضوا عن الهدى فطمس الله على قلوبهم ، كما قال تعالى : بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤) .

فإن المؤمنين الذين أحبُّوا الإسلام واهتدوا بالقرآن ، قد زادهم الله هداية وتوفيقا ، ومنحهم التقوى ، وهى مراقبة الله ومحبته ، والإخلاص فى طاعته ، والإيمان به ، وإيثار مرضاته ، والالتزام بتنفيذ أوامره ، والابتعاد عما نهى عنه .

قال الإمام على : التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : التقوى هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطا ، وقيل : التقوى هى ألاّ يراك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك ، وكلها تلتقى على أن التقوى حالة من الشفافية والإيمان ، والمحبة لله وطلب القرب منه، والتزام طاعته وابتغاء مرضاته .

١٨ - ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ .

متى يتحرك هؤلاء الكفار إلى التوبة والإيمان ، قبل أن يفاجئهم الموت ، إن من مات فقد قامت قيامته ، أى : هل ينتظر هؤلاء الغافلون اللاهون إلا القيامة تفاجئهم ، وتنهى حياتهم فجأة .

فقد جاءهم محمد ﷺ ورسالته من علامات الساعة ، وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال : «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ، وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

وقد جاء فى أسماء الرسول ﷺ أنه نبى التوبة ، ونبىّ الملحمة ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه ، والعاقب فلا نبىّ بعده .

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ .

من أين لهم إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم ، أن يتذكروا ويستعتبوا؟ فقد فات أوان ذلك ، وذهب وقت التذكر ، فقد عُمِّروا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير ، وفى هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت .

١٩ - ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ .

الخطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد كل من يتأتى منه العلم ، أى : ازدد يقينا وعلما وإيمانا بأن الكون جميعه ليس له إلا إله واحد ، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكرِّر الاستغفار والتوبة والإنابة وطلب المغفرة ، وستر الذنوب ومحو السيئات، وتثبيت الحسنات ، وادع الله أن يغفر لك وللمؤمنين والمؤمنات .

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة التى تدلّ على فَضْل الاستغفار، ومنزلته العالية فى مغفرة الذنب ، ومن هذه الأحاديث ما يأتى : -

فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول فى آخر الصلاة : «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منّى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت» .

وفى الصحيح أنه ﷺ قال : «يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم فإنّى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرّة» .

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ .

والله تعالى مطلع وعالم بمتقلبكم وتصرفاتكم فىْ نهاركم، ويعلم ، ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾ . ومستقركم فى ليلكم .

كقوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ... (الأنعام : ٦٠) .

وقوله سبحانه: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ . (هود : ٦).

وعن ابن عباس قال : مُتَقَلَّبَكُمْ . فى الدنيا ، وَمَثْوَىٰكُمْ . فى الآخرة .

وقال السدّى : مُتَقَلَّبَكُمْ . فى الدنيا ، وَمَثْوَىٰكُمْ . فى قبوركم .

وأرى أن الآية تتسع لتناول الوجوه المذكورة كلّها ، فالله سبحانه مطلع وعالم بحركاتنا بالنهار ومثوانا بالليل ، وهو عالم فى نفس الوقت بحركتنا وعملنا فى الدنيا ، ومثوانا فى قبورنا ، ومآلنا فى آخرتنا ، والله أعلم .

★ ★ ★

حال المؤمنين والمنافقين عند نزول سورة

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

لـــولا : كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى : هلاّ أنزلت سورة فى أمر الجهاد.

محـكـمـة : بينة واضحة لا احتمال فيها لشىء آخر.

مـــرض : ضعف إيمان ونفاق .

المغشى عليه من الموت : مَنْ حضرته أعراض الموت وغشيته.

أولـى لـهـم : ويل لهم ، كما قال تعالى: أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . (القيامة : ٣٤) .

عـزم الأمـر : جد الأمر .

عسـيـتـم : قاربتم .

تـــولـــيـــتـــم : توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم ، أن تعودوا إلى أفعال الجاهلية ، من قطع الأرحام ، والإفساد فى الأرض ، أو إن توليتم وأعرضتم عن هدى القرآن ، أن تعودوا كفاراً تقطعون الرحم وتفسدون فى الأرض .

أولـــــئك : المفسدون

لـعـنـهـم الـلـه : طردهم الله من رحمته .

فـأصـمـهـم : عن سماع الحق .

تمهيد :

تفيد الآيات موقف المؤمنين والمنافقين من الآيات العملية ، التى تحث على الجهاد والزكاة والصلاة، فالمؤمنون يتشوّقون لنزول سورة تحث على الجهاد والزكاة ، وتكلّفهم بما يقرّبهم من ربهم ، أما المنافقون فإذا سمعوا الآيات التى تحث على الجهاد والزكاة فإنهم يصيبهم الهول والويل ، فلو صدقوا الله فى الجهاد لكان طريقهم إلى الجنة مفروشا بالعمل الصالح وحسن النية .

ثم تقول الآيات : جدير بكم إذا توليتم وأعرضتم عن هدى القرآن وتكاليف الإسلام ، أن تعودوا إلى صفات الجاهلية ، وهى الفساد فى الأرض ، وتقطيع الأرحام ، ومن فعل ذلك فقد لعنه الله وطرده من رحمته ، وأعمى بصيرته عن رؤية الحق ، والاهتداء بآيات الله .

التفسير :

٢٠ - وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ .

يتشوّق المؤمنون إلى نزول آيات من كتاب الله ليتسابقوا إلى العمل بما فيها من تكاليف أو جهاد، ويقولون : هلا أنزلت على رسول الله ﷺ سورة جديدة ، لنستمع إلى وحى السماء، وننفذ أوامر ربنا إذا طلب منا الجهاد، فإذا أنزل الله سورة محكمة ، واضحة فى أوامرها ، لا تحتمل وجها آخر ، بل هى صريحة فى طلب الجهاد ، فإن المنافقين يعتريهم الخوف والخور ، والجبن والتردد ، وينظرون إلى النبى ﷺ ، نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ... وهو الذى نزل الموت بساحته، فأبلس واضطرب ، وأغمي عليه من الخوف والجبن.

فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . أى : فالويل والهلاك لهم ، كما قال سبحانه وتعالى : أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ . (القيامة :٣٤ ، ٣٥) . أى : هلاكا وسعيرا لك .

ويجوز أن يكون المعنى كالآتى :

فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . أى : أفضل لهم وأولى بهم أن يطيعوا الله ورسوله ، وأن يقولوا : طاعة وقول معروف .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً . (النساء : ٧٧) .

٢١ – طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ .

أى : طاعة وقول معروف خير لهم ، أو : فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . أى : خير لهم طاعة وقول معروف ، فيا ليتهم فى وضع أفضل مما هم عليه ، بحيث يقابلون طلب الجهاد ، بقولهم : طَاعَةٌ . لله ورسوله واستجابة لأمرهما ، ويقولون : سمعنا وأطعنا .

فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ ... أى : جدَّ الجد ، وجاءت ساعة الصِّفر ، وبدأ تنفيذ الجهاد عمليا ، فلو صدقوا الله فى الإيمان والعزيمة والجدّ ، وانضموا قولا وعملا وسلوكا وتنفيذا لجيش المسلمين ، لكان ذلك خيراً لهم ، حيث يحصلون على الغنيمة عند النصر ، أو الثواب على الجهاد ، والجنة فى الآخرة .

٢٢ – فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ .

جدير بكم إذا أعرضتم عن الجهاد ، وعن تنفيذ أوامر الله ، أن تعودوا كما كنتم فى الجاهلية ، تفسدون فى الأرض بالنَّهْب والغارة ، وتقطعون الرحم التى أمر الله بصلتها ، فالآية تهديد ووعيد للمنافقين ، وبيان لهم بأن ترك الالتزام بأمر الله وتوجيه رسوله من شأنه أن يشيع الفرقة والتنازع بين المنافقين والأمّة المسلمة، فيعود المجتمع فى المدينة إلى حالة من الفوضى ، ينتشر فيها القتل وسفك الدّماء والفساد فى الأرض ، وتقطيع الأرحام بين أفراد الأمة الواحدة ، أو بين القريب والقريب ، حيث يتقاتل المنافقون مع المؤمنين .

وجوّز بعض المفسرين أن يكون المعنى فى هذه الآية كما يأتى :

فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمّرتم عليهم ، أن تفسدوا فى الأرض ، وترجعوا إلى التناهب والقتل ، وقطع الأرحام ، ووأد البنات كما كنتم فى الجاهلية ، وتخصيص الأرحام بالذِّكْر تأكيد لحقّها ، وتحذير للناس من قطع الرحم .

قال تعالى : وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ... (النساء : ١) .

٢٣ - أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ .

هؤلاء المفسدون فى الأرض ، القاطعون للرّحم ، هم الذين لعنهم الله فطردهم من رحمته، وجعلهم حيارى لا يهتدون إلى طريق الإيمان ، ولا يوفّقون إلى هداية الرحمان ، فآذانهم صماء لا تسمع الهدى لأنهم تصامموا فأصمهم الله ، وتعاموا عن النظر فى آفاق الكون ، وفى الأدلة الساطعة على وجود الله وعظمته ، فأعمى الله أبصارهم وبصائرهم ، وأظلم قلوبهم فصارت قاسية لا تلين لذكر الله ، ولا تستجيب لدعوة الهدى.

من تفسير ابن كثير

أورد الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية طائفة من الأحاديث والآثار فى الحث على صلة الرحم، وفضل صلة الرحم ، وعقوبة قطيعة الرحم ، وهى فى جملتها تهيب بالمسلم أن يعمل الآتى :

١ - الحرص على صلة الرحم ، ورعاية الأقارب ، والسؤال عنهم ، وزيارتهم والعطف عليهم.

٢ - مقابلة الإساءة بالإحسان ، حتى لا تقطع الأرحام ولا يعمّ الجفاء بين الأقارب .

روى البخارى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «خلق اللّه تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم ، فأخذت بحقوى الرحمان عزَّ وجلَّ ، فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك» . قال أبو هريرة رضى اللّه عنه: اقرأوا إن شئتم : فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم» .

وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول اللّه ، إن لى ذوى أرحام ، أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال ﷺ : «لا ، إذن تتركون جميعاً ، ولكنْ جُدْ بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من اللّه عزَّ وجلَّ ما كنت على ذلك» . أخرجه أحمد .

وروى الإمام أحمد ، والبخارى ، عن عبد اللّه بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها» .

وفى الحديث القدسى : «قال الله عزَّ وجلَّ : أنا الرحمان ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبتُّه» ، أخرجه أحمد .

وقال رسول الله ﷺ : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» . وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : «إذا ظهر القول وخزن العمل ، وائتلفت الألسنة وتباغضت القلوب، وقطع كل ذى رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم» . أخرجه الإمام أحمد ، والأحاديث فى هذا كثيرة ، والله أعلم .[٣٣]

★ ★ ★

أحوال المنافقين

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

يتدبرون القرآن : يتفهمونه ويتأملون ما فيه من وصايا ونصائح .

أقفالها : مغاليقها التى لا تفتح .

سوّل لهم : سهل لهم وزين لهم .

وأملى لهم : مدَّ لهم فى الأمانى والآمال.

إسرارهم : قالوا ذلك سرًّا فأظهره الله تعالى الذى يعلم السرّ وأخفى ، والإسرار : مصدر السِّر، وقرئ بفتح الهمزة : أَسرارهم ، جمع سِرّ .

فكيف إذا توفتهم الملائكة : كيف حالهم ، أو كيف يعملون ويحتالون حينئذ .

يضربون وجوههم وأدبارهم : تصوير للأهوال والفظائع التى يشهدها المنافقون عند الموت ، حيث تضرب الملائكة وجوههم وظهورهم .

أحبط : أبطل وأذهب .

أضغانهم : أحقادهم ، جمع ضِغن .

لحن القول: فحواه ومعاريضه .

تمهيد:

تصور الآيات موقف المنافقين فى المدينة ، بعدما عظم شأن النبى ﷺ ، وانتصر فى معظم غزواته، فأظهروا الإسلام أمام الناس ، وارتدوا على أعقابهم إلى الكفر سرًّا ، وقد زيّن لهم الشيطان ذلك ومنَّاهُمْ ومدَّ لهم فى الأمل .

وقد كانت هناك موالاة بين المنافقين واليهود ، وكان اليهود أهل كتاب ، والتوراة بين أيديهم تبشر بظهور رسول قد أظل زمانه ، فلما ظهر الرسول من نسل إسماعيل – ولم يكن من نسل إسحاق – كره اليهود رسالته ، وكرهوا هجرته إلى المدينة ، وأصبح اليهود شياطين للمنافقين ، يحركونهم إلى الشرّ ، وتم التنسيق بين المنافقين واليهود .

فقال المنافقون لليهود سرا : سنقف معكم عند الحصار والحرب . والله سبحانه مطلع على أسرار هؤلاء المنافقين.

ثم تعرض الآيات موقف المنافقين عند الموت والغَرغَرة ، والإنسان فى أضعف حالاته ، والملائكة تضْرب وجوههم، وتضرب أدبارهم التى ارتدوا عليها ورجعوا إلى الكفر بعد الإسلام، ذلك لأن المنافقين ساروا على طريق يغضب الله، ولا يرضيه، فأصاب أعمالهم بالإحباط والضياع.

وهنا يهدد الله المنافقين بأن يكشف سترهم، وأن يُطْلع الرسول ﷺ على خباياهم، فيعرفهم بأشكالهم، ويعرفهم بطريقة كلامهم، والله سبحانه مطلع عليهم .

التفسير :

٢٤ – أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ .

هلا تدبّر هؤلاء المنافقون أو الكافرون القرآن ، وأمعنوا النظر والتأمل فى هداياته وآدابه وتشريعاته وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وما اشتمل عليه من عظات وعبر تفتح القلوب ، وتلين لها الأفئدة،

وتخشع لها الجبال الراسيات ، لكن هؤلاء لم يهتدوا ، فهم بين أمرين : إما أنهم لا يتأملون القرآن ولا يتدبرون ما فيه، وإما أنهم يتدبرون ويقرأون القرآن، لكن قلوبهم مغلقة، كالبيوت التى وضعت الأقفال على أبوابها، فلا يستطيع الإنسان دخولها .

وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار، خصوصا المنافقين، والآية توبيخ لهم، وأمر بتدبر القرآن وتفهمه، ونهى عن الإعراض عنه، وقد وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فإنه تعالى قال : **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ** . (محمد : ٢٣) .

لقد طردهم الله من رحمته بسبب نفاقهم ومرض قلوبهم وخيانتهم .

قال تعالى : **فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ** . (البقرة : ١٠) .

٢٥ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ .

قيل : إن هذه الآية نزلت فى بعض المنافقين، الذين خالطوا المسلمين وشاهدوا هداية الله لهم، ثم رجعوا إلى الكفر، وقيل : نزلت فى بعض اليهود، دخلوا فى الإسلام، وشاهدوا هداية القرآن، وتوفيق وأمانة الرسول محمد ﷺ، ثم مرضت قلوبهم وحقدوا وحسدوا رسول الله ﷺ، فعادوا إلى اليهودية، وقيل : نزلت فى بعض الكفار .

والأولى أن نقول : إن الآية عامة، وتشمل كلّ من تنطبق عليهم .

والمعنى :

إن الذين دخلوا فى الإسلام ، ثم نكصوا على أعقابهم ، ورجعوا إلى الضلال بعد أن تبين لهم الهدى، وعادوا إلى الكفر بعد أن شاهدوا نور الإسلام ، وإعجاز القرآن وفضله وبركته وهدايته ، وآدابه وتشريعاته ، هؤلاء وقعوا أسرى لإغراء الشيطان ، ووسوسته لهم بطول الأمد والاغتراف من الملذات ، والمغانم الدنيوية ، فآثروا العاجلة على الباقية ، كما قال تعالى :

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

٢٦ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ .

ذلك الارتداد والعمى ، والكفر بعد الإيمان ، بسبب أنهم بيّتوا السوء والكيد للمسلمين ، فقال المنافقون لليهود الذين كرهوا ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ حقداً وحسداً ، على أن يتفضل الله بهذه النعم على رجل من نسل إسماعيل ، وليس من نسل إسحاق .

وفيهم قال سبحانه : أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... (النساء : ٥٤) .

لقد قال المنافقون لليهود سرا : نحن أولياؤكم ، سنطيعكم فى بعض الأمر، وهو عداوة محمد ﷺ، والتكاسل عن الجهاد معه، والانضمام إليكم إذا أُخرجتم من المدينة، ونَصْركم عند القتال، والله تعالى مطّلِعٌ على خفاياهم وخباياهم وإسرارهم، وإسرارهم بالكسر مصدر السرّ، وقرئ بفتح الهمزة : أسرارهم ، جمع سر ، فهو عالم بالخفايا، يحاسبهم يوم القيامة على ما تكنّ صدورهم من عداوة للإسلام والمسلمين .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ . (الحشر: ١١ ، ١٢) .

٢٧ - فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ .

كيف يكون حال هؤلاء العصاة المنافقين إذا ما انتهت حياتهم ، وحضرت الملائكة لاستخراج أرواحهم ، وتعاصت الأرواح عن الخروج من الجسد ، واشتدت الحشرجة ، والملائكة يضربون وجوههم من الأمام ، وأدبارهم من الخلف ، هل يستطيعون أن يتلوّنوا أو ينافقوا عند موتهم، وهو آت لاشك فى ذلك ؟

وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . (الأنفال: ٥٠ ، ٥١) .

وقال تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ . (الأنعام: ٩٣) .

قال المفسرون : وضرب الوجوه والأدبار زيادة فى المهانة والإذلال ، وعن ابن عباس قال : لا يتوفى أحد على معصية إلاّ تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره .

٢٨ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ .

ذلك العذاب بسبب اتباع المنافقين لما يغضب الله، كترك الجهاد، وممالأة اليهود .

وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ ... ورضوان الله يكون فى رضاه وطاعته، وصدق الإيمان به، وتوقير رسوله، وفهم كتابه ، والمسارعة إلى مرضاته، لكن المنافقين كانوا على العكس من ذلك ، حيث ساروا فى طرق مظلمة

ملتوية، فعاهدوا اليهود وتضامنوا معهم، وخاصموا المسلمين وحقدوا عليهم، وذلك السلوك أغضب الله عليهم، فحلَّ بهم غضب الله ، وابتعد عنهم رضوان الله وفضله ورحمته، وأبطل الله ثواب أعمالهم، كالصدقة وصلة الرحم، لأنهم كانوا منافقين غير مخلصين، والله تعالى يقول :

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ... (البينة : ٥) .

٢٩ ، ٣٠ - أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ * وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ .

كان المنافقون فى المدينة طابورا خامساً ، وشوكة فى جنب المسلمين ، يشوّشون على المسلمين ، ويحزنون إذا انتصروا ، ويشيعون عنهم أقاويل السوء ، ويضمرون لهم العداوة والبغضاء .

وفى هاتين الآيتين يهددهم الله بأن يكشف أسرارهم ، وأن يظهر للمسلمين حقدهم وضغنهم، وخبايا نفوسهم، ومكنونات قلوبهم المريضة العليلة بالضغن والحقد .

ولو أراد الله تعالى لكشف لرسوله ﷺ عن أسمائهم وأشخاصهم وعلاماتهم ، لكن الله تعالى ستراً منه على عباده ، أعلم رسوله ﷺ بصفاتهم العامة ، لا بأسمائهم ، كما أعلمه بطريقتهم فى لحن القول ، وهو إسرار شيء متفق عليه لا يفهمه إلا صاحب لهم ، قد بيتوا الأمر معه على طريقة فى القول ، يلحنون بها لحنا معينا ، يفهم منه ما يريدون، ولا يعرف ذلك الآخرون .

قال الشوكانى فى تفسير الآية :

لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه ، وهو هنا : ما يعرّضون به من تهجين أمرك وأمر المسلمين ، وقد قيل : كان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبى ﷺ إلا عرفه .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ .

لا تخفى عليه منها خافية ، فيجازيكم بها . اهـ .

ونلحظ أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين وكشف أمورهم ، حتى سميت سورة براءة بالكاشفة والفاضحة والمبعثرة ، لأنها كشفت المنافقين وفضحتهم وبعثرتهم ، بقولها : ومنهم ... ومنهم ... ومنهم .

مثل قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .
(التوبة : ٥٨)

ومثل قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ .
(التوبة : ٤٩)

وهكذا كشف القرآن الكريم أمر المنافقين ، وأظهر كيدهم ، وألقى عليهم الأضواء الكاشفة ليحذر المسلمون منهم .

وروى ابن كثير أن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه قال : ما أسرّ أحد سريرة إلاّ أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وفى الحديث : «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر»[٣٤] .

٣١ - وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ .

تقوم الحياة على الابتلاء والاختبار ، قال تعالى :

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (الملك : ٢) .

وقال عز شأنه: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) .

فالله تعالى يعطى الإنسان الإمكانيات ، مثل المال أو الشباب أو العلم ، أو القدرة على الجهاد أو قول الحق، ثم يكلفه الله تعالى أن يؤدّى واجب الجهاد أو الزكاة أو قول الحق ، ليتبين المؤمنين من الكافرين والمنافقين .

جاء فى صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابونى ما يأتى :

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ ...

أى : ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة ، حتى نعلم - علم ظهور - المجاهدين فى سبيل الله ، والصابرين على مشاق الجهاد .

وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ . ونختبر أعمالكم ، حَسَنَها وقبيحها .

وجاء فى التسهيل لعلوم التنزيل ٤/٥٠ ما يأتى :

المراد بقوله : حَتَّىٰ نَعْلَمَ . أى نعلمه ظاهراً فى الوجود ، تقوم به الحجة عليكم ، وقد علم الله الأشياء قبل كونها ، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم .

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا ، فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا[٣٥] .

★ ★ ★

حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

شاقوا الرسول : عادوه وخالفوه ، وأصله : صاروا فى شق غير شِقّه .

فلا تهنوا : فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ، وقد وهِن الإنسان ووهَّنه غيره .

وتدعوا إلى السلم : وتدعوا الكفار إلى الصلح ، خوفًا وإظهارًا للعجز.

الأعلون : الغالبون .

والله معكم : ناصركم .

ولن يتركم أعمالكم : لن ينقصكم ثواب أعمالكم ، من وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم ، أو سلبت ماله وذهبت به ، فشبّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال .

تمهيد :

بينت الآيات حال جماعة من الكافرين آمنوا ثم ارتدُّوا من بعد ما شاهدوا أنوار الإسلام ، وقيل : نزلت الآية الثانية والثلاثون من سورة محمد ، فى جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة وبنو النضير ، كفروا بالله وصدوا الناس عن الإسلام ، وعن الإيمان بمحمد ﷺ ، بعد أن شاهدوا نعته فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء أصغر وأحقر من أن يضُرُّوا دين الله وهو الإسلام ، وسيحبط الله عملهم ويبطل كيدهم .

ثم ذكر ضعف بعض النفوس المسلمة ، وتخلفها عن الفداء والتضحية ، مثل بنى سعد الذين أسلموا وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، منًّا بذلك عليه ، فنهاهم وأمثالهم عن هذا التطاول المحبط للعمل والمضيّع للثواب ، وهكذا يربّى القرآن المسلمين ، ويهدد الكافرين الذين ماتوا وهم كفار بأن الله لن يغفر لهم .

ثم يدعو المسلمين إلى التماسك والجهاد ، وعدم الدعوة إلى السلام خوفًا وجبنًا من الكفار ، أما إذا جنح الكفار إلى السلام ورغبوا فيه ، فلا مانع منه ، وبذلك نعمل بكل الآيات ، تلبية السلام عند ميل الكافرين إليه ، والتماسك والقوة عند ضياع الحقوق ، أو الدفاع عن المقدّسات ، ولكل حالة ما يناسبها .

التفسير :

٣٢ - إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ .

قيل : نزلت هذه الآية فى يهود بنى قريظة وبنى النضير ، حيث تبيَّن لهم فى التوراة صدق محمد ﷺ ، وشاهدوا المعجزات تظهر على يديه ، فأعرضوا عن الإسلام .

وقيل : نزلت فى المنافقين ، وقيل : نزلت فى كفّار قريش ، والأولى أن يقال : إن الآية عامة فى جميع هذه الأصناف وأمثالها .

والمعنى :

إن الذين كفروا بالله ورسوله ، ومنعوا الناس من الإيمان ، وزينوا لهم الكفر ، وعادوا رسول الله ، وصاروا فى شِقٍّ وجانب غير جانبه من بعد أنْ شاهدوا صدقه ، وأدركوا أنه صادق أمين هؤلاء : لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ... فهم أحقر وأذلُّ من ذلك ، لأن الله غالب على أمره ، ولن يضرُّوا دين الله وهو الإسلام ، ولا رسول الله محمدًا ﷺ ، وسيبطل الله كيدهم ، ويمحق تدبيرهم ، ويحفظ رسوله وينصر دينه ، وقد تمّ ذلك فى غزوة بدر ، وفى غزوة بنى قريظة ، والأحزاب وغيرها ، ونصر الله الإسلام على الكافرين والمنافقين واليهود وسائر أعداء دين الإسلام .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى فى سورة الصف : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

(الصف : ٧ - ٩)

٣٣ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ .

امتنَّ بعض المسلمين بإيمانهم على الرسول ﷺ ، فبين القرآن أن هذا المنّ يبطل العمل ، فالفضل لله ورسوله ﷺ ، وبهذا كان القرآن الكريم يرتفع بالمسلمين إلى مستوى الإخلاص والنقاء والصفاء فى إيمانهم .

ومعنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا ، اصدقوا فى إيمانكم بطاعة الله ، والتزام أوامره ، وطاعة الرسول ، وتنفيذ توجيهاته .

وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ .

بالرياء ، أو المنّ والأذى ، أو المعاصى .

قال تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ... (البقرة : ٢٦٤) .

وقال سبحانه وتعالى : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ . (الحجرات : ١٧) .

أخرج ابن أبى حاتم ، ومحمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة ، عن أبى العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنّه لا يضرّ مع (لا إله إلا الله) ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت الآية : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ .

فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، أى أن الكبائر الموجبات والفواحش تستوجب غضب الله وسخطه .

وعن ابن عباس قال : لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمعة ، أو بالشك والنفاق .

وقيل : إن ناسًا من بنى أسد قد أسلموا ، وقالوا لرسول الله ﷺ : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا، كأنهم يمنّون ، فنزلت ، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض ، وكراهة قطع النفل من غير موجب لذلك ، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال ، فهو أمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها ، والإتيان بها على الوجه الذى تصلح به علمًا وعملاً .

٣٤ – إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ .

إن الذين كفروا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومنعوا الناس من الدخول فى الإسلام ، ولم يتوبوا ولم يؤمنوا ، ثم ماتوا مُصرِّين على الكفر ، هؤلاء لن يغفر الله لهم ، ولن يستر عيوبهم ، ولن يتجاوز عن سيئاتهم ، لأنهم لم يتوبوا فى الدنيا قبل الموت ، وذلك هو وقت التوبة فقط .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا . (النساء : ١١٦) .

وقال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . (آل عمران : ٩١) .

قال المفسرون :

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم ، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة ولو كانوا مُفْنين أعمارهم في الكفر به ، والصدّ عن سبيله ، والإقدام على معاصيه ، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة ولم يغلقها عن أحد ، ما دام حيًّا متمكنًا من التوبة ، وسبحان الحليم الذى لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يعافيهم ويرزقهم كأنهم ما عصوه ، مع قدرته عليهم[٣٦] .

قال أبو السعود : وحكم هذه الآية يعمّ كل من مات على الكفر ، وإن صحّ نزولها فى أصحاب القليب . ا هـ .

٣٥ - فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ .

الخطاب هنا للمؤمنين ، يرفع الله روحهم المعنوية ، ويحثهم على الجهاد ، ويأخذ بأيديهم إلى منازل العلياء .

والمعنى :

لا تضعفوا ولا تجبنوا ، ولا تخافوا من الجهاد والقتال ، ولا تمدّوا أيديكم إلى السلام فى وقت يتيه فيه الأعداء المتغطرسون عليكم .

وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ...

فأنتم فى معية الله ، وأنتم حراس دينه ، وأنتم حملة لواء الإيمان ، وأنتم الأمة الوسط ، وأنتم على الحق وعدوكم على الباطل .

وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ...

بنصره وتأييده وعنايته ورعايته وتوفيقه ، قال تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ . (محمد : ١١) .

قال ابن كثير : وفى قوله تعالى : وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ... بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء .

وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ .

ولن يضيع ثواب أعمالكم ، ولن يحبطها ، ولن يسلبكم إيَّاها ، بل يوفيكم ثواب أعمالكم كاملاً غير منقوص.

والآية تحث المؤمنين على الجهاد والقتال عند القوة والقدرة ، وفى آيات أخرى أباح لهم الموادعة والسلام والمهادنة ، إذا كان ذلك لحكمة أو مناسبة .

قال ابن كثير :

... أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك[٣٧] .

★ ★ ★

هوان الدنيا ، وختام سورة محمد ﷺ

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

فيحفكم : فيجهدكم بطلب كل المال ، ويلحف عليكم فى المسألة ، يقال : أحفى وألحف فى طلب الشىء ، أى : بالغ فى تقاضيه وأفرط .

تبخلوا ويخرج أضغانكم : إن يسألكم أموالكم بتشدّد تبخلوا بها ، ويبرز أحقادكم على رسوله ﷺ .

تمهيد :

فى ختام السورة تتجه الآيات إلى ترقيق القلوب ، وبيان هوان الدنيا ، وسرعة تحوّلها ، فمتاعها قليل ، وهى كاللعب واللهو ، أما الإيمان والتقوى وطاعة الله فثوابها مضمون ، والمطلوب من المؤمن نسبة الزكاة ، وهى نسبة عادلة ، فالله لا يطلب منّا جميع أموالنا ، مع أنه هو الذى خلقنا ورزقنا ، وإن سألنا إياها وألحف فى السؤال ، فيشتد البخل بها ، والحقد على الدّين والرسول الكريم ، لأن المال شقيق الروح ، وطالب جميع المال يستثير الأحقاد والأضغان ، إن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال هدف من أسمى الأهداف، وها أنتم تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل بماله ، ومن يبخل فضرر البخل عائد على نفسه ،

والله غنى عنكم ، لا تنفعه طاعتكم ، ولا تضره معصيتكم ، وأنتم الفقراء إلى رحمته وفضله وثوابه ، وإذا أعرضتم عن الإسلام فإن لله من المؤمنين رجالاً غيركم ، لهم عزائم الأبطال ولن يكونوا أمثالكم ، بل أطوع لله منكم ، وقد تحقق لهذا الدين أن احتضنه العرب حينًا ، ثم الفرس حينًا ، فكان الفقهاء والعلماء والمترجمون والنحاة والأدباء من بلاد الفرس وسمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، وكان للأندلس وعلماء المغرب دور نشيط فى خدمة الدين ، وكان لمصر وأفريقيا وللقارة الهندية دور فى حفظ الحديث والتشريع ، وهكذا لم يتعصب الإسلام للعرب كجنس ، بل بين أن العربية اللسان ، وأن كل من تكلم العربية فهو عربى .

التفسير :

٣٦ - إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ .

إنما الحياة الدنيا قصيرة الأجل ، مثل اللعب واللهو ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وفى الأثر : «الدنيا كسوق قام ثم انفضّ ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر» .

وَإِن تُؤْمِنُوا۟ ... بالله وتراقبوه حق المراقبة ، وتتقوه بأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ؛ يعطكم الله ثواب أعمالكم ، ولا يطلب منكم إنفاق جميع أموالكم ، فلم يفرض عليكم سوى واجب الزكاة ، وهو نسبة بسيطة تدور فى الأغلب على ربع العشر ، وهو ما يوازى ٢,٥٪ فى زكاة المال وزكاة التجارة ، ونصف العشر ٥٪ فى زكاة الزراعة ، وأحيانًا تكون الزكاة العُشر إذا كانت الأرض تسقى سَيْحا بدون تعب ولا مشقة ، وأحيانًا تكون الزكاة الخمس بنسبة ٢٠٪ ، وهى زكاة الركاز والبترول والمعادن ، وما يستخرج من باطن الأرض .

قال الإمام ابن القيم : نلاحظ أن نسبة الزكاة تتراوح بين ١٪ فى زكاة الماشية مثل زكاة الغنم ، نجد أن زكاة الغنم السائمة : فى أربعمائة شاة أربع شياه ، وفى خمسمائة شاة خمس شياه ، وفى ستمائة شاه ٦ شياه ، وهكذا فى كل مائة شاة شاة ، أى النسبة ١٪ .

وزكاة المال والتجارة ٢,٥٪ ، وزكاة الزراعة تمتد من ٥٪ إلى ١٠٪ ، وزكاة الركاز والمعادن والكنوز المستخرجة من باطن الأرض ٢٠٪ .

أى أنه كلما كانت نعم الله تعالى على العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، كزكاة الكنوز والركاز ، وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل ، مثل زكاة التجارة ؛ لأن العبد يتعرض للمخاطرة والأسفار ، وارتفاع الأسعار وانخفاضها .

فكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل .

٣٧ - إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ .

إن يسألكم الله جميع أموالكم ، ويبالغ فى السؤال والإلحاح ، لتنفقوا جميع أموالكم ، فستقابلون ذلك بالبخل والشحّ ، والحقد على الرسول الأمين ، لأنكم تكرهون إخراج أموالكم كلها ، وتحقدون على من يطلب ذلك منكم .

قال قتادة : فإن المال محبوب ، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وقال سفيان بن عيينة : أى : لا يسألكم كثيرًا من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر فَطَيِّبوا أنفسكم .

٣٨ - هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم .

ها أنتم معشر المسلمين ، يأتيكم أمر الله ودعوته لكم بالإنفاق فى سبيل الله ، بإخراج الزكاة والصدقة ، وتجهيز المقاتلين فى سبيل الله ، والإنفاق على الجهاد والقتال ، وبعض المسلمين يبخل بالزكاة ، أو بالإنفاق على المجاهدين ، ومن يبخل فإنما وزر بخله يعود عليه ، وإثم منع الزكاة ومنع نفقات الجهاد يعود على المانع .

وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ ... فهو سبحانه غنى بذاته ، لا تنفعه طاعتنا ، ولا تضرّه معصيتنا ، ولا يحتاج إلى إنفاق أموالنا عليه .

وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ... الناس بذاتهم فى أشد الفقر إلى رزق الله لهم فى الدنيا ، وإلى ثواب الله ورضوانه فى الآخرة .

قال تعالى : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ** . (فاطر : ١٥) .

وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم .

وإن تعرضوا عن أحكام الله وشرائع دينه يذهبكم الله كما أذهب المكذبين قبلكم ، ويأت بقوم أطوع لله منكم ، يحرصون على طاعته ومرضاته ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين أولئك القوم الجدد ، فقيل : هم الملائكة ، أو الأنصار ، أو التابعون ، أو أهل اليمن ، أو كندة والنخع ، أو العجم ، أو فارس والروم ، والأولى تفويض ذلك إلى علم الله ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة ، والأولى جعل الخطاب متجددًا بتجدد الأجيال والأمم ، سواء كان عند نزول الوحى أو بعد ذلك .

روى مسلم ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ . فقالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسى رضى الله عنه ، ثم قال : «هذا وقومه ، ولو كان الدّين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[٣٨] .

★ ★ ★

موجز مقاصد سورة محمد ﷺ

اشتملت سورة محمد ﷺ على ثلاثة مقاصد :

١ – وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله سبحانه : كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ . (محمد : ٣)

٢ – جزاء الفريقين فى الدنيا والآخرة ، من خذلان ونصر ، ونار وجنة ، من قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ... (محمد : ٤) . إلى قوله تعالى : وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ . (محمد : ١٩) .

٣ – الوعيد والتهديد للمنافقين والمرتدين ، من قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ... (محمد : ٢٠) ، إلى آخر السورة .

★ ★ ★

تمّ بحمد الله تفسير سورة محمد ﷺ ، ظهر يوم الأحد ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٢١ ، الموافق ٣٠/٧/٢٠٠٠م.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★



تفسير سورة الفتح

أهـــداف ســـورة الفتـــح

سورة (الفتح) مدنية ، نزلت فى الطريق بين مكة والمدينة عند الانصراف من الحديبية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة الجمعة .

ونلمح فى بداية السورة فضل الله على النبى ﷺ وصحبه ، وآثار نعمائه على المسلمين .

وقد سبقتها فى ترتيب المصحف سورة (محمد) التى وصفت ظلم المشركين والمنافقين ، وحرضت المسلمين على الجهاد ، وحذرتهم من الخنوع والبعد عن طاعة الله .

وقد نزلت سورة (محمد) فى الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة ، أما سورة (الفتح) فقد نزلت فى العام السادس من الهجرة ، وكان عود المسلمين قد اشتد ، وقوتهم قد زادت ، وظهر أثر ذلك فى بيعة الرضوان التى تمت تحت الشجرة على التضحية والفداء .

صلح الحديبية :

رأى رسول الله ﷺ فى منامه ذات ليلة أنه دخل المسجد الحرام فى أصحابه ، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون عدوا ، فاستبشر ﷺ بذلك وأخبر أصحابه فاستبشروا وفرحوا واستعدوا لزيارة البيت الحرام مغتمرين . «وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج النبى ﷺ معتمرًا لا يريد حربًا ، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت»[٣٩] . وتخلف كثير من الأعراب عن مرافقته ظنًّا بأن الحرب لابد واقعة بينه وبين قريش ، «فخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائرًا للبيت ومعظمًا له»[٤٠] .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، وأخذ معه من نسائه أم سلمة ، وسار معه ألف وخمسمائة من المسلمين معتمرين وسيوفهم مغمدة فى قربها ، فلما أصبحوا على مسيرة مرحلتين[٤١] من مكة لقى النبى بشر بن سفيان ، فأنبأه نبأ قريش قائلاً : يا رسول الله ، هذه قريش علمت بمسيرك ، فخرجوا عازمين على طول الإقامة ، وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبدا . فقال رسول الله ﷺ : «يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر الناس ، فإن أصابونى كان الذى

أرادوا ، وإن أظهرنى الله دخلوا فى الإسلام وافرين ؟ والله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد منى هذه السالفة»[٤٢] .

وكان النبى ﷺ حريصًا على أن يتجنب الحرب مع قريش ، لأنه خرج متنسكًا معظمًا للبيت لا للحرب .

وأرسلت قريش مندوبين عنها ، فأعلمهم النبى أنه لم يأت محاربًا ، وإنما جاء معتمرًا معظمًا للبيت .

وأرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليخبرهم بمقصد المسلمين ، فقال لهم : إنا لم نأت لقتل أحد ، وإنا جئنا زوارا لهذا البيت ، معظمين لحرمته ولا نريد إلا العمرة ، فأبت قريش أن يدخل النبى ﷺ وصحبه مكة ، وأذنت لعثمان أن يطوف بالبيت ، فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع، فاحتبست قريش عثمان فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال ﷺ حينما سمع ذلك : «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب» .

بيعة الرضوان

دعا النبى الناس للبيعة على القتال ، فبايعوه تحت شجرة هناك سميت : (شجرة الرضوان) على الموت وقد بارك الله هذه البيعة وأعلن رضاه عن أهلها فقال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ... (الفتح : ١٨) .

شروط الصلح

علمت قريش بخبر هذه البيعة فاشتد خوفها ، وقويت رغبتها فى الصلح ، وأرسلت سهيل بن عمر ليفاوض المسلمين بشأن الصلح ، وتوصل الطرفان إلى معاهدة مشتركة سميت بصلح الحديبية ، وأهم شروط هذا الصلح ما يأتى :

١ – وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين .

٢ – من جاء إلى محمد من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يلزمون برده .

٣ – من أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل فيه .

٤ – أن يرجع النبى ﷺ من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتى فى العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القراب .

وقد كان هذا الصلح مثار اعتراض من بعض كبار المسلمين لأنهم جاءوا للطواف بالبيت فمنعوا من ذلك ، وهم فى حال قوة واستعداد لمحاربة قريش ، كما أن شروط الصلح أثارت غضب المسلمين ، فقال عمر

ابن الخطاب : يا رسول الله ، ألست برسول الله ؟ فقال : «بلى» ، قال عمر : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى» .

ولكن أبا بكر كان أكثر الناس وثوقًا بما اختاره النبى ، وبأن الحكمة والخيرة فى اختياره .

ثم وقَّع الطرفان على الصلح ، وبعد ذلك توافدت قبيلة خزاعة فدخلت فى عهد رسول الله ، وتوافدت قبيلة بكر فدخلت فى حلف قريش ، وقد كان لهذا الصلح أكبر الأثر فى سير الدعوة الإسلامية ، فقد اعترفت قريش بالمسلمين ، كما سمحت لهم بدخول مكة فى العام القادم ، ولما دخلوا مكة شاهدهم أهلها وسمعوا لقولهم ورأوا عبادتهم فتفتحت قلوبهم للإسلام ، وقد فتحت مكة بعد عمرة القضاء بسنة واحدة ، إذ كان صلح الحديبية سنة ٦ هـ ، وعمرة القضاء سنة ٧ هـ ، وفتح مكة سنة ٨ هـ ، كما أن هذا الصلح يسر للمسلمين نشر الدعوة وشرح الفكرة ، ودعوة الناس إلى الإسلام ، ومكاتبة الرسل والملوك .

الأحداث وسورة الفتح

نزلت سورة الفتح فى أعقاب صلح الحديبية فباركت هذا الصلح ، وجعلته فتحًا مبينًا ، وبشرت النبى ﷺ بالمغفرة والنصر وإتمام النعمة ، وقد فرح النبى الكريم بهذه السورة فرحًا شديدًا (انظر الآيات ١ – ٣) . واشتملت السورة على بيان فضل الله على المسلمين حين أنزل السكينة والأمان والرضا فى قلوبهم ، كما اعترفت السورة للمؤمنين بزيادة الإيمان ورسوخه ، وبشرتهم بالمغفرة والثواب .

وتوعدت السورة المنافقين والكفار بالعذاب والنكال (انظر الآيات ٤ – ٦) ، ثم التنويه ببيعة الرضوان ، واعتبارها بيعة لله ، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحى الباقى الذى لا يموت (الآية : ١٠) .

وبمناسبة البيعة والنكث ، التفت السياق إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، ليفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال فى خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول ومن معه ، ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغى أن يكون موقفه منهم فى المستقبل ، وذلك فى أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلَّفين ، كما يوحى بأن هناك غنائم وفتوحًا قريبة يسيل لها لعاب المخلَّفين المتباطئين (انظر الآيات ١١ – ١٧) .

الله يبارك بيعة الرضوان

كان الربع الثانى من سورة الفتح تمجيدًا لهؤلاء الصفوة من الرجال ، وتسجيلاً لرضوان الله عليهم حين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، والله عز وجل حاضر هذه البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق

أيديهم فيها ، تلك المجموعة التى حظيت بتلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى : ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ . (الفتح : ١٨) .

تلك المجموعة التى سمعت رسول الله ﷺ يقول لها عند البيعة : «أنتم اليوم خير أهل الأرض»[٤٣] .

تبدأ الآيات (١٨ – ٢٩) بحديث من الله سبحانه وتعالى إلى رسول الله ﷺ عن هؤلاء الصفوة الذين بايعوا تحت الشجرة ، ثم بحديث مع هؤلاء الصفوة يبشرهم بما أعد لهم من مغانم كثيرة وفتوح ، وبما أحاطهم به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة وفيما سيتلوها ، ويندد بأعدائهم الذين كفروا تنديدًا شديدًا ، ويكشف لهم عن حكمته فى اختيار الصلح والمهادنة فى هذا العام ، ويؤكد لهم صدق الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ عن دخول المسجد الحرام ، وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون ، وأن دينه سيظهر على الدين كله فى الأرض جميعًا .

ظهور الإسلام

لقد صدقت رؤيا رسول الله ﷺ ، وتحقق وعد الله للمسلمين بدخول المسجد الحرام آمنين ، ثم كان الفتح فى العام الذى يليه ، وظهر دين الله فى مكة ، ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد ذلك ، ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة ، حيث يقول : ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ . (الفتح : ٢٨) . فلقد ظهر دين الحق لا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان ، ظهر فى إمبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من إمبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) ، وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

ولا يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها ، وبخاصة فى أوروبا وجزر البحر الأبيض ، وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب فى هذا الزمان .

أجل لا يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله من حيث هو دين ، فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ، لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة ، ومع نواميس الوجود الأصلية ، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة من ساكنى الأكواخ إلى ساكنى ناطحات السحاب ، وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى ، إلا ويقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة ، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة ، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة فى يسر واستقامة .

وصف الصحابة

فى ختام سورة الفتح نجد صورة مشرقة للنبى الكريم وصحبه الأبرار ، فهم أقوياء فى الحق ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وهم فى الباطن أقوياء فى العقيدة يملأ صدورهم اليقين ، فتراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا .

وقد ظهر نور الإيمان عليهم فى سمتهم وسحنتهم وسماتهم ، سيماهم فى وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، هذه الصورة الوضيئة ثابتة لهم فى لوحة القدر ، فقد وردت صفتهم فى التوراة التى أنزلها الله على موسى .

أما صفتهم فى الإنجيل فهى صورة زرع نام قوى ، يخرج فروعه بجواره ، وهذه الفروع تشد أزره وتساعده حتى يصبح الزرع ضخمًا مستقيمًا قويًّا سويًّا ، يبعث فى النفوس البهجة والإعجاب .

قال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ . (الفتح : ٢٩) .

مقاصد السورة إجمالا

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الفتح هو : وَعْدُ الله الرسول ﷺ بالفتح والغفران ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بالنصر ، وصدق رؤيا سيد المرسلين ، وتمثيل حال النبى والصحابة بالزرع والزراع فى البهجة والنضارة وحسن الشأن[٤٤] .

فضل السورة

روى مسلم ، عن أنس ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : لما نزلت سورة الفتح قال رسول الله ﷺ : «لقد أنزل علىَّ سورة هى أحب إلىَّ من الدنيا وما فيها»[٤٥] .

★ ★ ★

فضائل صلح الحديبية ، أو فتح مكة



﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ﴾

المفردات :

الفتح : الفتح فى أصل اللغة : إزالة الأغلاق ، والفتح فى باب الجهاد هو الظفر بالبلد عنوة أو صلحًا ، بحرب أو بغير ذلك ، لأن البلد قبل ذلك منغلق ما لم نظفر به ، فإذا ظفرنا به وأصبح فى أيدينا فقد فُتح .

والمراد بالفتح هنا فى رأى الجمهور : صلح الحديبية ، وقال جماعة : المراد فتح مكة ، وقد بشر الله تعالى به رسوله ﷺ والمؤمنين قبل حصوله .

مبينا : ظاهر الأمر ، مكشوف الحال .

تمهيد :

بعد صلح الحديبية عاد المسلمون من الحديبية إلى المدينة ، وفى الطريق أنزل الله على نبيه ﷺ هذه السورة الكريمة ، تسجل للرسول الأمين أنه بذل جهده فى الحرب والسلم ، والمعاهدة فى صلح الحديبية ، وكان من أثر هذه المعاهدة ما يأتى :

١ – اعتراف قريش بقوة المسلمين ، وأنهم أمة متكاملة ، وكانوا قبل ذلك يعتبرونهم صابئين خارجين على دين العرب .

٢ – ترك الأمر بالخيار للناس ، فتوافدت الوفود على المدينة ، حتى سُمى العام التالى لصلح الحديبية بعام الوفود .

٣ – تزايد عدد المسلمين خلال عامين من ألف وخمسمائة فرد عام الحديبية سنة ٦ هـ ، إلى عشرة آلاف فى فتح مكة سنة ٨ هـ .

٤ – اختلط المسلمون بأهل مكة فى عمرة القضاء سنة ٧ هـ وجاوروهم ، وسمعوا منهم ، وتمّ النقاش المباشر بين الكافرين والمسلمين ، وكان هذا سببًا عمليًا فى تيسير فتح مكة .

قال الإمام الزُّهرى :

لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم ؛ فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير ، كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

وقالت جماعة : المراد بالفتح هنا فتح مكة ، وقد نزلت السورة على النبى ﷺ وهو عائد من الحديبية تبشره بفتح مكة أو بفتح خيبر .

التفسير :

١ - إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا .

يسَّرنا لك صلح الحديبية ، وفيه اعتراف بالمسلمين كقوة محترمة يُتَعاهد معها ، وفى صلح الحديبية أوقفت الحرب بين المسلمين وأهل مكة ، فتحرك الناس فى جزيرة العرب آمنين ، ودخل فى الإسلام خلق كثير ، ويسَّر صلح الحديبية عمرة القضاء ، وفيها اختلط المسلمون بأهل مكة عن قرب ، وشاهدوهم وناقشوهم ، وكان ذلك سببًا من أسباب تيسير فتح مكة .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية صلح الحديبية ، وكان اعتراض البعض أن المسلمين فى صلح الحديبية قد مُنعوا من أداء العمرة ، ومُنع الهَدْى من الوصول إلى الكعبة وذُبح عند الحديبية ، وقد بيَّن الرسول ﷺ أهمية صُلح الحديبية ، حين طلب أهل مكة الصلح ورغبوا فيه ، وأحسُّوا بقوة المسلمين بسبب بيعة الرضوان التى تمت تحت الشجرة ، وبايع المسلمون فيها رسول الله ﷺ على الموت وعلى ألا يفرُّوا ، ثم عاد المسلمون وافرين سالمين إلى المدينة ، ليتيسر لهم فتح خيبر وإزالة حصون اليهود القوية ، ثم يتيسر لهم فتح مكة بعد عامين ، وهم فى جيش يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، لقد كان صلح الحديبية من أكبر وأهم نقاط الارتكاز للأمة الإسلامية الناشئة ، فما أعظم أن تطلب مكة الصلح ، على أن يعود المسلمون إلى المدينة هذا العام ، ثم يقدموا إلى مكة فى العام القادم - ومعهم السيوف فى قرابها - ليؤدوا عمرة القضاء ، وكأنَّ هذا الأمر ترتيب الله ، والإعداد للفتح الأكبر .

وبعض المفسرين يرى أن السورة نزلت عند انصراف الرسول ﷺ من الحديبية لتبشره بفتح مكة ، أو بفتح خيبر ، ولتعظِّم قدر النبى ﷺ وتبيِّن أنه يستحق نعم الله تعالى عليه فى الدنيا والآخرة .

والرأى الأوّل عليه جمهور المفسرين ، وهو أرجح عند التأمّل .

٢ ، ٣ – لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا .

كان محمد ﷺ أطوع خلق الله لله ، بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، ونصر دين الله فى السلم والحرب والمعاهدة ، فوعده الله بهذه المكافأة الجليلة المتمثلة فيما يأتى :

(أ) أن يغفر الله له ذنوبه السابقة واللاحقة ، ليرفع درجته ويعلى كعبه ، ويطهِّر ساحته ، ويغفر له هفواته قبل النبوة وبعدها .

(ب) إتمام النعمة بفتح الطريق أمام دين الإسلام ، وأمام أمة الإسلام ، لتأخذ طريقها إلى النصر والظفر ، واستيعاب أحكام الدين .

(جـ) هداية الرسول إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، والحكمة التامة فى تبليغ الدعوة ، وقيادة سفينة الإسلام بحكمة النبوة ، وهداية الله وتوفيقه .

(د) النصر العزيز الذى يقدمه له الله : وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... (الأنفال : ١٠) .

وقد كان صلح الحديبية نصرًا ، ثم تبعه فتح خيبر ، ثم تبعه فتح مكة ، وكان هناك نصر معنوى كبير فى ضآلة شأن المنافقين ، وانزواء أمرهم ، وتحطيم قوة اليهود ، وتلاشى قوة قريش والكافرين ، وبَحْث جزيرة العرب عن الإسلام ، وتوافدها على الرسول ﷺ فى المدينة ، فكان هناك فتح فى النفوس ، وهداية من الله للناس حتى دخلوا فى دين الله أفواجًا ، أى جماعات جماعات ، وكانوا قبل ذلك يدخلون أفرادًا ، وظل شأن رسول الله ﷺ فى ارتفاع ، وشأن أعدائه فى انحدار ، حتى عمَّ الإسلام بلاد العرب ، ونزل قوله تعالى : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ... (المائدة : ٣) .

وقوله سبحانه : إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا . (النصر : ١ – ٣) .

★ ★ ★

إنزال السَّكينة فى قلوب المؤمنين

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

السكينة : الطمأنينة والثبات والسكون والرضا .

إيمانا مع إيمانهم : يقينا مع يقينهم .

جنود السماوات والأرض : الأسباب السماوية والأرضية .

ظن السَّوْء : ظن الأمر الفاسد المذموم ، وهو أن الله لا ينصر نبيه .

عليهم دائرة السَّوْء : الدائرة فى الأصل : الحادثة التى تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، والجملة دعاء عليهم بالهلاك والدّمار الذى يتربصونه بالمؤمنين .

تمهيد :

يتفضل الله على رسوله ﷺ فى الآيات السابقة بما يأتى :

١ – المغفرة .

٢ – إتمام النعمة .

٣ – هداية الصراط المستقيم .

٤ – النصر العزيز .

وهنا يبين سبحانه أنه أنزل توفيقه على المؤمنين ، فازدادوا يقينًا بفضل الله عليهم ، وتفهموا أن صلح الحديبية كان نقطة ارتكاز ، سيتم بعدها الانطلاق إلى أعمال نافعة مثل :

١ – الوفود القادمة إلى المدينة فى عام الوفود .

٢ – فتح خيبر ، وعُمْرة القضاء ، وفتح مكة ، ولله ملائكة تحث على الخير ، وتثبّت المؤمنين .

ثم وعد الله المؤمنين الصادقين بدخول الجنة ، ومغفرة الذنوب ، وذلك فوز عظيم لهم ، كما وعد سبحانه بأن يعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات .

ثم ذكر سبحانه أن بيده القدرة القادرة ، وبيده جنود السماوات والأرض ، والعزة والحكمة ، فهو سبحانه أهل لأن ينصر المسلمين ، ويعبّد لهم طريق العزّة والغلبة وجمع الكلمة ووحدة الصف إن شاء الله .

التفسير :

٤ – هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

كان خروج النبى ﷺ مع المسلمين من المدينة إلى مكة لأداء مناسك العمرة ، ومعهم السيوف فى قرابها ، وقد وقفت قريش فى طريقهم ومنعتهم من دخول مكة ، واحتبست عثمان بن عفان ، وأشيع بين المسلمين أنه قد قتل ، فتغير الموقف ، لقد خرجوا لأداء العمرة والنسك والعبادة ، ثم تغير الموقف إلى المناجزة والحرب والقتال ، وفى هذه الحالة تمّت بيعة المسلمين جميعًا لرسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان ، بايعوا على الموت وعلى ألا يفرّوا ، بعد أن أشيع أن عثمان بن عفان قد قتل ، عندئذ قال ﷺ : «لا نبرح حتى نناجز القوم»[٤٦] .

فقد بدأوا بالعدوان وصد المسلمين عن البيت الحرام ، وقتل عثمان كما أشيع ، عندئذ كان المؤمنون على مستوى المعركة ، تجيش قلوبهم بالإيمان ، وطاعة الرسول ﷺ ، ومعرفة أن الحكمة فى فعله ﷺ ، وكانوا على قلب رجل واحد ، وحكى القرآن الكريم ذلك الموقف حين قال تعالى : **لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** . (الفتح : ١٨) .

لقد اطّلع الله على هذه القلوب وهى تتحرك إلى البيعة والفداء والتضحية عند بيعة الشجرة ، ثم يظهر للجميع أن عثمان لم يقتل ، ويرغب أهل مكة فى الصلح ، ويرسلون عددًا من الرسل ، ويتم الأمر بعقد صلح بين أهل مكة يمثلهم سهيل بن عمرو ، وبين المسلمين ويمثلهم رسول الله ﷺ .

وكان كبار المسلمين متحفزين مع جميع المسلمين للقتال والدفاع ، ثم عقدت معاهدة الصُّلح ، وإيقاف القتال عشر سنين ، على أن يعود المسلمون جميعًا هذا العام بدون أداء العمرة ، وأن يأتوا فى العام القادم لأداء عمرة القضاء ، وفى أعقاب المعاهدة أمر رسول الله ﷺ المسلمين بذبح الهدى ، فلم يبادروا إلى الذبح ، فكرر الأمر ثلاث مرات فلم يمتثلوا ، ودخل النبى ﷺ على أمّ سلمة وقال لها : «هلك المسلمون ،

أمرتهم بذبح الهدى فلم يفعلوا» ، فقالت أم سلمة : يا رسول الله ، التمس لهم بعض العذر ، فهم قدموا من أجل العمرة وزيارة مكة ، والطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ثم ذبح الهدى بمكة ، وقد أُحصروا ومُنعوا من دخول مكة ، ومن أداء العمرة ، فهم فى موقف صعب ، ثم قالت أم سلمة : يا رسول الله ، اخرج ولا تكلِّم أحدا ، واعمد إلى هديك فاذبحه بيدك ، فإن المسلمين سيتسابقون إلى الاقتداء بك ، وبالفعل خرج رسول الله ﷺ ولم يكلم أحدا ، وذبح الهدى علنًا جهرًا أمام المسلمين ، فتسابقوا بسرعة وقوة إلى ذبح الهدى والاقتداء بالرسول ﷺ ، وازداد يقينهم بأن الرسول الأمين مؤيد بمعونة الله ، وأن الله ناصره ، وأن طاعة الرسول واجبة .

ويكون معنى الآية ما يأتى :

إن الله تعالى الذى منّ على رسوله محمد ﷺ بالفتح والمغفرة والنصر ، هو الذى أنزل السكينة والأمان والاطمئنان واليقين والرضا فى قلوب المؤمنين عند بيعة الرضوان ، استعدادًا للحرب ، فلما تبين أن عثمان لم يقتل ، ورغب أهل مكة فى الصلح ، وتمّ صلح الحديبية بعد مناقشات متعددة ، ورضى الرسول ﷺ عن المعاهدة وقَبِلها ، ألقى الله السكينة والاطمئنان فى قلوب المؤمنين ، بأن ما عمله الرسول هو الأسلم والأحكم ، وأن فى هذا العمل أمانًا للإسلام وللمسلمين ، فازدادوا يقينًا مع يقينهم بصدق الرسول ﷺ .

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...

فقد كان قادرًا على أن ينصر المسلمين بإنزال ملائكة من السماء ، وإنّ ملكًا واحدًا قادر على البطش بقريش ومن معها ، ولكن الله أراد أن يبتلى المسلمين بالجهاد والقتال ، ليظهر إيمان المؤمنين ، ونفاق المنافقين ، وهزيمة الكافرين .

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

أى : كان الله ولا يزال واسعًا علمه ، محيطًا علمه بكل شىء ، حَكِيمًا . فى فعله ، لطيفًا فى تدبيره .

وقد أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن الإيمان يزيد وينقص ، واستدل جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدِّثين والمعتزلة على هذا بهذه الآية ، وبقوله ﷺ وقد سُئل : هل يزيد الإيمان وينقص ؟ فقال ﷺ : «نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار» (٤٧) .

وقد ذهب الشافعى ، ومالك ، والبخارى إلى أن الإيمان يزيد وينقص .

قال البخارى : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت واحدًا منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص .

وقد خالف فى ذلك أبو حنيفة ، وأورد الآلوسى فى تفسيره هذا الموضوع بتوسّع ، فليرجع إليه من شاء.

وقال المفسرون :

أراد بإنزال السكينة فى قلوب المؤمنين (أهل الحديبية) حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة ، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب ، من صَدِّ الكفار لهم عن دخول مكة، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم ، فلم يرجع منهم أحد عن الإيمان ، بعد أن هاج الناس وماجوا ، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبى ﷺ وقال : ألست نبى الله حقًا ؟ قال : «بلى» ، قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» ، قال : فَلِمَ نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ فقال ﷺ : «إنى رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصرى»[٤٨] .

٥ - لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .

كما أكرم الله تعالى رسوله ﷺ بالفتح المبين ، ومغفرة الذنب ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، فقد أكرم المؤمنين فى هذه الآية إكرامًا عظيمًا ، جزاء ثباتهم فى بيعة الرضوان ، وطاعتهم للرسول ﷺ فى الحرب والسلم ، فوعدهم بما يأتى :

(أ) أن يدخلهم جنات وبساتين ناضرة تجرى الأنهار من تحتها، ويتمتعون فيها بسائر أنواع المتعة، وما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين .

(ب) أن يكفّر عنهم سيئاتهم ويستر خطيئاتهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويرفع درجاتهم .

(جـ) أن يعطيهم الفوز العظيم برضوان الله ، وجواره وفضله .

قال تعالى : فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

٦ - وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا .

كما أكرم الله المؤمنين والمؤمنات بدخول الجنة ، وتكفير السيئات ، وبالفوز العظيم ، كذلك عاقب المنافقين والمنافقات ، الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام .

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ... الكافرين بالله ، والعابدين للأصنام .

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ...

ظنوا أن الله لن ينصر رسوله ، وأن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم بالمدينة ، بل سينزل بهم المكروه والقتل والهزيمة أمام أهل مكة .

عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ...

دعاء عليهم بأن تدور الدائرة عليهم ، وأن يحيق بهم مكرهم السيئ ، وعملهم الخبيث ، فينزل بهم السوء والمكروه الذى يتوقعونه للمسلمين .

وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ...

وسخط الله عليهم بكفرهم ونفاقهم ، وأبعدهم من رحمته وفضله ، وعرَّضهم لعقوبته .

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا .

وهيأ لهم فى الآخرة نارًا مستعرة ، يجدون فيها أنواع الآلام وصنوف العذاب ، وبئس المصير مصيرهم فى جنهم .

٧ - وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

جنود يرسلها للرحمة والمعونة والنصر للمؤمنين ، ولتثبيت قلوبهم ، كالريح والملائكة ، وجنود يرسلها بالعذاب على الكافرين ، من الملائكة والجن والحيوانات ، والصواعق المدمرة ، والزلازل والخسف والغرق ، جنود لا تُحصى ولا تُعدّ ، تُستخدم تارة للرحمة بعباد الله وأصفيائه وأوليائه ، ونفس الجنود تُستخدم لعذاب من يشاء الله .

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

غالبًا غير مغلوب ، حكيمًا لا يعمل عملاً إلا بحكمة الحكيم العليم .

جاء فى حاشية الجمل على تفسير الجلالين ما يأتى :

فى الآية الرابعة قال سبحانه : وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

وكان ذلك فى معرض الخلق والتدبير ، فذيّلها بقوله : عَلِيمًا حَكِيمًا .

وذكرها ثانيةً فى معرض الانتقام – فى الآية السابعة – فذيلها بقوله : عَزِيزًا حَكِيمًا .

وهو فى منتهى الترتيب الحسن ، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين ، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين . ا هـ .

وفى معركة بدر أنزل الله المطر فثبّت به أقدام المسلمين ، وكان المطر وبالاً على الكافرين ، وأنزل الله الملائكة تثبت قلوب المؤمنين ، وتلقى الرعب فى قلوب الكافرين .

★ ★ ★

فضل الرسول ﷺ والمؤمنين

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

شاهدا : على أمتك .

وتعزروه : وتنصروه .

وتوقروه : وتعظموه .

وتسبحوه : وتنزهوه ، وتصلّوا عليه .

بكرة وأصيلا : غدوة وعشيا ، أى : أول النهار وآخره ، والمراد : جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشىء ، يريدون بذلك جميعه ، كما يقال : شرقًا وغربًا ، لجميع الدنيا .

يبايعونك : يعاهدونك على الجهاد والانتصار لدعوتك ، وذلك فى بيعة الرضوان بالحديبية .

إنما يبايعون الله : إنما يعاهدون الله ، لأن المقصود من البيعة طاعة الله وامتثال أمره .

يد الله فوق أيديهم : قدرته وقوته فوق قدرتهم وقوتهم ، أو بركة الله ونصرته وتوفيقه فوق أيديهم .

نكث : نقض العهد والبيعة .

فإنما ينكث على نفسه : فإنما يضرّ نفسه ، ويوردها موارد الهلكة ، فلا يعود وبال نقضه وضرر نكثه إلا عليه .

عـــليـــهُ الـلــه ؛ قرأ الجمهور بكسر الهاء ، وقرأ حفص برفعها لأنها هاء (هو) مضمومة ، فاستصحب ذلك كما فى : لهُ ، وضربهُ .

تمهيد :

نحن أمام وظائف الرسول ﷺ ، وهى :

١ – تبليغ الرسالة للخلق أجمعين .

٢ – الشهادة على أمّته بالإيمان ، وعلى المكذّبين بالكفر .

٣ – هو بشير بالجنة لمن أطاع .

٤ – هو نذير بالنار لمن عصى .

وزاد فى سورة الأحزاب ما يأتى : وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب : ٤٦) .

ثم تحدثت الآيات عن فضائل المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة ، على الموت وعلى ألا يفرّوا ، وقد بارك الله هذه البيعة ، ونسبها إليه تشريفًا لها وتكريمًا ، وجعل بركته وفضله وأنعمه وتوفيقه فوق أيدى المبايعين ، ووعد بالعقوبة للنّاكثين ، وبالأجر العظيم لمن وفّى بهذه البيعة .

وقد شهدت آيات القرآن الكريم ، وصفحات التاريخ ، والسيرة المحمدية على جهاد الرسول ﷺ ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار الكافرين ، طول مدة رسالته ﷺ ، على مدار ثلاث وعشرين سنة ، حتى عمت رسالته بلاد العرب ، ثم انطلق نور الإسلام بعد ذلك فعمَّ المشارق والمغارب .

التفسير :

٨ – إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

هذه شهادة من الله العلى الكبير لرسوله محمد ﷺ ، يذكر فيها سبحانه أنه اختص نبيه ﷺ بما يأتى:

(أ) أرسله الله رسولا ، وجعله خاتم الرسل ، وقال له : إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ...

أى : نحن الذين اصطفيناك واخترناك ، وأرسلناك رسولاً .

(ب) شَٰهِدًا . على أمتك بالإجابة ، وعلى أعدائك بالتكذيب ، وعلى الرسل السابقين بأنهم بلغوا رسالات ربهم، بدليل القرآن الذى قصّ قصصهم ، وأحيا ذكراهم ، وبارك كفاحهم ، وسجل نصر الله لهم ، وإهلاك أعدائهم .

(جـ) وَمُبَشِّرًا . للمؤمنين والمؤمنات ، وكل من استجاب لرسالة الإسلام بالجنة .

(د) وَنَذِيرًا . لكل من خالفك بالنار .

٩ - لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .

أرسلنا رسولاً من أجل أن تؤمنوا أيها المؤمنون بالله ربًا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولًا .

وَتُعَزِّرُوهُ . بالاستجابة لدينه والإيمان برسوله ، وتقويته ونصره ، والانضمام تحت لوائه .

وَتُوَقِّرُوهُ . تعظموه .

وَتُسَبِّحُوهُ . تنزهوه عما لا يليق ، فالله سبحانه وتعالى متصف إجمالاً بكل كمال ، ومنزَّه عن كل نقص ، والتسبيح ذكر الله ، مثل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

بُكْرَةً وَأَصِيلاً . أول النهار وآخره ، وقيل : البكرة والأصيل جميع النهار ، ويُكنى بالتعبير عن جميع الشىء بطرفيه .

وقال ابن عباس : المراد بهما صلوات الفجر والظهر والعصر .

قال القاسمى فى تفسير الآية ما يأتى :

والضمائر كلها على ما ذكرنا للَّه ، وجوِّز إعادة الأولين للرسول ، والأخير لله، إلا أن فيه تفكيكًا . ا هـ .

وقال القرطبى فى تفسيره :

والهاء فى قوله تعالى : وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ... للنبى ﷺ ، وهنا وقف تام ، ثم تبتدئ بقوله تعالى :

وَتُسَبِّحُوهُ . أى : تسبحوا الله بكرة وأصيلا .

وقيل : الضمائر كلها لله تعالى ، فعلى هذا يكون تأويل : وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ... أى : تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . ا هـ .

١٠ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

تتحدث الآية عن بيعة الرضوان ، عندما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون لأداء العمرة ، فمنعتهم قريش ، وأرسل رسول الله ﷺ عثمانَ ليُعْلِمَ أهل مكة بقصد رسول الله ﷺ ، وأنه جاء معتمرًا معظمًا للبيت ، ولم يأت محاربًا ، فاحتبست قريش عثمان ، وأشيع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال ﷺ : «لا نبرح

حتى نناجز القوم» ، واجتمع المسلمون إلى رسول الله ﷺ ، وأحْدَقُوا به ، والتفُّوا حوله ، وبايعوه على الموت وعلى ألا يفرّوا ، وكان عدد المسلمين ألفًا وأربعمائة مقاتل أو ألفًا وخمسمائة مقاتل ، وقد بايعوا جميعًا ، ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة ، إلا الجدّ بن قيس ، فكان جابر رضى الله عنه يقول : والله لكأنى أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته ، قد صبأ إليها يستتر بها من الناس .

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل ، وأن عثمان حىٌّ يرزق ، لكن الله سجل أمر هذه البيعة ، وظلت علامة بارزة ، ووسامًا غاليًا ، يذكر لهؤلاء الصحابة تضحيتهم وبيعتهم ، ورغبتهم فى نصرة دين الله ، ونصرة رسوله ﷺ ، وطاعة الله ، والتضحية بالدنيا فى سبيل الآخرة وما فيها .

من معانى الآية

عناية الله تعالى وإكرامه ورضاه عن هؤلاء الرجال ، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، حتى جعل بيعتهم للرسول ﷺ إنما هى بيعة لله ، فيا للجلال والإكرام فى هذا المعنى .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ...

لقد بايعوا رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان ، على الموت وعلى ألاَّ يفرّوا ، وكانت هذه البيعة للرسول ﷺ ، وهى أيضًا بيعة لله ، على بيع النفس وشراء الجنة ، كما قال سبحانه وتعالى : **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ...** (التوبة : ١١١) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ...** (الأنفال : ١٧)

وقوله سبحانه : **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** . (النساء : ٨٠) .

ثم قال تعالى : **يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...**

بركة الله ، وعناية الله ، وتوفيق الله ، وفضل الله ، ورقابة الله ، وقوة الله ، وقدرة الله فوق أيديهم ، بالنصر والرضا والتأييد .

فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ...

فمن نقض عهده مع الرسول ، وخان الأمانة ، وعدل عن التضحية والفداء ، أو خان بأى نوع من أنواع الخيانة ، فإنما ضرر ذلك يعود على نفسه ، فهو الخاسر المغبون ، لأنه خسر ما أعدَّه الله لهؤلاء الرجال المبايعين ، الذين قال لهم رسول الله ﷺ يوم البيعة : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» .

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

ومن قام بحق البيعة ووفَّى بها ، وألزم نفسه طاعة الله ، وطاعة الرسول ، وألزم نفسه بهدى القرآن والسنة ، ولزوم الجماعة والأمة ، فله الثواب العظيم ، والأجر الكريم من الله تعالى ، وأَنْعِمْ به من أجر عظيم .

وفى معنى ذلك قال سبحانه وتعالى : لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح : ١٨) .

★ ★ ★

أحوال المتخلفين عن الحديبية

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

المخلفون : هم الذين تخلّفوا فى أهليهم عن صحبة رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، جمع مخلّف .

الأعراب : سكان البادية من العرب ، لا واحد له .

فمن يملك لكم : استفهام بمعنى النفى ، أى : لا أحد يملك لكم .

ضرا : ما يضرّ من هلاك الأهل والمال وضياعهما .

نفعا : ما ينفع من حفظ المال والأهل .

ينقلب : يرجع .

إلى أهليهم : إلى عشائرهم وذوى قرباهم .

بورا : هالكين لفساد عقيدتكم .

سعيرا : نارًا موقدة ملتهبة .

تمهيد :

فى هذه الآيات بيان حال المتخلفين من الأعراب عن مشاركة الرسول ﷺ فى الخروج لأداء العمرة ، التى ترتب عليها صلح الحديبية ، وقد اعتذروا بانشغالهم بالمال والأولاد ، وهو اعتذار ظاهرى أو مخادع ، وقد كشفهم القرآن وعرَّاهم ، وكشف السبب الحقيقى لتخلّفهم ، وهو ظنهم السوء بالمسلمين ، واعتقادهم بأن الرسول ﷺ ومن معه سيقتلون وتستأصل شأفتهم ، ولا يعودون إلى أهليهم أبدًا ، وقد هددهم الله بالنار المحرقة يوم القيامة ، وبيَّن لهم أن للَّه ملك السماوات والأرض ، وهو أهل للمغفرة لمن تاب إليه وأخلص نيته ، وهو أهل لأن يعذّب الخائنين المعادين لله ورسوله .

التفسير :

١١ - سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

كان حول المدينة أعراب من جهينة ومزينة ، وغفار وأشجع ، والديل وأسلم ، وقد تخلّفوا عن رسول الله ﷺ حين خرج لأداء العمرة ، وظنوا أن الرسول ﷺ لن ينتصر على قريش ، ومعها ثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة ، وهم الأحابيش .

وقالوا : كان أهل مكة يغزونه بالمدينة فى عقر داره ، فى غزوتى أحد والخندق ، فكيف يذهب إليهم بنفسه ، وما علموا أن لله ملك السماوات والأرض ، وأن بيده الخلق والأمر والنصر ، وأنه على كل شيء قدير .

وفى الآية إعجاز غيبى ، حيث أخبر الله رسوله بما سيقوله الأعراب الذين تخلّفوا عن الخروج معه .

ومعنى الآية :

سيقول لك المتخلّفون عن الجهاد من الأعراب ، معتذرين عن تخلفهم : انشغلنا برعاية أموالنا وأبنائنا ونسائنا ، فاطلب من الله المغفرة لنا على هذا التقصير عن الجهاد ، وهم لم يقولوا الحقيقة ، ولم يعترفوا بالسبب الحقيقى لتخلّفهم ، بل قالوا كلاما فيه نوع من التقيّة والمداراة ، وعدم إظهار العذر الحقيقى للتخلف.

قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ...

أى : ليس الشغل بالأهل والمال والولد عذرًا ، فكل المجاهدين لهم أموال و أولاد ، والحقيقة اليقينية هى أن الضرّ والنفع بيد الله ، وأن الغنى والفقر بيد الله ، والصحة والمرض بيد الله ، فإذا أراد الله بكم ضرًا فلا أحد يستطيع أن يدفعه ،وإذا أراد الله بكم خيرًا أو نفعًا فلا أحد يستطيع أن يمنعه ، ولو استقر الإيمان فى قلوبكم لخرجتم للجهاد مع المجاهدين ، وعلمتم أن النفع وحفظ المال والأهل من عند الله ، وأن الضرر لا يدفعه إلا الله .

بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

بل كان الله مطلعًا على قلوبكم ونياتكم ، وسيجازيكم عليها جزاء عادلاً .

قال القرطبى :

وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرّ ، ويعجّل لهم النفع .

١٢ - بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا .

بل ظننتم أيها المنافقون أن رسول الله ﷺ سيُهزم ، ويقتل أمام أهل مكة ، ولن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم وعشائرهم أبدًا ، وزين الشيطان ذلك فى قلوبكم ، وامتد ظَنُّ السوء إلى صدق رسالته ﷺ ، لأن الذى يشك فى صدق رسالته ويتوقع له الهزيمة إنسان فاسد الإيمان ، هالك مع الهالكين المستوجبين لسخط الله وعقابه .

ونلحظ هنا جملة : وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا .

أى : هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشىء من الخير ، ولا تستحقون إلا الخزى والعقاب ، ومنه : أرض بائرة ، أى : ليس فيها زرع .

قال الزمخشرى :

والبور من بار ، كالهُلْك من هلك ، بناءً ومعنى ، ولذلك وُصف به الواحد والجمع ، والمذكّر والمؤنث ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائذ وعوَّذ ..

١٣ - وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا .

ومن لم يصدق بالله ربًّا ، وإلهًا واحدًا أحدًا ، فردًا صمدًا ، بيده الخلق والأمر ، والرزق والخير ، والنفع والضرّ ، ولم يؤمن بمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً ، من أمثال هؤلاء المخلَّفين من الأعراب ؛ فلن ينفعه مال ولا ولد، وقد أعد الله له السعير والعذاب الشديد .

أى : فقد اختار الأدنى وهو المال والولد ، وعرَّض نفسه للهلاك والبوار ، وعذاب السعير .

١٤ - وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

هو سبحانه الملك الحقيقى لهذا الكون كلّه ، سمائه وأرضه ، وبحاره وأنهاره ، وليله ونهاره ، وشمسه وقمره : وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . (الإسراء : ٤٤) .

وهو سبحانه : يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ . ممن تاب وأناب ، ودخل فى محراب الإنابة والرجوع إلى الله ، وفيه حث للمنافقين والكافرين وجميع الناس على الدخول فى رحمته الواسعة ، والإنابة والرجوع إليه ، والندم على ارتكاب النفاق والشقاق .

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ . فلا يقدر أحد على دفع العذاب عنكم إن أراد الله تعذيبكم ، وفيه تحريض لهم على عدم اللجوء إلى الرسول ﷺ ، ليعاملهم على ظواهرهم ويستغفر لهم ، لأن الله تعالى هو المطلع على السرائر، وبيده وحده المغفرة لمن يشاء ، والعذاب لمن يشاء .

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

أى : كان ولا يزال واسع المغفرة ، سبقت رحمته غضبه ، وفتح أبوابه للتائبين .

قال ابن جرير الطبرى : هذا من الله جل ثناؤه حثٌّ لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، فى طاعة رسوله ﷺ ، يقول لهم : بادروا بالتوبة من تخلّفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

★ ★ ★

رغبة المخلّفين فى القتال والغنائم

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

ذرونا نتبعكم : اتركونا نخرج معكم إلى خيبر.

كلام الله : حكمه القاضى باختصاص أهل الحديبية بمغانم خيبر.

تمهيد :

هذه الآية أيضًا من الإخبار بالغيب ، حيث أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما سيقع من الأعراب الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية ، ظنًّا منهم أن الرسول ﷺ وأصحابه سيُقتلون هناك ، سيقولون : اتركونا نخرج معكم إلى فتح خيبر ، رغبة فى الغنائم ، وذلك يوضح كذبهم السابق ، حين قالوا : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، ويؤكد أنَّ النفاق والخوف هو الذى منعهم فى السابق .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالغنائم هنا غنائم خيبر ، فقد كانت عمرة الحديبية فى ذى الحجة من العام السادس للهجرة ، وكان فتح خيبر فى المحرم من السنة السابعة ، فهى أقرب غنائم بعد الحديبية .

التفسير :

١٥ – سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

سيقول المخلّفون الذين تخلفوا عن عمرة الحديبية ، إذا انطلقتم إلى فتح خيبر ، والحصول على غنائمها : اتركونا نخرج معكم ، بغية الحصول معكم على الغنائم ، يريدون أن يبدِّلوا وعد الله القاضى بأن يعجِّل لأهل الحديبية غنائم كثيرة يأخذونها وحدهم ، وكان رسول الله ﷺ قد جعل مغانم خيبر لأهل الحديبية ، لأن الله وعدهم بفتح قريب ، وبمغانم كثيرة يأخذونها ، وسيأتى تأكيد ذلك فى قوله سبحانه : **لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا** ... (الفتح : ١٨ ، ١٩) .

قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ...

قل يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الحديبية : لن تتبعونا عند الذهاب إلى خيبر ، فبمثل ذلك الحكم أمر الله وقضى وحكم ، بأنّ غنائم خيبر لمن خرج إلى الحديبية ، حيث بايع على الموت ، ثم رضى بالصلح والعودة إلى المدينة ، راضيًا بحكم الله ورسوله .

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ...

سيقول المخلّفون عند سماع ذلك : ليس هذا حكم الله ، بل هو الحسد الذى منعكم من قبولنا فى الخروج معكم إلى فتح خيبر .

بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً .

أى : إنكم شغلتكم الدنيا وأموالها ، فلا فقه لكم فى المعانى السامية التى يحملها المؤمنون المجاهدون الذين بايعوا تحت الشجرة ، ورضى الله عنهم ، وسجّل ذلك فى كتابه ، فأنتم لا تفهمون إلا فهما قليلاً فى شئون الدنيا ، أمّا أمور الدين ، ومعالم الخير والرضوان من الله ، فأهلها وفاهموها هم المؤمنون ، فالقرآن ينزّه رسوله ﷺ وأصحابه هنا عن الحسد ، وهو تمنّى زوال نعمة الغير ، ويصاحبه الحقد والضغينة والسوء والشرّ ، وكلها معانٍ حفظ الله رسوله والمؤمنين منها ، والمنافقون لا يفهمون من هذه المعانى إلا القليل .

أو المعنى : قليل منهم هم الذين يفقهون ويدركون ، وقد ثبت أن بعض هؤلاء الأعراب أسلم وحسُن إسلامه ، وشارك فى فتح مكة ، ثم فى غزوتى حنين والطائف .

★ ★ ★

خطاب آخر للمخلّفين

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

أولى بأس شديد : أصحاب شدة وقوة فى الحرب .

فإن تطيعوا : تستجيبوا وتنفروا للجهاد .

حرج : إثم فى التخلف عن الجهاد ، وقتال الكفار .

تمهيد :

فى هذه الآية يفتح الله أبوابه للمتخلفين عن الجهاد ، ويذكرهم بأن فرصة سانحة ستأتى لقتال قوم أشداء أقوياء فى الحرب ، فمن أطاع ولبى وقاتل فله الثواب والأجر الحسن ، ومن أعرض فله العذاب الأليم ، وبمناسبة الدعوة إلى الجهاد بيَّن سبحانه أصحاب الأعذار الذين يباح لهم التخلف عن الجهاد .

التفسير :

١٦ - قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المخلفين من الأعراب : ستأتى فرصة قادمة لدخولكم تحت راية الجهاد، حيث تدعون إلى قتال قوم أقوياء ، أصحاب خبرة وتفوق فى الحرب ، ولهم به مراس شديد ، حيث يكون الغرض من القتال دخولهم فى الإسلام أو قتالهم ، فإن تطيعوا الله ورسوله فى تلبية داعى الجهاد والإخلاص له ؛ يؤتكم الله أجرًا حسنًا ، فما أعظم ثواب الجهاد ، وهو الأجر والغنيمة فى الدنيا ، أو الثواب إن لم يغنم ، ثم الجنة فى الآخرة ، كما ورد فى الحديث الصحيح .

وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وإن تعرضوا عن المشاركة مع المسلمين ، كما سبق أن أعرضتم عنهم فى عمرة الحديبية ؛ تتعرضون للعذاب الأليم ، أى الهوان والذلّ فى الدنيا ، والسعير والعذاب فى الآخرة .

من هم القوم أصحاب البأس الشديد ؟

تعددت أقوال المفسرين فى هؤلاء القوم ، وذكر ابن كثير عدة أقوال :

أحدها : هوازن . ثانيها : ثقيف . ثالثها : بنو حنيفة . رابعها : فارس . خامسها : فارس والروم .

ورجّح د . أحمد الكومى ، ود . محمد سيد طنطاوى ، أن يكون المقصود بالقوم أولى البأس الشديد هوازن وثقيف ، فالجيش المسلم الذى ذهب لفتح مكة كان يضمّ بين جوانحه العدد الكثير من قبائل أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة ، وقد ذهبوا لفتح مكة ، وبعد خمسة عشر يومًا ذهبوا لقتال هوازن وثقيف ، وكانوا رماة مهرة ، ولهم دراية بفنون القتال ، وقد شارك الأعراب فى قتالهم ، وكثير من هؤلاء المخلفين أسلم إسلامًا خالصًا ، وحسنت توبته .

١٧ - ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

هؤلاء أصحاب الأعذار الذين يباح لهم التخلّف عن الجهاد ، وهم الأعمى فاقد البصر ، والأعرج صاحب العرج البين المستمر ، والمريض .

والمرض نوعان : مرض دائم فيلحق بالأعمى والأعرج ، ومرض طارئ : يطرأ أيامًا ثم يزول ، فهو فى حال مرضه ملحق بذوى الأعذار اللازمة ، حتى يبرأ ، فإذا برئ من المرض وأصبح سليمًا معافى ، وجب أن يشترك فى الجهاد .

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

من أطاع الله ورسوله فى كل ما ذكر ، ولبى داعى الجهاد ، وآثر الآخرة على الفانية ، فله الجنة التى تجرى الأنهار من تحتها ، وفيها النعيم الأبدى الدائم ، ومن أعرض عن طاعة الله ، وترك الجهاد وخالف أمر الله ، يعذِّبه عذابًا بالغًا ، بالذلة والصغار فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .

★ ★ ★

رضوان الله عن أهل بيعة الشجرة

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

المفردات :

رضـــــى : الرضا من الله تعالى محبة وعطف وحنان ورعاية ، وتوفيق وهداية وتقدير ، وعدم سخط على أهل الحديبية لمبايعتهم رسول الله ﷺ .

يـبـايـعـونك : يعاهدونك على السمع والطاعة .

الشـــجـــرة : شجرة سمُرة (شجرة طلح ، وهى المعروفة الآن بالسنط) ، بايع المسلمون تحت ظلها رسول الله ﷺ .

ما فى قلوبهم : من الصدق والإخلاص فى المبايعة .

السكينة : طمأنينة القلب ، وسكون النَّفس .

وأثابهم : جازاهم .

فتحا قريبا : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية .

ومغانم كثيرة : هى مغانم خيبر، وكانت خيبر أرضًا ذات عقار وأموال ، قسَّمها رسول الله ﷺ بين المقاتلين، فأعطى للفارس سهمين ، والراجل سهمًا .

تمهيد :

يخبر الله تعالى برضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا قد بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى ألا يفرُّوا ، وذلك عندما أرسل النبى ﷺ عثمان إلى قريش ، كمبعوث لرسول الله ﷺ ، يخبرها أنه جاء معتمرًا معظمًا للبيت الحرام ، لكنَّ قريشًا احتبست عثمان ، وأشيع أنه قد قتل ، فتمّت هذه البيعة، ثم علمت قريش بخبر هذه البيعة ، فأفْرجت عن عثمان ، ورغبت فى الصلح مع رسول الله ﷺ .

التفسير :

١٨ - **لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** .

إن الرضا والبركة ، والرحمة والفضل ، والسكينة والأمان والمغفرة ، قد نزلت من الله تعالى على هؤلاء الصحابة الأجلاء ، وكانوا ألفًا وأربعمائة رجل ، قد بايعوا رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان ، فسجل الله رضاه عنهم ، وقال ﷺ لهم : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» .

وقد حضر جبريل الأمين هذه البيعة ، روى ابن أبى حاتم ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فسرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمُرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : **لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ** ...

قال : فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضى الله عنه ، بإحدى يديه على الأخرى[٤١] .

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ...

من التضحية والفداء ، والصِّدق والوفاء ، والسمع والطاعة .

فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ...

فأنزل عليهم الطمأنينة والهدوء ، والامتثال لأمر الله ورسوله .

وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا .

عوضهم الله وكافأهم بفتح قريب ، تمّ بعد شهرين من الحديبية ، وهو فتح خيبر ، وفتح مكة ، وفتح حنين والطائف ، بل وسائر ما فتحه الله عليهم من البلاد ، وما وقع لهم من العزّ والرفعة ، والنصر والمنعة فى الدنيا والآخرة .

١٩ - وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

جعل الله لهم المغانم الكثيرة ، التى يسُّرها لهم من أهل خيبر وغيرها من البلاد ، مع العز والمنعة والرفعة فى الدنيا والآخرة .

وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

هو سبحانه العزيز الغالب ، الحكيم فى تصرفاته وأفعاله ، حيث يسَّر لهم مهادنة أهل مكة ، والصلح معهم ، ثم يسَّر لهم فتح خيبر ، وقد غنموا منها غنائم كثيرة ، ثم فتح مكة ، ثم فتح حنين والطائف .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

★ ★ ★

الحكمة فى صلح الحديبية

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

المغانم الكثيرة : ما وُعِد به المؤمنون إلى يوم القيامة .

فعجل لكم هذه : مغانم خيبر .

وكف أيدى الناس عنكم : أيدى قريش بالصلح ، وأيدى أهل خيبر وحلفائها من بنى أسد وغطفان ، وأيدى اليهود عن المدينة ، إذْ همّوا بعيالكم بعد خروج الرسول ﷺ منها إلى الحديبية ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب .

آية : علامة وأمارة .

للمؤمنين : أمارة للمؤمنين فى نصرهم ، يعرفون بها صدق الرسول ﷺ فى وعدهم بفتح خيبر وبالمغانم وغير ذلك ، ومعرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستمنعهم أيضًا ما داموا على الجادة .

الصراط المستقيم : الثقة بفضل الله ، والتوكل عليه ، فيما تأتون وتذرون .

وأخرى : ومغانم أخرى ، هى مغانم فارس والروم .

أحاط الله بها : أعدّها لكم وهى تحت قبضته يُظْهر عليها من أراد .

لولّوا الأدبار : لانهزموا وأعطوكم ظهورهم هربًا منكم .

الولى : الحارس الحامى .

النصير : المعين والمساعد .

سنة الله : حكم الله وقانونه القديم فى نصرة أنبيائه ، قال تعالى : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ... ﴾ (المجادلة : ٢١) .

كف أيديهم عنكم : أيدى كفار مكة .

وأيديكم عنهم ببطن مكة : يعنى بالحديبية .

أظفركم عليهم : أظهركم عليهم ، وجعلكم متغلبين عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم ، حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

تمهيد :

هذه الآيات تتحدث عن نعمة الله تعالى على أهل الحديبية ، فقد تم الصلح بعد مناوشات متعددة ، تمسَّك المسلمون فيها بالصبر ، ومَنَحهم الله النصر ، وهنا يخبرهم القرآن أن أمامهم مغانم كثيرة فى فتوحاتهم ، فعجل لهم غنائم خيبر ، ولتكون دليلاً على صدق وعده سبحانه ، وهناك غنائم فى فارس والروم قد أحاط الله بها ، وجعلها جاهزة لمن يتقدم لطلبها ، أو مغانم بعد فتح مكة من هوازن وغيرها ، ولو حدث قتال يوم الحديبية لنصركم الله عليهم ، تلك سنّة الله فى نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، إن للّه حكمة فى أن كفّ ومنع أيديكم عن أهل مكة ، ومنع أيديهم عنكم ، بعد أن أظفركم الله عليهم بالبيعة وبمطاردتهم إلى حيطان مكة ، والله مطلع على أعمالكم ، بصير بنياتكم ، وسيحسن مثوبتكم .

التفسير :

٢٠ - ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

وعد الله المؤمنين إذا استمروا على الجهاد فى سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ، أن يغنموا مغانم كثيرة إلى يوم القيامة ، ومنها ما غنموه فى حياة الرسول ﷺ ، وما غنموه فى حياة خلفائه ، وفى تاريخهم فى ماضى حياتهم ، وفى مستقبل حياتهم إن شاء الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ . (غافر : ٥١) .

﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ... ﴾

عجل لكم فتح خيبر ، مكافأة عاجلة لما أظهرتم يوم الحديبية من البيعة ، ومن طاعة الرسول فى الحرب والسلم .

وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ...

كف أيدى أهل مكة عن قتالكم ، ورغبوا فى مصالحتكم ، فرجعتم وافرين سالمين ، وكفَّ أيدى اليهود بالمدينة عن نسائكم وصبيانكم ، بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وكف أيدى أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتالكم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فنكصوا على أعقابهم ، وولوا هاربين فزعًا وخوفًا ، كل ذلك لتشكروه ، وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ... يعرفون منها صدق رسولهم ﷺ فى جميع ما يعدهم به ، وأن الله حافظهم وناصرهم على جميع الأعداء مع قلة العدد .

وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا .

ويلهمكم الصواب والتوفيق فى سلوك الطريق الأمثل ، الواضح القويم ، الذى يوصلكم إلي ما تبتغون فى عزّة وأمان .

٢١ - وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

وغنائم أخرى وعدكم الله إياها ، غير غنائم خيبر ، مثل فتح مكة وحنين والطائف ، وقد غنم المسلمون منها مغانم كثيرة ، وقيل : المقصود غنائم فارس والروم ، لم تقدروا عليها الآن ، لكن الله العلىّ القدير قد أحاط بها ، ودبّر حفظها وتيسير أمرها للمسلمين ، حين يتقدمون لفتح هذه البلاد فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، الذى ارتعدت منه الأكاسرة والقياصرة ، كما قال الشاعر :

يا من رأى عمرا تكسوه بردته　　　والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقا　　　من بطشه وملوك الروم تخشاه

وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

حيث دبر سبحانه اقتتال الروم مع الفرس ، وهزيمة الروم أولاً ، ثم انتصارهم ثانيًا ، ثمّ تهيئة الفريقين للانهزام أمام المسلمين ، بتدبير الله الذى ينصر من يشاء ، وهو على كل شيء قدير ، إذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب ، ثم قال له كن فيكون ، فهو سبحانه كان ولا يزال قادرًا مقتدرًا ، لا يعجزه شيء .

٢٢ - وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

أراد الله أن يحفظ مكة من الحرب يوم الحديبية لعدة أسباب ، وهنا يقول : لو اشتبك كفار مكة معكم فى قتال يوم الحديبية ، لانهزموا مولين أدبارهم للمسلمين ، كناية عن الفرار والهرب خوفًا من المسلمين ،

ثم لا يجد الكفار وليًا يساعدهم ويأخذ بأيديهم ، ولا نصيرًا ينصرهم بقوة سلاحه وقوة جيشه ، لأنهم يحاربون دين الله ، والله غالب على أمره ، على حد قول القائل :

جاءت جهينة كى تحارب ربّها وليُغلَبنّ مغالب الغلاب

٢٣ – سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً .

تلك سنّة الله ، أى منهجه المطرد ، وقوانينه العادلة ، أن يؤيد الحق وينصر الرسل ، ويبارك المؤمنين إذا أخذوا بالأسباب ، ثم اعتمدوا على الله رب العالمين ، ومن سنة الله هزيمة الكافرين أمام المؤمنين ، وهزيمة أهل الباطل أمام أهل الحق ، وهى سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً .

أى : ولن تجد أيها العاقل لقانون الله الكونى تغييرًا ، لأن الذى وضعه هو خالق هذا الكون ، ورافع السماء وباسط الأرض ، ومسخر السحاب ، ومظلم الليل ومُضىء النهار ، ومن قوانينه العادلة نصرة المجاهدين ، ورفع راية أهل الحق ، وهزيمة المبطلين ، فدولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة، والآية تبشّر المؤمنين ، وتأخذ بأيديهم إلى الثبات والكفاح والنصر ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ . (الصافات : ١٧١ – ١٧٣) .

٢٤ – وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

تشير روايات فى صحيح مسلم وغيره إلى أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على المسلمين من قِبَل جبل التنعيم ، يريدون غرة فى المسلمين ، فأُخذوا وعفا عنهم النبى ﷺ ، وعادوا إلي مكة ، وكان ذلك سبب نزول هذه الآية .

والآية مع ذلك تفسَّر بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالله تعالى بحكمته وقدرته ومشيئته ، أراد أن يمرّ يوم الحديبية دون قتال ، فمنع أيدى المسلمين عن قتال أهل مكة ، ومنع أهل مكة عن قتال المسلمين، من بعد أن غنم المسلمون ثمانين محاربًا فأطلقوهم ، وطارد نخبة من جيش المسلمين فئة من أهل مكة كانوا خمسمائة مقاتل ، بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، فهُزم المشركون وطاردهم المسلمون إلى جدران مكة، وكان معروفًا يومئذ أن الغلبة والقوة والبيعة مع المسلمين .

وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

كان مطلعًا ومشاهدًا لاجتهادكم فى مطاردة أعدائكم إلى جدران مكة ، ويقظتكم واستيلائكم على ثمانين محاربًا دعا عليهم النبى ﷺ فكفَّ الله بصرهم ، واستولى عليهم المسلمون ، ثم أطلق النبى سراحهم، وكل هذا يسَّر لمعاهدة الحديبية ، ثم يسَّر بعد ذلك لفتح مكة .

★ ★ ★

أيضا من حكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

وصـدوكـم : ومنعوكم من الوصول إليه .

والـهـدى : وصدُّوا الهدى ، وهو ما يقدّم قربانًا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة .

مـعـكـوفـا : محبوسًا عن الوصول إلى الحرم .

مـحـلـه : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى .

تـطـؤوهـم : تدوسوهم بأقدامكم ، والمراد أن تبيدوهم وتهلكوهم .

مـعـرة : المكروه والمشقة .

الـتـزيـل : التفرق والتميز .

الـحـمـيـة : الكبر والأنفة ، وحميّة الجاهلية هى حميّة فى غير موضعها ، لا يؤيدها دليل ولا برهان .

سـكـيـنـتـه : السكينة : الوقار والحلم .

ألـــزمـــهـــم : اختار لهم ، وطلب منهم .

كلمة التقوى : هى : لا إله إلا الله .

أحـق بـهـا : أولى بها من غيرهم ، ومتصفين بمزيد استحقاق لها .

وأهـلـهـا : وأصحابها المستأهلين لها .

تمهيد :

فى هذه الآيات تعبير مصور يُزْرِى بالكافرين ، ويسجّل أوسمة للمؤمنين ، فكفار مكة هم الذين كفروا برسالة محمد ﷺ ، ومنعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام معتمرين متنسكين ، ومنعوا الهدى من الإبل والبقر والغنم وقد عُلِّقت فى صدورها قلائد من زيادات أوراق شجر الحرم ، ليعلم الناس جميعًا أنها قد أهديت إلى البيت الحرام ، لتذبح ويوزع لحمها على الفقراء ، وهذا منسك دينى موقَّر محترم فى سائر الأديان، لأنه يعتمد على نحر الهدى بعد أداء منسك العمرة أو الحج تقربًا إلى الله ، وإطعامًا للفقراء .

والقرآن هنا يسجل على الكافرين هذا المشهد ، الذى ينمّ عن الغلظة والتعدى ، والتصدّى بالمنع لحجاج بيت الله ، وللهدى المتقرب به إلى الله ، ليطعم الفقراء من لحمه بعد ذبحه ، وكانت لله حكمة فى تأخير النِّزال بين المسلمين والكافرين ، وهى وجود ثلاثة رجال وسبع نسوة من المسلمين بمكة ، وفى رواية أبى حاتم ثلاثة رجال وتسع نِسْوة من المسلمين المختلطين بكفار مكة ، وكان القتال بين المسلمين والمشركين سيؤدّى إلى قتلهم ، بدون أن يعرفهم المسلمون ، فيندموا ويتأذّوا ، لذلك منع الله الحرب ، ولو تميّز المسلمون واعتزلوا وحدهم ، لعذّب الله الكافرين فى الحرب ، وهزمهم فى الدنيا ، ثم عاقبهم فى الآخرة.

وتعرض الآية السادسة والعشرون موقفًا ظهر الكافرون فيه فى غاية الحمق والجلافة والعدوان بدون وجه حق ، وكان المسلمون فى غاية السكينة والإيمان والتقوى وهم أهل لذلك ، وتفيد كتب السيرة والتاريخ أن قريشًا لما أرادت الصلح أرسلت سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العُزّى ، ومكرز بن حفص ، ليسألوا النبى ﷺ أن يرجع فى عامه ، على أن تُخلى قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، فأجابهم ، وبدأ على بن أبى طالب يكتب معاهدة الصلح ، فقال رسول الله ﷺ: «اكتب : بسم الله الرحمان الرحيم» ، فقال سهيل بن عمرو: اكتب ما نَعْرف ، وهو: باسمك اللهمّ ، فوافق رسول الله ﷺ ، ثم قال النبى ﷺ : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله ﷺ سهيلَ بن عمرو» ، فقال سهيل : لو أقررت أنك رسول الله ما حاربتك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو[٥٠] .

وقد تمتع الرسول ﷺ بالحلم والتقوى ، وتمتّع المسلمون بالطاعة والسكينة ، كما ظهر من تعبير القرآن الكريم .

التفسير:

٢٥ - هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ...

هم أهل مكة الذين كفروا بالله وبرسوله، ومنعوكم من دخول المسجد الحرام معتمرين مسالمين، ومَنَعُوا الهدى من الإبل والبقر والغنم أن يتقدم إلى منى ليُذْبح، فلمّا أُحْصر المسلمون عند الحديبية ذبحوا الهدى فى الحديبية، وكان المسلمون قد ساقوا بين أيديهم سبعين بدنة، وذبحوا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة - كما ورد فى صحيح مسلم - وتحلل النبى ﷺ من إحرامه وذبح بدنة.

روى البخارى، عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه.

وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ...

كان هناك فى مكة ثلاثة رجال وتسع نسوة يُخْفون إيمانهم خوفًا من أهل مكة، ولو حدث قتال لوطِئهم المسلمون، أى قتلوهم خطأ بدون عمد.

ومعنى الآية:

لولا وجود هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم - وهم بين أهل مكة - لسلطناكم عليهم فقتلتموهم، ولو قاتلتم أهل مكة وانتصرتم عليهم، لقتل قوم من ضعفاء المؤمنين والمؤمنات، أنتم لا تعرفونهم حين تقتلونهم، ثم تتألمون وتحزنون بعد قتلهم، وتصيبكم معرّة وألم، وربما تجرأ الكفار وقالوا لكم: قتلتم إخوانكم المسلمين بأيديكم، لهذه الاعتبارات يسر الله أمر الصلح مع أهل مكة.

لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ...

ليحفظ هؤلاء الضعفاء من المؤمنين بفضله ورحمته، أو ليدخل فى دين الإسلام من أراد الله هدايته قبل فتح مكة.

لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

لو تميَّز الكفار من المؤمنين المقيمين بين أظهرهم، لنصرناكم على الكافرين من أهل مكة، وقهرناهم بالسبى والقتل، وغير ذلك من ضروب التنكيل الشديد، والإيلام العظيم.

٢٦ – إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .

تضع هذه الآية الحقيقة الكاملة لموقف الكافرين والمؤمنين يوم الحديبية ، فالكفار فى قلوبهم الأنفة والعزة بالإثم ، المنسُوبة إلى الجاهلية ، لذلك صدُّوا المسلمين عن المسجد الحرام ، وصدّوا الهدى ومنعوه أن يصل إلى محل ذبحه فى منى ، وأخذتهم العزّة بالإثم ، فأبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمان الرحيم، وكتبوا : باسمك اللهم ، كما أبوا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، وكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فنسب الله إليهم الحمية ، وهى مذمومة ، وتزداد ذمًّا إذا نسبت إلى الجاهلية ، أى التهوُّر والغلظ بدون وجه حق .

وفى المقابل أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، فجعلها محفوظة عنده حتى أنزلها عليهم، والسكينة كلمة طيبة ، ثم نسبها الله إليه ، فجعلها سكينته ، أى الهدوء والإيمان والوقار والرضا ، وعدم العناية بالشكليات .

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ...

أى : مكّنهم الله من كلمة التوحيد ، والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أهلا لها وأولى بها ، وهى لا إله إلا الله .

وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا .

هو المطلع على أحوال كل من المؤمنين والكافرين ، فيجازى كل فريق بما يستحق .

وتفيد الآيتان ما يأتى :

(أ) أن حرمة المسلم عند الله عظيمة (ولقتل نفس مؤمنة أعظم عند الله من زوال الدنيا) فقد أخّر الله فتح مكة من أجل ثلاثة رجال ، وسبع أو تسع نسوة .

(ب) دلّ قوله تعالى : **بِغَيْرِ عِلْمٍ** . على عدالة الصحابة وعصمتهم من التعدّى ، حتى لو أنّهم أصابوا أحدًا من المسلمين لكان ذلك من غير قصد ، وهذا مشابه لقول النملة تصفُ جند سليمان : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** . (النمل : ١٨) .

(جـ) لم يكن منع أهل مكة للمسلمين من أداء العمرة لسبب معقول ، وإنما كان تعصبًا لآلهتهم وأصنامهم ، وكراهية لدين لم يفحصوه ، ولم يحاولوا أن يتفهموه ، أما المؤمنون فقد ألزمهم الله السكينة والتقوى ، وبُعْد النظر ، وعوضهم بفتح خيبر ثم بفتح مكة .

★ ★ ★

تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

الرؤيا : هى رؤيا منامية رآها ﷺ فى منامه أنه دخل المسجد الحرام معتمرًا ، وصَدَق الله رسوله الرؤيا ، أى : صدَقه فى رؤياه ولم يكْذِبه .

لتدخلن : جواب لقسم محذوف ، أى : والله لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام فى عامكم المقبل .

آمنين : حال كونكم آمنين من كل فزع .

محلقين : حال كون بعضكم يحلق شعر رأسه كلّه .

ومقصرين : وبعضكم يكتفى بقصّ جزء منه .

ليظهره على الدين كله : ليعليه على سائر الأديان ، حقها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشىء باديًا ظاهرًا للرائى ، ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

تمهيد :

كان ﷺ قد رأى فى المدينة رؤيا ، مؤدّاها : أنه دخل مع أصحابه المسجد الحرام معتمرًا متنسكًا ، فأخبر أصحابه بذلك ، فخرجوا فى ألف وأربعمائة رجل يريدون العمرة ، فمنعهم كفار مكة ، فتحللوا عند الحديبية ، وذبحوا الهدى فى الحديبية ، وعادوا من دون أن يعتمروا .

قال قتادة : لما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة بالحديبية ، ارتاب المنافقون أو بعض ضعاف الإيمان ، حتى قالوا : أين رؤياك يا رسول الله ؟ أي : نحن لم ندخل مكة ، ولم نؤد العمرة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ...

فأكّد صدق رسوله ، وبيّن الله أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين ، أي : مؤدين للنسك حال كونهم آمنين يؤدون العمرة ، ويتحللون من الإحرام حال كون بعضهم حالقين رؤوسهم كاملة ، وحال كون بعضهم مقصّرين فقط .

ولله سبحانه حكمة فى أن يؤجّل فتح مكة ، حتى تفتح خيبر أو حتى يتم صلح الحديبية ، وقد كان أعظم فتح فى الإسلام ، حيث أمن الناس ، وزاد عدد المسلمين ، وتمّ التمهيد لفتح مكة ولفتح حنين والطائف، ثم ذكر الله تعالى أنه هو الذى أرسل رسوله بدين الإسلام ، ليكون الدين العالمى المشتمل على سعادة الدنيا والآخرة .

التفسير :

٢٧ – لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا .

هذه الآية تأكيد لصدق الرسول ﷺ فى رؤياه ، وبيان لحكمة العلى القدير فى تأخير فتح مكة ، وفى إنجاز صلح الحديبية .

فائـدة

جزيرة العرب عبارة عن صحراء واسعة ، تعتمد هذه الصحراء على المدن القريبة منها فى بيع منتجاتها ، من الألبان واللحوم والزراعة والخضر والفاكهة ، ويشترى الأعراب من هذه المدن ما يلزمهم من الكساء والفراش وغير ذلك ، وقد كانت فتوحات الرسول ﷺ وغزواته أفعالاً منظّمة مرتبة لحكم عالية ، وضعت فى حسبانها أن تتم السيطرة على المدينة وما حولها ، وأن يتم قطع الطريق على تجارة مكة ، حتى تضطر إلى التسليم بالإسلام ، أو مهادنته رهبة أو رغبة ، والمتأمل فى تاريخ السرايا والغزوات يرى أنها حققت ذلك .

وفى أول حياة المسلمين بالمدينة أرسل النبى ﷺ سرايا استطلاعية لتعرّف أحوال مكة وأخبار تجارتها ، خصوصًا المتحركة إلى الشام ، حيث تمرّ بطريق المدينة ، فمكة فى جنوب الجزيرة ، والشام فى شمالها ، والمدينة فى الوسط ، وكانت بدر الصغرى وبدر الكبرى دروسًا موجهة إلى أهل مكة ، وتمت غزوة

أحد وغزوة الخندق ، وفى أعقاب غزوة الخندق قال ﷺ : «سنغزو مكة ولا تغزونا بعد ذلك» ، ثم تمّ صلح الحديبية ، وبحكمة الرسول ﷺ تمّ فتح خيبر بعد شهرين من صلح الحديبية ، ومن يسيطر على خيبر يمكنه التحكم فى الأعراب المحيطة بها ، وكان من حكمة الرسول ﷺ أن يحرم مكة من حلفائها ، أو ممن ينسُقون معها فى حرب المسلمين ، وأخذ ﷺ يعقد معاهدات ومصالحات ، ويستقبل وفودًا من العرب ، حتى سمى العام السابع الهجرى بعام الوفود ، من كثرة الوفود التى قدمت من حول مكة ، آمنة على نفسها إلى رسول الله ﷺ، وفى عمرة القضاء شاهد الصبيان والنساء بمكة المسلمين فى نسكهم وعبادتهم ، وناقشوهم فى مبادئ الإسلام ، وتهيأت مكة لاستقبال الإسلام رغبة أو رهبة ، لقد حَرَم الرسول ﷺ مكة من عدد من الحلفاء ، وعقد معاهدات ومصالحات مع عدد من العرب فى أنحاء الجزيرة ، ورأى أهل مكة أن الإسلام هو دين الغدّ ، وأن مكة ستسقط فى يد المسلمين عاجلاً أو آجلاً ، وقد كان صلح الحديبية أعظم فتح فى تاريخ المسلمين ، فقد تضاعف به عدد المسلمين ، ويسّر الطريق لفتح خيبر ، ثم لعمرة القضاء ، ثم لفتح مكة بقليل من الجهد ، مع الحفاظ على حرمة البيت الحرام وحرمة مكة ، قال ﷺ : «إنما أباحها الله لى ساعة من نهار».

ومن ذلك نعلم أن الغزوات لم تكن ردود أفعال كما يتوهّم بعض كُتّاب السيرة ، وإنما كانت خطة محكمة ، اعتمدت على تدريب الرجال ، وإرسال السرايا ، وإعداد المخابرات والعيون ، وتوقيع المعاهدات ، والاستيلاء على الأماكن المؤثّرة ، والالتفاف حول مكة ، والتأثير على تجارتها ، وإفهامها أن مصلحتها فى مهادنة الإسلام ، ثم التمهيد لفتح مكة بأقلّ التضحيات ، ثم فتح الطائف ، ثمّ توجيه المسلمين إلى تبوك ، وتهيئة الصحابة ليقودوا معارك فى بلاد الفرس وبلاد الروم فى مستقبل أمرهم ، حتى أنه لم تمض على وفاة الرسول ﷺ عشر سنوات حتى ورث المسلمون ممالك الفرس والروم.

مع يقيننا بأن قدرة الله القادرة وتوفيقه العظيم ، وهدايته لرسوله ، وبشارته بالنصر ، ومعونة الله له بالملائكة والهداية والتوفيق ، كانت من أهم أسباب النصر.

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١).

وقال تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ . (الأنفال :١٧ ، ١٨).

عود إلى التفسير

معنى الآية :

والله لقد صَدَق الله رسوله وما كذبه ، فالله هو الذى أراه الرؤيا بالحق ، وكانت الرؤيا سببًا فى صلح الحديبية ، وقال بعض الناس أو بعض المنافقين : لم ندخل المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية : لَتَدْخُلُنَّ

ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ... أى فى عمرة القضاء ، **إِن شَآءَ ٱللَّهُ** ... تأكيد من الله العليم بكل شىء ، وتعليم لنا ونحن لا علم لنا ، أى : ستدخلن المسجد الحرام بمشيئة الله وتوفيقه ، لا بسبب قوتكم أو أسلحتكم .

ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ...

حال كونكم آمنين من عدوان أهل مكة ، تتمتعون بالأمن وأداء العمرة ، بعضكم يتحلل من إحرامه بالحلق لرأسه كاملاً ، وبعضكم يتحلل من إحرامه بتقصير شعر رأسه ، والحلق أفضل بالنسبة للرجل ، أما المرأة فليس لها إلا التقصير .

لَا تَخَافُونَ ...

تأكيد للأمن ، ولتكفّل الله بإلقاء الرعب فى قلوب أهل مكة ، ولتطمين المسلمين بأنهم سيؤدون عمرة القضاء آمنين لا يخافون ، وهو تأكيد مقصود فى أعقاب غزوات متعددة ، وتعنّت من أهل مكة فى معاهدة الحديبية .

فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا .

إن حكمة الله أن تسير الأمور فى أسبابها ، وسقوط خيبر فى يد المسلمين حرم كفّار مكة من حلفاء أشداء ، وحرم اليهود فى خيبر من حرية الحركة ، وألقى الرعب فى قلوب أهل مكة ، ويسّر فتح مكة على المسلمين فى الوقت المناسب ، والله تعالى عالم الغيب لذلك جعل فتح خيبر قبل فتح مكة ، أو جعل صلح الحديبية قبل فتح مكة .

٢٨ - هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا .

الله تعالى هو الذى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهداية والإصلاح والإرشاد والتعاليم النافعة ، والآداب السامية ، وبدين الإسلام ، وهو الدين الحق المشتمل على توحيد الله تعالى ، والإيمان برسالة محمد ﷺ ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، والعبادات والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، هذا الدين هو خاتم الأديان، وقد جمع محاسنها ، وتخلّص من شوائبها ، هذا الدِّين هو الدين الوسط ، المشتمل على الأحكام والتشريع ، وفى نفس الوقت مشتمل على إحياء الضمير ، وإيقاظ الهمّة للخير ، دين جمع بين الأحكام والهداية ، بين التشريع وإصلاح القلب ، وأمّته هى الأمة الوسط ، التى وجدت المنهج والطريق فى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، ووجدت فيهما ما يدعو إلى الهداية والاستقامة ، والعفة وإيثار الفضيلة ومراقبة الله تعالى .

وقد أظهر الله الإسلام فى حياة رسوله ، حين فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وحين فتحت بلاد كثيرة فى حياة الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم .

وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا .

على صدق رسوله ، وأنه نبى الله حقًا ، ورسوله صدقًا ، وفى ذلك ردٌّ على سهيل بن عمرو حين قال للنبى ﷺ : لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك ، أى أن الله يشهد بأنه ، هو الذى أرسل رسوله محمدًا ﷺ ، بالهداية ودين الحق وهو دين الإسلام ، لينصر هذا الدين على كل دين سماوى أو أرضى ، لأن الإسلام لا يتعارض مع الأديان السماوية السابقة ، بل هو مشتمل عليها ، ومتمم لما جاء فيها ، لأنه دين الفطرة والواقع والإنسانية الراشدة ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا . على صدق هذا الدين ، وعلى صدق الرسول الأمين محمد ﷺ .

★ ★ ★

أوصاف الرسول ﷺ وأصحابه

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

أشداء : واحدهم شديد ، والمراد : أقوياء غلاظ قساة على الكفار .

رحماء : جمع رحيم ، أى : متعاطفون متوافقون ، فى قلوبهم رحمة ، كالوالد مع الولد ، كقوله تعالى : أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ... (المائدة : ٥٤) .

يبتغون : يطلبون فى جد واجتهاد .

فضلا من الله : ثوابًا ورضا .

سيماهم : علامتهم وأمارتهم التى تميِّزهم .

مــــثـــلـــهــــم : وصفهم العجيب ، الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة .

شـــــطــــــاه : فراخه ، أو فروعه التى تنبت حول الأصل .

فــــــــــــآزره : فأعانه وقوّاه .

فــاســتــغــلــظ : فصار من الدِّقة إلى الغلظ .

فاستوى على سوقه : استقام على قصبه وأصوله ، والسوق : واحدها ساق .

تمهيد :

صفات جامعة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فهم رحماء متعاطفون مع إخوانهم المسلمين ، وهم أشداء أقوياء فى الحرب والجهاد فى سبيل الله ، وهم راكعون ساجدون عابدون، متبتّلون بذكر الله ، وابتغاء فضله ورضوانه ، وقد انعكس الطهر والفضل والإيمان والعبادة مِنْ قلوبهم على صفحة وجوههم ، فترى أثر الصلاح والتقوى فى وجوههم ، وترى النور والبهاء والرضوان على وجوههم من أثر السجود والطاعة للّه ، ذلك مثلهم فى التوراة ، أما صفتهم فى الإنجيل فهى كزرع زرعه رسول الله ﷺ ، فأخرج فراخه أو فروعه فآزرت الأصل وقوَّته ، فاستغلظ الزرع واشتد وقوى ، واعتدل قائمًا على الساق القوية المعتدلة ، وكان ﷺ يفرح بأصحابه وقوّتهم وبأسهم وطهارتهم ، ويمدحهم ويقول : «اللَّه اللَّه فى أصحابى ، لا تسبُّوا أصحابى ، من عاداهم فقد عادانى ، ومن عادانى فقد عادى الله ، ومن عادى الله يوشك أن يأخذه»[٥١] .

وقد وعد الله المؤمنين منهم بالمغفرة ومَحْوِ الذنوب ، وبالأجر العظيم وبجنة عرضها السماوات والأرض .

التفسير :

٢٩ – مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا .

أى : هو محمد ﷺ الذى وصف بالرسالة فى الآيتين السابقتين ، وهنا يذكر الله تعالى اسمه :

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...

مبتدأ وخبر ، ما أعذبه وما أطهره وما أحلاه .

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ...

صحابته الأطهار الأبرار كانوا مثلاً أعلى فى النزاهة والعطاء والطهر، ولِمَ لا ، ومعلّمهم ﷺ هو معلّم الإنسانية كلها ، هو النور المبين الذى أضاء جبين الدنيا ، فعلّم العرب ووحدهم ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن التفرق إلى الجماعة ، ومن العصبية الجاهلية إلى السكينة والإيمان والوقار ، وهؤلاء الصحابة تربية محمد ﷺ ، هم أشداء أقوياء على الكفار فى قتالهم وحربهم ، كانوا قلة ينتصرون على الكثرة .

قال تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (آل عمران : ١٢٣) .

وكانوا يهتدون بقوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ... (التوبة : ١٢٣)

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ...

متعاطفون متوادّون متعاونون ، كما قال سبحانه : أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ... (المائدة : ٥٤)

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ...

من صفاتهم العبادة والصلاة والركوع والسجود ، والتبتل وصلاة الفرائض والنوافل وقيام الليل ، وهم فى صلاتهم خاشعون خاضعون ، ابتغاء ثواب الله وفضله ورضوانه ، ومحبته ومودته ، وهم لذلك ذاكرون شاكرون حامدون ، لربهم ساجدون .

سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ...

وقد ظهر نور العبادة والطهر ، وعلامة التقوى والإيمان على وجوههم ، نورًا وحبًّا وفضلاً ، من أثر السجود والاقتراب من الله تعالى ، تلك صفتهم فى كتاب موسى التوراة (وهى العهد القديم) .

أمّا صفتهم فى الإنجيل (وهى العهد الجديد) ، فهى كزرع ونبات نام قوّى، أخرج فرعًا صغيرًا بجواره، فآزره وقوّاه وأعانه ، أى أن الزرع قوّى الشطء لأنه تغذّى منه ، واحتمى به ، وتحوّل من الدِّقة إلى الغلظ والقوة ، واستقام الفرع الجديد على أعواده وسيقانه ، يعجب الزُّراع لقوته وحسن منظره ، وكان ﷺ محبًّا لأصحابه ، حريصًا على تقويتهم وتطهيرهم وتعليمهم ليكونوا أساتذة الدنيا ، وليغيظ بهم الكفار ، فقد فتحوا الفتوح ، وقادوا الغزوات ، أو كانوا لحمتها وسداها ، حتى جاء نصر الله والفتح .

روى أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدّهم فى أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأفرضهم زيد ، وأقرؤهم أُبىّ ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح»[٥٢] .

ويجوز أن يكون معنى هذه الفقرة ما يأتى :

وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ...

بدأ الصحابة قلّة ضعيفة ثم اشتد أمرهم وتقوّت جماعتهم برسول الله ﷺ ، كزرع أخرج فسيله حوله ، مثل نبات القمح والشعير وغيرهما ، فيقوى الأصل بما حوله ويشتد ويتحول من الدّقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ؛ فيعجب به الزراع لقوته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة : إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقّيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ...

أى : إن الله تعالى قوّاهم وسدد خطاهم ليكونوا غصّة فى حلوق الكافرين ، إذ يعتقدون أن الله متمّ بهم نوره ولو كره الجاحدون .

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا .

لقد وعد الله تعالى الذين آمنوا من أصحاب رسول الله ﷺ بالمغفرة لذنوبهم ، وستر عيوبهم ، ووعدهم بالجزاء العظيم فى الدنيا والآخرة .

فى أعقاب تفسير الآية

ذكر ابن جرير ، عن قتادة أنه قال : مكتوب فى الإنجيل : (سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر) .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

هو مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام ، وترقّيه فى الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبى ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله تعالى بمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها .

وظاهر قول الزمخشرى أن الزرع هو رسول الله ﷺ ، والشطء هو الصحابة .

والخلاصة أن من المفسرين من رأى الآتي :

الزرع أمدَّ الشطء ، فقوى الشطء واشتد واستوى على سوقه ، وهم الصحابة .

ومن المفسرين من رأى الآتي :

الزرع أخرج الشطء أو الفسيلة المجاورة له ، فآزرت الفسيلة الزرع ، فاستغلظ الزرع وقوى واشتد واستوى على سوقه .

والمراد أن الصحابة آزروا رسول الله ﷺ فقوى بهم ، ولكلٍّ وجهة ، لكن سياق الآية فى وصف الصحابة ، والمضمون والفحوى يؤيد أن الزرع آزر الشطء ، فاستغلظ الشطء وقوى واستوى على سوقه ، أى أننا نرجِّح أن الذى استغلظ هم الصحابة ، بدليل قوله تعالى فى آخر الآية :

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا .

ومن عظمة المعلِّم العظيم أن يمدّ تلاميذه ويقويهم ليكونوا خير أمّة أخرجت للناس .

روى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبّوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه (نصفه)»[٥٣] . رضى الله عنهم وأرضاهم .

قال ابن عباس : إن للمعصية ظلمة فى القلب ، وسوادًا فى الوجه ، ونقصًا فى الرزق ، وبغضًا فى قلوب الخلق .

وقال بعضهم : إن للحسنة نورًا فى القلب ، وضياءً فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : من أصلح سريرته ، أصلح الله تعالى علانيته .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لو أنّ أحدكم يعمل فى صخرة صمَّاء ، ليس لها باب ولا كوّة ، لخرج عمله للناس ، كائنًا ما كان»[٥٤] .

وروى أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : «إن الهدى الصالح ، والسَّمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»[٥٥] .

وذكر بعض المفسرين أن معنى : سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ...

أنها علامة سوداء تظهر فى الجبهة من كثرة السجود ، وكلام شيوخنا يفيد الآتى : إننا ينبغى ألاَّ نتعمد إظهار هذه العلامة ، ولا نحرص على ذلك ، ومن تعمّد فإنه يتشبّه بالمنافقين ، فإذا ظهرت بدون تعمد فلا حرج ولا بأس .

ونضرب مثلاً بأننا نهينا عن طلب الشهرة ، ونشر الأخبار الصالحة عن أنفسنا ، فإذا قال قائل : إن الصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم شهرة ، فأخبار أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد بن الوليد وغيرهم، تملأ الكتب ومجالس العلم ، فيقول أبو حامد الغزالى فى كتابه (إحياء علوم الدين) ردًّا على ذلك ما يأتى : هؤلاء ما تعمَّدوا الشهرة ، وإنما جاءت الشهرة عفوًا بدون قصد منهم ، فاقصد بعملك وجه الله تعالى وحده ، ولا تقصد الشهرة ولا الرياء ولا حسن السيرة بين الناس ، فإن جاءت هذه الأمور لك بدون قصد منك فلا حرج عليك ، وفى الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»[٥٦] .

★ ★ ★

خلاصة مقاصد سورة الفتح

١ – بشارة النبى ﷺ بالفتح وإعزاز دين الله .

٢ – وعد المؤمنين ، ووعيد الكافرين والمنافقين .

٣ – ذمّ المتخلفين عن الجهاد من أعراب أسلم وجهينة ومزينة وغفار .

٤ – رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، ووعدهم بالنصر فى الدنيا، وبالجنة فى الآخرة .

٥ – البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله ﷺ ، وأنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وقد تم لهم ذلك بالفعل فى العام المقبل .

٦ – وصف النبى ﷺ والذين آمنوا معه بالرحمة والشدّة .

٧ – وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة ، وبالأجر العظيم .

★ ★ ★

خاتمة

هذه السورة (الفتح) آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطوّل ، وسورة (الحجرات) أو سورة (ق) أول القسم الثانى ، وهو المفصّل .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وكان الفراغ من تفسير سورة (الفتح) ظهر الأحد ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٢١ هـ ، الموافق ١٣ من أغسطس سنة ٢٠٠٠ م ، بفندق القوات المسلحة المصرية بالأبيّض ، بمدينة مرسى مطروح ، بجمهورية مصر العربية .

★ ★ ★



تفسير سورة الحجرات

أهداف سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنية ، وآياتها ١٨ آية ، نزلت بعد سورة المجادلة

الآداب العامة :

هذه سورة الآداب العامة ومكارم الأخلاق والتهذيب والتأديب ، سورة هذبت وجدان المسلمين وحركت فيهم دوافع الخير والمعروف ، وحاربت نوازع السخرية والاستهزاء بالآخرين ، وحثت على إزالة أسباب الخصام والبغضاء ، وحرصت على تأليف القلوب وإشاعة المحبة والمودة بين الناس ، ولذلك نهت عن ظن السوء بالمسلم المخلص ، وعن تتبع العورات المستورة ، وعن الغيبة واللمز والتنابز بالألقاب، وبينت أن الناس جميعاً عند الله سواء ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، فهم يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

منهج حياة

سورة الحجرات يمكن أن تكون دائرة معارف شاملة لتربية الفرد وتهذيب الجماعة، فهى تقدم منهجا للحياة السليمة ، ونظامًا تربويًا ناجحًا لخلق مواطن صالح مؤمن بربه ، يحترم دينه ويؤدى شعائره .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

هذه سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقا عالية ، وآمادا بعيدة ، وتثير فى النفس والذهن خواطر عميقة ومعانى كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهذيب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات .

وهى تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبير والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقوم عليها هذا العالم ، والتى تكفل قيامه أولا وصيانته أخيرا ، عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق بأن ينتسب إلى الله ، عالم نقى القلب نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة ، عالم له أدب مع اللّه وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، أدب فى هواجس ضميره ، وفى حركات جوارحه ، وفى الوقت ذاته له شرائعه المنظمة

لأوضاعه ، وله نظمه التى تكفل صيانته ، وهى شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ، وتتناسق أحاسيسه وخطاه وهو يتجه ويتحرك إلى الله . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم ، بل يلتقى هذا بذاك فى انسجام وتناسق ، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها ، بل يلتقى فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما فى تعاون واتساق [٥٧].

معانى السورة

اشتملت السورة على طائفة كريمة من المعانى الإسلامية والآداب الدينية ، فقد أمرت المسلمين ألا يصدروا فى أحكامهم إلا عن طاعة الله والتزام أوامره ، ويجب ألا يسبقوا أحكام اللّه وأن يجعلوا اختيارهم وذوقهم الدينى تابعا لهدى اللّه . (الآية :١) .

وهى تأمرهم بالتزام الأدب أمام النبى الكريم ، وبحسن المعاملة وخفض الصوت عند خطاب الرسول الأمين ﷺ ، لأنه هو خاتم المرسلين ، وهو الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وربى المسلمين تربية إلهية حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس . (الآيات ٢ – ٥) .

وتأمر السورة المسلمين أن يتثبتوا فى أحكامهم ، وألا يصدّقوا أخبار الفاسقين وإشاعات المغرضين وأراجيف المرجفين ، فالرسول ﷺ معهم ، وهدى القرآن والسنة بين أيديهم ، وحقائق الإيمان وأحكامه واضحة أمامهم ، وقد حبب الله إليهم الإيمان وحجب عنهم الكفر والعصيان ، فلله الفضل والمنة ، وهو العليم بعباده ، الحكيم فى أفعاله . (الآيات : ٦ – ٨) .

والمؤمنون أمة واحدة ، ربهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وكتابهم واحد ، ودينهم يقوم على التسامح والتعاون والتناصح ، فإذا حدث خلاف بين طائفتين ، أو قتال ونزاع ، فمن الواجب أن نحاول الصلح بينهما ، وإذا أصرت إحدى الطائفتين على البغى والعدوان فمن الواجب أن نقف فى وجه المعتدى حتى يفىء إلى الحق ، وعلينا أن نؤكد مفاهيم الحق والعدل ، وأن نحث على الإصلاح ورأب الصدع حفاظاً على وحدة الأمة وجمع شمل المسلمين . (الآيتان : ٩ ، ١٠) .

وتأمر الآيات بالبعد عن السخرية والاستهزاء بالآخرين ، فالإنسان إنسان بمخبره وإنسانيته لا بمظهره وتعاليه ، وهناك قيم حقيقية لمقادير الناس هى حسن صلتهم بالله ورضا الله عنهم ، فقد يسخر الغنى من الفقير ، والقوى من الضعيف ، وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة . ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست المقياس ، فميزان اللّه يرفع ويخفض بغير هذه

الموازين ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . وتحرم الآيات كذلك اللمز والسخرية بالآخرين ، والتنابز بالألقاب التى يكرهها أصحابها ويحسون فيها مهانة وعيبا . فشتان بين آداب الإيمان ، وبين الفسوق والعصيان وظلم الآخرين . (الآية :١١) .

وتستمر الآيات فتنهى عن ظنّ السوء ، وعن تتبع عورات الناس حتى يعيش الناس آمنين على بيوتهم وأسرارهم ، وحتى تصان حقوقهم وحرياتهم ، وتنهى عن الغيبة وتحذر منها ، وتبين أن الناس جميعا خلقوا من أصل واحد ثم تفرعت بهم الشعوب والقبائل ، والعلاقة بين الناس أساسها التعارف على الخير ، وأكرم الناس عند اللّه أكثرهم تقوى وطاعة لأمره والتزاما بهديه . (الآيتان ١٢ ، ١٣) .

الإيمان قول وعمل

وفى ختام السورة نجد لوحة هادفة ترسم معالم الإيمان ، فالمؤمن الحق من آمن بالله ورسوله ولم يتطرق الشك إلى قلبه ، وأتبع ذلك بالجهاد والعمل على نصرة الإسلام ، وسار فى طريق العقيدة السليمة والتزم بآدابها وهديها .

ونجد صورة نابية للأعراب الذين افتخروا بالإيمان ، وتظاهروا به رياء وسمعة ، وجاءوا فى تيه وخيلاء يمنّون على النبى لأنهم دخلوا فى الإسلام ، وهى صورة كريهة فيها الرياء والسمعة والمنة ، مع أن اللّه هو العليم بنفوسهم والبصير بخباياهم ، وهو صاحب الفضل والمنة عليهم إن كانوا صادقين .

إن المؤمنين الصادقين هم الذين آمنوا باللّه ربا ، واختاروا الإسلام دينا ، وصدقوا بمحمد ﷺ نبيا ورسولاً ، وجمعوا بين صدق اليقين وأدب السلوك . (الآيات : ١٤ – ١٨) .

وفى الحديث الشريف: «ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل».

الهدف الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الحجرات ما يأتى : المحافظة على أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة الأكابر، والتؤدة فى الأمور ، واجتناب التهور ، والنجدة فى إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحذر عن التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأحساب والأنساب ، والتحاشى عن المنة على اللّه بالطاعة .

وقد تكرر خطاب المؤمنين فى السورة خمس مرات بقوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... والمخاطبون هم المؤمنون فى الآيات : ١ و ٢ و ٦ و١١ و ١٢ ، والمخاطب به أمر ونهى ، وفى الآية ١٣ : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ... والمخاطب به المؤمنون والكافرون ، حيث قال سبحانه : إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ . والناس كلهم فى ذلك سواء .[٥٨]

★ ★ ★

التأدب فى خطاب النبى ﷺ
وطاعة الله ورسوله

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

المفردات :

لا تقدموا : لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش ، لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول: لا تقدِّم بين يدى الإمام ، وبين يدى الأب ، أى : لا تعجل بالأمر دونه ، وقيل: المراد : لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنّة.

لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم ، فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذى يبلغه بصوته .

يغضّون أصواتهم : يخفضونها، ويلينونها .

امتحن الله قلوبهم : طهرها ونقاها ، كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غش .

من وراء الحجرات : من خارجها ، سواء كان من خلفها ، أو من قدامها ، ويرى بعض أهل اللغة أنّ كلمة : وراء من الأضداد ، فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحُجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدها حُجْرة ، وهى القطعة من الأرض المحجورة ، أى الممنوعة من الدخول فيها بحائط ونحوه ، والمراد بها : حجرات نسائه ﷺ ، وكانت تسعًا ، لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها

المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله ﷺ ، فبكى الناس لذلك ، وكانت الحجرات فى غاية البساطة .

تمهيد :

اشتملت سورة الحجرات على الآداب العامة ، وبدأت بالأمر بحسن الأدب مع الرسول ﷺ ، وعدم التقدم عليه ، بل الخضوع لأمره ، وخَفْض الصوت عند محادثته ، وتوقيره واحترامه ، وعدم نِدَائه من وراء الحجرات ، بل الانتظار حتى يخرج إلى الصلاة ثم مقابلته .

التفسير :

١ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

طلب الله تعالى من المسلمين توقير الرسول ﷺ ، واحترامه واتّباعه ، وعدم التقدم عليه .

والمعنى :

لا تسبقوا بأحكامكم أحكام الله ، وأحكام رسوله ، وراقبوا الله إن الله ، سَمِيعٌ . لأقوالكم ، عَلِيمٌ . بأحوالكم فنحن فى حياتنا نقتدى بالكتاب والسنة وعمل الصحابة ، ونجعل أحكام الإسلام سابقة غير مسبوقة ، مقدّمة غير متأخرة .

والأصل أن العبد لا يجوز أن يتقدم على سيده ، والخادم لا يجوز أن يتقدم على مخدومه ، فإن ذلك عيب مذموم ، فضرب الله ذلك مثلا لمن يقدّم رأيه وحكمه ، على رأى الله وحكمه تعالى ، أى لا تسبقوا بأحكامكم أحكام الله وأحكام رسوله ، واتقوا الله وراقبوه ، إن الله سميع لكلّ شىء ، عليم بكلّ شىء ، وفى معنى هذه الآية– أى تقديم حكم الله وحكم رسوله على اجتهاد الإنسان – ورد الحديث الذى رواه أحمد ، وأبو داود، والترمذى، عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أرسله إلى اليمن ، وقال له : «بم تحكم» ؟ ، قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : «فإن لم تجد» ؟ ، قال : بسنة رسوله ، قال ﷺ : «فإن لم تجد» ؟ ، قال : أجتهد رأيى ، فضرب رسول الله ﷺ فى صدر معاذ وقال : «الحمد لله الذى وفّق رسول رسوله ، لما يرضى رسول الله» [٥٩].

وهذا يعنى أنه أخّر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنّة ، ولو قدمه لكان تقديما بين يدى الله ورسوله .

سبب النزول :

اختلف الرواة فى سبب نزول هذه الآية ، فقال بعضهم : سببها أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله أمِّر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمِّر الأقرع بن حابس ، فقال

أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافى ، وقال عمر: ما أردت خلافك ، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزل فى ذلك قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... إلى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. (الحجرات :٥) ، رواه البخارى ، عن محمد بن الصباح ، وقيل فى سبب النزول أسباب أخرى ، ويمكن الجمع بينها ، بأنها نزلت بعد وقوع هذه الأسباب جميعها ، فتكون من باب تعدد الأسباب والمنزَّل واحد .

ويقول بعض العلماء : لعلها نزلت من غير سبب ، لتكون دستوراً للمسلمين فى أعمالهم وأقوالهم ، فيلتزموا بهدى القرآن ، وبتوجيه النبى ﷺ ، ويتخذوه القدوة والمثل الأعلى .

قال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب : ٢١)

٢ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

أدَّب الله المسلمين وأدَّب العرب والأعراب ، وأدَّب الدنيا كلَّها فى لزوم الأدب وخفض الصوت ، عند مخاطبة الكبراء والعلماء ، والأنبياء والمرسلين ، وإذا تكلم إنسان فى حضرة النبى ﷺ فى حياته ، أو عند قبره فى مماته ، أو عند قراءة الحديث الشريف ، أو القرآن الكريم ، فيجب ألاّ يرفع صوته فوق صوت النبى ، بل يكون صوت النبى أعلى صوتا ، وأوقع أثرا من صوت المتكلم بحضرته، وجهر النبى أعلى من جهر المتحدث أو المستفهم بحضرته ، حتى تكون مزيّة النبى واضحة، وسابقته ظاهرة ، وامتيازه بيِّنا .

وإذا خاطبنا رسول الله ﷺ ، وجب أن نقول له : يا رسول الله ، أو يا نبى الله ، ولا نخاطبه باسمه مجردا ، مثل يا محمد أو يا أحمد ، أى ينبغى أن يشتمل الخطاب على التعظيم والتوقير والاحترام .

أمر الله بذلك خشية إزعاج النبى وإيلامه ، برفع أصواتنا عليه ، أو عدم اللياقة أو الجلافة فى خطابه ، وعندئذ يحبط عمل المتكلم ، ويضيع ثوابه ، ويخسر حسناته ، من حيث لا يعلم ذلك فى الدنيا ، بل يعلمه يوم القيامة .

وإذا وصل الجهر بالصوت إلى حد الاستخفاف والاستهانة فذلك كفر ، والعياذ بالله ، فالغرض من الآية أن يكون صوت المؤمن عند خطابه لرسول الله ﷺ ، خفيضا مناسباً لمقامه وهيبته ، لكن بحيث يسمعه .

ونلحظ أن الله نهانا عن جهر معين فقال : كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ... أى : ولا تجهروا له بالقول جهرا مثل جهر بعضكم لبعض .

قال القرطبى :

وفى هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلاّ أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيّد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم ، وهو الخُلُوُّ من مراعاة أبّهة النبوّة ، وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها . ا هـ .

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم حث على توقير الرسول وتعظيمه ، قال تعالى : لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ... (النور : ٦٣) .

وقد دلت آيات من كتاب الله تعالى على أن الله العلىّ القدير ، لم يخاطب النبى فى القرآن باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله سبحانه :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . (الأحزاب : ٤٥) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ... (المائدة : ٦٧) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . (المدثر : ١) .

مع أنه سبحانه نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم ، مثل:

وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ... (البقرة : ٣٥) .

ومثل : يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا ... (هود : ٤٨) .

ومثل : وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ... (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥) .

أما النبى ﷺ فلم يذكر اسمه مجرداً فى القرآن فى خطاب ، وقد سبق أن ذكرنا أن اسم محمد ﷺ تكرر أربع مرات فى القرآن الكريم هى :

١ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... (آل عمران : ١٤٤) .

٢ - مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ... (الأحزاب : ٤٠) .

٣ - وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . (محمد : ٢).

٤ - مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ... (الفتح : ٢٩) .

وكلها ليست خطابا للرسول ﷺ ، بل هي حديث عنه ﷺ .

ملاحظات

(أ) قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قُرئ كلامه وجب على كل حاضر ألاّ يرفع صوته عليه ، ولا يُعْرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ، وقد نبّه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى:

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ... (الأعراف : ٢٠٤) .

وكلام النبيّ ﷺ من الوحي ، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلاّ معاني مستثناة ، بيانها في كتب الفقه [٦٠].

(ب) النهي المذكور عن رفع الصوت ، هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ، ويوقّر الكبراء، أما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدوّ ، ونحو ذلك فليس منهيا عنه ، لأنه لمصلحة ، ففي الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس» ، وكان العباس أجهر الناس صوتاً، يروى أن غارة أتتهم يوماً ، فصاح العباس : يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته .

(جـ) لقد تأدب المسلمون بهذا الأدب الرفيع ، فقال أبو بكر الصديق : والله يا رسول الله لا أكلمك إلا سراراً أو كأخي السرار. وسلك عمر مثله في خفض صوته ، فكان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يَسْمَعْ كلامه حتى يستفهمه .

وفعل مثل ذلك ثابت بن قيس ، لما نزل قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ... فقد دخل بيته ، وأغلق عليه بابه ، ففقده النبي ﷺ ، فأرسل إليه يسأل ما خبره ؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت ، وأنا أخاف أن يكون حبط عملي . فقال ﷺ : «لست منهم ، بل تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة» [٦١].

* فثبت ثباتاً حميداً يوم اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب ، حتى مات شهيدا ، وترك ذكراً حميدا.

٣ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ .

إن الذين يخفضون أصواتهم عند محادثة رسول الله ﷺ ، أو محادثة أحد بجواره ، هؤلاء قوم نَقَّى الله قلوبهم ، وأخلص سريرتهم بالتقوى ، وهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

هؤلاء الذين تأدبوا بأدب الإسلام ، واستجابوا لدعوة القرآن ، فراعوا الإجلال والتوقير ، والتعظيم لرسول الله ﷺ ، وخفضوا أصواتهم عند مجلسه ، أو أثناء محادثته هؤلاء ، لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ .

لهم مغفرة لذنوبهم ، وستر لعيوبهم ، ومحو لخطيئاتهم ، وتثبيت لحسناتهم ، وثواب عظيم على خفضهم لأصواتهم عند نبيّهم .

ملاحظة

الامتحان هو الاختبار ، وأصله من اختبار الذهب وإذابته ، ليخلص جيده من خبيثه ، والمراد أن الله أخلص هذه القلوب لمراقبته سبحانه .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ... من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرّب له ، ودُرّب للنهوض به ، فهو مضطلع به ، غير وانٍ عنه ، والمعنى : أنهم صبروا على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها . ا هـ .

وقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى ﷺ وبعد مماته ، فقد سمع عمر بن الخطاب رجلاً يرفع صوته فى المسجد النبوى ، فقال له : من أين أنت أيها الرجل ؟ فقال : من الطائف ، فقال له عمر : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا .

٤ - إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

كان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام القائلة - منتصف النهار - فجاء وفد من أعراب بنى تميم فنزلوا فى المسجد ، وأخذوا ينادونه من خلف حجرات نسائه ، ويقولون : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مَدْحنا زين ، وذمَّنا شين .

والحجرات جمع حجرة ، وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحيط بها .

وفى رواية عن زيد بن أرقم قال : أتى أناس النبى ﷺ ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه ، وإن يك ملكا نعش فى جنابه ، فأتوا النبى ﷺ فجعلوا ينادونه : يا محمد ، يا محمد .

وهناك روايات أخرى فى سبب النزول ، وتلتقى الروايات على أن جماعة من جفاة الأعراب ، نادوا رسول الله ﷺ وقت راحته فى حجرته ، ولم يصبروا إلى وقت خروجه للصلاة ، حتى يوفّروا له الراحة.

وقد وصفهم القرآن بهذه الآية ومعناها : إن الذين نادوا عليك من وراء حجرات نسائك بأسلوب فيه جلافة الأعراب ، **أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ، أى : لا يفهمون أصول الأدب واللياقة .

ولعل طائفة منهم لم ترض عن هذا الفعل ، فاستثناها القرآن ، لبيان أن أقلّهم أصحاب عقل وحكمة، وأحيانا يعبّر بالأكثر عن الكلّ .

٥ – وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

هذا أدب الإسلام ، فى الحث على إكرام الكبراء والعلماء ، وعدم إزعاجهم ، والانتظار حتى يخرج العظيم من بيته ، ثم يتفرّغ لهم ، بمعنى أنه لو خرج وشُغل بأمر آخر ، وجب الانتظار حتى يكون خروجه إليهم ، ويتوجه بوجهه لهم ، أو يتفرغ لشأنهم.

يحكى عن أبى عبيد – العالم الزاهد الثقة – أنه قال : ما دققت باب عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه .

ومعنى الآية :

ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات ، صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم ، لكان ذلك أفضل لهم ، وأنسب وأزكى وأطهر .

ثم فتح الله لهم باب التوبة فقال :

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لمن تاب منهم عن معصيته ، وندم على ندائه ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره، فالله غفور رحيم به ، أن يعاقبه على ذنبه ذلك بعد أن تاب عنه .

والخلاصة :

إن الله سبحانه وتعالى استهجن الصياح برسول الله ﷺ ، فى حال خلوته من وراء الجدران ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبّه إلى فظاعة ما جسروا عليه ، وليرشد إلى أدب الإسلام فى تخيّر الوقت المناسب للزيارة ، وأدب الطَّرْق الخفيف على باب المنزل ، أو استعمال الجرس استعمالاً خفيفا، لا يزعج أهل المنزل ، وعدم الوقوف أمام الباب بل على جانب منه ، وعدم النظر إلى المنزل عند فتح الباب، ثم السلام على صاحب المنزل عند ظهوره .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ . (النور : ٢٧ ، ٢٨) .

★ ★ ★

التثبت من الأخبار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)﴾

المفردات :

الفاسق : هو الخارج عن حدود الدّين ، من قولهم : فسق الرُّطب ، إذا خرج من قشره .

بنبأ : بخبر .

فتبينوا : التبيُّن هو طلب البيان ، والمراد : التثبت من صدق الخبر أو كذبه ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة ، وبه يحصل علم أو غلبة ظنّ .

أن تصيبوا قوما : لئلا تعتدوا على قوم .

بجهالة : جاهلين حالهم .

فتصبحوا : فتصيروا .

نادمين : مغتمّين غمًّا لازمًا ، متمنين أنه لم يقع ، فإن الندم هو الغمّ على وقوع شيء مع تمنّي عدم وقوعه .

لَعَنِتُّم : لأصابكم العَنَتُ ، وهو المشقّة والإثم .

الكفر : تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها .

الفسوق : الخروج عن الحدّ كما سبق .

العصيان: عدم الانقياد .

الراشدون: الرشاد : إصابة الحق ، واتباع الطريق السويّ مع تصلب فيه ، من الرشادة وهى الصخرة .

تمهيد :

السورة كلها مشتملة على آداب اجتماعية نافعة ، حيث بينت فيما سبق التزام خفض الصوت بحضرة الأكابر ، والتزام الطاعة لله ولرسوله ، وعدم التقدم على أحكام الإسلام ، وهنا إرشاد إلى أدب عظيم وهو التثبت من الأخبار عند سماعها ، وعدم المسارعة إلى تصديقها ، خشية إساءة الظن بالآخرين .

سبب النزول :

ذكر أكثر المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط .

أخرج ابن جرير ، وأحمد ، وابن مردويه بسند جيد ، عن ابن عباس ، أن الآية نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى مُعَيْط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق مُصدِّقًا (أى : جامعًا للصدقات ، والمراد بها الزكوات) وكانت بينهما إحن فى الجاهلية ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ، فرجع فقال : إن القوم همُّوا بقتلى ، ومنَعوا صدقاتهم ، فبعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين ، فسلموا إليه الصدقات ، وعاد إلى النبى ﷺ فأخبره فنزلت الآية .

والآية وإن نزلت بسبب حادث معين ، إلا أنَّها عامة فى وجوب التثبت من الأخْبار .

قال الحسن البصرى : فوالله لئن كانت نزلت فى هؤلاء القوم خاصة ، فإنها لمرسلة إلى يوم القيامة، ما نسخها شىء .

وأكد الرازى ذلك ، بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط شىء بعيد ، لأنه توّهم وظنّ فأخطأ ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا ، كيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الإيمان .

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ...﴾ (السجدة : ٢٠) .

«لكن أكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله ﷺ ، فصار فاسقًا بكذبه ، والظاهر أنَه سمى فاسقًا تنفيرًا وزجرًا عن الاستعجال فى الأمر من غير تثبت ، فهو متأوِّل ومجتهد ، وليس فاسقًا على الحقيقة»[٦٢] .

وقال القرطبى :

وفى الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق ، ومنْ ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعًا ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها . ا هـ .

التفسير :

٦ - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ .

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم من يحتمل فسقه بخبر عظيم من الأخبار ، فتثبتوا من صدق ذلك الخبر ، ولا تتسرعوا فى الحكم على الآخرين خشية أن تعتدوا على قوم آمنين مستقيمين ، جاهلين إيمانهم واستقامتهم ، فتصيروا بعد العدوان عليهم نادمين مغتمين ، تتمنون لو أنكم ما فعلتم هذا العدوان على قوم لا يستحقونه .

فالآية الكريمة ترشد المسلمين فى كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالاً سليمًا ، وإلى كيفية التصرف فيها تصرفًا حكيمًا ، فتأمر بالتثبت والتحقق من صحة الأخبار ، حتى يعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان ، وفى بُعدٍ عن الندم والتحسّر على ما صدر منه من أحكام .

٧ - ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ .

واعلموا أيها الصحابة الكرام ، أن فيكم رسول الله محمدًا ﷺ، الذى ختم الله به الرسالات ، وأوجب عليكم اتباعه ، وأوجب توقيره واحترامه ، وعدم التقدم عليه وعدم سبق حُكْمِه .

وربما كان هناك من الصحابة من زيَّن للرسول ﷺ الهجوم على بنى المصطلق وقتالهم ، بعد سماع كلام الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط ، فكان مضمون الآية مُفيدًا الردّ عليهم ، منبِّهًا إلى وجوب التثبُّت وعدم التسرُّع ، ووجوب التأنّى فى اقتراح ما ينبغى عمله ، والانتظار لما يشير به الرسول الحكيم ﷺ .

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ ...

والعنت الوقوع فى الشدة والمهالك ، لو أنّ الرسول سارع بإطاعة من حبب إليه قتال بنى المصطلق ، ونفذ الأمر ، ثم تبينتم الحقيقة لوقعتم فى الحرج والشدة والضيق ، بسبب وجود قتلى وجرحى أبرياء .

والنُّحاة هنا يسمّون (لو) حرف امتناع ، أى : بسبب عدم طاعة الرسول للمتسرِّعين ، لم تقعوا فى الحرج والهلاك ، وكان هناك عدد من الصحابة لا يميلون إلى التسرّع ، ويرون التثبث ، وهم الذين عناهم الله بقوله :

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ .

تأتى (لكن) للاستدراك ، أى مغايرة ما بعدها لما قبلها ، أى مع وجود بعض المتسرِّعين بينكم ، لكنّ الله تعالى حبب الإيمان إلى أكثركم ، وزيّن الإيمان فى قلوبكم ، أى جعله محبوبًا محترمًا معشوقًا ، صالحًا للفداء والتضحية ، كذلك كرّه إلى جملة الصحابة ، ٱلْكُفْرَ . وهو جحود نعمة الله ، وَٱلْفُسُوقَ . وهو الخروج على أمر الله ، وَٱلْعِصْيَانَ . وهو مخالفة أمر الله أو أمر رسوله .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّ ٰشِدُونَ .

هؤلاء الأكثرية المهتدون المطيعون ، هم الذين منحهم الله الرشاد والهداية ، والتوفيق والتمسك بالإيمان ، وطاعة الله وطاعة رسوله .

٨ - فَضْلاً مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

لقد تفضل الله على صحابة رسول الله ﷺ بهذه الصفات الحكيمة ، وأنعم عليهم بهذه النِّعم ، وهو ، عَلِيمٌ . مطلع على النفوس ، حَكِيمٌ . جليل الحكمة فى أفعاله .

والآية وسام على صدر هؤلاء الصحابة ، فهى وما سبقها تبين أن معظم الصحابة كانوا نموذجًا ومثلاً أعلى فى محبّة الإيمان والصدق فيه ، والتضحية والفداء ، وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، وأن هذا الهدى والطاعة ، كان فضلاً من الله ونعمة ، لا تعادلهما أى نعمة ، وقد امتن الله على رسوله بأنه هو الذى هَدَى ووفق ، وأخرج من أصلاب الكافرين هؤلاء المؤمنين .

قال تعالى : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

فى أعقاب التفسير

ذكر الأستاذ وهبة الزحيلى فى التفسير المنير (جزء ٢٦ ص ٢٣٢) أنه يستنبط من الآيات السابقة ما يأتى :

١ - إن وجود الرسول ﷺ فى أصحابه ركن تثبت وأناة وتأنٍّ فيمنع التسرع فى إصدار الأحكام ، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه ، لكان خطأ ، ووقع فى العنت (الإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم ، لعداوة كانت بينه وبينهم ، ويكون المراد من قوله تعالى : وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ... ألا تكذبوا فإن الله تعالى يُعْلِم رسوله ﷺ أنباءكم فتفتضحون .

٢ - استدلت الأشاعرة بقوله : حَبَّبَ ، وَكَرَّهَ . على مسألة خلق الأفعال ، أى أن الله تعالى خلق أفعال العباد وذواتهم وصفاتهم وألسنتهم وألوانهم ، لا شريك له ، لقوله تعالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . (الصافات : ٩٦). وهذا ردٌّ على القدرية[٦٣] ، والإمامية ، والمعتزلة الذين يقولون : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، ويؤولون آية: حَبَّبَ ، وَكَرَّهَ . على اللطف والتوفيق .

٣ - إن الله تعالى عليم بكل شىء ، يعلم من يتحرَّى الخير ومن لا يتحراه ، ومن يريد الرسول ﷺ على ما لا تقتضى به الحكمة ومن لا يريده ، وهو فوق هذا يعلم الأشياء ويُعلم الرسول ﷺ بها ، ويأمره بما تقضى به الحكمة ، فيجب الوقوف عند أمر الرسول ﷺ ، واجتناب الاقتراح عليه .

٤ - كان الرسول ﷺ يدعو بمضمون الآيات السابقة ، فقد أخرج الإمام أحمد ، والنسائى ، عن أبى رفاعة الزُّرقى ، عن أبيه قال : لما كان يوم أُحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل» ، فصاروا خلفه صفوفًا ، فقال ﷺ : «اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضلّ لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرّب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك ، وفضلك ورزقك ، اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم أسألك النعيم يوم العَيْلة، والأمن يوم الخوف ، اللهم إنى عائذ بك من شرِّ ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزيّنه فى قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، إله الحق»[٦٤] .

★ ★ ★

وسائل فض المنازعات

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة ، بدليل قوله تعالى : فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ... (التوبة : ١٢٢)

فأصلحوا بينهما : فكفوهما عن القتال بالنصيحة ، أو بالتهديد والتعذيب .

بغت : تعدّت وجارت .

تفيء : ترجع .

أمر الله : الصلح ، لأنّه مأمور به فى قوله تعالى : وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ... (الأنفال : ١) .

فأصلحوا بينهما بالعدل : بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات ، بحيث يكون الحكم عادلاً ، حتى لا يؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى .

وأقسطوا : واعدلوا فى كل شأن من شئونكم ، وأصل الإقساط : إزالة القسط (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائر ، كما قال تعالىٰ : وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥) .

إخوة : الإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم أخ ، وقد جعلت الأخوّة فى الدّين ، كالأخوّة فى النسب ، كأن الإسلام أب لهم ، قال قائلهم : .

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

تمهيد :

فى آيات سابقة أمر القرآن بالتثبت فى الأخبار ، خشية العدوان على قوم آمنين غير معتدين ، وهنا يهتم القرآن بالصلح بين المتخاصمين ، ويجعل ذلك مهمة الحاكم ومسئولية الأمة ، فعليهم الدعوة إلى الصلح ، ودفع البغاة حتى يخضعوا إلى حكم الله تعالى ، فإذا خضعوا وجب الحكم بالعدل بينهم ، حتى نقضى على الفتنة ، وتتراضى النفوس بصفةٍ دائمة ، فالله تعالى عادل وقد أمر بالعدل .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ . . .
(النساء : ٥٨)

إن بين المسلمين رحمًا عامة يجب أن توصل ، فربُّهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، وأمتهم واحدة ، وقبلتهم واحدة ، والإسلام أخوّة شاملة لهم جميعًا ، فيجب الصلح بينهم ، والتقوى وسيلة إلى رحمة الله ، ومغفرته وفضله .

التفسير :

٩ – وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ .

الإسلام رباط متين بين المسلمين ، وقد حثّ القرآن الكريم على صلة الرحم ، ورأب الصدع ، والإصلاح بين الناس .

قال تعالى : لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ١١٤) .

وقال ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحاقدوا ، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله تعالى»[٦٥].

والآية التاسعة من سورة الحجرات أصل فى دعوة المسلمين إلى لزوم الوحدة والجماعة ، وقتال البغاة ، والصلح بين المتخاصمين بالعدل والقسط .

ومعنى الآية الكريمة :

إن تخاصمت جماعتان أو فئتان من المسلمين ، فينبغى أن نسارع إلى الصلح بينهما بالحسنى والإرشاد ، والكلمة الطيبة والتوجيه ، وذكر محاسن الفئة الأخرى ومحامدها ، ورغبتها فى الصلح والحب والمودة .

قال ﷺ : «ليس الكذاب الذى يصلح بين اثنين فينمِّى خيرًا أو يقول خيرًا»[٦٦].

فمن أراد الصلح بين فئتين ، وسمع كلمة طيبة من إحداهما فنماها وزادها ، أو اخترعها رغبة فى التواصل والصلح بين المتخاصمين ، فلا يسمّى كذابًا بل مصلحًا .

فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ...

فإن لم تستجب إحدى الفئتين إلى الصلح ، ولم تخضع للحكم بالعدل ، واحتمت بالعدوان والبغى على الفئة الأخرى ، وجب ردع المعتدى وتحذيره وإنذاره أولاً ، ومحاولة استدراجه إلى الصلح ، فإن رفض وبغى تعين قتاله إلى أن يرجع إلى حكم الله ، وهو الصلح بين المتنازعين .

فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ .

إن رجعت الفئة المعتدية عن بغيها ، وقبلت الصلح والتعاون مع الوسطاء ، وجب على الأمة أن تصلح بين المتنازعين بالعدل والحق والقِسط (بكسر القاف) .

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ . إن الله يحب العادلين فى الحكم ، حتى نقطع دابر النزاع من أساسه ، وتعود الأمور هادئة آمنة نافعة راشدة .

قال ﷺ : «إن المقسِطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ ، بين يدى الرحمان عز وجل بما أقسطوا فى الدنيا» . أخرجه ابن أبى حاتم ، والنسائى ، وإسناده جيد قوىّ ، ورجاله على شرط الصحيح .

وأخرج مسلم ، والنسائى أن رسول الله ﷺ قال : «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور ، على يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا»[٦٧] .

١٠ – إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

المؤمنون إخوة فى الدين والإسلام ، وبينهم وشائج الأخوّة الكاملة ، فإن وقع نزاع بين الإخوة ، وجب أن نسارع إلى الصلح بينهم ، ونبذل فى ذلك الجهد والحكمة ، وحسن الدعوة ، ومحاولة التوفيق ، مع مراقبة الله رجاء رحمته وفضله وإكرامه .

أخرج الشيخان بسنديهما أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا – ويشير إلى صدره – بحسب امرئ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٦٨] .

سبب النزول

تعددت الروايات فى سبب نزول الآيتين (٩ ، ١٠) من سورة الحجرات ، وكلها تلتقى على أن نزاعًا ما حدث بين الأوس والخزرج ، أو بين قبيلتين من الأنصار ، أو رجلين من الأنصار ، أو حيين من أهل المدينة، ويمكن الجمع بينها بأن ذلك من تعدد الأسباب والمنزّل واحد .

أخرج ابن جرير ، عن الحسن قال : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيُدْعون إلى الحكم ، فيأبون أن يجيبوا ، فأنزل الله : وَإِن طَآئِفَتَانِ ... إلى آخر الآيتين .

وقيل : كان النبى ﷺ متوجها لزيارة سعد بن عبادة فى مرضه ، فمرّ على عبد الله بن أُبىّ بن سلول، وكان ﷺ راكبًا حمارًا ، فبال الحمار ، فقال عبد الله بن أبّى – وهو من الأوس – للنبى ﷺ : إليك عنّى ، فوالله لقد آذانى نتن حمارك ، فقال عبد الله بن رواحة – وهو من الخزرج – : والله إن بول حماره أطيب ريحًا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فوقعت بينهم حرب بالجريد والأيدى والنّعال ، فأنزل الله فيهم : وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ...

وقد ورد مثل ذلك فى مسند أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وابن جرير وغيرهم ، ويُجمع بين الروايات بأن خصومة ما وقعت بين الأوس والخزرج ، أو بين امرأة وكانت من قبيلة وزوجها من قبيلة أخرى ، وأن الرجل حبس امرأته فى عليّة له ، فبعثت المرأة إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، واستعان الرجل بقومه فجاءوا ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وكانت بينهما معركة ، فنزلت فيهم الآية ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم ، وفاءوا إلى أمر الله تعالى ، ونزلت الآيتان .

فى أعقاب تفسير الآيتين

قتال على ومعاوية :

١ – كان القتال لشبهة قامت بينهما ، فالإمام علىٌّ طلب البيعة من أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ، ومعاوية طلب الأخذ بثأر عثمان ، ممن يوجد من قتلته فى معسكر على ، فكان علىٌّ يقول : ادخلوا فى البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه ، وكان معاوية ومن معه يقولون : لا تستحق البيعة وقتلة عثمان معك تراهم صاحبًا ومساءً ، وحدثت معارك وأهوال بين الفريقين .

٢ – **قال ابن العربى فى أحكام القرآن** : هذه الآية أصل فى قتال المسلمين ، والعمدة فى حرب المتأولين ، وعليها عوّل الصحابة ، وإياها عَنَى النبى ﷺ بقوله : «تقتل عمارًا الفئة الباغية»[١٩] ، أى عمار بن ياسر .

٣ – لا خلاف بين الأمة فى أنه يجوز للإمام تأخير القصاص ، إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة ، أو تشتيت الكلمة .

٤ – الأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، ولذلك تخلّف قوم من الصحابة ، رضى الله عنهم ، عن هذا الأمر ، كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، وصوَّب عملهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه .

٥ – قوله تعالى : فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ...

يدلّ على أنّ من العدل فى صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال ، فإنه تلف على تأويل ، وفى مطالبتهم بذلك تنفير لهم عن الصلح ، واستمرار فى البغى .

٦ – ما استهلكه البغاة : إن ما استهلك أثناء تجمع البغاة والخوارج للقتال ، والتفرق عند انتهاء الحرب من دم أو مال ، لا ضمان فيه بالإجماع .

من تفسير فتح القدير للشوكانى

إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدّى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحُكْمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ، ويتحرَّوا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها نحو الأخرى .

من تفسير القرطبى

(أ) لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا الله بالكفّ عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ﷺ عن سبِّهم ، وذكر أن الله قد غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

قال تعالى فى سورة التوبة : وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ... (التوبة : ١٠٠) .

وقال تعالى فى سورة الفتح : لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ... (الفتح : ١٨) .

هذا مع ما ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى ﷺ أنه قال : «إن طلحة شهيد يمشى على الأرض» ، فلو كان ما خرج له معصية لم يكن بالقتل فيه شهيدًا .

(ب) سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم ، فقال : تلك دماء طهَّر الله منها يدى ، فلا أخضِّب بها لسانى . يريد التحرز من الحكم على بعضهم ، بما لا يكون مصيبا فيه .

(جـ) **قال الحسن البصرى** : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .

وقال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منّا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عمّا اختلفوا فيه ، ولا نبتدع رأيا منّا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل، إذ كانوا غير متهمين فى الدين .

(د) سئل الإمام على رضى الله عنه عمَّن قاتلوه : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فرُّوا ، فقيل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، فقيل له : فما حالهم ؟ قال : هم إخواننا بَغَوْا علينا .

★ ★ ★

تحريم السخرية والغيبة ، والأمر بالتقوى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، يقال : سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ، والاسم : السُّخرية ، وقد تكون بالمحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته .

قوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء ، كما قال زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : لا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة ، باليد أو العين أو نحوهما .

التنابز : التعاير والمناداة للشخص بما يكرهه من الألقاب .

الاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

الظن : المراد به فى الآية : الاتهام .

الإثم : الذنب .

التجسس : البحث عن العورات والمعايب ، والكشف عما ستره الناس .

الغيبة : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته .

من ذكر وأنثى : من آدم وحواء ، قال إسحاق الموصلى :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يُفاخرون به فالطين والماء

شعوبا وقبائل : الشعوب : رؤوس القبائل ، كربيعة ومضر ، والقبائل فروعها .

قال فى تفسير المراغى :

والشعوب واحدهم شَعْب (بفتح الشين وسكون العين) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد ، كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة ، وتميم من مضر ، وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع :

الشَّعْبُ ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخِذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله .

فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطون تحت العمائر ، والأفخاذ تحت البطون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل .

فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصىّ بطن ، وعبد مناف فخذ ، وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمِّى الشَّعب شعباً لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

تمهيد :

السورة من أوّلها حافلة بالدعوة إلى الآداب العامة ، والالتزام بأحكام الشريعة ، وعدم رفع الصوت على الكبراء والأنبياء ، ثم التثبت عند سماع الأخبار ، وعدم الاعتداء على الآخرين ، ثم الدعوة إلى الإصلاح بين المتخاصمين ، وهنا نجد دعوة إلى الامتناع عن السخرية والهمز واللمز ، والتنابز بالألقاب وإساءة

الظن، وتتبع عورات الناس ومعايبهم ، والغيبة والنميمة ، ووجوب المساواة بين الناس ، واعتقاد أن معيار التفاضل والتميز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق .

ونلحظ أن السورة دائرة محكمة ، وآياتها متتابعة فى الترقى بالإنسان فى حسن السلوك ، والابتعاد عن أسباب الخصام ، إلى البعد عن إيذاء الآخرين ، إلى الاعتقاد بأن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط ، يتفاضلون عند الله بالتقوى والعمل الصالح .

التفسير :

١١ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ...

هذه الآية وما بعدها تكاد تكون دائرة معارف إنسانية ، تركز على أهم العيوب التى تشيع بين الناس، ومنها ما يأتى :

السخرية والاستهزاء بالآخرين ، وهذا تطاول على عباد الله متضمن معنى الأنانية ، كأن الساخر كامل ، والمسخور منه ناقص ، ولتأصّل هذه العادة فى الناس تكرر النهى عنها مرتين ، فقال سبحانه :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ...

أى : لا يسخر ولا يستهزئ رجال من آخرين ، عسى أن يكون المسخور منه أفضل حالاً أو أعلى قدراً عند الله من الساخر ، وربما انحط قدر الساخر ، وارتفع شأن المسخور منه ، كما قال بعضهم :

ولا تهن الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

وبالرغم من أن النساء يدخلن فى هذا النهى عادة فى الخطاب التشريعى ، إلا أن القرآن الكريم أفردهن بالنهى لأهمية الموضوع ، وتأكيده بالنسبة لهنّ ، فقال :

وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ...

ولا تسخر امرأة جميلة من دميمة ، أو طويلة من قصيرة ، أو بيضاء من سوداء ، أو كاملة الأطراف من ناقصتها ، أو السليم من المريض ، أو الصحيح من المعاق - كالأعمى والأعرج والأبرص والأقرع والكسيح والمريض - فكل هؤلاء ضُعفاء فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة والتشجيع والحنان ، وربما كانت المسخور منها أفضل وأعلى قدراً عند الله من الساخرة .

قال ﷺ : «رب أشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبرّه » [٧٠] . رواه الحاكم. (الطِّمر : الثوب الخَلِق البالى) .

ورواه أحمد ، ومسلم بلفظ : «رب أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرّه» [٧١] .

وإنما خصَّ مجامع الرجال والنساء ، لأن أغلب السخرية تكون فى مجامع الناس .

ولكن علة النهى عامة ، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة ، فلا يجوز أن يسخر فرد من فرد ، ولا رجل من امرأة ، ولا امرأة من رجل ، فالتمايز عند الله تعالى بالأعمال ، ونظافة القلوب والتقوى ، لا بالمظاهر والثروات ، ولا بالألوان والصور ، ولا بالأعراق والأجناس .

أخرج مسلم ، وابن ماجة أن رسول الله ﷺ ، قال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » [٧٢] .

وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...

واللمز هو التنبيه على عيوب الآخرين ، قال تعالى :

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . (الهمزة : ١) .

والعيَّاب اللَّماز إنما يعيب نفسه أو يرشد إلى حقارة شأنه ، فمن كان رفيع القدر انشغل بعيوب نفسه عن عيوب أخيه .

ولأنَّ المؤمنين إخوة فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه ، لذلك قال تعالى :

وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...

أى : لا تعيبوا الآخرين ، ولا تنشغلوا بعيوبهم ونقائصهم ، فإنكم بذلك إنما تعيبون أنفسكم ، وترشدون إلى تدنّى قدركم ، ورحم الله امرأً انشغل بعيوب نفسه عن عيوب أخيه .

والفرق بين السخرية واللمز ، أن السخرية احتقار الشخص مطلقا على وجه مضحك بحضرته ، واللمز هو التنبيه على معايبه باللفظ أو الإشارة .

وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ...

ولا يخاطب أحدكم غيره بالألفاظ التى يكرهها، بأن يقول له: يا أحمق ، أو يا أعرج ، أو يابن السوداء، أى : لا يعير شخص أخاه بما يسوؤه ، سواء أكان هذا اللقب المكروه للشخص ، أم لأمّه ، أم لأبيه ، أم لغيرهم،

ويستثنى من ذلك أن يشتهر الشخص بلقب لا يسوؤه ، فيجوز إطلاقه عليه ، كالأعمش والأعرج من رواة الحديث ، وكان ﷺ ينادى أصحابه بأحبّ الأسماء لديهم .

مثل : عتيق لأبى بكر ، والفاروق لعمر ، وذو النورين لعثمان ، وأبو تراب لعلى [٧٣] ، وسيف الله لخالد، وأمين الأمة لأبى عبيدة .

بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ...

بئس الذكر والشهرة لإنسان بالفسوق والخروج عن أمر الله ، بعد دخوله فى الإيمان ، فمن تعوّد على السخرية أو اللمز ، أو التّقص للآخرين يصبح فاسقا بعد إيمانه ، وبئس هذا التحوّل .

من تفسير الطبرى

قال الطبرى : بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ...

يقول تعالى : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسمُّوا فساقا بعد أن وصفتم بصفة الإيمان ...

وقال الفخر الرازى فى تفسيره :

قوله تعالى : بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ...

من تمام الزجر ، كأنه تعالى يقول :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ - وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ - وَلَا تَنَابَزُوا۟ ، فإن من يفعل ذلك يفسق بعد إيمانه ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق ، ويصير التقدير : بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ...

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى : بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ...بئس أن يسمى الرجل كافراً أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، أى : لا يجوز أن تقول للمسلم : يا فاسق ، بعد أن هداه الله للإسلام ، أو بعد أن تاب إلى الله .

وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ .

ومن لم يرجع عن الانشغال بعيوب الناس ، والتنقيب عن خطاياهم ، وعيبهم ولمزهم واتهامهم ، فقد ظلم نفسه وظلم إخوانه ، والله لا يحب الظالمين .

١٢ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ .

يا من آمنتم بالله ربًّا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، اجتنبوا ظن السوء بالمسلمين الذين ظاهرهم الصلاح ، أمَّا من عرَّض نفسه للتهم ، فدخل حانات الخمور ، أو جالس النساء الفاسدات ، فهو الذى عرض نفسه للشبهات ، ومن حقّنا أن نظن به السوء .

إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ...

أى : إن ظن السوء بأهل الخير ، أو ظن الشر بالمؤمن ذنب مؤثم ، موقع فى الإثم لنهى الله عنه ، كما قال تعالى : وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا . (الفتح : ١٢) . أى : هلكى .

روى مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسَّسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا» [٧٤] .

وَلَا تَجَسَّسُواْ ...

أى : لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، وتستكشفوا ما ستروه ، وتستطلعوا أسرارهم .

أخرج أبو داود وغيره ، عن أبى برزة الأسلمى قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته» [٧٥] .

وأخرج الطبرانى ، عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث لازمات لأمتى : الطيرة [٧٦] ، والحسد ، وسوء الظن » ، فقال رجل : وما يذهبهنّ يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ: «إذا حسدت فاستغفر ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض» .

وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ...

الغيبة هى ذكر الإنسان فى غيبته بالسوء ، فى نفسه أو أسرته أو من يتصل بهم ، وفيها تقطيع لأواصر المودة الإنسانية ، وعدوان على الآخرين .

وقد ثبت فى الصحيح من غير وجه أنَّه ﷺ قال حين خطب فى حجة الوداع : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا» . رواه الشيخان عن أبى بكرة .

وقد نفَّر القرآن الكريم من الغيبة، حيث بيّن أن المغتاب يفترس لحوم الآخرين ، فقال تعالى :

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...

أى : هل يقبل أحدكم أن يأكل لحم أخيه حال كونه ميتا ، فهذه صورة كريهة ، أن تنهش لحم أخيك وهو غائب عنك ، وإذا كرهت هذه الصورة المزرية المهينة، فابتعد عن الغيبة ، وتُبْ إلى الله مِنْها وكفِّر عنها، بأن تذكر الناس بالخير ، وأن تردّ غيبة المغتاب فى غيبته .

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ .

أى : راقبوا ربكم ، واعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وتوبوا إليه ، واستقيموا على طاعته ، فإن الله تواب لمن تاب ، رحيم بعباده .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (البقرة : ١٤٣) .

قال الحسن :

الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان :

١ – فأما الغيبة : فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه .

٢ – وأما الإفك : فأن تقول فيه ما بلغك عنه .

٣ – وأما البهتان : فأن تقول فيه ما ليس فيه .

وروى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال: «ذكرك أخاك بما يكره» ، قيل : يا رسول الله ، أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فقد بهته» [٧٧] .

والمقصود من هذا صيانة أعراض الناس ، وتركهم إلى الله فيما بينهم وبينه .

قال العلماء والغزالى فى الإحياء :

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ، ويندم على ما فرط منه، ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما صدر منه ، ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً، لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك فى ستة أمور :

١ - التظلم : فمن ظُلم فله أن يشكو لمن يظنّ أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .

٢ - الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يُظَنُّ قدرته على إزالته .

٣ - الاستفتاء : فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا ، فهل يجوز له ذلك ؟

٤ - تحذير المسلمين : كجرْح الشهود والرواة المتصدّين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكأن يُشير - وإن لم يُستشر - على مريد التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ، ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

٥ - أن يجاهروا بالفسق ، كالمدمنين على شرب الخمور ، وارتياد محالّ الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون.

٦ - التعريف بلقب أو نحوه ، كالأعور والأعمش ونحو ذلك ، إذا لم تمكن المعرفة بغيره ، والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها ، مع ولوع الناس بها حتى أن بعضهم يقول : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

١٣ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

تأتى هذه الآية فى أعقاب الآداب الإسلامية السابقة ، والنهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، وظن السوء ، والتجسس والغيبة .

والمعنى :

يا كلّ الناس ، لماذا التعالى على عباد الله ، أو السخرية منهم ، أو غيبتهم ، أو ظن السوء بهم، إنكم جميعا من أصل واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم بيده وزوّجه حواء ، ومن نسل آدم وحواء خلق جميع البشر ، فلماذا التعالى والتفاخر والترفّع والتكبر على الآخرين إذا كنتم جميعا من أصل واحد ، ومن إناء واحد ؟

قال ﷺ : «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربىّ على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلّغت» ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : «ليبلّغ الشاهدُ منكم الغائب» [٧٨].

وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ...

الشعوب : الجمهور الكبير من الناس ، والقبائل : العائلات الكبيرة ، ومنها تتفرع الفروع الصغيرة ، تقول: أنا من شعب مصر ، ومن محافظة كذا ، ومن بلدة كذا ، ومن قبيلة كذا ، أو من عائلة كذا ، وبذلك يعرف الناس أنسابهم وأصولهم ، ويحافظون على أنسابهم بالزواج الشرعى ، والبعد عن الزنا والسفاح .

قال ﷺ: «وُلِدت من نكاح ، ولم أُولد من سفاح» (٧٩) .

وقد كان الناس – عربا أو عجما – عند نزول الآية قبائل متمايزة ، ضمن شعوب تعمُّهم ، ولكنهم الآن فى معظم الأمم قد اختلط بعضهم ببعض ، وأصبح التعارف بينهم بالانتماء إلى الأمم ، وبيان البلدان التى يعيشون فيها ، والمساكن التى يأوون إليها .

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ...

أى : لقد جعلت النسب للتعارف وصلة الرحم ، وليس للتعالى والتفاخر بالأنساب والأحساب ، فإن السموّ الحقيقى ورفعة المنزلة إنما تكون بتقوى الله ومراقبته ، والعمل بما يرضيه ، والبعد عما نهى الله عنه .

أخرج ابن أبى حاتم ، والترمذى ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال : «يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية – أى : تكبرّها – وتعظُّمها بآبائها ، فالناس رجلان: رجل بَر تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هيّن على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . ثم قال ﷺ : «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وروى مسلم ، وابن ماجة ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٨٠) .

وعند الطبرانى ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبّكم إليه أتقاكم» (٨١) .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

هو سبحانه مطلع على القلوب ، عليم بأحوال عباده ، خبير بأفعالهم ، فيثيب من تخلّق بهذه الأخلاق، ويعاقب من أعرض عنها .

فى أعقاب التفسير

١ - احتج مالك بقوله تعالى : إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ... على عدم اشتراط النسب فى الكفاءة فى الزواج ، إلاّ الدين ، فيجوز زواج المولى بالعربية ، وقد تزوج سالم مولى امرأة [٨٢] من الأنصار امرأةً عربية حرّة، حيث تبنّاه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وأنكحه هند بنت أخيه الوليد بن عتبة ، وتزوج بلال بن رباح أخت عبد الرحمان بن عوف ، وتزوّج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ، فالكفاءة إنما تراعى فى الدّين فقط.

روى أحمد ، وأصحاب الكتب الستة أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدّين تربت يداك » [٨٣].

وقال الجمهور : يراعى الحسب والمال عملاً بالأعراف ، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية ، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار.

وأرى أن هذه الأمور متشابكة ، ولا نستطيع الفصل بينها بسهولة .

والحـــلّ :

١ - أن نعطى للدّين والتقوى درجات كبيرة للزوجة والزوج ، مع مراعاة الأمور الأخرى بنسبة ما ، وبذلك نجمع بين ما رآه مالك وما رآه غيره .

٢ - أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية التى تنهى عن التفاخر ، وتحض على التقوى ، ثم قال : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهى طاعة الله ورسوله .

روى البخارى بسنده ، عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرمهم ؟ قال : «أكرمهم أتقاهم» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن يعقوب نبى الله ، ابن إبراهيم خليل الله» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فعن معادن العرب تسألون» ؟ قالوا : نعم ، قال: «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» [٨٤] .

٣ - وردت أحاديث نبوية كريمة فى معنى الآية ، منها ما رواه أبو بكر البزار فى مسنده ، عن حذيفة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم ، وآدم خُلق من تراب ، ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكوننّ أهون على الله تعالى من الجُعْلان» [٨٥] .

وعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبى لأضع أنسابكم، أين المتقون» ؟

وفى صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً : «إنّ أولياء أبى ليسوا لى بأولياء ، إن وليِّى اللّه وصالحو المؤمنين» (٨٦) .

★ ★ ★

أصول الإيمان الصحيح

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

الأعراب : هم سكان البادية بخاصة ، والأعراب اسم جنس وليس جمعا ، والنسبة إليه أعرابى ، والمراد بهم هنا جماعة منهم لا كلّهم ، أما العرب فهم أهل الأمصار ، وهو اسم جنس ، أيضا ، والنسبة إليه عربى .

آمنا : صدقنا بألسنتنا وقلوبنا .

أسلمنا : صدقنا بألسنتنا دون قلوبنا .

لا يلتكم : لا ينقصكم ، يقال : لاته يلته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية : (الحمد لله الذى لا يُفات ولا يُلاتُ ولا تُصمُّه الأصوات).

يمنون عليك : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة وأسدى إليك نعمة .

تمهيد :

حث القرآن على التقوى وإخلاص العمل لله سبحانه وتعالى ، وإلى جوار ذلك ذكر نموذجا سيئاً من الأعراب ، يتظاهر بالإيمان ويدّعيه ، وهو لا يتصف إلا بالإسلام والانقياد الظاهرى .

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن هذه الآيات نزلت فى بنى أسد بن خزيمة ، قدموا المدينة فى سنة مجدبة ، وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السِّر ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمنون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات .

من تفسير القرطبى

ذكر القرطبى ، عن السُّدّى أن الآيات نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح ، أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغِفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنّا ليأمنوا على أنفسهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا . ا هـ .

وقيل فى سبب النزول غير ذلك .

التفسير :

١٤ – قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

قال ابن كثير:

وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان .. فترقى من الأعم إلى الأخص .

كما دلّ هنا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية إنما هم مسلمون ، لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه ؛ فأُدبوا بذلك . ا هـ .

ومعنى الآية :

ادعت فئة من الأعراب أنهم آمنوا ، أى صدّقوا بالله تعالى ربا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبالإسلام دينا ، بينما واقعهم غير ذلك ، فهم أظهروا الإسلام طمعا فى المغانم ، فالأموال عندهم أهم من ثواب الآخرة.

قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ...

أعلم الله رسوله بحقيقة حالهم ، وأن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم .

أى : قل لهم : لم تؤمنوا حين قدمتم إلىّ ، ولكن ، قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ...

أى : سالمناك ولن ننضم إلى قوم يحاربونك ، ولا نقف فى حرب ضدّك.

وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ...

تفيد لما فى النحو قرب وقوع ما بعدها ، تقول : قاربت الوصول إلى بلدتى ولمّا أدخلها ، أى : أتوقع قريبا دخولها ، والقرآن يشوِّقهم إلى قرب دخول الإيمان إلى قلوبهم ، والانضمام إلى جماعة المسلمين المخلصين .

وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ...

إذا أطعتم الله ورسوله بالدخول الحقيقى فى دين الإسلام ، فإن الله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فهو واسع المغفرة ، رحيم بعباده ، يأخذ بأيديهم إلى طاعته ، ويتقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وفى الآية أدب جميل من أدب الخطاب ، وفيها استمالة إلى الإيمان وتحريض عليه ، وفتح أبواب التوبة والمغفرة لهم متى أخلصوا .

١٥ - إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ .

تلك صفات المؤمنين الصادقين ، وهى :

(أ) الإيمان الصادق ، واليقين الجازم بالله تعالى ربًّا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

(ب) عدم الشك والارتياب فى صدق الرسول ﷺ ، وصحة هذا الدين .

(جـ) المشاركة العملية مع المسلمين فى جهادهم ، والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله .

ونلاحظ أنه قدّم المال على النفس ، لأن هؤلاء قدموا راغبين فى المال ، أو لأن كثيراً من الناس يكون المال أكثر همّهم .

فمن جمع هذه الصفات من الإيمان واليقين والسلوك العملى فى الجهاد بالمال والنفس ، فهؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم ، وإنه لوسام عظيم لهؤلاء المؤمنين الصادقين ، وفى الآية تعريض بالأعراب وأنهم لم يصدقوا فى إيمانهم .

١٦ – **قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .**

قل لهم : أتخبرون الله بدخولكم فى دين الإسلام ، والله سبحانه وتعالى تنكشف أمامه جميع الموجودات، انكشافًا تامًا دون سبق خفاء وهو سبحانه مطلع على الخفايا ، عليم بالنوايا ، فأخلصوا له نواياكم ، فإنه يعلم ما فى السماوات من أملاك وأفلاك وشموس وأقمار وأرزاق ، وما فى الأرض من إنسان وحيوان وطيور وحشرات وزواحف ، وهو سبحانه بكل شىء عليم ، أى هو عليم بالماضى والحاضر والمستقبل ، وعليم بكل ما فى الوجود ، على حدّ قول القائل :

يا عالم الأسرار حسبى محنة   علمى بأنك عالم الأسرار

١٧ – **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ .**

يمنون عليك أيها الرسول بإيمانهم ، ويتفضلون ويظهرون المنّ والنعمة عليك بإيمانهم ، حيث قالوا: جئناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فقل لهم أيها الرسول الكريم : **لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم** ... فهو إيمان مدخول ، واستسلام ظاهر رغبة فى غنائم الدنيا .

أما الإيمان الحقيقى فهو نور من الله ، وهداية وبصيرة صادقة ، ويقين حقيقى بالله الخالق الرازق ، المعطى المانع ، والهداية الحقيقية لهذا الإيمان منحة من الله ، فمنه الهداية والمشيئة والتوفيق والرعاية ، وله سبحانه وتعالى الفضل والمنة لأنه هداكم للإيمان ، ووفقكم للدخول فيه ، إن كنتم صادقين فى دعواكم.

والآية نموذج رشيق لطيف فى دحض حجة الخصم ، وتقويم سلوكه ، وإرشاده إلى الحقائق ، وفتح باب الأمل لإرشاده إلى السلوك الأمثل ، والطريق القويم ، وتذكرنا هذه الآية بموقف النبى ﷺ بعد فتح مكة، وانتصاره فى معركة حنين والطائف ، فقد وزع الغنائم بين أهل مكة ، ولم يعط الأنصار شيئًا منها إلا رجلين فقيرين من الأنصار ، فقالت الأنصار : لقد وجد رسول الله ﷺ أهله ، فجمع الرسول ﷺ الأنصار ، وقال لهم: «يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم» ؟ فقالوا : قلنا : لقد وجد رسول الله ﷺ أهله ، فقال ﷺ : «يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بى» ؟ قالوا : بلى ، اللّه ورسوله أمنّ وأفضل ، أو : لله ورسوله الفضل والمنة ،فقال ﷺ : «أما والله إن

شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتم : أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك ، وطريدًا فآويناك ، ووحيدًا فجمعناك ، يا معشر الأنصار ، أئذا أعطيت بعض الناس لعاعة من الدنيا أتألفهم بها ، وتركتكم إلى إيمانكم تغضبون ؟ أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فوالذى نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس فجًا ، وسلك الأنصار فجًا ، لسلكت طريق الأنصار ، اللهم اغفر للأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار» . فبكى الأنصار حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ .

وموضع الشاهد هنا قول الأنصار :

(الله ورسوله أمنّ وأفضل) .

أو : (لله ورسوله الفضل والمنّة) .

١٨ - إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الله سبحانه وتعالى عليم بما ظهر وما غاب ، فى جميع أنحاء السماوات والأرض ، ومن جملة ذلك ما يستره كل إنسان فى نفسه ، والآية تأكيد وتكرير لسعة علم الله ، سعة ترتجف أمامها قلوب المؤمنين ، ليقينهم بأنه سبحانه مطلع على كل حركة أو سكون ، فأولى بهم أن يطلعوه على خير فى قلوبهم .

قال تعالى : وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ... (البقرة : ١٩٧) .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الحجرات

آداب سورة الحجرات يمكن تقسيمها إلى قسمين :

قسم منها أدب بين المسلمين ونبيّهم الكريم محمد ﷺ ، وهو :

١ – ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه ، وألا يسبقوا برأيهم أو اجتهادهم ما فرضه الله ، أو ما أمر به رسول الله ﷺ .

٢ – الهيبة والإجلال لرسول الله ﷺ ، وألا تتجاوز أصواتهم صوته .

٣ – ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل عليهم أن يخاطبوه بالنبى والرسول .

٤ – الذين يُخفضون أصواتهم عند رسول الله هم المتقون الذين أخلصهم الله لتقواه وطاعته .

٥ – الذين نادوه من وراء الحجرات وقت القيلولة فيهم جلافة وسوء أدب ، ولو صبروا إلى وقت خروجه لصلاة العصر لكان خيرًا لهم .

٦ – ذمّ المنّ على رسول الله ﷺ بالإيمان .

والقسم الثانى يخص الأمة الإسلامية ، وهو إما ترك للرذائل ، وإما تحلية بالفضائل ، ويتمثل فيما يأتى :

١ – ألاّ نسمع كلام الفاسق حتى نتثبت منه وتظهر الحقيقة .

٢ – إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية ، حتى تفىء إلى أمر الله .

٣ – حبب الله الصلح بين المؤمنين .

٤ – النهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب .

٥ – النهى عن ظن السوء بالمسلم ، وعن تتبع العورات المستورة ، وعن الغيبة والنميمة.

٦ – الناس جميعا سواسية ، مخلوقون من ذكر وأنثى ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى [٨٧] .

★ ★ ★



تفسير سورة قٓ

أهـــداف ســـورة قٓ

سورة (قٓ) مكية ، وآياتها ٤٥ آية ، نزلت بعد سورة المرسلات

سورة الخطبة

كان ﷺ يخطب خطبة الجمعة بسورة (ق) ، حتى قالت النساء : ما حفظنا سورة (ق) إلا من خطبة النبى ﷺ بها ، وهى سورة تحمل أصول التوحيد ، وتلفت النظر إلى دلائل القدرة فى خلق السماء والأرض، وآثار الله الملموسة فى إنزال المطر وإنبات النبات ، وترشد إلى سنن الله فى إهلاك الظالمين ، واستحقاق الوعيد للمكذبين ، وتجول بالإنسان داخل نفسه ، وتستعرض مشاهد القيامة ، وجزاء المتقين فى الجنة وجزاء العصاة فى النار .

وقد سلكت السورة فى عرض معانيها أسلوبًا رائعًا أخاذًا ، له سيطرته على النفس والحس ، وطريقته الفذة فى هز أوتار القلوب .

جاء فى ظلال القرآن :

سورة (ق) سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيرى ، وصورها وظلالها وجرس فواصلها ، تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها فى خطراتها وحركاتها ، وتتعقبها فى سرها وجهرها ، وفى باطنها وظاهرها ، تتعقبها برقابة الله التى لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث إلى الحشر إلى الحساب ، وهى رقابة شديدة دقيقة رهيبة ، تطبق على هذا المخلوق الإنسانى الضعيف إطباقًا كاملاً شاملاً ، فهو فى القبضة التى لا تغفل عنه أبدًا ، ولا تُغفل من أمره دقيقًا ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيرًا ولا قليلاً ، كل نفس معدود ، وكل هاجسة معلومة ، وكل لفظ مكتوب ، وكل حركة محسوبة، والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة فى وساوس القلب ، كما هى مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، فى كل وقت وفى كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة ، ولكنها تعرض فى الأسلوب الذى يبديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزًا ، وترجها رجًا ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب .

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر ، وإلى إرهاص الساعة فى النفس ، وتوقعها فى الحس ، وإلى الحقائق الكونية المتجلية فى السماء والأرض ، وفى الماء والنبات ، وفى التمر والطلع[٨٨] .

تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . (ق : ٨) .

فواتح السور

تبدأ سورة (ق) بهذا الحرف المفرد : قٓ .

وقد بدأت بعض سور القرآن بهذه الأحرف المقطعة ، فمنها ما بدأ بحرف واحد مثل : صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ . ومثل : قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ . ومثل : نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ .

ومنها ما بدأ بحرفين مثل : طه . ومثل : يسٓ . ومثل : حمٓ .

ومنها ما بدأ بثلاثة أحرف مثل : الٓر . الٓمٓ . طسٓمٓ .

ومنها ما بدأ بأربعة أحرف مثل : الٓمٓصٓ . الٓمٓر .

ومنها ما بدأ بخمسة أحرف مثل : كٓهيعٓصٓ . ومثل : حمٓ * عٓسٓقٓ .

معانى هذه الفواتح :

هناك رأيان فى معنى هذه الفواتح :

الرأى الأول : إنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولذلك نجد فى تفسير الجلالين ، وهو تفسير مختصر: قٓ : الله أعلم بمراده به .

الرأى الثانى : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى :

١ – فمنهم من قال : هى أسماء للسور التى بُدئت بها .

٢ – ومنهم من قال : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وروى عن الضحاك فى معنى (الٓر) : أنا الله أرفع .

٣ – ومنهم من قال : هى قسم .

٤ – ومنهم من قال : هى حروف للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فينبه التلاميذ لدخول المدرسة .

٥ – ومنهم من قال : هى حروف للتحدى وبيان إعجاز القرآن .

٦ – وقيل : إن هذه الأحرف قد اشتملت على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسور ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، وهى للقسم ، وهى أدوات للتنبيه ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وهى أيضًا مما أستأثر الله بعلمه .

معانى سورة قٓ

هذه سورة مكية عنيت بسوق الحجج والأدلة على قدرة الله وعلى تأكيد البعث والجزاء .

وقد بدأت السورة بمواجهة المشركين ، وعرض أفكارهم وعجبهم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم ، كما أنهم أنكروا البعث والحشر بعد الموت ، واستدلوا بدليل ساذج هو تفسخ الأجسام وصيرورتها ترابًا .

والقرآن يوضّح قدرة الله وعلمه الشامل بما تأكله الأرض من أجسامهم ، فهم لا يذهبون ضياعًا إذا ماتوا وكانوا ترابًا ، أما إعادة الحياة إلى هذا التراب فقد حدثت من قبل ، وهى تحدث من حولهم فى عمليات الإحياء المتجددة التى لا تنتهى . (الآيات : ١ – ٥) .

ويلفت القرآن نظر الناس إلى آثار قدرة الله ، فالسماء سقف مرفوع ، والأرض بساط تحفظه الجبال ، وتجرى فيه الأنهار ، وتنمو فيه صنوف النبات ، والمطر ينزل فيبعث البركة والنماء ، وينبت الحَبّ والنخيل والأعناب ، ويبعث الحياة فى الزرع والأرض ، وبمثل هذه القدرة العالية يحيى الله الموتى ويبعثهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية . (الآيات : ٦ – ١١) .

ويلفت القرآن النظر إلى عبرة التاريخ ويذكّر الناس بما أصاب قوم نوح من الغرق ، وما أصاب المكذبين من الوعيد والهلاك ، ومنهم أصحابُ الرس (والرس هى البئر) وأصحاب الرس بقية من ثمود ، كانت لهم بئر فكذبوا نبيهم ودسوه فى البئر . وأصحاب الأيكة : وهم قوم شعيب ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف الكثيف . وقوم تبع ، وتبع لقب لملوك حمير باليمن .

إن هؤلاء الأقوام أنكروا الرسالة الإلهية ، وكذبوا رسل الله إليهم ، فاستحقوا عذاب السماء ، وهذا العذاب يصيب كل مكذب بالله وأنبيائه . (الآيات : ١٢ – ١٥) .

رقابة الله

خلق الله الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها ، فهو سبحانه عليم بخفايا الصدور ، مطلع على هواجس النفوس ، قريب من عباده لا يغيب عنهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، وهناك ملائكة تسجل أعمال العباد ، نؤمن بها ونفوض حقيقة المراد منها إلى الله

تعالى ، ولقد عرفنا نحن البشر وسائل للتسجيل ، تسجل الحركة والنبرة ، كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما والتليفزيون ، فليس ببعيد على الله أن يجعل من ملائكته شهود عيان يحصون على الإنسان أقواله وأفعاله بالحق والعدل . (الآيات : ١٦ – ١٨)

قال تعالى : كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . (الانفطار : ١١ ، ١٢) .

مشاهد القيامة

تحدثت السورة عن البعث والحشر ، ولفتت الأنظار إلى آثار الله فى الآفاق ، وإلى سننه فى التاريخ، وإلى عجيب صنعه فى حنايا البشرية . ومن إعجاز القرآن أنه ينتقل بالمشاهد من الماضى إلى الحاضر ، ويلون فى أسلوب العرض ، ويغرض النفس الإنسانية لسائر المؤثرات ، رغبة فى الهداية والإصلاح . قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

وقد عرضت سورة (ق) لمشاهد القيامة ، وفى مقدمتها حضور سكرة الموت فجأة بلا مقدمات ، والموت طالب لا يملّ الطلب ، ولا يبطئ الخطا ولا يخلف الميعاد ، ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ . (ق : ١٩) . أى : تهرب وتفزع ، والآن تعلم أنه حق لا مهرب منه ولا مفر ، وتنتقل الآيات من سكرة الموت إلى وهلة الحشر وهول الحساب ، وهى مشاهد تزلزل الكبرياء الجامح ، وتحارب الغرور والطغيان ، وتدعو للتقى والإيمان ، فملك الموت ينفخ فى الصور ، فيقوم الناس من القبور ويهرع الجميع إلى الحساب ، وتأتى كل نفس ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، وقد يكونان الملكين الكاتبين الحافظين لها فى الدنيا ، وقد يكونان غيرهما ، والأول أرجح ، عندئذ يتيقن المنكر ، ويرى البعث والحشر والجزاء مشاهدًا أمامه ، ينظر إليه ببصر حديد نافذ لا يحجبه حجاب من الغفلة أو التهاون . (الآيات : ١٩ – ٢٢) .

ويشتد غضب الجبار على العصاة المعاندين ، فيأمر الله الملكين – السائق والشهيد – أن يلقيا فى النار كل كفور عنيد ، مناع للخير متجاوز للحدود شاكّ فى الدين ، الذى جعل مع الله إلها آخر ، فاستحق العذاب الشديد .

ويشتد الخصام بين الشيطان وأتباعه من العصاة ، يحاول كلٌّ أن يتنصل من تبعة جرائمه ، وينتهى الحوار بين المجرمين بظهور جهنم تتلمظ غيظًا على من عصا الله ، ويلقى فيها العصاة ، ولكنها تزداد نهمًا وشوقًا لعقاب المخالفين ، وتقول فى كظة الأكول النهم : هَلْ مِن مَّزِيدٍ . (الآيات : ٢٤ – ٣٠) .

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف رضّى جميل ، إنه مشهد الجنة تقرب من المتقين حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم . (الآيات : ٣١ – ٣٥) .

ختام السورة

فى الآيات الأخيرة من السورة (الآيات : ٣٨ – ٤٥) نجد ختامًا مؤكدًا للمعانى السابقة ، كأنه الإيقاع الأخير فى اللحن ، يعيد أقوى نغماته فى لمس سريع ، فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين ، وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين ، وفيه لمسة البعث والحشر فى مشهد جديد ، ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى للمشاعر والقلوب : فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ . (ق : ٣٩) . وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب كلها ظواهر مرتبطة بالسماوات والأرض ، والقرآن يربط إليها التسبيح والحمد والسجود ، ويضم إليها الصبر والأمل فى الله القوى القادر ، فعليك يا محمد أن تبلغ القرآن للناس علهم يتعظون أو يخافون : نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ . (ق : ٤٥) . وفى هذا تسلية للرسول ﷺ ، وتثبيت لفؤاده ، وتهديد ووعيد للعصاة والكافرين .

أهداف السورة إجمالا

قال الفيروزبادى :

مقصود سورة (ق) : إثبات النبوة للرسول ﷺ ، وبيان حجة التوحيد ، والإخبار عن إهلاك القرون الماضية ، وعلم الحق تعالى بضمائر الخلق وأسرارهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العصاة يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضًا فى ذلك اليوم ، وتغيظ الجحيم على أهلها ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخليق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخه فى الصور ، وتكليف الرسول ﷺ أن يعظ الخلق بالقرآن المجيد[٨٩] .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾

المفردات :

ق : حروف افتتح الله بها بعض السور للتحدى والإعجاز، وجذب الانتباه، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

والقرآن المجيد : المجيد : ذى المجد والشرف على سائر الكتب ، لكثرة ما فيه من الخير الدنيوى والأخروى .

بل عجبوا أن جاءهم منذر : استعجبوا مما ليس بعجيب ، أن يختار الله بشرًا رسولاً يتيمًا فقيرًا .

شىء عجيب : يقتضى التعجب والإنكار كما زعموا .

ذلك رجع بعيد : ذلك البعث رجع بعيد عن الوقوع ، أو عن الإمكان .

ما تنقص الأرض منهم : ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم .

حفيظ : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها .

بالحق : بالنبوة الثابتة بالمعجزات .

فهم فى أمر مريج : فهم فى أمر مضطرب ، من مَرَجَ الخاتم فى أصبعه ، إذا تحرك واضطرب من الهزال .

تمهيد :

كان النبى ﷺ يقرأ سورة (ق) فى خطبة الجمعة والعيدين والمجامع الكبيرة ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، والميعاد والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب .

أخرج أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، عن أبى واقد الليثى أنّه ﷺ كان يقرأ فى العيد بسورتى ق ، واقتربت[٩٠] .

وفى الآيات الأولى من السورة مناقشة الكافرين والردّ عليهم ، ودعوة للتأمل فى خلق السماوات والأرض وما فيهما من بدائع وعجائب .

التفسير :

١ - قٓ ...

حروف بدأ الله بها بعض السور للتحدّى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من حروف عربية تنطقون بها ، وكثيرًا ما يأتى ذكر القرآن بلفظه أو بمحتواه بعد هذه الأحرف ، مما يدل على أن من أهدافها التحدّى بهذا الكتاب ، والتنبيه إلى أهميته وفضله ، وهذه الأحرف :

١ - منها ما هو مكون من حرف واحد ، مثل : قٓ . نٓ . صٓ .

٢ - منها ما هو مكون من حرفين ، مثل : حمٓ . طه . يسٓ .

٣ - منها ما هو مكون من ثلاثة أحرف ، مثل : طسٓمٓ . الٓر . الٓمٓ .

٤ - منها ما هو مكون من أربعة أحرف ، مثل : الٓمٓصٓ . الٓمٓر .

٥ - منها ما هو مكون من خمسة أحرف ، مثل : كٓهيعٓصٓ . حمٓ * عٓسٓقٓ .

وقد أقسم الله تعالى بأمور كثيرة لبيان فضلها ، أو لفت الأنظار إليها ، أو بيان العظمة الإلهية فى خلقها وتسخيرها ، ومما أقسم الله به ما يأتى مفردًا أى مرة واحدة ، وأحيانًا يقسم بأمرين ، وأحيانًا بثلاثة أمور ، وأحيانًا بأربعة أمور ، وبخمسة أمور ، ومثال ذلك ما يأتى :

١ - القسم بأمر واحد مثل : وَٱلْعَصْرِ (العصر : ١) ، ومثل : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . (النجم : ١)

٢ - القسم بأمرين مثل : وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . (الضحى : ١ ، ٢) ، ومثل : وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ . (الطارق : ١)

٣ - القسم بثلاثة أمور ، مثل : وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا * فَٱلتَّـٰلِيَـٰتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ . (الصافات : ١ - ٤)

٤ - القسم بأربعة أمور ، مثل : وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ . (الذاريات : ١ - ٦) .

ومثل : وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . (البروج : ١ - ٣) .

ومثل : وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .
(التين : ١ - ٤)

٥ - القسم بخمسة أمور مثل : وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ . (الطور : ١ - ٦) .

وفى (والمرسلات ...) ، وفى (والنازعات) ، وفى (والفجر ...) .

ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا فى سورة واحدة ، وهى : وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ١ - ١٠) .

عودٌ إلى التفسير

وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ .

وأقسم بالقرآن صاحب المجد والشرف ، والكرم والسعة ، الذى يجد فيه كل طالب حاجته ، والذى هيمن على الكتب السماوية السابقة ، ووضح صوابها ، وما فيها من تحريف أو تبديل ، والذى ختم الله به الكتب ، وجعله مشتملاً على أصول التشريع والآداب ، والقصص والتاريخ ، وسنن الكون ، ونواميس الوجود، وأخبار القيامة والبعث والحشر ، والجزاء والعقاب ، والجنة والنار ، مع سلامة اللفظ ورشاقة المعنى ، وقوة السَّبك ، وجزالة الأداء ، مع الاشتمال على صنوف الإعجاز ، وعجز العلوم مع تقدمها عن أن تنقض أى حكم من أحكامه ، واشتماله على الإعجاز الغيبى ، والإعجاز التشريعى ، والإعجاز البلاغى ، والإعجاز اللفظى ، والإعجاز العلمى ، وموافقته لكل زمان ومكان ، وهو ناسخ لما سبقه ، غير منسوخ إلى يوم الدين .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ . (الحجر : ٩) .

ومعنى الآية : أقسم بـ ق ، وأقسم بالقرآن المجيد ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده ، وتقديره: إنك أيها الرسول لصادق فيما تبلّغه عن ربّك من أن البعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ، ولكن الجاحدين لم يؤمنوا بذلك .

٢ - بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ .

بل عجب كفار قريش من أن جاءهم رسول منهم ينذرهم القيامة والبعث والحشر والجزاء والعقاب ، فأنكروا الرسالة والرسول ، وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ .

لم يكتفوا بالإنكار بل انتقلوا إلى التعجب ، فاستكثروا أن يكون الرسول بشرًا ، وقالوا : لو أراد الله أن يرسل رسولاً لاختار مَلَكًا من الملائكة ، واستكثروا أن يكون فقيرًا يتيمًا : وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) . واستكثروا البعث والحياة بعد الموت والبلى .

٣ - أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ .

إذا متنا ودُفِنّا فى الأرض ، وتفسخت أجسامنا ، وأدركنا الفناء والبلى ، فإن عودة الحياة إلينا بعيدة ، فما أبعد الفرق بين الموت والغياب فى الأرض ، وتمزّق الجسد ووهن العظام وتفتّتها ، ثم الحياة والحركة والبعث .

وكثيرًا ما استعرض القرآن شبهات الكافرين وناقشها وفنّدها ، فذكر ما يأتى :

(أ) الذى بدأ الخلق أول مرة قادر على الإعادة مرة أخرى .

(ب) قدرة الله لا حدود لها ، فهو على كل شىء قدير .

(جـ) علم الله مُحيط بكل شىء ، فهو يعلم كل ذرة فى أجسامهم ، وعنده كتاب قد سجّل فيه كل شىء عنهم .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٣) .

٤ - قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ .

إن بعثهم لا صعوبة فيه على الله ، فقد علم ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، وعنده كتاب حافظ لكل شىء ، وقد سجل فيه كلّ شىء ، والله تعالى قد أحاط بكل شىء علمًا ، ومع ذلك سجّل أمور الناس

فى كتاب ، تصويرًا لشدة الضبط والإحاطة ، فإن من شأن الناس إذا أرادوا حفظ شىء وضبْطه أن يسجلوه فى سجل خاص به ، ومن ذلك دفاتر الحسابات والمبيعات والمشتريات ، والله غنى عن كل ذلك ، لكنه أراد تقريب هذا الضبط إلى أذهان البشر ، ولا يبعد على الله استعمال ذلك ، فهو سبحانه قد أحاط بكل شىء علمًا، وهو سبحانه سجل أعمال العباد وما يتصل بهم فى سجلات يشاهدونها يوم القيامة ، ليزداد يقينهم وتأكدهم ، ولأن هذا أبلغ فى العدالة والضبط ، فهذه الكتب بمثابة الشاهد الملموس المحسوس .

قال تعالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٥ - بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ .

بل للإضراب والانتقال إلى ما هو أعظم من استبعادهم للبعث والحشر، فهم قد كذبوا بالوحى الإلهى ، وهو القرآن الكريم ، وكذبوا بالنبى محمد ﷺ ورسالته لما جاءهم ، وقالوا عن القرآن : أساطير الأوّلين ، وقالوا : أضغاث أحلام ، وقالوا : إنما يعلمه بشر ، وقالوا عن النبى ﷺ : ساحر ، وشاعر ، وكاهن ، وكاذب ، وفقير ، وقالوا : إنه بشر ، هلا كان مَلَكًا ، وقالوا غير ذلك مما يدلّ على اضطرابهم واختلالهم ، فهم لم يثبتوا على حال واحدة من القول ، والقرآن يصوّر اضطرابهم بحال إنسان يريد أن يوجّه تهمًا متعددة لآخر ، فينتقل من رأى إلى آخر ، ولا يستقرّ على حال .

قال تعالى : بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ . (الأنبياء : ٥) .

ونلحظ أن القرآن هنا قد استعمل كلمة مناسبة فى الردّ عليهم حين قال :

فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ .

أى : مضطرب مختلط ، بحيث لا يستقرّون على حال ، يقال : مَرِج الأمر - بزنة طَرِب - إذا اختلط وتزعزع وفقد الثبات والاستقرار والصلاح ، ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، إذا فسدت وعمّتهم الخيانة، ومرج الخاتم فى أصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه .

★ ★ ★

أدلة القدرة الإلهية

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

بنيناها : أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد .

وزيناها : بالكواكب على أبدع نظام ، وأكمل إحكام .

فروج : شقوق .

مددناها : بسطناها .

رواسى : جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب .

زوج : صِنف .

بهيج : ذى بهجة وحسن .

تبصرة وذكرى : تبصيرًا وتذكيرًا .

منيب : مَنْ أناب ، إذا رجع وخضع .

حب الحصيد : حبّ الزرع الذى من شأنه أن يحصد ، كالبر والشعير .

باسقات : طويلات .

طلع : ما ينمو ويصير بلحا ثم رطبًا ثم تمرا .

نضيد : منضود بعضه فوق بعض .

كذلك الخروج : مثل ذلك خروجكم للبعث من قبوركم .

تمهيد :

يقدم القرآن هنا الدليل العملى المشاهد على قدرة الله العلى القدير فى هذه الصور المتتابعة، وهى :

(أ) السماء العالية البناء فى زينتها وعدم تشققها .

(ب) الأرض المبسوطة ، وفوقها الجبال الراسية ، وقد خرجت منها صنوف النباتات والأزهار ، والزرع وغير ذلك .

(جـ) نزول الأمطار التى تنبت الجنّات والبساتين ، وحبّ الذرة والشعير والقمح الذى يحصده الفلاح ، فيقتات به الإنسان والحيوان وغيرهما .

(د) والنخل الباسقة الطويلة ، تحيط بها قلادة البلح المنظّم النّضير .

(هـ) هذه النعم رزق للعباد ، وقد أحيينا الأرض الميتة بالماء ، وكذلك نبعث الموتى بقدرتنا ، فهو سبحانه على كل شيء قدير .

التفسير :

٦ - أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ .

أفلم ينظر هؤلاء الكفار بأمّ أعينهم إلى السماء فوقهم ، وهى قبة مترامية الأطراف ، لا تعتمد علي أعمدة ليتأمّلوا فى هذه القبة الزرقاء ، **كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ .**

كيف أحكمنا بناءها ، ورفعنا بُنْيانها بدون عمد يرونها ، وزينّاها بالنجوم ، كالثريا التى تزين المنازل ، ولم نجعل فى السماء شقوقًا ولا عيوبًا ولا تصدُّعًا .

فُرُوجٍ . جمع فرج ، وهو الشق بين الشيئين ، والمراد : سلامتها من كل عيب وخلل .

كما قال سبحانه وتعالى : **ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ .** (الملك : ٣ ، ٤) .

أى : لن تجد فى السماء عيبًا ولا تشققًا ولا تصدّعًا ولا خللاً ، ومهما بحثت عن عيب وكررت النظر مرارًا ، فسينقلب البصر كليلاً متعبًا ، بعد لأى وجهد لأنه لم يجد أى عيب فى السماء ، وقد جعل الله النجوم فى السماء لثلاثة أهداف :

الأول : أنها زينة للسماء .

الثانى : أنها هداية للسائرين في الصحراء والبحار ، ليعرفوا بها الجهات الأربع الأصلية ، ومن ثمّ يهتدون إلى الطريق الذى يسلكونه .

الثالث : أنها رجوم وشهب تصيب الشياطين ، الذين يحاولون استراق السمع من السماء .

قال تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .
(الصافات : ٦ - ١٠)

وقال سبحانه وتعالى : وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . (النحل : ١٦) .

٧ - وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ .

والأرض بسطناها فى نظر العين ، وبَسْطها لا ينافى كرويتها وحركتها أمام الشمس ، ويترتب على ذلك الليل والنهار ، فالجزء المتعرض للشمس يكون نهارًا ، والمختبئ عن الشمس يكون ليلاً .

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ...

وخلقنا فيها جبالاً رواسى ، تحفظها من أن تميد أو تضطرب ، والجبال من أنعم الله تعالى ، ففى قمتها تتجمع الثلوج فى الشتاء ، ثم تنزل فى الصيف فتسقى الزرع ، وتفيض على المرتفعات ، والجبال ملجأ للهارب ، وأمان للعابد ، وبيت لراغب الخلوة ، ولأمر ما سبَّحت الجبال مع داود ، وخرَّ الجبل أمام موسى عندما تجلى الله تعالى للجبل ، وكانت خلوة النبى ﷺ فى غار حراء حين نزل الوحى أول مرة ، وابتدأت الهجرة من غار ثور ، وبجوار جبل أُحد كانت غزوة أُحد ، وهناك دفن شهداء الصحابة ، وقال ﷺ : «أُحد جبل يحبُّنا ونحبّه»[١١] .

وشعائر الحج تتم عند جبل عرفات ، وعند السعى بين الصفا والمروة وهما جبلان ، وفى الأثر : (الحج وقفة وطواف) ، أى : وقفة بجبل عرفات ، وطواف الإفاضة حول الكعبة .

والجبال أوتاد تحفظ الأرض وتحفظ توازنها .

قال تعالى : وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا . (النازعات : ٣٢) .

وقال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ... (الأنبياء : ٣١) .

ولأمر ما كانت الرسالات السماوية ونزول الوحى يتم عند الجبال ، حيث يتفرغ الإنسان لمقابلة مولاه، متخلصًا من الدنيا وزحامها ومشاغلها ، فقد نادى الله تعالى موسى عند جبل الطور ، ونزل وحى السماء أول مرة : ٱقْرَأْ . فى غار حراء ، وهو خلوة فى أعلى جبل .

وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ .

أنبتنا فى الأرض صنوف النباتات ، والأزهار والثمار ، والحب والقضب ، والحدائق والبساتين ، والورود والنبات اليانع النضير .

٨ - تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ .

إن هذه الصنعة البديعة ، والخضرة الناضرة ، وألوان الزروع والنباتات ، والثمار والكروم والفواكه ، وألوان النبات المتعددة تأخذ بالألباب ، وتبصّر القلب والنفس ، وتذكر الفؤاد والحس بأنّ من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الإنسان بعد الموت ، وقادر على البعث والنشر والحساب والجزاء .

والعبد المنيب : الذى أناب إلى الله ، ورجع إلى مولاه ، وتأمل فى بديع مخلوقاته ، وانتقل من جمال الصنعة إلى جلال الصانع .

٩ - وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ .

ولينظروا إلى آثار قدرتنا ، حيث يسَّرنا نزول المطر من السماء ، وهذا الماء كثير البركة ، حيث ينبت البساتين الناضرة ، والزروع المثمرة ، والحبّ الذى يحصد مثل الشعير والقمح .

١٠ - وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ .

وأنبتنا بهذا الماء النخل الطويلات ، بها بلح منظم منضَّد متراكم بعضه على بعض ، مما يدل على كثرته ، وتخصيص النخل بالذكر مع اندراجه فى الجنات لبيان فضل النخلة على سائر الأشجار .

وفى الحديث الشريف : «إنها أمّكم الذ ـة» .

وفى الحديث أيضًا : «ألا أدلكم على شجرة كقلب المؤمن لا تجف صيفًا ولا شتاءً» ، قلنا : بلى يا رسول الله، قال : «إنها النخلة»[٩٢] .

وقد ورد فى الحديث أن من الصدقات الجارية زراعة النخيل ، ووقف المصحف ، ودعاء الابن لوالده .

قال القائل :

وراثة مصحف ، ودعاء نجل ... وغرس النخل ، والصدقات تجرى

١١ - رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ .

أنبتنا كل ذلك رزقًا للعباد ، ونفعًا لهم وتيسيرًا لحياتهم ، وأحيينا بهذا الماء أرضًا ميتة ، جعلناها تهتز وترتفع بالنبات ، وتثمر من كل زوج بهيج ، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها بالماء فإنه سبحانه بقدرته يبعث الإنسان ويحييه بعد الموت .

والآيات لوحة هادفة فى منظرها ونظامها وإبداعها ، وقد ذكر الإمام الرازى أن الله تعالى ذكر فى كل آية ثلاثة أمور متناسبة :

ففى آية السماء ذكر البناء والتزيين وسدّ الفروج ، وفى آية الأرض ذكر المدّ وإلقاء الرواسى والإنبات فيها ، وكل واحد هنا فى مقابلة واحد مما سبق ، فالمدّ فى مقابلة البناء ، لأن المدّ وضعٌ ، والبناء رفع ، والرواسى فى الأرض ثابتة ، والكواكب مركوزة مزينة للسماء ، والإنبات فى الأرض شقها ، فى مقابل أن السماء سقف ليس به شقوق ، وفى آية المطر إنبات الجنات والحب والنخل ، وهذه الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة ، وهى ما له أصل ثابت يستمر مكثه فى الأرض سنين وهو النخيل ، وما ليس له أصل ثابت مما لا يطول مكثه فى الأرض وهو الحبّ الذى يتجدد كل سنة ، وما يجتمع فيه الأمران وهو البساتين ، وهذه الأنواع تشمل مختلف الثمار والزروع .

★ ★ ★

التذكير بحال المكذبين الأولين

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

المفردات :

كـــذبت : أنث الفعل لأن : قَوْمُ . اسم جنس ، بمعنى الجماعة ، فإذا ذُكرّ فعلى معنى الجمع ، وإذا أُنّث فعلى معنى الجماعة .

الـــرس : البئر التى لم تُطْوَ ، أى : لم تبن .

فـــرعـــون : المراد به : هو وقومه ، كما تسمّى القبيلة باسم أبيها .

الأيـــكـــة : الغيضة الملتفة الشجر.

وقوم تبع : هو تبّع الحميرى ملك اليمن ، أسلم ودعا قومه للإسلام فكذبوه ؛ فأهلكهم الله .

كلٌّ : من المذكورين ، أى : كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم .

فحق وعيد : وجب نزول العذاب على الجميع ، وحل عليهم وعيدى .

أفعيينا : أفعجزنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ، والعىّ بالأمر العجز عنه ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .

لَبْس : شك شديد ، وحيرة واختلاط .

تمهيد :

يقدم الحق سبحانه وتعالى طائفة من الأدلة على صدق الرسالات والبعث ، فذكر فيما سبق أصناف المخلوقات فى السماء والأرض ، وهنا يستعين بحقائق التاريخ ، حيث أرسل الله طائفة من المرسلين ، مثل نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل ، فكذبهم المكذبون فأهلك الله المكذبين ، ونجى المرسلين ، وقد تكررت هذه الأفكار فى عدد من السور المكية ، تهديدًا للمشركين حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم ، وفيها تسلية للرسول الأمين ، كما قال سبحانه : فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ... (الأحقاف : ٣٥)

التفسير :

١٢ - كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ .

لم تكن أنت بدعا من الرُّسل ، ولم يكن تكذيب قومك بدعًا من تكذيب أقوام الرسل ، فقد كذب قوم نوح نوحًا فأهلكهم الله بالطوفان ، وأصحاب الرس – وهى البئر التى لم تُبن ، وقد قيل : إنهم من بقايا قبيلة ثمود – بعث الله إليهم واحدًا من أنبيائه ، فكذبوه ورسّوه فى تلك البئر ، أى ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله سبحانه بسبب ذلك .

وقيل : هم الذين قتلوا حبيبا النجّار ، عندما جاءهم يدعوهم إلى الدّين الحق ، وكانت تلك البئر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألقوه فيها .

وقيل : هم قوم شعيب عليه السلام ، واختار ابن جرير الطبرى أن أصحاب الرسّ هم أصحاب الأخدود، الذين جاء الحديث عنهم فى سورة البروج .

والمراد بثمود : قوم صالح عليه السلام ، وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب ، وقد مر عليهم النبى ﷺ فى طريقه إلى غزوة تبوك ، فحنى رأسه واستحث راحلته ، وأسرع بالجيش ، وقال لمن معه : «لا تمرُّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم»[٩٢] .

١٣ - وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ .

وَعَادٌ . هم قوم عاد الذين كانوا يسكنون بالأحقاف ، وهى كثبان الرمل المعوجّة ، فى جنوب جزيرة العرب ، بين اليمن وسلطنة عمان عند مدينة صلالة ، كذبوا نبيهم واغتروا بقوّتهم ، وعثرت الحفريات على مدائن مطمورة قرب صلالة بسلطنة عمان ، يرجّح أنها لقبيلة عاد .

وَفِرْعَوْنُ . هو الذى أرسل الله إليه موسى ، فكذّبه وقال : أنا ربكم الأعلى ، وتكررت قصته فى القرآن الكريم ، كنموذج واضح لجبار متكبر ، لقى حتفه غرقًا فى الماء جزاء كفره وتكذيبه .

وَإِخْوَانُ لُوطٍ .

قوم لوط الذين شاع بينهم الشذوذ الجنسى ، واستغناء الرجال بالرجال ، ولم يكن لوط منهم ، بل تزوج منهم ، فكانوا إخوانه بالمصاهرة لا بالنسب ، وقد أمطرهم الله بالحصباء ، وجعل عالى الأرض التى يقطنونها أسفلها ، لأنهم انتكسوا بالفطرة ، وجامعوا الرجال وتركوا النساء ، فخسف الله بهم الأرض .

١٤ - وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ .

وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام .

قال تعالى : كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . (الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧) .

والأيكة اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار ، ومكانها فى الغالب بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمّى معان .

وَقَوْمُ تُبَّعٍ ...

وهو تبع الأكبر الحميرى ، واسمه أسعد وكنيته أبو كُرَبٍ ، وكان رجلاً من أهل اليمن ملكًا منصورًا ، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند ، فرجع فأخذ طريق الشام ، ثم مرَّ بالبيت الحرام فدخله مُحرمًا ، فقضى نسكه ، ثم انصرف نحو اليمن راجعًا ، حتى إذا قدم على قومه طلب منهم أن يؤمنوا كما آمن فامتنعوا، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم[٩٤] .

قال تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ . (الدخان : ٣٧) .

كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ .

كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم ، فحق عليهم وعيدى ، وثبتت عليهم كلمة العذاب على التكذيب ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة غافر فى الآية الخامسة ، والآية الحادية والعشرين وما بعدها ، وفى عدد من السور المكية ، وفى الآية الثالثة عشرة من سورة فصلت وما بعدها .

وفى سورة الفجر فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ . (الفجر : ٦ - ١٤) .

١٥ - أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

استفهام إنكارى مؤدّاه : هل عجزنا عن خلق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن صار خلقًا آخر ، تبارك الله أحسن الخالقين الذى خلقه ؟ هل عجزنا عن خلق هذا الكون ، بكلِّ ما فيه من سماء وأرض وفضاء ، وأنهار وأشجار وبحار ، وليل ونهار ، وشمس وقمر وكواكب ؟ هل عجزنا عن حفظ هذا الكون وتماسكه بلايين السنين ؟

وإذا كان ذلك لم يعجزنا ، فإن الإعادة أهون من البدء ، كما قال تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم : ٢٧) .

فالله سبحانه على كل شىء قدير ، ولا يعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، وهم يسلِّمون بأن الخالق للكون ولآدم وذريته هو الله ، ثم يقعون بعد ذلك فى الحيرة والشك والاضطراب والاختلاط ، حين يتعلق الأمر بالنشأة الآخرة والبعث بعد الموت .

جاء فى الحديث القدسى الصحيح ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم ، يقول : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أوّل الخلق بأهون علىّ من إعادته»[٩٥] .

والخلاصة :

إننا لم نعجز عن خلق هذا الكون ، وخلق الإنسان أول مرّة ، وإذا لم نعجز عن البدء ، فإن الإعادة أهون من البدء ، لكنّ الكفار فى حيرة واضطراب ، منهم من يؤمن بالبعث ، ومنهم من ينكره ، وما تكذيب المكذبين إلا من باب تقليد السابقين ، أو المكابرة والعناد ، أو الشك واللَّبس وعدم الاهتداء .

★ ★ ★

تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾

المفردات :

الوسوسة : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلىّ ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر بالبال من شتى الشئون .

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق .

المتلقيان : هما ملكان جعلهما الله لكل إنسان ، ليكتبا أعماله من خير وشر ، عن اليمين وعن الشمال .

قعيد : بمعنى مُقَاعِد ، كالجليس بمعنى المجالس .

الرقيب : مَلَك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرًا كتبه مَلَك اليمين ، وإن كان شرًّا كتبه مَلَك الشمال .

عتيد : مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشرّ .

وجاءت سكرة الموت : وأحضرت شدة الموت حقيقة ما كتبه الله على عباده من الموت .

تحيد : تميل وتعدل .

ونفخ فى الصور : ونفخ فى البوق .

يوم الوعيد : يوم إنجاز الوعيد .

السائق والشهيد : ملكان ، أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر يشهد عليها بعملها .

الغطاء : الحجاب الذى سببته الغفلة والانهماك فى اللذات .

حـــــديـــــد : حاد ونافذ ، لزوال المانع للأعذار .

تمهيد :

بعد أن أثبت الحق سبحانه وتعالى قدرته على البعث والحشر ، بيَّن هنا علمه الواسع وقدرته البالغة، فهو خالق الإنسان ، وهو العليم بكلّ ما فيه ، ومع علمه بكلّ شىء جعل لكل إنسان ملكين يكتبان عليه الحسنات والسيئات ، فإذا جاء الموت – وهو الحقيقة التى ستنزل بكل إنسان – تبعه النفخ فى الصور ، وصُعق الناس ، ثم بُعثوا من قبورهم ، وجاء كلُّ إنسان ومعه ملكان ، أحدهما يسوقه ، والآخر يشهد عليه .

لقد حجبته الغفلة ولذَّاتُ الدنيا عن حقيقة الآخرة ، أما الآن فبصره حديد نافذ ، يرى الحقيقة كاملة، لانعدام الغفلة وظهور الآخرة حقيقة مشاهدة .

التفسير :

١٦ – وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ .

تالله لقد خلقنا جنس الإنسان ، أى كلَّ إنسان فى هذا الوجود ، من آدم إلى قيام الساعة ، وعلمنا ممتد إلى خارجه وداخله ، فنحن نعلم العلانية ، ونعلم وسوسة النفس وحديثها ، وصوتها الخفى الذى لا يسمعه أحد ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو وتين العنق إذا انقطع مات الإنسان ، أى لا تخفى علينا خافية من أمره ، ونحن أقرب إليه من دمه الذى يجرى فى عروقه .

وتصور الآية سعة اطلاع علم الله على ما فى داخل الإنسان ، وعظيم قربه واطلاعه ، ففى جناب الله رهبة وخوف وعظمة ، وقرب مشاهدة وعظيم إحاطة ، وفيه فى نفس الوقت محبة ومودة وحنان وعطف ، ومن رحمة الله وفضله أنه لا يعاقب الإنسان على حديث نفسه حتى يتكلم به أو يعمل به .

أخرج أصحاب الكتب الستة (البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة) أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى تجاوز لأمَّتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به»[٩٦] .

١٧ – إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ .

اذكر حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يفعله الإنسان فيسجلان عليه أفعاله .

وقد ورد فى تفاسير الزمخشرى، والقرطبى، والبيضاوى، وروى ابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبّح أو يستغفر» .

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ .

والقعيد من يقعد معك ، فمَلَك الحسنات قعيد على اليمين ، وملك السيئات قعيد على الشمال ، والأصل أن يقال: عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، فحذفت من الأولى لدلالة الثانية عليها ، فالملائكة تسجل على الإنسان الحسنات والسيئات ، والله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ، لكنّه سبحانه أراد أن يعلم الإنسان، أن كلّ شيء مسجّل ومكتوب ، وفي إحصاء دقيق لا ينسى .

كما قال سبحانه : أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وقال عز شأنه : وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

يقول أحد الصالحين :

لِمَ لا أنوح وأندب ... وجميع جسمي مذنب
نفسي لقبح فعالها ... بين الورى تتأدب
ملك اليمين أرحته ... لم يلق شيئًا يكتب
ملك الشمال بعكسه ... ليلاً نهارًا يتعب

١٨ - مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

ما يتكلم الإنسان كلمة إلا وهناك ملك مستعد متهيّئ لتسجيل هذه الكلمة ، فإن كانت خيرًا سجلها ملك اليمين ، وإن كانت شرًا سجلها ملك الشمال .

والرقيب : المتتبع للأمور الحافظ لها .

والعتيد : الحاضر الذى لا يغيب ، والمهيأ للحفظ والشهادة ، وإذا كان القول يسجّل على الإنسان ، فإن العمل يسجل من باب أولى .

قال تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . (الانفطار : ١٠ - ١٢) .

قال الحسن البصرى :

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ .

يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأمّا الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متّ طويت صحيفتك ، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى : وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) . ثم يقول : عَدَل والله فيك ، من جعلك حسيب نفسك .

١٩ - وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ .

حضرت لك أيها الإنسان شدة الموت بالحق الذى وعدك به الرسل ، ذلك الحق هو ما كنت عنه تميل وتنصرف عن التفكر فيه ، إنها الحقيقة الكاملة التى تنزل بكل إنسان مهما عظم أمره أو صغر ، مهما طار فى الهواء أو غاص فى الماء ، أو وصل إلى القمر أو المريخ ، فهناك لحظة يسكن فيها هذا الإنسان ، وتخرج روحه ، ويصبح جثة هامدة ، لا حياة ولا حركة ، لقد نزل به قوله تعالى : وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ . نزلت شدة الموت .

وفى الحديث الصحيح ، عن عائشة أن النبى ﷺ لما تغشاه الموت ، جعل يمسح العرق عن وجهه ، ويقول : «سبحان الله ، إن للموت لسكرات»[٩٧] .

ولما ثقل أبو بكر ، جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعمرك ما يُغْنى الثراء عن الفتى	إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف أبو بكر رضى الله عنه عن وجهه ، وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ .

٢٠ - وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ .

الصور هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، ولإسرافيل نفختان فى الصور ، إحداهما تموت عندها الخلائق ، والثانية يبعث عندها الموتى وهى المرادة هنا .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

ويكون معنى الآية :

ونفخ فى الصور النفخة الأخيرة ذلك الوقت ، وهو الوقت الذى توعَّد الله فيه كل كافر بسوء المصير ، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء ، وخص الوعيد بالذكر لتهويل اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه .

٢١ - وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ .

جاءت كل نفس خلقها الله تعالى ، من آدم إلى قيام الساعة ، جاءت إلى أرض المحشر للحساب والجزاء ، ومعها سائق يسوقها ، وشاهد يشهد عليها ، وقد جاء فى الحديث الشريف : «أن أحدهما ملك الحسنات ، وثانيهما ملك السيئات ، اللذان كانا يكتبان أعمال العباد فى الدنيا» ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية مرفوعًا عن جابر .

٢٢ - لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

أى : يقال للكافر أو لكل إنسان من بر وفاجر : لقد كنت فى الدنيا غافلاً عن هذا اللقاء ، شغلتك عنه زخارف الدنيا وشئونها ، وأكبرت الدنيا ، ونسيت الآخرة ، والآن كُشف الغطاء ، وظهرت الحقيقة ، ورأيت القيامة رأى العين فبصرك اليوم ، حَدِيدٌ . أى : قوى شديد نافذ .

قال الحجاج يتوعد بعض الرجال المخالفين له : لأحملنك على الأدهم ، فقال الرّجل : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فقال الحجاج : ويحك إنه من حديد ، فقال الرجل : لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا .

قال المفسرون :

فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

أى : فبصرك ونظرك فى هذا اليوم نافذ قوىّ ، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره فى الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب ، والآيات فى قوتها وجرسها وتصويرها لوحة هادفة ، تأخذ بيد الإنسان إلى الصراط المستقيم ، وتزيح عنه الغفلة فى الدنيا ، وترسم له طريق النجاة فى الآخرة .

★ ★ ★

من مواقف الحساب

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

القرين : الملك الموكّل بالمرء .

عتيد : معدٌّ محضَّر .

عنيد : مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحقّ .

مناع للخير : كثير المنع للمال عن الحقوق المفروضة عليه .

معتد : متجاوز للحق ظالم .

مريب : شاك فى الله وفى دينه .

القرين : المراد هنا : الشيطان المقيّض له .

بعيد : عن الحق ، مغرق فى الباطل .

لا تختصموا لدىّ : لا يجادل بعضكم بعضا عندى .

بالوعيد : على الطغيان فى دار الدنيا ، فى كتبى ، وعلى ألسنة رسلى .

ما يبدّل القول لدىّ : لا يقع فيه الخلف والتغيير ، فلا تطمعوا أن أبدّل وعيدى.

مزيد : زيادة .

تمهيد :

من شأن القرآن الكريم أن يعرض الآخرة أمام الإنسان كأنما يراها رأى العين ، وهنا يعرض صورة للملاك يقدم ما سجّله على الكافر ، حيث يؤمر بالكافر أن يوضع فى جهنم ، جزاء كفره وعناده وبخله ، وكأن الكافر يعتذر بأن الشيطان أغواه ، فيعترف الشيطان بأنه وسوس له ، وزيّن له فقط ، أما الاستجابة للشرّ والضلال ، والاستعداد للغواية والكفران فقد كانت منه ، فالتبعة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : لا فائدة من الخِصام عندى ، فقد جعلت ناموساً وقانُونا أنزلته إلى الدنيا فى كتبى ، وعلى ألسنة رسلى ، ولن يتغير هذا الناموس ، فللنَّار أهلها ، وللجنة أهلها ، بدون ظلم كبير ولا قليل ، بل بالعدل والقسطاس المستقيم .

التفسير :

٢٣ - ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾

أى : قال المَلَك الموكل به – أى بابن آدم – : هذا ما عندى من كتاب عملك معد محضَّر بلا زيادة ولا نقصان .

قال مجاهد : هذا كلام المَلَك السائق يقول : هذا ابن آدم الذى وكلتنى به قد أحضرته ، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد .

وفسّر الزمخشرى وغيره القرين هنا بأنه الشيطان الذى أضلَّ الإنسان ، يقول : هذا أعددته لجهنم وأغويته وأضللته ، أى : أن ملكا يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به يقول : هذا قد أعددته لجهنم، واستشهد الزمخشرى بقول الله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ . (الزخرف : ٣٦) .

وأنا أرجّح أن القرين فى هذه الآية للملاك ، السائق والشهيد .

ونلاحظ أن اللفظة فى القرآن الكريم قد تكون واحدة ، ويكون لها أكثر من تفسير بحسب السياق الذى ترد فيه ، فلفظ (الهدى) فى القرآن يأتى بمعنى الهداية إلى الخير ، وبمعنى الإسلام ، إلى ستة عشر معنى، والسياق هو الذى يحدّد اختيار معنى على آخر .

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ – ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ .

سبب النزول :

قيل : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة ، لما منع بنى أخيه عن الخير ، وهو الإسلام .

أى : يقول الله تعالى للسائق والشهيد .

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ .

اطرحا فى جهنم كل من كفر بالله ، وأشرك به ، وعاند الحقّ والرسل ، ومنع الخير ، ومنع أبناء أخيه عن الدخول فى الإسلام ، والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآيات شاملة لكل كافر منع نفسه أو غيره عن الإيمان ، واعتدى على أهل الحق ، ووقع فى الريب والشك وعدم الإيمان .

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ .

الاسم الموصول مبتدأ مفيد معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء فى الجواب .

والمعنى : الذى عبد مع الله الأصنام والأوثان ، والمال والجاه والسلطان ، فألقياه أيها الملكان فى أشد العذاب فى جهنم .

والآيات عبرة ظاهرة لكل كفّار أو طاغية يغره أىّ سلطان ، أو يبعده عن الحق والإيمان والهداية أىّ شىء، مهما كان قدره، فالباطل ساعة ، والحق دائم إلى قيام الساعة ، قال تعالى :

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ * قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ . (سبأ : ٤٨ ، ٤٩) .

٢٧ - قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ .

كأن الكافر فى مواقف القيامة يريد الاعتذار بأنّ الشيطان أطغاه وزيّن له الشر ، فوقع صريعا لإغواء الشيطان ، فاللّوم والعقاب ينبغى أن يكون على السبب فى ذلك وهو الشيطان .

فيجيب قرين الكافر أو العاصى وشيطانه ، ويقول : ربنا ما أخذتُ بناصيته إلى الطغيان والضلال ، وكل ما فعلته أننى زينت له الشر ، وحسّنت له الكفر ، فوجدت عنده الاستعداد كاملا للضلال البعيد عن الحق المغرق فى الطغيان .

إن كلاً منهما يريد أن يهوّن من مسئوليته عن أنواع الشرّ والكفر، ويروى أنّ الشيطان يخطب فى أهل جهنم خطبة بتراء ، يعلن فيها تنصله من المسئولية ، ويلقى التبعة على من أعطاه الله العقل والإرادة والاختيار ، وقد كان فى استطاعته فى الدنيا الرشاد ، فاختار الضلال بمحض إرادته ، فلا ينبغى أن يلوم الشيطان ، بل ينبغى أن يلوم نفسه ، فالشيطان لم يَقْسِرْه ولم يُكرهه، وكل ما فعله هو أنه دعاه إلى الشرّ فاستجاب طائعاً مختارًا ، ويقول الشيطان : لن أنقذكم من جهنم ، وأنتم كذلك لن تنقذونى ، فمآلنا واحد وهو العذاب .

قال تعالى : وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

٢٨ – قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ .

قال الله تعالى للكافر وقرينه : لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندى وأمامى، فكل واحد منكما يريد أن يلقى بالتبعة على الآخر، لقد قدمت إليكم بالوعيد والإنذار بالعذاب للمخالفين على ألسنة رسلى ، وفى ثنايا كتبى ورسالاتى ، وقامت عليكم الحجج والبراهين ، والمراد : إن اعتذاركم الآن غير نافع .

٢٩ – مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ .

لا يقع عندى تغيير ولا تبديل لما أنزلته فى كتبى ، وما أوْحيت به على ألسنة رسلى، بأنِّى أعددت الجنة لمن أطاعنى ، والنار لمن عصانى ، ولا أعذب أحداً ظلما بغير ذنب اقترفه ، بل كل إنسان يحصد جزاء ما قدم، ويجنى عاقبة عمله ، كما قال سبحانه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ .
(الزلزلة : ٧ ، ٨)

٣٠ – يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ .

تأتى جهنم يوم القيامة تتلمظ غيظا وغضبا على من عصى الله تعالى، ويوضع فيها الكفار والعصاة، وكلّما وضع فيها اتّسعت وطلبت الزيادة من العصاة ، غيظا عليهم ، وتضييقا للمكان عليهم ، حتى يضع الله عليها رحمته ، فتقول : كفانى كفانى ، فقد امتلأتُ .

وعلى هذا يكون الاستفهام الأول للتقرير ، فالله يقررها بأنها امتلأت ، أى يجعلها تقر بذلك ، واستفهام جهنم : هَلْ مِن مَّزِيدٍ . للنفى ، بمعنى : هل بقى فىَّ مزيد ؟ أى لا أسع غير ذلك ، وهو جواب الاستفهام الأول .

وتحتمل الآية معنى ثانياً وهو أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها ، وأنها لا تشبع من الكفار .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

قال أهل المعانى:

سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل والتصوير ، الذى يقصد به تقرير وتصوير المعنى فى النَّفس وتثبيته ، وفيه معنيان :

أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها ، حتى لا يزاد عليها شيء.

الثاني : أنها من السعة حيث يدخلها من يدخلها ، وفيها موضع للمزيد . ا.هـ .

وقال الشوكاني : وهذا الكلام على طريقة التخييل والتمثيل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل . والأولى أنَّه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع . ا.هـ .

وقال الواحدي: أراها الله تصديق قوله تعالى :

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود : ١١٩) .

فلما امتلأت ، قال لها : هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ؟ وتقول هي : هَلْ مِن مَّزِيدٍ ؟

أي : قد امتلأت ولم يبق فيَّ موضع لم يمتلئ .

أحاديث البخاري ومسلم

أخرج البخاري ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «يُلقى في النار ، وتقول : هَلْ مِن مَّزِيدٍ ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قطْ قطْ ، أي : كفى كفى» .

وفي رواية : قطْني قطْني ، أي : كفاني كفاني (٩٨).

وأخرج مسلم في صحيحه ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «احتجت الجنة والنار ، فقالت النار : فيَّ الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقُضيَ بينهما، فقال للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها» (٩٩) .

★ ★ ★

جنة المتقين

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

أزلفت : أدنيت وقربت .

غير بعيد : فى مكان غير بعيد منهم ، بل هو بمرأى منهم .

هذا ما توعدون : هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل .

أواب : رجّاع إلى الله ، أو رجّاع عن المعصية إلى الطاعة .

حفيظ : حافظ لحدود الله وشرائعه .

بالغيب : خاف عقاب ربّه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ، أو حال كونه غائبا عن الناس.

منيب : مخلص مقبل على طاعة الله .

بسلام : سالمين من العذاب وزوال النعيم .

الخلود : فى الجنة إذ لا موت فيها .

مزيد : مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

تمهيد :

ذكر القرآن حال أهل النار – حفظنا الله منها – ثم ذكر هنا مقابل النار وهى الجنة ، وذكر ألوان النعيم فيها ، وتكريم الله لأهلها ، وتفضّله عليهم بالمزيد من كرمه ونعمائه .

التفسير :

٣١ – وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ .

أدنيت الجنة من المتقين ، الذين جعلوا بينهم وبين المعاصى وقاية ، وحافظوا على حدود الله وأوامره ، فقرَّب الله إليهم الجنة ، يرونها بأعينهم غير بعيدة عنهم .

٣٢ – هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ .

تقول لهم الملائكة : هذا ما وعدكم الله به فى كتبه وعلى ألسنة المرسلين ، بأن الجنة لكل رجَّاع إلى ربه ، يتوب إليه من الذنب ، ويرجع إلى مولاه ، عابداً تائبًا مناجيا متقربا .

حَفِيظٍ . كثير الحفظ لحدود الله وشرائعه ، أو يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه ولا يهمل منه شيئاً.

٣٣ – مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ .

هذا الجزاء الموفور ، والنعيم المذكور ، لمن خاف مقام الله ، حال كونه لا يشاهده بعينيه ، أو حال كونه غائبًا عن الناس ، خاليا منفرداً لا يراه أحد ، لكنه يراقب الله .

وفى الحديث الصحيح : «سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ...» ، ومنهم : «رجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه» (١٠٠) .

وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ .

أى : جاء إلى ربّه يوم القيامة بقلب عاش مقبلا على طاعته ، طامعاً في رحمته ، كثير الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله ، ومناجاته فى الأسحار ، وفى أعقاب الصلوات ، مع الخضوع لأوامره ، والبعد عن محارمه.

٣٤ - ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ .

أى : يقال لأهل الجنة : ادخلوها حال كونكم سالمين من كل آفة .

وسلام من الله لكم : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ... (الأحزاب : ٤٤) .

وسلام من الملائكة : وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤)

ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ .

ذلك يوم الإقامة الدائمة فى الجنة ، فلا ينقطع نعيمها ، ولا يفنى أهلها ، بل هم فى سرور متصل .

قال تعالى : أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ . (الرعد : ٣٥) .

٣٥ - لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

لهم فى الجنة كلّ ما يطلبون ، ولهم نعيم لا ينفد ، وأنهار من ماء نظيف صالح ، وأنهار من لبن طازج، وأنهار من خمرٍ لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفّى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ، ولهم فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وعند الله المزيد من الرضوان والفضل ، ورؤية المتقين للّه تعالى، كما يُرى القمر ليلة البدر ، وهذا أعلى نعيم فى الجنة .

قال تعالى : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

وقد جاء فى صحيح مسلم ، عن صهيب بن سنان الرومى أن هذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم . اللهم اجعلنا منهم يارب العالمين .

★ ★ ★

ختام رائع لسورة قٓ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

المفردات :

القرن : الجيل من الناس .

بطشا : قوة وشدة ومنعة .

فنقبوا فى البلاد : ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طوَّف فى الأرض : نقَّب فيها ، قال امرؤ القيس :

فقد نقبت فى الآفاق حتى ... رضيت من الغنيمة بالإياب

محيص : مهرب وملجأ يلجأون إليه .

لذكرى : لعبرة .

قلب : لبٌّ يعى به .

ألقى السمع : أصغى لما يُتلى عليه من الوحى .

شهيد : فطن غير متغافل ، وهو من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به : الفَطِن ، إذ غيره كأنه غائب .

لغوب : تعب وإعياء .

سبح بحمد ربك : نزهه عن كل نقص ، وأكثر من حمده وشكره .

أدبار السجود : أعقاب الصلوات ، واحدها : دُبُر (بضم فسكون ، أو بضمتين) .

واستمع : لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة.

يوم ينادى المنادى : أى : يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى.

من مكان قريب : بحيث لا يخفى الصوت على أحد ، والمنادى هو جبريل عليه السلام ، على ما ورد فى الآثار يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم الممزَّقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركّن أن تجتمعن لفصل القضاء .

الصيحة : المرّة من الصوت الشديد ، والمراد بها نفخة البعث .

بالحق : بالبعث والجزاء .

يوم الخروج : يوم الخروج من القبور للبعث ، وهو من أسماء يوم القيامة .

المصير : المرجع للجزاء فى الآخرة .

تشقق : تتصدّع .

سراعا : مسرعين .

حشر : جمعٌ بعد البعث .

يسير : سهل هين .

بجبار : بمسيطر ومُسلَّط ، إنما أنت داعٍ ومنذر .

فذكر : فخوف وحذّر .

تمهيد :

هذا ختام سورة (ق) يتناول تهديد المشركين ، وقدرة الخالق فى خلق الكون بدون أن ينزل به تعب أو مشقة ، ثم أمر الحبيب المصطفى ﷺ بالصبر على عنادهم ، والاستعانة بذكر الله وتسبيحه بالليل والنهار، ثم عرض صورة رائعة للبعث والحشر والنَّفخ فى الصور ، وأمر الموتى بأن تجتمع أجزاؤهم ليقوموا لرب العالمين .

وآخر آية تؤكد علم الله بأحوال المكذّبين ، وأن النبى ﷺ مبلّغ فقط ، وليس مسيطرا عليهم ، فليذكر بالقرآن من يخاف القيامة ، حتى يعمل لذلك اليوم .

التفسير :

٣٦ – وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ .

أى : كثيراً ما أهلكنا قبل مشركى مكة ، من أمم كانت أشد منهم قوة ومنعة ، وقد انتقلوا فى البلاد وأكثروا السير فيها ، بالتجارة والسياحة والتغلّب ، فما عصمهم ذلك من الهلاك ، حين أراد الله أن ينزله بساحتهم .

أى : لم يستطيعوا هربا ولا مناصا من الهلاك ، وأجدر بأهل مكة أن يعتبروا بهم .

٣٧ – إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

فى هذا القرآن ، وفى هذه السورة ، وفى الآية السابقة المُتضمِّنة هلاك المكذبين ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم تبع ، فى كل ذلك عظة لمن كان له قلب حاضر ، أو لمن كان له استماع متأمّل ، وهو شاهد بجسمه وقلبه ، فيجتمع له من سلامة القلب ، وإلقاء السمع ، وحضور الذهن ، ما يحقق له النفع ، والوقوف على جلية الأمر ، وهو شهيد وحاضر بالجسم والفؤاد المتيقظ ، كأنّ من لم يتأمل غائب غير شهيد .

٣٨ – وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ .

تالله لقد خلقنا السماوات والأرض ، وما بينهما من فضاء وهواء ، فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... أى : فى ست مراحل ، مرحلة بعد أخرى ، وما أصابنا من تعب أو مشقة فى ذلك الخلق العظيم .

قال الحسَنُ وقتادة :

قالت اليهود : إن الله خلق الخلق فى ستة أيام ، واستراح يوم السابع ، وهو يوم السبت ، يسمُّونه يوم الراحة ، فأنزل الله هذه الآية .

روح القرآن

روح القرآن تفيد أن الكون قد خلقه الله من العدم ، وتفيد النصوص الدينية أن الحق سبحانه ألقى الكرة وكانت ملتهبة ، فارتفعت السماء وهدأتْ قشرتها الخارجية ، وانبسطتْ الأرض وهدأت قشرتها الخارجية ، وأرسى الله الجبال والبحار والأنهار ، والفضاء والهواء ، ثم تشققت السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وجعل الله الماء أساس الحياة .

وفى حوالى سنة ١٩٩٤ م انعقد فى الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر علمى للبحث فى أصول الكون، وبالتحديد فى عمر الكون .

وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، منها ٦ بلايين سنة كان الكون كرة ملتهبة غير صالحة للحياة ، وبعد ستة بلايين سنة من خلق الكون هدأت قشرته الخارجية ، وصار صالحا لحياة الإنسان عليه ، وحياة الإنسان على هذا الكون مُدَّتها سبعة بلايين سنة .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

وفى التفسير أن الرتق ضد الفتق ، أى كانت السماء صمًّاء لا تمطر ، والأرض صمَّاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وقد مرّ الكون كله بست مراحل ، حيث كانت السماء رخوة أشبه بالدخان ، ثم مرّت بمراحل ست ، وكذلك الأرض ، حتى صار الكون صالحا للحياة .

وذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير :

أن المراد بقوله تعالى : فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ستة أطوار ، لا الأيام المعروفة فى وضع اللُّغة ، لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض ، من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السماوات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت والحين . ا.هـ .

ويمكن أن نقول إن اليوم يطلق فى كلام العرب على سنين متعددة ، فيوم بعاث ، ويوم البسوس ، ويوم ذى قار ، هى كلها حروب امتدت عشرات السنين ، وفى القرآن الكريم : وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧)

ويقول سبحانه : تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

والخلاصة :

أن الله تعالى هو الذى خلق هذا الكون ، بما فيه من سماء وأرض وفضاء ، فى مراحل متعددة ، ليعلِّمنا الصبر والأخذ بالأسباب ، وهو سبحانه على كل شىء قدير ، ولا يصيبه تعب أو إعياء ، والآية تقرير للميعاد ، لأن من بدأ الخلق قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى .

قال تعالى : لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ... (غافر : ٥٧) .

وقال عز شأنه : أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (الأحقاف : ٣٣) .

٣٩ ، ٤٠ - فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ .

فاصبر على ما يقول المشركون من الكفر ، أو إنكار البعث ، وانشغل عنهم بمناجاة الله ، والتسبيح بحمد الله ، خصوصا فى أوقات تظهر فيها عظمته وجلاله ، قبل طلوع الشمس حين ينتهى الليل ، ويأتى نور النهار رويدًا رويدًا ، وكذلك قبل الغروب حين تكون الشمس على سعف النَّخيل ، حين يتغير لونها إلى الصفرة والحمرة ، وترسل خيوطها الذهبية ، تودّع هذه الدنيا ، وتُظهر جلال القدرة التى خلقت هذا الكون ، وتَطلب من صاحب الفطرة السليمة أن يقول : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، فما أجلّ الروعة قبل الشروق وقبل الغروب .

وقد كان أهل سبأ يسجدون للشمس من دون الله ، وعلى لسان الهدهد يقول القرآن الكريم :

وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . (النمل: ٢٤ - ٢٦) .

ويقول سبحانه وتعالى : **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** . (فصلت : ٣٧) .

وكذلك أمرنا اللّه أن نسجد له سبحانه فى أوقات متعددة من الليل ، عندما نرى الظلام الدامس والنجوم توصوص من بعيد ، ولسان الحال يرشد أن للّه ما سكن وما تحرك فى الليل والنهار .

والمراد : اذكر الله فى أوقات متعددة بالنهار والليل ، حين يتحرك القلب وتهتز النفس برؤية مظاهر القدرة والعظمة فى الصباح والمساء ، وأثناء الليل أو فى وقت السَّحر والهزيع الأخير من الليل .

قال تعالى : **وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ** . (آل عمران :١٧).

وقال سبحانه : **فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ** . (الروم : ١٧ ، ١٨) .

وقال ابن عباس :

المراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس : صلاة الفجر، وقبل الغروب : الظهر والعصر، ومن الليل: المغرب والعشاء ، وأدبار السجود : النوافل بعد الفرائض ، أو التسبيح بعد الصلاة .

وروى البخارى ، عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يُسَبِّح فى أدبار الصلوات كلّها [١٠١] ، يعنى قوله : وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ .

وروى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال: «وما ذاك» ؟ قالوا : يصلّون كما نصلّى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق، فقال ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبّحون وتحمدون وتكبرون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين» . ففعلوا ذلك ، ثم عمل الأغنياء مثل عملهم ، فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» . [١٠٢] .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ . (طه : ١٣٠) .

ومن العلماء من رأى أن المراد من الآيتين : صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، وصلاة السَّحر ، حيث ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً.[١٠٣] . (الإسراء : ٧٨) .

ورأى بعضهم أن المراد من الصلاة الوسطى صلاة العصر حيث أقسم الله بالعصر فقال : وَٱلْعَصْرِ . (العصر : ١)

وقال تعالى : حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ. (البقرة : ٢٣٨) .

وفى مصحف ابن مسعود زيادة تفسيرية هكذا : (والصلاة الوسطى – صلاة العصر) .

والمتتبع لطريقة القرآن الكريم فى تثبيت العقيدة ، يلحظ أنه كثيرا ما يلفت الأنظار إلى مظاهر الكون فى خلق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، وأقسم الله تعالى بهذه المظاهر الكونية ليرشدنا إلى ما فيها من دلالة على عظمة الله .

قال سبحانه : كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ . (المدثر : ٣٢ – ٣٧) .

وقال عز شأنه :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . (الواقعة : ٧٥ ، ٧٦) .

وانظر إلى قَسمه سبحانه وتعالى بالشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض والنفس ، ولم يجتمع أكثر من القسم بخمسة أشياء إلا فى صدر سورة الشمس حيث يقول سبحانه وتعالى : وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا . (الشمس : ١ – ١٠) .

وقال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ . (الانشقاق : ١٦ – ١٩)

ومن وراء ما نراه ونبصره عوالم كثيرة ، ومخلوقات متعددة ، عِلْمها عند علاّم الغيوب .

قال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . (الحاقة : ٣٨ – ٤٠) .

٤١ – وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ .

ترقب يا كلّ من يتأتى منه الاستماع ، أو واستمع يا محمد أنت ومن آمن بك ، يوم ينادى المنادى فيقول : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء .

قيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالحشر ، والأمر كما نرى فيه تهويل وتفخيم يهزُّ الألباب ، ويسترعى الأسماع ، ويأخذ على النفوس إعراضها ، وكأنه يقول : توقعوا هول هذا اليوم الذى يأتى وتستمعون فيه نداء المنادى بالبعث ، مِنْ مكان قريب يسمعه الخلائق كلهم ، على حالة واحدة ، فلا يخفى على أحد قريب أو بعيد ، فكأنهم نودوا جميعًا من مكان قريب .

٤٢ – يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ .

فى ذلك اليوم يسمعون صوت النفخة الثانية سماعاً متلبسا بالحق ، ويقال لهم : ذلك يوم الخروج من القبور للعرض على الله سبحانه وتعالى ، وفى الآية تفخيم وتهويل لذلك اليوم ، الذى يسمّى يوم الخروج.

قال تعالى : يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ . (القمر : ٧) .

والأجداث هى القبور ، ومنظر الجراد عند انتشاره منظر رهيب ، حيث يسير فى مجموعات متعددة ، وتغيّر اتجاهها بسرعة ، ويمكن أن تهلك الزروع هلاكًا مروعا .

وقال سبحانه وتعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ . (يس : ٥١ ، ٥٢) .

٤٣ – إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ .

الحياة بيدنا ، والموت بيدنا ، والمرجع إلينا وحدنا ، فالله تعالى هو الذى خلق آدم من تراب ، ثم نفخ فيه الروح ، ثم زوَّجه حواء ، ثم بث من آدم وحوّاء الخلائق إلى يوم الدين ، فالروح من أمر الله ، ولا يقدر أحد على خلق الروح إلا الله ، كما أن الموت بيد الله .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (الجاثية : ٢٦) .

فالله خلقنا وأحيانا ، ونفخ الروح فى الجنين وهو فى بطن أمه .

قال تعالى : ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

وعند نهاية الحياة تقبض الروح بأمر الله ، وبيد ملك الموت ومعه مساعدون من الملائكة .

قال تعالى : ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا... (الزمر : ٤٢) .

وقال عز شأنه : قُلْ يَتَوَفَّـٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . (السجدة : ١١) .

وقال تعالى: حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ . وإلينا المرجع والمآب والحساب والجزاء .

٤٤ – يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ .

يوم تتصدع الأرض ، وتتشقق عن أجسادهم ، فيقومون لفصل القضاء ، ويسيرون مسرعين ، ذلك الحشر والجمع هيّن يسير علينا ، فلا يعجزنا شىء ، فَقُدْرَتنا لا حدود لها .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٠) .

أى : مع شدّة التفرّق ، وتناثر الأشلاء ، وتمزّق بعض الناس ، وتحلل البعض إلى تراب ، كل ذلك جمعه وبعثه وحسابه وجزاؤه هين يسير على الله .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

وانشقاق الأرض وإلقاء ما فيها ورد فى القرآن الكريم مرارا على أنه من مظاهر القيامة وأهوالها .

قال تعالى : وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . (الانشقاق : ٣ ، ٤) .

وقال عز شأنه :

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ١ - ٨) .

وقراءة حفص : تَشَقَّقُ . أى : تنشق الأرض ، ويخرج الموتى من بطونها ، وتعود الحياة إليهم ، ثم يذهبون مسرعين لفصل القضاء فى شئونهم ، وفى قراءة أخرى بتشديد الشيّن : تشَّقّقُ ، أى : يشتد تشققها واضطرابها وزلزالها، ومن مظاهر القيامة تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات وانشقاق السماء على غلظها، وتعلق الملائكة بأرجائها . وسير الجبال ، واستواء أرض المحشر فتصبح أرضا مستوية ، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

قال تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

وقال سبحانه : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَاتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

وقال عز شأنه : وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَاتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

وكل ذلك يدل على نهاية هذا الكون ، وتبدّل ما فيه ، وانتهاء حياته ، وتغيير نواميس الكون بنواميس جديدة وضعها الله لهذه الحياة الآخرة ، فتنطفئ جذوة الشمس ، ويصيب القمر الخسوف ، وتنكدر النجوم ،

وتسجَّر البحار فتصبح نار الله الكبرى ، ويمسك الله تعالى الأرض بشماله ، والسماوات بيمينه – وكلتا يديه يمين – ويقول : أنا الملك ، أنا الديّان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟

فذلك قوله تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

ختام السورة

٤٥ – نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ .

فالعلم الكامل لله تعالى ، فهو عالم بأقوال الكافرين ، حيث ينكرون البعث ، ولا يصدّقون بالقرآن ، ويتهمون محمدا ﷺ بأنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو مفتر ، فالآية تسرّى عن الرسول ﷺ ، وتخبره بأن عليه البلاغ ، وليس عليه الهداية .

قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم . (الغاشية : ٢١ – ٢٦) .

فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ .

اقرأ هذا الكتاب ، وأرشد به الناس ، وخوّف هؤلاء المنكرين رجاء أن تلين قناتهم ، وأن ترتدع نفوسهم.

لقد لوَّن الله تعالى فى أسلوب هذا الكتاب ، فتراه أحيانا يكون رقيقا هادئًا فى قصصه وتشريعه ، وبيان رحمة الله ومغفرته ، وأحيانا تراه قويا عاصفا فى حديثه عن القيامه وأهوالها ، والبعث والحشر والحساب والجزاء ، لأن من النفوس من يؤنسها الوعد ، ويرضيها الهدوء واليسر ، ومن النفوس الجامحة من تحتاج معه إلى الشدّة والوعيد ، لترى القيامة وأهوالها حتى تفيق من سباتها .

وقد اشتمل القرآن الكريم على الوعد بالجنة ونعيمها للمتقين ، ووصف الجنة ، وأنهارها وأشجارها، وثمارها وحورها وولدانها ، ورضوان الله فيها ، ترغيبا للناس فى نعيمها .

كما وصف القرآن النّار ولهيبها ، ويحمومها وغسلينها ، وعذاب أهلها ، وغضب الجبار على الكافرين والمنافقين ، حتى يهدهد كبرياء المبطلين ، ويضع الحقيقة كاملة أمام الإنسان فى هذه الدنيا ، فلا يحتج

يوم القيامة بأن الرُّسل لم تبلّغه ، وأن الكتب السماوية لم تصف له عذاب الآخرة حتى يأخذ حذره ويفيق من غفلته .

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ . (طه : ١٣٤) .

والأصل أن القرآن تذكرة للراغب فى الجنة ، وتحذير للكافر بالنار ، لكنه هنا ذكر التذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد الله ، فى مجابهة المشركين والكافرين .

قال تعالى : بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . (فصّلت : ٤) .

وقال عز شأنه : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا .
(الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦)

وقال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا .
(طه : ١١٣)

وكان قتادة يقول :

اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بارّ يا رحيم .

ونحن نقول معه ذلك إلى الأبد .

اللهم ارزقنا الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، اللهم ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، اللهم اجعل عملنا خالصا لوجهك ، اللهم إنا نعوذ بك أن نُشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، وصلّ اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

خلاصة ما اشتملت عليه سورة قٓ

١ - إنكار المشركين للنبوة والبعث.

٢ - الحث على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها وزروعها وأمطارها.

٣ - الاعتبار بالدول الهالكة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد وعذاب .

٤ - الله خالق الإنسان ، وهو العليم به وبأعماله ، وبيان أنه محوط بالكرام الكاتبين يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله ، وسيأتيه الموت حتما ، وسيحاسب على كل ما قدّم .

٥ - ما خلق الله السماوات والأرض باطلا .

٦ - القرآن عظة وعبرة لمن كان له قلب واعٍ يستمع ما يلقى إليه سماع متأمل يقظ .

٧ - تسلية الرسول ﷺ على ما يقوله المشركون من إنكار البعث ، وتهديدهم على ذلك.

٨ - أمر الرسول ﷺ بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .

٩ - أمر الرسول ﷺ أن يُذكّر بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير سورة (قٓ) عشيّة يوم الاثنين ١٤٢١/٥/٢٨ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٨/٢٨ م بمدينة مرسى مطروح (فندق الأبّيض للقوات المسلحة المصرية) ، جمهورية مصر العربية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★


تفسير سورة الذاريات

أهداف سورة الذاريات

سورة مكية ، وآياتها ٦٠ آية ، نزلت بعد سورة الأحقاف

معانى السورة

بدأت السورة بهذا القسم :

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ . (الذاريات : ١ – ٦) .

وهى كلمات غير مطروقة وغير متداولة ، وقد سئل الإمام على رضى الله عنه ، عن معنى قوله تعالى: وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا . فقال رضى الله عنه : هى الريح ، فسئل عن : فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا . فقال : هى السحاب ، فسئل عن : فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا . فقال : هى السفن ، فسئل عن : فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا . فقال : هى الملائكة .

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا . هى الريح التى تذرو التراب وغيره ، فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا . أى : السحب الحاملة للمطر ، والوقر : الحمل الثقيل ، فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا . أى : السفن الجارية فى البحر جريًا سهلاً ، فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا . أى : الملائكة التى تقسم وتوزع أمور الله من الأمطار والأرزاق وغيرها .

لقد أقسم الله بالريح وبالسحب وبالسفن وبالملائكة ، وفى هذا القسم ما يوحى بأن الرزق بيد الله ، فهو الذى يسوق السحاب ، وهو الذى يسخر الريح للسفن ، وهو الذى جعل الملائكة أصنافًا تقسم الأمور ، فالخلق البديع المنظم وراءه قوة عليا مبدعة ، وهو سبحانه قد وعد الناس أن يجازيهم بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا ، ووعده واقع لا محالة .

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ . (الذاريات : ٧) . الحبك بضمتين : جمع حبيكة ، وهى الطريق ومدار الكواكب ، والمراد الطرائق التى هى مسير الأجرام السماوية من نجوم وكواكب ، يقسم الله بالسماء المتسقة المحكمة الترتيب ، بما فيها من نجوم وكواكب تسلك طريقها مسرعة فى مجراتها العظيمة بنظام دقيق وإبداع شامل، على أن المشركين يخوضون فى حديث باطل وقول متناقض مضطرب ، فصنع الله محكم ، وعمل الكافرين

باطل مضطرب فتراهم حينًا يقولون عن النبى : إنه شاعر ، وتارة يقولون : ساحر ، ومرة ثالثة يقولون: مجنون ، وهذا دليل على التخبط وفساد الرأى .

وقد رسمت السورة صورة الكافرين يذوقون عذاب جهنم ، ويقال لهم : ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ . (الذاريات : ١٤) .

أى : تعرضوا لعذاب النار ، وقد كنتم تستعجلون مجيئه استهزاء بأمره واستبعادًا لوقوعه .

وعلى الضفة الأخرى ، وفى الصفحة المقابلة ، يرتسم مشهد آخر لفريق آخر ، فريق مستيقن بالآخرة، مستيقظ للعمل الصالح، فريق المتقين الذين أدوا حقوق الله بالصلاة وقيام الليل ، وأدوا حقوق الناس بالزكاة والصدقة .

آيات الله فى الأرض والسماء

تشير الآية العشرون إلى آثار قدرة الله فى خلق الأرض ، فيقول سبحانه : وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ. (الذاريات : ٢٠) . وإذا تأملنا مضمون هذه الآية وجدنا أن هذا الكوكب الذى نعيش عليه مَعْرِض هائل لآيات الله وعجائب صنعته ، هذه الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته ، ولو اختلت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جدًّا لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها .. ولو تغير حجمها صغرًا أو كبرًا ، لو تغير وضعها من الشمس قربًا أو بعدًا ، لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها ، لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا ، لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطئًا ، لو تغير حجم القمر أو بعده عنها ، لو تغيرت نسبة الماء إلى اليابس فيها زيادة أو نقصا .. لو .. لو .. لو ، إلى آلاف الموافقات العجيبة المعروفة والمجهولة التى تتحكم فى صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانته ، أليست هذه آية أو آيات معروضة فى هذا المَعْرِض الإلهى ؟ .

«وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم ، وعجائب هذه المشاهد التى لا تنفد : من وادٍ وجبل ، ووهاد وبطاح ، وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران ، وقطع متجاورات، وجنات وأعناب ، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لا تفتر عن الإبداع والتغيير»[١٠٤] .

وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . (الذاريات : ٢١) .

خلق الله الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وشق له السمع والبصر ، وزوده بالحواس المتعددة ووسائل الإدراك المختلفة .

«وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب»[١٠٥].

وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . (الذاريات : ٢٢).

فبيد الله الخلق والرزق والهدى والضلال، وأرزاق السماء تشمل الأرزاق المادية والمعنوية.

«وفي السماء أسباب أقواتكم، فالظواهر الفلكية، وجريان الشموس والكواكب وتوابعها، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، كل هذه الظواهر ذللها الله لخدمة الإنسان، فليس الرزق موقوفًا على شيء يتعلق بالأرض وحدها، بل الأمر كله لله تعالى، يقبض ويبسط، وإليه المآب»[١٠٦].

ثم يعقب الله بالقسم : بحق رب الأرض والسماء إن هذا الأمر لحق مثل نطقكم، فهل تشكون في أنكم تنطقون ؟

قصة إبراهيم

يشتمل القطاع الثاني من سورة (الذاريات) على الإشارة إلى قصص إبراهيم ولوط وموسى، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، ثم آية واحدة عن قوم نوح، وهذا القصص مرتبط بما قبله، ومرتبط بما بعده في سياق السورة.

وإبراهيم أبو البشر اتخذه الله خليلا، وأرسل إليه ملائكة مكرمين، فأكرم الخليل وفادتهم، وقرب لهم عجلاً سمينًا ودعاهم للأكل منه، ولكنهم أمسكوا عن الطعام، فخاف منهم إبراهيم فلما شاهدوا خوفه أخبروه بأنهم ملائكة من السماء أرسلهم الله إليه، ثم بشروه بغلام حليم.

وأقبلت زوجته، وقد استولى عليها هول المفاجأة، فضربت وجهها بأطراف أصابعها، وصاحت متعجبة من الحمل وهي عجوز عقيم، فأخبرتها الملائكة بأنه لا وجه للعجب فذلك أمر الله، وهو الحكيم في أعماله، العليم بعباده.

قصة لوط

واتجهت الملائكة بعد ذلك إلى لوط عليه السلام ، فلما رآهم لوط أنكرهم وضاق بهم ذرعًا ، فقالت له الملائكة : يا لوط ، إنا رسل ربك ، جئنا لإنقاذك ومن معك من المؤمنين ، فأسر بأهلك فى ظلام الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فقد حقت عليها كلمة العذاب مثل هؤلاء الظالمين .

ولم تجد الملائكة فى قرى قوم لوط غير أهل بيت واحد من المسلمين هو لوط وابنتاه .

ولما خرج لوط وابنتاه ، جعل الله ديارهم عاليها سافلها ، وساق إليهم عاصفة رعدية أمطرتهم بحجارة مسمومة ، استأصلت شأفتهم وتركتهم أثرًا بعد عين ، وجعلهم الله عظة وعبرة للمعتبرين .

إشارات إلى قصص الأنبياء

أشارت الآيات (٣٨ – ٤٦) إلى العبرة والعظة من قصة موسى ، ومن قصص غيره من الأنبياء فى لمحة عاجلة .

لقد أرسل الله موسى – ومعه سلطان الهيبة وجلال النبوة – إلى فرعون وملئه ، فأعرض فرعون عن موسى واتهمه بالسحر والجنون ، فأغرق الله فرعون وجنده فى البحر ، وألبسه ثوب الخزى والندم .

وآية أخرى فى عاد قوم نبى الله هود ، حين كذبوا نبيهم فأرسل الله عليهم ريحًا عاتية تحمل العذاب والدمار .

وآية ثالثة فى ثمود ، أمهلهم الله ثلاثة أيام ، ثم أرسل عليهم صاعقة فأصبحوا هالكين .

والحجارة التى أرسلت على قوم لوط ، والريح التى أرسلت على عاد ، والصاعقة التى أرسلت على ثمود، كلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته ونواميسه ، يسلطها على من يشاء فى إطار تلك النواميس ، فتؤدى دورها الذى يكلفها الله كأى جند من جند الله .

آية رابعة فى قوم نوح ، فقد أهلكوا وأغرقوا لفسوقهم وكفرهم وخروجهم على طاعة الله .

وللتنبيه إلى بدائع صنعه إيقاظًا للعاطفة الدينية ، عاد فذكر أنه رفع السماء ووسعها ، وخلق الأرض ومهدها ، وأعدها لما عليها من الكائنات ، ومن كل شىء فى هذه الأرض خلقنا ذكرًا وأنثى ليكون ذلك وسيلة للعظة والاعتبار .

ثم يحث القرآن الناس على أن يتخلصوا من آثار المادة والهوى والشيطان ، فرارا بدينهم ، وطمعًا فى رحمة خالقهم ، ورغبة فى حماه وفضله : فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . (الذاريات : ٥٠) .

وتكشف الآيات عن طبيعة المعاندين فى جميع العصور ، فقد كذبوا الرسل واتهموهم بالجنون أو بالسحر كأنما وصَّى السابق منهم اللاحق ، وكأن الكفر فى طبيعته ملة واحدة ، والرسالات كلها فكرة واحدة ، فمن كذب برسول واحد فكأنما كذب برسل الله أجمعين .

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

(الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

ختام السورة

هذه السورة تربط القلب البشرى بالله ، وترشده إلى عظيم صنعه ، وفى ختام السورة يؤكد الله هذا المعنى فيبين أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعرفوه ويوحدوه ويؤمنوا به ، فهو سبحانه وتعالى غنى بذاته، وهم فى حاجة وافتقار إليه .

إن معنى العبادة هى الخلافة فى الأرض ، وهى غاية الوجود الإنسانى ، وهى أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وتتمثل حقيقة العبادة فى أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله فى النفس ، أى استقرار الشعور بأنه ليس فى هذا الوجود إلا عابد ومعبود ، وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثانى : هو التوجه إلى الله بكل حركة فى الضمير ، وكل حركة فى الجوارح ، وكل حركة فى الحياة.

بهذا وذاك يتحقق معنى العبادة ، ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله ، كلها عبادة، وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التى خلق الله الجن والإنس لها ، وكلها خضوع للناموس العام الذى يتمثل فى عبودية كل شىء لله دون سواه .

والمؤمن الحق هو الحريص على أداء واجباته ومرضاة ربه ، وهو لا يعنى نفسه بأداء الواجبات تحقيقًا لمعنى العبادة فى الأداء ، أما الغايات فموكولة لله يأتى بها وفق قدره الذى يريده .

إن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس ليستعين بهم لجلب منفعة لذاته أو لدفع مضرة ، وما يريد الله منهم أن يرزقوا أحدًا من خلقه أو يطعموه ، إن الله سبحانه وتعالى هو الكفيل برزقهم ، والمتفضل عليهم بما يقوم بمعيشتهم ، وهو سبحانه ذو القدرة والقوة ، وهو الغالب على أمره فلا يعجزه شىء .

وفى ضوء هذه الحقيقة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا بأن لهم نصيبًا من العذاب مثل نصيب من سبقهم من الظالمين ، فالله يمهل ولا يهمل ، وتختتم السورة بهذا الإنذار الأخير : فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ . (الذاريات : ٥٩ ، ٦٠) .

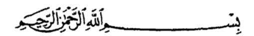
المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزبادى :

معظم مقصود سورة الذاريات ما يأتى : القسم بأن البعث والقيامة حق ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ، وثواب أرباب الهداية ، وحجة الوحدانية ، وكرامة إبراهيم فى باب الضيافة ، وهلاك قوم لوط وفرعون وقومه لمخالفتهم أمر الله ، وتدمير عاد وثمود وقوم نوح وخسرانهم ، وخلق السماوات والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات للدلالة على قدرة الخالق ، وتخليق الخلق لأجل العبادة ، واستحقاق المنكرين للعذاب والعقوبة[١٠٧] .

★ ★ ★

قسم ووعيد



﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

الذاريات : الرياح تذرو التراب وغيره ، أي : تفرّقه .

الحاملات وقرا : السحب المثقلة بمياه الأمطار .

اليسر : السهولة ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . هي الرياح الجارية في مهامّها بسهولة ، أو السفن التي تجري في البحار والأنهار في يسر وسهولة .

فالمقسمات أمرا : الملائكة التي تنفذ أوامر الله وقضاءه ، أو الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب .

إنما توعدون : هو البعث والحشر والحساب والجزاء .

وإن الدين لواقع : وإن الجزاء لحاصل .

الحُبُك : طرائق النجوم ، واحدها حبيكة .

مختلف : متناقض مضطرب في شأن الله ، فبينما تقولون : إنه خالق السماوات ، تقولون بصحّة عبادة الأوثان معه ، وفي شأن الرسول ﷺ ، فتارة تقولون : إنه مجنون ، وتارة تقولون: إنه ساحر .

يؤفك عنه : يصرف عنه – أي بسببه – من صرف عن الإيمان .

الخرّاصون : الكذّابون من أصحاب القول المختلف .

في غمرة : في لجّة تغمرهم ، وجهل يشملهم شمول الماء الغامر .

ســـــاهـــــون : غافلون عما أمروا به .

أيان يوم الـديـن : متى يوم الجزاء ، من : دِنتُه ، أى : جازيته .

يـفـتـنـون : يحرقون ، وأصل الفتنة : عرض المعدن على النار لتظهر جودته ، فاستعمل فى الإحراق والتعذيب .

فـتـنـتـكـم : عذابكم المعدُّ لكم .

تمهيد :

كانت العرب تحترز عن اليمين الكاذبة ، وترى أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبى ﷺ على نهجهم فحلف بكل شريف ، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقًا .

وقد جاء القسم فى صدر بعض السور لإثبات أحد الأصول الثلاثة :

(أ) الوحدانية .

(ب) رسالة محمد ﷺ .

(جـ) البعث والحشر والجزاء .

ففى سورة الصافات كان القسم لإثبات وحدانية الله ، حيث قال سبحانه : إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ .

(الصافات : ٤)

وفى سورتى النجم والضحى لإثبات صدق رسالة محمد ﷺ .

حيث قال سبحانه : وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ . (النجم : ١ - ٤) .

وقال تعالى : وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . (الضحى : ١ - ٣) .

وأقسم فى سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء ، مثل : الذاريات ، والطور ، والمرسلات ، والنازعات، والعاديات .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ - وَٱلذَّٰرِيَـٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَـٰمِلَـٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَـٰرِيَـٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَـٰتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ .

هذا القسم يأخذ بالألباب ، فى رشاقة ويسر وتناسق ، وقد ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، أنه صعد منبر الكوفة ، فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكوَّاء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى :

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا. قال عليٌّ : الريح .

قال : فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا . قال : السحاب .

قال : فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا . قال : السُّفن .

قال : فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا . قال الملائكة .

فالله تعالى بدأ السورة بالقسم بالريح ، التى تذرو الرياح ، وتثير السحاب ، وتهز البحار والأمواج ، وتلقّح النبات ، كما أقسم بالسحاب المثقل بالأمطار ، الذى يوزعه الله على عباده .

قال تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الروم : ٤٨) .

وأقسم سبحانه بالسفن الجاريات فى البحر كالأعلام ، التى تنقل البضائع والتجارة والأشخاص من بلد لآخر ، فى سهولة ويسر .

وأقسم عز شأنه بصنوف الملائكة ، ومنهم الموكلون بالأرزاق ، وتوزيع الأمطار والخيرات بأمر الله تعالى ومشيئته .

قال تعالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

وكان من دعاء الرسول ﷺ عند تلاوة هذه الآية : «اللهم ارزقنا وأنت خير الرازقين ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

رأى آخر فى تفسير الذاريات

من المفسرين من ذهب إلى أن القسم فى صدر السورة للرياح وذروها للتراب ، وحملها السَّحاب وجريها فى الهواء بيسرٍ وسهولة ، وتقسيمها الأمطار .

جواب القسم

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ .

أى : إن ما توعدون من أمر البعث والحشر والجزاء والجنة والنار لصادق ثابت ، لا مجال للريب فيه .

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ .

الدِّين هو الجزاء يوم القيامة ، من دنْتُه ، أى : جازيته ، وفى سورة الفاتحة : مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . وفى قراءة : مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ .

فهو سبحانه المالك وحده ليوم القيامة ، وينادى سبحانه : لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ . (غافر : ١٦).

فلابد من يوم تدين فيه الناس لرب العالمين ، وينالون ما يستحقون من جزاء عادل ، قال ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ، لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبنّ على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا» .

٧، ٨، ٩ – وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ .

ٱلْحُبُكِ : طرائق النجوم .

وقال ابن عبّاس وغيره : ذات الخلق المستوى الجيد ، من قولهم : حبكت الشيء ، أى : أحكمته وأحسنت عمله .

والمعنى :

والسماء ذات الطرق المختلفة لمسيرة النجوم ، فى خلق مستوٍ ، وزينة منتشرة فى نواحيها ، أو والسماء ذات البهاء والجمال ، والحسن والاستواء .

وإذا تأملت فى هذا القسم وجدت أنه لا مانع من اجتماع التفسيرين ، فالله يُقْسم بالسماء ذات الطرق المتعددة للنجوم ، والسماء أيضًا ذات جمال وبهاء وزينة ، وامتداد يملأ الأفق .

قال تعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا .
(النازعات : ٢٧ – ٢٩)

إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ .

إنكم معشر المشركين فى قول مختلف مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، حينًا تقولون : محمد شاعر ، وحينًا تقولون : هو كاهن ، وحينًا ثالثًا تقولون : هو مجنون ، وحينًا رابعًا تقولون : هو كذّاب ، وحينًا خامسًا تقولون : مُتَقَوِّل ينقل أساطير الأولين ، وينسبها إلى الله ادعاءً ، وتقولون عن القرآن : إنَّه سحر ، ثم تقولون: هو شعر ، ثم تقولون : هو كهانة ، وهو دليل حيرتكم واضطرابكم وانتقالكم منْ رأى إلى آخر بدون تثبّت واستقرار .

انظر إلى قوله تعالى : بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ .
(الأنبياء : ٥).

فهم حيارى يبحثون عن أىِّ عيب ليلصقوه بالقرآن ، أو برسول الله ﷺ .

يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ .

يصرف عنه – أى : عن القرآن ، أو عن الرسول ﷺ – من صرفه الله عن الخير ، فصار محرومًا من هداية القرآن ، أو من التصديق بمحمد ﷺ ، أى من حرم من هداية القرآن ، ونور الإسلام ، وإرشاد محمد ﷺ، فهو المحروم حقًا ، المصروف عن الخير .

١٠ – قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ .

لُعِن هؤلاء الكذابون الذين افتروا على القرآن الكذب ، وعلى الرسول التُّهم الكاذبة .

جاء فى القاموس :

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ . (عبس : ١٧) . أى : لعن ، قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ... (التوبة : ٣٠) . أى : لعنهم .

فالآية دعاء عليهم ، جزاء تخرّصهم الكذب ، والافتراء على القرآن وعلى النبى ﷺ .

١١ – ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ .

الذين هم فى غمرة وشدّة وجهل عميق ، وغفلة عظيمة عما أمروا به ، لقد جاءهم نبأ عظيم من رسالة ورسول ، فتهاونوا بهما ، واختلقوا الأقاويل فى تكذيبهما ، وأصابتهم غفلة غمرتهم ، كما يغمر الماء ما تحته، فغفلوا عن هذا الدين مع أهميته وفضله .

١٢ – يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ .

يسألون سؤال استبعاد واستنكار واستهزاء : متى يجىء يوم القيامة الذى تخوِّفوننا به ؟

ثم فاجأهم القرآن بالجواب المُخْزى ، فقال :

١٣ – يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ .

أى : سيكون هذا اليوم – يوم الدّين – يوم يوضعون فى النار فتحرقهم وتفتنهم ، كما يوضع الذهب فى النار لفتنته واختبار الصحيح من المغشوش ، نعاملهم معاملة المختبر .

قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أُدخل النار قيل فُتِنَ ، فهؤلاء يفتنون بالإحراق ، كما يفتن الذهب لإظهار حقيقته ، ويقول لهم خزنة جهنم امتهانًا وتبكيتا :

١٤ - ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ .

أى : ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء ، وتظنون أنه بعيد الوقوع ، فقد حاق بكم ما كنتم به تستهزئون .

★ ★ ★

صفات المتقين

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

فى جنات وعيون : فى بساتين تجرى من تحتها الأنهار .

آخذين ما آتاهم ربهم : قابلين ما أعطاهم ربّهم ، راضين به .

محسنين : مجوِّدين لأعمالهم .

يهجعون : ينامون ، والهجوع : النوم ليلاً .

الأسحار : واحدها سحر ، وهو السدس الأخير من الليل .

حق : نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقربًا إلى ربّهم ، وإشفاقًا على عباده .

السائل : المستجدى الطالب العطاء .

المحروم : هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنيًا ، فيُحرم الصدقة من أكثر الناس .

آيات : دلائل واضحات من وجود المعادن والنبات والحيوان والماء ...

للموقنين : المتيقنين بوجود الله .

وما توعدون : والذى توعدونه من خير وشرّ .

تمهيد :

فى مطلع السورة قسم بمظاهر القدرة الإلهية على وحدانية الله ، وبيان تعنت المشركين واضطرابهم، وتشككهم فى البعث ، وعقابهم فى جهنم ، وهنا يذكر المتقين وصفاتهم الكريمة ، من اليقين والالتزام بما أمر به الله تعالى ، وقيامهم الليل راكعين ساجدين ، واستغفارهم بالأسحار ، وإخراجهم زكاة أموالهم ، ورعايتهم للفقراء والمتعففين عن السؤال ، وتفكرهم فى آيات الله فى الأرض والبحار والأنهار ، وارتفاع اليابسة عن الماء ، وفى خلق الإنسان وعجائب تكوينه ، وفى السماء وما فيها من الأمطار والأرزاق ، ثم يقسم الحق بنفسه ، إن ذلك حق واقع ، مثل نطقكم وكلامكم .

التفسير :

١٥ ، ١٦ - إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ .

يأتى الحديث عن المتقين بعد الحديث عن المكذبين ، وفى الحديث عن المتقين تجد نعمة الرضا والتكريم ، فهم فى جنات ناضرة ، فيها الزروع والثمار ، والبساتين وألوان النعيم ، وفيها عيون تجرى بالماء زيادة فى التكريم .

ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ...

لقد أعطاهم الله نعيم الجنة ، ورضوانها وهناءها ، مع الخلود والحسنى وزيادة ، ثم إن هذا العطاء من الله ، من ربّهم الذى يرعاهم ويكرمهم ، ويعطف عليهم ويزيدهم من فضله ، وعطاء الكريم العظيم لا يكون إلا كريمًا وعظيمًا .

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ .

أى : لقد أحسنّا إليهم فى الآخرة لإحْسَانهم العمل فى الدنيا .

قال تعالى : **هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ** . (الرحمن : ٦٠) .

وقال سبحانه وتعالى : **كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ** . (الحاقة : ٢٤) .

١٧ ، ١٨ - كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

تركوا النوم بالليل ، وقاموا متطهرين يناجون ربّهم فى فك رقابهم ، واقفين على أقدامهم ، عابدين لربهم ، قارئين لكتاب الله ، إذا جاء ذكر الجنة طارت نفوسهم شوقًا إليها ، وإذا جاء ذكر النار اشتد خوفهم من عذابها .

وعن أنس قال : كانوا يصلّون ما بين المغرب والعشاء .

وقد وصفهم القرآن الكريم بالنشاط فى الصلاة والزكاة .

قال سبحانه وتعالى : تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٦ ، ١٧) .

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

فى السدس الأخير من الليل ينشغلون بالاستغفار .

قال تعالى : وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ . (آل عمران : ١٧) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ينزل ربُّنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داعٍ فأستجيبْ له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر»[١٠٨] .

وقال ﷺ : «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب»[١٠٩] .

وقد بيَّن القرآن الكريم أن الاستغفار سبب فى سعة الرزق ، والإمداد بالمال والبنين ، وتيسير المطر والبركة ، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا . (نوح : ١٠ – ١٢) .

وفى وقت السَّحر ينام الآخرون ، ويجتهد المتقون ، ولذلك مدحهم القرآن بقوله : كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا ، إلا يصلّون فيها شيئًا ، إمّا من أولها أو من وسطها .

وقال الحسن البصرى :

كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقلّه ، وربما نشطوا فجدُّوا إلى السحر ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم ، فهم متواضعون ، مشفقون من عذاب الله ، راغبون فى مغفرته ورضاه .

١٩ - وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ .

وقد أوجبوا على أنفسهم حقًا واجبًا للفقير السائل ، وللمحروم المتعفف الذى لا يسأل الناس ، ويحسبه الجاهل بحاله غنيًا من تعففه ، فهم مهتمون بسائر أنواع المحتاجين .

أخرج أبن جرير ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان ، والأكلة والأكلتان» ، قيل : فمن المسكين ؟ قال : «الذى ليس له ما يغنيه ، ولا يُعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم»[١١٠] .

٢٠ - وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ .

كلما مدَّ الإنسان بصره فى هذه الأرض وجد أمامه دلائل القدرة الإلهية، أكتب الآن وأمامى بحر ممتدّ، مياهه عميقة زرقاء ، وأمواجه متتابعة ، ونهايته لا تحيط بها العين ، ثم ترسل الشمس أشعتها على المحيطات والبحار ، فيتصاعد البخر إلى السماء ، ويتكثف السحاب ، وتسوقه الرياح ، ويسقط المطر الذى يروى الإنسان والحيوان والنبات ، وترى ما على الأرض من شمس وقمر ، وليل ونهار ، وبرد وحرّ ، وفصول متتابعة ، فالشتاء والربيع ، والصيف والخريف ، وفى الأرض الجبال والأنهار ، والأشجار والإنسان والحيوان ، وفى الأرض معادن ودوابّ وحشرات وطيور ووحوش ، ونافعٌ ومؤذٍ ، وعبر ودلائل لأصحاب الأفهام والإيمان ، بل فى حركة الشمس والقمر والنجوم ، والهواء والفضاء والرياح والأمطار ما ينبئ عن هذه القدرة العالية ، ويرشد إلى آيات تعمّق الإيمان .

قال تعالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

٢١ - وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

فى تعدد الألوان والأشكال والألسنة والطباع ، وفى تركيب الأعضاء والفقرات ، وتعدد الأجهزة فى هذا الجسم الإنسانى العجيب ، فالجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، والجهاز اللمفاوى ، وإذا تعطل جهاز من هذه الأجهزة ، أو مفصل من المفاصل ، أو عضو من الأعضاء ، جاء العجز والذلّ ، وإذا شفى المريض زال الكرب وجاء الفرج .

قال تعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

وقد تقدم العلم ، ورأينا وسمعنا العجب العجاب عن عوالم متعددة فى هذا الكون ، ونحن لم نطّلع على عُشر ما هو موجود فى هذا الكون .

قال تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . (الحاقة : ٣٨ - ٤٠) .

والعجيب أنَّه كلما تقدم العلم لم يصطدم بأىّ آية من كتاب الله ، بل إن تقدم العلوم يؤكد ما جاء فى القرآن، ويبين أنه ليس من صنع بشر ، بل هو تنزيل من حكيم حميد ، فتقدم العلوم اصطدم بأخبار ومعارف كانت مسلَّمة فأسقطها ، وتقدم العلوم وحقائق التاريخ ووثائقه اصطدمت بمعارف فى التوراة والإنجيل ، لكن تقدم العلوم لم يصطدم بأىّ حقيقة علمية أو تاريخية ، أو نفسية أو أدبية ، أو غير ذلك وَرَدتْ فى القرآن الكريم .

وقد ذكر المستشرق موريس بوكاى ، فى كتابه الذى ترجمته دار المعارف فى مصر ولبنان ، بعنوان (التوراة والإنجيل والقرآن فى ضوء العلم) ، ذكر أن القرآن يتميز بمعلومات عن الكون ونشأته ، وعن الإنسان، وعن الشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والدنيا والآخرة ، لم تصطدم بأى حقيقة علمية ، بل كأن العلم ينزع إلى تأييد القرآن ، كما قال سبحانه وتعالى : سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

٢٢ – وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ .

فى السماء السحاب ، وأسباب المطر من الشمس والقمر والفضاء ، وتتابع الفصول ، وحركة الأرض وتناسق الكون ، كل ذلك يؤدى إلى تكامل الكون ، ونزول المطر وأسباب الرزق ، وإنبات النَّبات .

أو أن المعنى : بيد الله الأقدار والأرزاق ، وهو مسبب الأسباب ، ومقدّر الأقدار ، وميسر الأرزاق .

٢٣ – فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ .

أقسم الحق سبحانه وتعالى بنفسه ، على أن الرزق والغيب والقدر بيده ، وذكر المفسرون أن القسم شامل لكل ما تقدم فى هذه السورة من أوّلها .

والمعنى : فورب السماء والأرض ، إن كل ما تقدم فى هذه السورة من أخبار وأحوال ، وأوصاف وتذكير ، حق واقع ، وأمر ثابت لا يرقى إليه شك ، ولا يختلف فى أحقّيته أحد ، وكما أنكم لا تشكون فى أنكم تنطقون ، ينبغى ألاّ تشكوا فى حقيقته ، فهو كما نقول : إن هذا حق مثل ما أنك تبصر وتسمع .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : «قاتل الله قومًا أقسم لهم ربّهم ثم لم يصدقوا» .

★ ★ ★

قصة الخليل إبراهيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

الضيف : النازل على محلة قوم وليس منهم ، ويقال للواحد والجمع ، ويجمع على ضيوف وضيفان وأضياف ، واختلف في عدهم فقيل : ثلاثة ، وقيل : تسعة، وقيل : اثنا عشر.

المكرمين : أي: عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه ، وعجّل لهم القرى ، وأجلسهم في أكرم موضع.

منكرون : مجهولون ، لا عهد لنا بكم من قبل ، يريد أن يتعرف بهم ، كما تقول لمن تلقاه : أنا لا أعرفك ، تريد : عرّف نفسك وصفها لي .

فراغ إلى أهله : ذهب إليهم خفية من ضيفه .

سمين : ممتلئ بالشحم واللحم .

فقرّبه إليهم : قدّمه إليهم .

فأوجس منهم خيفة : أضمر في نفسه الخوف منهم .

امرأته : هي سارة ، لما سمعت بشارتهم له .

صرة : صيحة وضجة .

فصكت وجهها : ضربت يدها على جبهتها ، أو ضحكت ، وقالت : يا ويلتاه .

عجوز عقيم : أنا كبيرة السنّ لا ألد .

تمهيد :

ذلك جانب من قصة الخليل إبراهيم ، صدَّرها الله بالاستفهام ، تشويقًا للنبي ﷺ ، وتفخيمًا لشأن الحديث ، كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيهًا لأنظاره حتى يُصغي

إليه ، ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة، وتنبيها إلى أن الرسول ﷺ لم يعلم به إلا عن طريق الوحى .

التفسير :

٢٤ – هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ .

هل بلغك يا محمد نبأ ضيوف إبراهيم المكرمين عند الله ، والمكرمين عند إبراهيم ، حيث أحسن استقبالهم ، وعجَّل ضيافتهم بعجل حنيذ مكتنز لحمًا وشحمًا فتيًا ، وهو أشهى فى الأكل وأفضل .

٢٥ – إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ .

أى : هل أتاك حديث الضيف ، وقت أن دخلوا على إبراهيم بيته ، فبادروه بقولهم : نؤمنك أمانا، ونسلّم عليك سلامًا ، حتى لا يروعك ولا يخيفك دخولنا ، فقال ردًّا عليهم : عليكم سلام دائم ، أو أمرى معكم سلام.

قَوْمٌ مُّنكَرُونَ . مجهولون عندى لا أعرفهم ، ولا عهد لى بهم ، ولعل هذا كان تمهيدًا ليتعرف بهم مستقبلاً .

٢٦ – فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ .

أى : مال إلى أهله فور دخولهم عليه ، وقدَّم لضيوفه عجلاً سمينًا ، أنضجه شيًا .

كما جاء فى آية أخرى : فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . (هود : ٦٩) .

أى : شوى على الرضَف .

٢٧ – فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ .

أى : فقدم الطعام إلى ضيوفه ، وعرض عليهم أن يأكلوا ، كما نقدم الطعام إلى الضيف ونقول له : تفضّل لتناوله ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله ، وهو عجل فتىّ مشوى ، ووضعه بين أيديهم ، وتلطف فى العرض فقال : ألا تأكلون ؟

٢٨ – فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ...

أى : فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا ، فأضمر فى نفسه الخوف منهم ظنًّا منه أن امتناعهم إنما كان

لشرٌ يريدونه به (فإن من لم يأكل طعامك لم يحفظ زمامك) وللطعام حرمة ، وفى الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظنّ ، وقد جاء فى سورة هود : فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ... (هود : ٧٠)

لكن الملائكة طمأنته :

قَالُواْ لَا تَخَفْ ...

نحن ملائكة الله جئنا لك بالأمان والبشارة ، وفى آية أخرى : قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ . (هود : ٧٠)

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ .

فكانت البشارة متضمنة عدة بشارات : فهو غلام ذكر ، يجمع صفات العلم ، ويبلغ مبلغ الرجال ، وينجب ولدًا آخر من صلبه يكون حفيدًا لإبراهيم ، كما جاء فى سورة هود : فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ . (هود : ٧١) .

٢٩ – فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ .

كانت سارة فى ناحية من البيت ، فسمعت بشارة الملائكة بغلام عليم ، فأقبلت وهى تصرخ صرخة عظيمة ، وضربت بيديها على جبهتها – على عادة النساء إذا سمعن أمرًا عجيبًا – وقالت : أنا عجوز عاقر ، فكيف ألد ؟

وجاء فى آية أخرى : قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . (هود : ٧٢ ، ٧٣) .

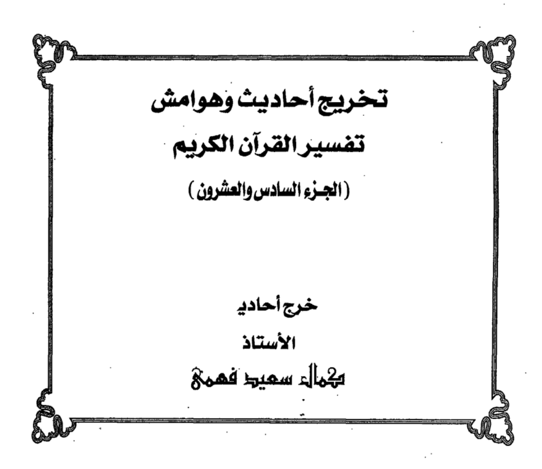
٣٠ – قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

استكثرت الزوجة أن تلد فى هذه السن الكبيرة ، وكانت قد تجاوزت ثمانين عامًا ، ولم تكن تلد فى صباها وشبابها ، وقالت : أنا عجوز طاعنة فى السنّ ، وعقيم لم ألد فى شبابى ، فكيف ألد فى هذه السن ؟ فكأنّها قالت : ليتكم دعوتم دعاء قريبًا من الإجابة ، ظنًّا منها أن ذلك صدر منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات ، كما يقول الداعى : أعطاك الله مالاً ، ورزقك ولدًا .

فردُّوا عليها بأن هذا ليس دعاءً ، ولا خبرًا من عند أنفسهم ، بل هو أمر الله الذى بيده الخلق والأمر ، وليس هناك من أمر عجيب على قدرته ، فقد خلق آدم من تراب ، وخلق حواء من آدم ، وهو سبحانه الذى رفع السماء بلا عمد ، وبسط الأرض على الماء فجمد ، وقسَّم الأرزاق فلم ينس أحدًا ، وهو سبحانه إذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب ، ثم قال له كن فيكون ، وهو سبحانه قادر على كل شىء ، وهو على كل شىء قدير .

قال تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السادس والعشرون)

خرج أحاديه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) فى ظلال القرآن ٢٦ / ٢١ .

(٢) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى، المتوفى سنة ٨١٧ هـ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار (١ / ٢٤٨). طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ.

(٣) وما يدريك أن الله أكرمه:
رواه البخارى فى الجنائز باب: الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه (١١٨٦).

(٤) العشرة المبشرون بالجنة:
هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم.

(٥) تفسير القاسمى مجلد ٦، ص ٢٣٣، دار إحياء التراث العربى - بيروت، لبنان.

(٦) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، مجلد ٣، صفحة ٣١٧، واقرأ الحاشية بهذه الصفحة.

(٧) التفسير المنير: أ. د. وهبة الزحيلى جزء ٢٦، ص ١٨ .

(٨) إن الله زوى لى الأرض:
مسلم فى الفتن (٢٨٨٩)، والترمذى فى الفتن (٢١٧٦)، وأبو داود فى الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، (٢٨٤)، من حديث ثوبان، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٩) يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة:
رواه البخارى فى الجهاد والسير، باب: الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء (٢٦٣٦)، ومسلم فى الإمارة، باب: فضل الغزو فى البحر (١٩١٢) من حديث أنس مرفوعا: «ناس من أمتى، عرضوا على غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة، أو: مثل الملوك على الأسرة».

(١٠) إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط:
رواه مسلم فى باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر (٢٥٤٣) من حديث أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحما، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرج منها».

(١١) أضاء لى فى الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى:
قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده، قال: «خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب، فخرجت لنا من الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، فشكونا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ المعول من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة حتى لكأن مصباحا فى جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية، فصدعها وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة، فصدعها وبرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، فسألناه، فقال: «أضاء لى فى الأولى قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى

جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا بالنصر». فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بأن وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب، فقال المسلمون: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما﴾، وقال المنافقون: ألا تعجبون، يحدثكم ويعدكم ويمنيكم الباطل، ويخبر أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنكم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا، وأنزل القرآن فى ذلك: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا﴾.

(١٢) كيف بك إذا لبست سوارى كسرى:

ذكره المناوى فى الفيض استشهادا (٤١١٠) فقال: قال له المصطفى ﷺ: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى» فلبسهما زمن عمر، وفيه أيوب بن سويد بن مسعود الحميرى ضعفه ابن معين وغيره. وذكر الهندى فى كنز العمال (٣٥٧٥٢) عن الحسن أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى ابن هرمز فوضعت بين يديه، وفى القوم سراقة بن مالك فأخذ عمر سواريه فرمى بهما إلى سراقة، فأخذهما فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه، فقال: الحمد لله، سوارا كسرى ابن هرمز فى يدى سراقة بن مالك بن جشعم أعرابى من بنى مدلج، ثم قال: اللهم إنى قد علمت أن رسولك قد كان حريصا على أن يصيب مالا ينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك نظرا منك وخيارا، اللهم إنى قد علمت أن أبا بكر كان يحب مالا ينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك، اللهم إنى أعوذ بك أن يكون مكر منك بعمر، ثم تلا: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال﴾ الآية. ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(١٣) وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله:

رواه البخارى فى باب: مناقب عبد الله بن سلام (٣٦٠١) ومسلم فى فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام (٢٤٨٣) من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام. قال: نزلت هذه الآية: ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾. الآية، قال: لا أدرى، قال: مالك الآية، أو فى الحديث.

(١٤) يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم:

رواه الطبرانى من حديث عوف بن مالك الأشجعى. قال: انطلق النبى ﷺ يوما وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرهوا دخلوه عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه»، فأسكتوا ما أجابه أحد ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثم ثلث فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفى، آمنتم أو كذبتم»، ثم انصرف وأنا معه حتى أننا كدنا أن نخرج نادى رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد، فاقبل فقال ذاك الرجل: أى رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود، قالوا: والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإنى أشهد له بالله أنه نبى الله الذى تجدون فى التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شرا، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم لن نقبل قولكم»، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام وأنزل الله عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾. وقال الهيثمى فى المجمع (رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح).

(١٥) تقدم تخريجه.

(١٦) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، دار الصابونى للطباعة والنشر، ٢٥ ش يوسف عباس، مدينة نصر - القاهرة.

(١٧) انظر تفسير الكشاف، وفيه أن النبى ﷺ سأل اليهود عن عبد الله بن سلام فمدحوه بالعلم والخير والسيادة، فلما أخبرهم أنه أسلم ذمُّوه وانتقصوه.

(١٨) تفسير القاسمى، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، صححه هشام البخارى، المجلد ٦، ص ٢٣٤، طبعة دار إحياء التراث العربى - بيروت، لبنان.

(١٩) من أحق الناس بحسن صحابتى:

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٧١)، ومسلم فى البر (٢٥٤٨)، وأحمد فى مسنده (٨١٤٤)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».

(٢٠) أخرجه الحافظ الموصلى، وروى من غير هذا الوجه في مسند أحمد، وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى ٣ / ٣١٩ .

(٢١) من رغب عن سنتى فليس منى:

رواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم فى النكاح (١٤٠١)، والنسائى فى النكاح (٣٢١٧)، وأحمد (١٣١٢٢، ١٣٣١٦، ١٣٦٣١)، ورواه ابن ماجة فى النكاح (١٨٤٦) بلفظ: «النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى...» الحديث، كلهم من حديث أنس، ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار. ورواه الدارمى فى النكاح (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٢٢) استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك:

قال المناوى فى الفيض: ورمز المصنف لحسنه، ورواه أحمد والدارمى فى مسنديهما، قال النووى فى رياضه: إسناده حسن، وتبعه المؤلف فكان ينبغى له الابتداء بعزوه كعادته، ورواه أيضا الطبرانى، قال الحافظ العراقى: وفيه عنده العلاء بن ثعلبة مجهول.

(٢٣) البر ما اطمأنت إليه النفس:

رواه مسلم فى البر (٢٥٥٣) والترمذى فى الزهد (٢٣٩٨)، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٩)، وأحمد فى مسنده (١٧١٧٩) عن النواس بن سمعان الأنصارى، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(٢٤) الحلال بين:

رواه البخارى فى باب: فضل من استبرأ لدينه من حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى أوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».
ورواه مسلم فى المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢٥) اللهم إنى أسألك خيرها:
رواه مسلم فى باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر (٨٩٩)، من حديث عائشة، قالت: كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سرى عنه، فعرفت ذلك فى وجهه. قالت عائشة: فسألته. فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾، ورواه البخارى فى باب: ما جاء فى قوله: ﴿وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته﴾ (٣٠٣٤) من حديث عائشة، قالت: كان النبى ﷺ إذا رأى مخيلة فى السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سرى عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبى ﷺ: «ما أدرى لعله كما قال قوم عاد: ﴿فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم﴾. الآية، ومسلم فى صلاة الاستسقاء، باب: التعوذ عند رؤية الريح والغيم (٨٩٩).

(٢٦) هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى:
هذا اللفظ جزء من حديث طويل رواه البخارى (٣، ٤٩٥٦، ٤٩٥٥)، ومسلم فى كتاب الإيمان (٢٣١، ٢٣٣)، والترمذى فى كتاب المناقب (٣٥٦٥)، وأحمد فى مسنده (١٤٥٠٢، ٢٤٠٤٦، ٢٤٦٨١، ٢٤٧٦٨).

(٢٧) ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ (الأنعام: ٨٣ - ٨٧).

(٢٨) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٣٠ تحقيق النجار. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٤ .

(٢٩) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الجزء ٢٦، ص ٨٢ .

(٣٠) يغفر للشهيد كل ذنب:
رواه مسلم فى الإمارة باب: من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين (١٨٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين».

(٣١) لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة:
رواه البخارى فى باب القصاص يوم القيامة (٦١٧٠) من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنه والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا».

(٣٢) المؤمن يأكل فى معًى واحد:
رواه البخارى فى الأطعمة، باب: المؤمن يأكل فى معًى واحد (٥٠٧٨ ، ٥٠٨٠)، ومسلم فى الأشربة، باب: المؤمن يأكل فى معًى واحد (٢٠٦٢، ٢٠٦٣)، من حديث نافع، قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلا يأكل معه فأكل كثيرا، فقال: يا نافع، لا تُدخل هذا علىَّ، سمعت النبى ﷺ، يقول: «المؤمن يأكل فى معًى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء».

(٣٣) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابونى، المجلد الثالث، ص ٣٣٥ .

(٣٤) ما أسر عبد سريرة:

ذكره الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٧) عن جندب بن سليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر». وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه حامد بن آدم وهو كذاب.

(٣٥) صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابونى، المجلد الثالث، ص ٢١٣، نقلا عن التسهيل لعلوم التنزيل.

(٣٦) تيسير الكريم الرحمان فى تفسير كلام المنان، للعلامة الشيخ عبد الرحمان بن ناصر السعدى ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

(٣٧) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابونى، الطبعة الثانية، ألمانيا الغربية ١٣٩٦ منقحة، (دار القرآن الكريم) دمشق، بيروت.

(٣٨) لو كان الدين عند الثريا:

رواه مسلم فى باب فضل فارس (٢٥٤٦) من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس - أو قال: من أبناء فارس - حتى يتناوله».

(٣٩) ابن اسحاق.

(٤٠) ابن اسحاق.

(٤١) المرحلة: مسيرة يوم بالإبل، وهى نحو ٣٠ كيلو مترا، أو ٢٠ ميلا.

(٤٢) السالفة: صفحة العنق، وانفرادها كناية عن الموت.

(٤٣) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى، وباب غزوة الحديبية.

(٤٤) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى، تحقيق الأستاذ النجار، ١ / ٤٣٢ (بتصرف).

(٤٥) انظر: كنز العمال (١ / ١٤٥).

(٤٦) لا نبرح حتى نناجز القوم:

رواه الطبرى فى تفسيره (٢٤٣٩٣) من حديث عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فكان جابر بن عبد الله، يقول: إن رسول ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكنه بايعنا على ألا نفر، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، كان جابر بن عبد الله، يقول: لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد أختبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل.

(٤٧) الإيمان يزيد وينقص:

ذكره العراقى فى تخريج الإحياء، كتاب قواعد العقائد. حديث «الإيمان يزيد وينقص»، وقال: أخرجه ابن عدى فى الكامل وأبو الشيخ فى كتاب الثواب من حديث أبى هريرة، وقال ابن عدى: باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحى يتعمد الكذب، وهو عند ابن ماجة موقوف على أبى هريرة وابن عباس وأبى الدرداء.

(٤٨) انظر تفصيل القصة فى صحيح البخارى، وفي سيرة ابن هشام، وفى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، وفى تفسير القاسمى تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، مجلد ٦ ، ص ٢٦٧ – ٢٧٢، طبعة دار إحياء التراث العربى. بيروت، لبنان.

(٤٩) أيها الناس البيعة البيعة:

ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» قال: أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن سلمه بن الأكوع رضى الله عنه، قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾، فبايع لعثمان رضى الله عنه إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئا لابن عفان رضى الله عنه يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف».

(٥٠) اكتب باسمك اللهم:

رواه البخارى فى الشروط باب: الشروط فى الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتاب الشروط (٢٥٨١، ٢٥٨٢) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية.. الحديث، وفيه عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبى ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهرى فى حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبى ﷺ الكاتب، فقال النبى ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبى ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»، ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبى ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى، اكتب: محمد بن عبدالله. قال الزهرى: وذلك لقوله: «لا يسألوننى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»، فقال له النبى ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب ... الحديث.

(٥١) لا تسبوا أصحابى:

رواه البخارى فى باب: قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، (٣٤٧٠) من حديث أبى سعيد الخدرى، قال: قال النبى ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

(٥٢) أرحمُ أمتى بأمتى أبو بكر:

رواه ابن ماجة فى فضائل أصحاب رسول الله، باب فضائل خباب (١٥٤) من حديث أنس مرفوعا: «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدُّهم فى أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام مُعاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

(٥٣) لا تسبوا أصحابى:
تقدم تخريجه، انظر هامش (٥١).

(٥٤) لو أن رجلا عمل فى صخرة صماء:
ذكره السيوطى فى «الدر المنثور» قال: وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلا عمل فى صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائنا ما كان».

(٥٥) إن الهدى الصالح والسمت الصالح:
رواه أبو داود فى باب فى الوقار (٤٧٧٦) من حديث عبد الله بن عباس أن نبى الله ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة».

(٥٦) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ:
رواه البخارى (١، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، ومسلم فى كتاب الإمارة (٣٥٣٠)، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة (٧٤)، وفى الطلاق (٣٣٨٣) وفى الأيمان والنذور (٣٧٣٤)، وأبو داود فى كتاب الطلاق (١٨٨٢)، وابن ماجة فى كتاب الزهد (٤٢١٧)، وأحمد فى مسنده (١٦٣، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٥٧) فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب (٢٦ / ١٢٥).

(٥٨) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى ١ / ٤٣٦ .

(٥٩) الحمد لله الذى وفق:
رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢)، والترمذى فى الأحكام (١٣٧٢)، والدارمى فى المقدمة (١٦٨)، وأحمد فى مسنده (٢١٥٠٢، ٢١٥٥٦، ٢١٥٩٥)، عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن، قال: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء»؟ قال: أقضى بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد فى كتاب الله»؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ، ولا فى كتاب الله»؟ قال: أجتهد رأيى، ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله». قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندى بمتصل. وقال الزيلعى فى نصب الراية: وأخرجاه أيضا عن أناس من أصحاب معاذ أن رسول الله ﷺ، مرسلا، قال الترمذى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بمتصل، انتهى. وقال البخارى فى «تاريخه الكبير»: الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفى عن أصحاب معاذ عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح، ولا يعرف إلا بهذا، مرسل، انتهى. وفيه كتاب. ورواه النسائى فى آداب القضاء (٥٣٩٩)، والدارمى فى المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيرا لك والسلام عليكم.

(٦٠) أحكام القرآن ٤ / ١٧٠٣، وانظر التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى الجزء ٢٦ صفحة ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٦١) أما ترضى أن تعيش حميدًا:

رواه مالك فى الموطأ أبواب السير، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٤٥) من حديث ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى، قال: يا رسول الله، لقد خشيت أن أكون قد هلكت، قال: «لم؟» قال: نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأنا امرؤ أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأنا امرؤ أحب الجمال، ونهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابت، أما ترضى أن تعيش حميدا، وتقتل شهيدا، وتدخل الجنة».

(٦٢) التفسير المنير، د. وهبة الزحيلى، الجزء ٢٦ ، صفحة ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٦٣) الجبرية والقدرية: فرقتان شاذتان في العقيدة، خرجتا عما عليه جمهور العلماء، تقول الجبرية: إن الله تعالى مُجْبِرٌ للعبد على فعله، وليس لإرادة الإنسان واختياره دخل حقيقى فيه، وتقول القدرية: إن العبد خالق لأفعال نفسه، دون أن يكون لله عليه سلطان فيها، ويقولون: لا قدر والأمر أنف، أى مستأنف.

(٦٤) التفسير المنير، د. وهبة الزحيلى، الجزء ٢٦، ص ٢٣٢ وما بعدها، بتلخيص واختيار.

(٦٥) لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤٢)، وفى الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم فى البر (٢٥٨٠)، وأبو داود فى الأدب (٤٨٩٣)، والترمذى فى الحدود (١٤٢٦)، وأحمد فى مسنده (٥٣٣٤، ٥٦١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ، قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». ورواه مسلم فى البر (٢٥٦٤)، والترمذى فى البر (١٩٢٧)، وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠، ٨٠٤٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». ورواه أحمد فى مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام».

(٦٦) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس:

رواه البخارى فى الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم فى البر (٢٦٠٥)، وأبو داود فى الأدب (٤٩٢٠، ٤٩٢١)، وأحمد فى مسنده (٢٦٧٢٨) من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا».

(٦٧) إن المقسطين على منابر من نور:

رواه مسلم فى الإمارة (١٨٢٧) والنسائى فى آداب القضاة (٥٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبد الله ابن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(٦٨) المسلم أخو المسلم لا يظلمه:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤٢) وفى الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم فى البر (٢٥٨٠)، وأبو داود فى الأدب (٤٨٩٣)، والترمذى فى الحدود (١٤٢٦)، وأحمد فى مسنده (٥٣٣٤، ٥٦١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما

أخبره أن رسول الله ﷺ، قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤)، والترمذى فى البر (١٩٢٧)، وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠، ٨٠٤٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». رواه أحمد فى مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ، قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام».

(٦٩) ويح عمار، تقتله الفئة الباغية:

رواه البخارى فى باب: التعاون فى بناء المسجد (٤٣٦) من حديث عكرمة قال: قال لى ابن عباس ولابنه على: انطلقا إلى أبى سعيد، فاسمعا من حديثه، فانطلقنا، فإذا هو فى حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا، حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ﷺ فينفض التراب عنه، ويقول: ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار». قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتن.

(٧٠) رب أشعث أغبر:

رواه الترمذى فى المناقب (٣٨٥٤)، وأحمد فى مسنده (١٢٦٧) من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك». وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤١١٥) من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرك عن ملوك الجنة»، قلت: بلى، قال: «رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم فى البر (٢٦٢٢)، وفى الجنة (٢٨٥٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩١٨)، وفى الأدب (٦٠٧٢) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٣)، والترمذى فى صفة جهنم (٢٦٠٥)، وابن ماجة فى الزهد (٤١١٦) وأحمد فى مسنده (١٨٢٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخزاعى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر».

(٧١) رب أشعث أغبر:

انظر السابق.

(٧٢) إن الله لا ينظر إلى صوركم:

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٧٣) لما عليه من التراب عندما أيقظه ﷺ من نومه تحت نخيل فى أرض بنى مدلج.

(٧٤) إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث:

رواه البخارى فى النكاح باب: لا يخطب من خطب أخيه حتى ينكح أو يدع (٤٨٤٩)، ومسلم فى البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس (٢٥٦٣)، قال أبو هريرة: قال النبى ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك».

(٧٥) يا معشر من آمن بلسانه:

رواه أبو داود فى الأدب باب الغيبة (٤٨٧٢) من حديث أبى برزة الأسلمى، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه ممن اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته».

(٧٦) الطيرة: ما يتشاءم به من الفأل الردىء، وكان ﷺ يحبُّ الفأل الحسن، ويكره الطيرة، فإذا رأى ما يكره، قال: «اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت، ولا يذهب السوء إلا أنت، اللهم اكفنى السوء بما شئت، وكيف شئت، إنك على ما تشاء قدير». ثم يمضى متوكلاً على الله.

(٧٧) أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم:

رواه مسلم فى البر (٢٥٨٩)، وأبو داود فى الأدب (٤٨٤٧)، والترمذى فى البر (١٩٣٤)، والدارمى فى الرقاق (٢٧١٤)، وأحمد فى مسنده (٧١٠٦) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

(٧٨) رواه الطبرى بسنده عن أبى نضرة فى كتاب (آداب النفوس).

(٧٩) خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح:

أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١١٨/١) من حديث أنس. بلفظ: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب..» الحديث، وفيه: «فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى فأنا خيركم نسبا، وخيركم أبا». وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠١) بلفظ: «خرجت من نكاح غير سفاح». ونسبه لابن سعد عن عائشة. وقال: حسن. قال المناوى فى فيض القدير: قال الذهبى: فيه الواقدى هالك. وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠٢) بلفظ: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح». ونسبه لابن سعد عن ابن عباس. وقال: حسن. قال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى عن المدينى عن أبى الحويرث، ولم أعرف المدينى ولا شيخه، وبقية رجاله ثقات. قال الهيثمى فى المجمع: وعن على أن النبى ﷺ، قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى». وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن على، صحح له الحاكم فى المستدرك وقد تكلم فيه، وبقية رجاله ثقات. قال الزيلعى فى نصب الراية: أخرجه البيهقى فى «سننه»، والطبرانى فى «معجمه»، عن هشيم حدثنى المدينى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدنى شىء من سفاح الجاهلية، وما ولدنى إلا نكاح كنكاح الإسلام». انتهى. وروى ابن الجوزى فى «التحقيق» من طريق الواقدى حدثنى محمد بن أخى الزهرى عن عمه عن عروة عن عائشة مرفوعًا: «خرجت من نكاح غير سفاح»، قال فى «التنقيح»: الواقدى متكلم فيه، وفى الأول المدينى، وهو إن كان والد علىّ فهو ضعيف، وكذا إن كان إبراهيم بن أبى يحيى، وقال الطبرانى: هو عندى فليح بن سليمان، وأبو الحويرث اسمه عبد الرحمن بن معاوية، وهو متكلم فيه، انتهى. قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٠٦): رواه البخارى فى الأدب والطبرانى فى الأوسط عن على رفعه بزيادة: من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأى، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء، وفى لفظ من رواية ابن سعد عن ابن عباس: خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح.

(٨٠) إن الله لا ينظر إلى صوركم:

تقدم تخريجه، انظر هامش (٧٢).

(٨١) إن الله عز وجل لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أحسابكم:

ذكره الهيثمي في المجمع (١٧٧١٧) فقال: وعن أبي مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلى أتقاكم». وقال: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

(٨٢) أي: عتيقها.

(٨٣) تنكح المرأة لأربع:

رواه البخاري في النكاح باب: الأكفاء في الدين (٤٨٠٢) ومسلم في الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

(٨٤) تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام:

رواه البخاري في المناقب باب: قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا...﴾ الآية، (٣٣٠٤، ٣٣٠٥) وفي الأدب باب: ما قيل في ذي الوجهين (٥٧١١) وفي الأحكام، باب: ما يكره من ثناء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك (٦٧٥٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: ذم ذي الوجهين وتحريم فعله (٢٥٢٦) والترمذي في البر الصلة باب: ما جاء في ذي الوجهين (٢٠٩٤) وأبو داود في الأدب باب في ذي الوجهين (٤٨٧٢) ومالك في الموطأ أبواب السير، باب ما يُكره من الكذب وسوء الظن، والتجسس والنميمة (٨٩٦) من حديث أبي هريرة مرفوعا: «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». واللفظ للبخاري في إحدى رواياته وكذا مسلم. وروى مختصرا بوجوه متعددة.

(٨٥) كلكم لآدم وآدم من تراب:

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٢٧٠) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره وعبد الله بن جعفر هو والد علي بن المديني، قال: وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس. ورواه الترمذي في المناقب (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب». قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب. ورواه أبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦)، وأحمد في مسنده (٨٥١٩، ١٠٤٠٢) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قد أذهب الله عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن وهذا أصح عنده من الحديث الأول وسعيد المقبري قد سمع أبا هريرة ويروى عن أبيه أشياء كثيرة عن أبي هريرة.

(٨٦) إن آل أبى ليسوا بأوليائى:

رواه البخارى فى باب: تبل الرحم ببلالها (٥٦٤٤)، ومسلم فى الإيمان، باب: موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم، (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص، قال: سمعت النبى ﷺ جهارًا غير سر، يقول: «إن آل أبى ليسوا بأوليائى، إنما وليى الله وصالح المؤمنين» زاد عنبسة بن عبد الواحد عن بيان، عن قيس، عن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ولكن لهم رحم أبلها ببلالها». يعنى أصلها بصلتها.

(٨٧) مقتبس من تفسير المراغى لسورة الحجرات بتصرّف.

(٨٨) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٢٦ / ١٥٤ .

(٨٩) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادى، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ١ / ٤٣٧، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة.

(٩٠) كان يقرأ فى العيد بـ ق واقتربت:

رواه مسلم فى صلاة العيدين (٨٩١)، وأبو داود فى الصلاة (١١٥٤) والترمذى فى الجمعة (٥٣٤) والنسائى فى صلاة العيدين (١٥٦٧) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٢٨٢) من حديث عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ وسلم فى الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ق والقرآن المجيد، واقتربت الساعة وانشق القمر.

(٩١) هذا جبل يحبنا ونحبه:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٨٩) من حديث أنس بن مالك، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبى ﷺ راجعا وبدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، ثم أشار بيده إلى المدينة، وقال: «اللهم إنى أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا».

(٩٢) إنها النخلة:

رواه البخارى فى العلم (٦١) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨١١) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثونى ما هى»؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبد الله: ووقع فى نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: «هى النخلة».

(٩٣) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة (٤١٥)، وفى أحاديث الأنبياء (٣١٢، ٣١٣٠)، وفى المغازى (٤٠٧٦، ٤٠٨٦)، وفى تفسير القرآن (٤٣٣٣)، ومسلم فى الزهد (٥٢٩٢، ٥٢٩٣)، وأحمد (٤٣٣٣، ٤٩٧٤، ٥٠٩٠)، من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ...» الحديث.

(٩٤) انظر التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث بالأزهر، وتفسير الآلوسى لقوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾. (الدخان: ٣٧)

(٩٥) يشتمني ويكذبني وما ينبغي له:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٣)، وأحمد فى مسنده (٨٨٧٠) من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: أراه قال الله تعالى: «يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى، ويكذبنى وما ينبغى له، أما شتمه فقوله إن لى ولدا، وأما تكذيبه فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى».

(٩٦) إن الله تجاوز لأمتى:

رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٠، ٢٠٤٤)، (٧٤٢١) من حديث أبى هريرة يرفعه قال: «إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم».

(٩٧) لا إله إلا الله إن للموت سكرات:

رواه البخارى فى المغازى (٤٤٤٩) من حديث عائشة أنها كانت تقول: إن من نعم الله علىّ أن رسول ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته دخل علىّ عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت: آخذه لك فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه وقلت: ألينه لك، فأشار برأسه أن نعم، فلينته فأمره وبين يده ركوة أو علبة - يشك عمر - فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «فى الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده.

(٩٨) يلقى فى النار (وتقول هل من مزيد):

رواه البخارى فى التفسير (٤٨٤٨) من حديث أنس عن النبى ﷺ، قال: «يلقى فى النار ﴿وتقول هل من مزيد﴾ حتى يضع قدمه فتقول: قط قط».

(٩٩) تحاجت الجنة والنار، فقالت النار:

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٤٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت: الجنة فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم، قال الله للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا»، وحدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار...» فذكر نحو حديث أبى هريرة إلى قوله: «ولكليكما على ملؤها». ولم يذكر ما بعدها من الزيادة.

(١٠٠) أخرجه البخارى فى صحيحه، والحديث كاملا هو:

قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله تعالى فى ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه، ورجلان تحابًا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه».

(١٠١) أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات:

رواه البخارى فى التفسير (٤٨٥٢) من حديث ابن عباس: أمره أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها، يعنى قوله: ﴿وأدبار السجود﴾.

(١٠٢) ذهب أهل الدثور بالأجور:

رواه مسلم فى الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبى ذر أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ، قالوا للنبى ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة، وفى بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

(١٠٣) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل:

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥)، وفى التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم فى المساجد (٦٣٢)، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥)، وأحمد (٢٧٣٣٦، ٩٩٣٦)، ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣)، من حديث أبى هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار..» الحديث، ورواه البخارى فى الأذان (٦٤٩)، وفى تفسير القرآن (٤٧١٧)، ومسلم فى المساجد (٦٤٩)، والترمذى فى التفسير (٣١٣٥)، والنسائى فى الصلاة (٤٨٦)، وابن ماجة فى الصلاة (٦٧٠)، وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضا بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح»، يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾.

(١٠٤) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٢٦ / ١٦ .

(١٠٥) (المرجع السابق).

(١٠٦) التفسير الفريد للقرآن المجيد، د. محمد عبد المنعم الجمال، ص ٢٩٤٤ .

(١٠٧) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، ١/ ٤٣٩ (بتصرف).

(١٠٨) ينزل الله إلى سماء الدنيا:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم، ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على.

(١٠٩) من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا:

رواه أبو داود فى الصلاة (١٥١٨)، وابن ماجة فى الأدب (٣٨١٩)، وأحمد فى مسنده (٢٢٣٤) من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب». قال المناوى فى الفيض: قال الحاكم: صحيح ورده الذهبى بأن فيه الحكم بن مصعب فيه جهالة. أ . هـ. وقال فى المهذب: مجهول وظاهر صنيع المصنف أن هذا لم يخرجه أحد من السّتة وليس كذلك بل خرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة، قال الحافظ العراقى: وضعفه أبو حاتم وقال الصدر المناوى: فيه الحكم بن مصعب لا

يحتج به. قال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجة والحاكم، وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان.

(١١٠) ليس المسكين الذى ترده اللقمة:

البخارى فى الزكاة (١٤٧٦) ومسلم فيها (١٠٣٩) والنسائى فيها (٢٥٧١) والدارمى فيها (١ / ٣٧٩) والموطأ فى صفة النبى ﷺ (٢/٩٢٣)، وأحمد (٢/٣١٦) عن أبى هريرة.



تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (السادس والعشرين)

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء (السادس والعشرون)

ويليه الجزء (السابع والعشرون) بإذن الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461310